
AMY TAN
روايات
آمي تان
مئة حاسّة سرّيّة
ترجمة: عاصف الخالدي
الأهلية
20.5.2017
@ketab_n
Follow Me

روايات

آمي تان

مئة حاسّة سرّيّة

ترجمة: عاصف الخالدي



مئة حاسّة سرّيّة

THE HUNDRED SECRET SENSES



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية **12**

هاتف **4638688 6 00962**، فاكس **4657445 6 00962**

ص. ب: **7855**، عمّان **11118**، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين،

بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ، مكتب القاصة، بناية **34**

◆

مئة حاسّة سرّيّة / رواية أميركية

آمي تان / الصين - الولايات المتّحدة

ترجمها عن الإنجليزيّة: عاصف الخالدي / الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2017

حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962**

®

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962**

لوحة الغلاف: **إيكيناجا ياسوناري، اليابان**

◆

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2016/11/5073)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-154-6

مقدمة المترجم

عاصف الخالدي

آمي تان روائية وكاتبة أمريكية من أصل صيني، وقد ولدت في عام 1952 في مدينة كاليفورنيا بعد أعوامٍ قليلة من هجرة والديها للولايات المتحدة، هذه الرواية التي نشرت 1995، وهي ثالث أعمال الكاتبة وأول رواية لها تترجم إلى اللغة العربية. وبصرف النظر عن الجوائز العديدة التي نالتها الروائية عن هذا العمل وسواه، كجائزة الكومنولث الذهبية إضافة لجائزة أفضل الكتب مبيعاً مع النيويورك تايمز، إلا أن اختيار ترجمة هذا الكتاب تمت نظراً للقيمة الفنية والإنسانية التي يحتويها ولجمالياته كعمل روائي مميز لم يترجم من قبل.

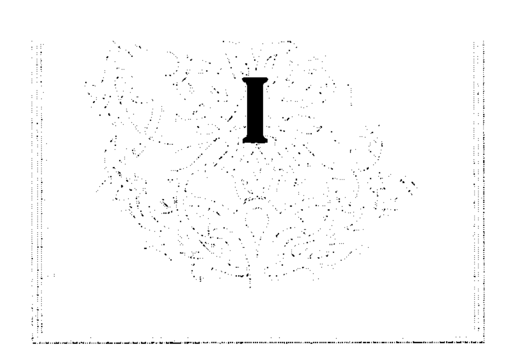
في أعمالها الروائية، تركز الكاتبة على علاقة الإنسان المهاجر، والذي قادته ظروفه إلى الهجرة، تركز على علاقته بزمان ومكان ماضيين، مع زمان ومكان هما واقعه الحاضر واليومي، وفي هذا العمل تحديداً، تظهر الكاتبة أن العالم الذي يختفي من أمامنا، يظل موجوداً في الذاكرة، بشخوصه، اموانا أو أحياء، بجغرافيته، وبما تركت أحداثه فينا من أثر، الأهم، هو أن هذا العمل، يطبق مقولة ماركيز بشكل عميق، وهي أنه لا وجود للإنسان

خارج الذاكرة، ولذا، فإن هذا العمل الروائي يقول بأن الموت، ليس نهاية المطاف، مستنداً على تناسخ الحيوات، ومستنداً على أن الإنسان لا وجود له بغير ذاكرته. يظهر هذا جلياً في الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية وهما: كوان، وأختها أوليفيا. وكوان هي الفتاة التي تم جلبها من الصين قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها لتعيش مع عائلة والدها المهاجر في أمريكا والذي طلب قبل موته أن يتم إحضار ابنته إلى أمريكا كطلب أخير. تعقد كوان مقارنة يومية مع حياة في ذاكرتها وأحلامها، مقابل حياتها الجديدة في أمريكا، وتستخدم آمي تان سخرية عميقة مبنية على ثقافة شاسعة في تقديم تلك السخرية، تنتقد المجتمع الأمريكي وكذلك الصيني، والمميز هو أنها لا تتوقف عند حدود وعيها وحياتها التي تحياها، بل تتجاوز ذلك من خلال أحلامها عن حيوات سابقة عاشتها في القرن التاسع عشر، بوجه آخر، بشخصية أخرى، وتخلق عالماً موازياً، باستدعائها لتلك الأحلام والأحداث، من خلال الأشباح، وكأن المتخيل السردي في رواية آمي تان، يحتاج إلى أن يغمض القارئ عينيه ويترك العنان للخيال،و للأشباح التي تقول قصصها، وتنتقد العالم القديم، لنرى على ماذا بني عالمنا الجديد، شخوص عاشت في القرن التاسع عشر إبان الحرب الأهلية في الصين واحتلال بريطانيا وأمريكا لها، تجارة الأفيون والسلاح، تشجيع الاقتتال وفرض المصالح لخدمة الاستعمار، المبشرون الذين يصرخون في وجوه الصينيين: إلهنا أفضل من إلهكم، وكانوا يجذبون الفقراء إلى الكنيسة مقابل طبق أرز في نهاية قداس الأحد. أشباح آمي تان في هذه الرواية، ليست سوى حيوات اختزنتها شخوصها في ذاكرتها، واستدعتها من خلال الأحلام، لتتمكن من ربط الماضي والحاضر، وربط المكان في الصين والمكان في أمريكا، من خلال أداة الذاكرة، لم تجعل كوان أختها أوليفيا تؤمن

بأشباحها فقط، رغم عدم وجود دليل مادي على هؤلاء الاشباح الذين لم يكونوا سوى شخوص حيوات نسيها التاريخ بعد أن هدمتها الحرب، بل جعلتها تؤمن بقصصهم ورواياتهم ونهاياتهم المأساوية، ماتوا، ولكن ظلوا أحياء في ذاكرة أحبتهم، ماتوا وعادوا كأشباح تسكن الأحلام، والأهم والذي يمثل هذا العمل، هو ما تقوله الرواية عن أن العالم، ليس مكاناً، العالم هو اتساع الروح، وأن الموت ليس نهاية المطاف، إن كانت الروح محاطة بالحب، فإن الحب هو محور الخلود. لأنها ستولد من جديد، في حياة أخرى، باحثة عن حبها.وفي النهاية تقول كما أخبرتها أشباحها في الرواية: بأن الكلام لا يمكن فهمه وفق معناه المعروف، إنما، وفق ما يشعر به من يقوله، قد ينبثق الأمل من اليأس، والفرح، يتم تقطيره من الحزن. في الصين، تنظر آمي تان لما دمرته الصورة الثقافية التي أعلن عنها ماو، ثم تعود إلى جذور وثقافة الصينيين لتسخر بعمق مظهرة المفارقات بين واقع الناس والسلطة، في أمريكا، تظهر أن الواقع ليس سوى سوقاً يتبع رواده الموضة، وتقصد هنا الشعب نفسه. وفي الوسط، يكمن عالم لبشر تم نسيانهم، حتى صاروا أشباحاً، ذلك أن حاضر هذا العصر السريع يبدو كوحش، مقابل البطء الذي تطالبنا الروائية فيه، أن نغمض أعيننا ونمشي في الظلام، لكشف ما هو منسي، لطالما تذكر العالم الوحش، ونسي الإنسان.

عاصف الخالدي

روائي ومترجم من الأردن


I

1

الفتاة التي تملك عينا ين

تؤمن أختي كوان، بامتلاكها عينا ين[1]. تقول إنها ترى بهما أولئك الذين يمكثون الآن في عالم الموتى والأشباح، عالم ين، حيث تترك الأشباح أرضها الضبابية، وتأتي لزيارة كوان في مطبخها، في شارع بالبوا،في مدينة سان فرانسيسكو!

تقول لي: ليبي، خمني من رأيت في اليوم الفائت؟ فقط خمني.

ولن يخطر ببالي لحظتها أبداً، بأن ما رأته كان شخصاً ما، ميتاً. في الواقع، كوان هي أختي غير الشقيقة، ولم يكن من اللائق ذكر هذا أمام العامة. ربما كان من المهين أنها استحقت نصف حب العائلة فقط، وإن كان ذلك يعود إلى العدالة الجينية في كونها نصف أخت، إنني أشاركها الأب فقط، لأنها كانت قد ولدت في الصين، بينما أخواي، كيفن وتومي، وأنا، ولدنا هنا في سان فرانسيسكو، بعدما قام والدي جاك يي بالهجرة إلى هنا ومن ثم تزوج أمنا: لويز كينفيلد.

---

(1) فلسفة صينية تمثل إنسانا يمتلك عينين تريا الأشباح والموتى.

أمنا التي لطالما أطلقت على نفسها ذلك الاسم: خلطة الشواء الأمريكية! لأنها ترى في نفسها القليل من كل شيء، بيضاء، سمينة، وتقلبت تحت الشمس، كانت قد ولدت في موسكو، آيداهو، حيث كانت ذات مرة بطلة في تدوير عصا الكشافة الاستعراضية، بل وربحت ذات مرة الجائزة الموسمية للمزارعين، عن زراعتها لحبة بطاطا كبيرة وغير طبيعية، خرجت من الأرض تشبه ملامح الممثل الساخر جيمي ديورانت[1]. أخبرتني أمي بأنها حلمت أنها سوف تكبر لتصير مميزة، نحيفة ومذهلة ونبيلة، تماماً مثل لويز راينر[2]، تلك الممثلة التي ربحت الأوسكار، عندما مثلت دور أولان، في فيلم الأرض الطيبة.

لكن، وعندما انتقلت أمي لسان فرانسيسكو، فإنها صارت فتاة[3] كيلي، عوضاً عن لويز راينر، ومن هناك، اتخذت قرارها الأفضل، حيث تزوجت من أبينا معتقدة في ذلك الحين أن زواجها من رجل لا ينتمي إلى العرق الأنجلوسكسوني سوف يجعل منها امرأة تقدمية. ولم تزل حتى اليوم تخبر الناس بذلك:

عندما تقابلنا أنا وجاك، كانت القوانين التي تمنع الزواج مختلط الأعراق قائمة. لقد حطمنا القوانين بالحب. كانت تكتفي بهذا وتتناسى إخبار الناس بأن تلك القوانين لم تكن مقبولة كذلك في كاليفورنيا.

---

(1) ممثل وعازف أمريكي ساخر اشتهر بأنفه المفلطحة، كان معروفاً جدا خلال عشرينيات القرن الماضي.

(2) ممثلة أمريكية من أصل ألماني، تعد اكبر ممثلة بالسن تمكنت من الحصول على جوائز مهمة بعد أن جاوزت السبعين.

(3) المقصود هنا هو الممثلة غريس كيلي والتي صارت أميرة لموناكو بعد زواجها من الأمير، لتتوفى بعد زمن في حادث سيارة.

في الواقع، لا أحد منا، ولا حتى أمي، تمكن من مقابلة كوان قبل بلوغها الثامنة عشرة من العمر، حتى إن أمي لم تكن تعلم بوجود كوان قبل أن يموت أبي بسبب فشل كلوي حاد، كنت في سن الرابعة عندما توفي، لكنني ما زلت أذكر لحظات عابرة معه،الانزلاق برعونة بين ذراعيه، خوضي في البركة لالتقاط البنسات التي كان يلقيها لي فيها. في يومه الأخير، قبع في المستشفى، هناك، سمعت آخر ما قاله من كلام، كلام سوف يخيفني لسنوات عديدة فيما بعد.

كيفن الذي كان يبلغ الخامسة، كان موجوداً، أما تومي فكان رضيعاً في ذلك الحين، لذا فقد كان يقبع في غرفة الانتظار بصحبة عمة أمنا: بيتي دوبريه -كنا ناديها بالعمة بيتي- والتي انتقلت من آيداهو مثلنا. كنت أجلس على كرسي من البلاستيك المرن وأتناول صحناً من حلوى الفراولة أخذه أبي من صينية طعامه وأعطاني إياه.

كان مرفوعاً عن مستوى السرير، ممدداً ويتنفس بصعوبة. أمي جالسة تبكي للحظة، وفي لحظة أخرى تبتسم مبتهجة. لم أفهم هذا التناقض حينها. الشيء الآخر الذي أذكره، هو أن أبي كان يهمس لأمي بشيء فيما أمي منحنية إليه لتستمع. كان فمها يتسع أكثر فأكثر. ثم فجأة أدارت رأسها بحدة نحوي، كانت محملة بالرعب. فأصابني الرعب في الحال. كيف عرف؟! كيف اكتشف أبي بأني قمت في ذلك الصباح بسحق سلحفاتيَ في دورة المياه: سلوبوك وفاستبوك؟ أردت فقط أن أرى كيف ستبدوان بدون درعيهما، لكنني أنهيت الموضوع بأن انتزعت رأسيهما!

ابنتك؟ سمعت أمي تسأل أبي ثم تقول: هل أُعيدها إلى هنا ؟...

تأكدت لحظتها بأن أبي طلب من أمي أن تقرعني بشدة، لكن، ألم يتسبب هو أيضاً بتلك الندوب لكلب العائلة عندما قام بمضغ جزء من

جلد الأريكة، كانت ردة فعلي بعد ذلك مزيجاً من الفوضى: صحن الحلوى تحطم على الأرض، أخذ كيفن الصغير يلعب بالحلوى التي سقطت ويضحك، أما أمي فتحدق في المشهد كله، أتذكر هذه اللحظة كلها بالأبيض والأسود، لفتاة نحيفة بشعرها المجعد إلى حد ما، أسمع أمي تصرخ بي: أوليفيا[1]، لا تناقشي، يجب أن تغادري الآن، كنت أبكي، لكن هذا كان أفضل مما توقعت، سأكون بخير.

بعد ذلك بوقت، خرجت أمي لتقول لنا: والدكم توفي. ثم قالت بأنها سوف تقوم بإحضار ابنته الأخرى من الصين لتعيش معنا في المنزل!، لم تقل بأنها ستعاقبني على ما فعلت، لكنني استمريت بالبكاء وأنا أشعر بأن كل شيء مرتبط ببعضه لكن بشكل مبهم، سلاحفي التي سحقت رؤوسها وتخلصت منها في دورة المياه، أبي الذي تركنا إلى الأبد، والفتاة الأخرى التي سوف تأتي قريباً كي تحتل مكاني. كنت خائفة من كوان، حتى قبل أن أراها.

بعد أن بلغت سن العاشرة، فهمت بأن كليتي أبي تسببتا بقتله. قالت أمي بأنه ولد بأربع كلى بدلاً من اثنتين طبيعتين، لكن كلاه الأربع كلها تعرضت للتلف! أما العمة بيتي فقد امتلكت نظريتها الخاصة لما حدث، إنها دوماً تمتلك نظرية حيال كل شيء، غالباً ما تستمد نظريتها هذه أو تلك من صحف الأخبار الأسبوعية أو المجلات. قالت إن أبي كان واحداً من توأمين سياميين، لكن الذي حدث أثناء الحمل، بأن أبي، التوأم الأقوى، التهم توأمه الآخر، الأضعف، وامتص منه كليتيه! فكرت: ربما كان يمتلك قلبين كذلك، معدتين، وأنفين! جاءت العمة بيتي بنظريتها هذه

(1) اسمها أوليفيا، وستظل كوان تناديها طوال الرواية ب: ليبي. ذلك أنها لن تتقن الإنجليزية أبداً.

في ذات المدة تقريبا التي قامت فيها مجلة (life) بعرض تحقيق مصور عن توأمين سياميين من روسيا، هما فتاتان: تاشا وساشا، تتحدان معاً بوركيهما، وبشكل مأساوي جميل تشكلان معاً مسخاً طبيعياً. كان هذا كله يحدث في منتصف الستينات، في الفترة التي كنت أتعلم فيها كسور الرياضيات. أتذكر كيف تمنينا استبدال كوان بذلك التوأم السيامي للفتاتين من روسيا. سأمتلك حينها نصف أختين، لعلهما تعادلان أختاً واحدة، وقد يصبح كل أطفال الحي حينها أصدقائنا، كانوا سيتفرجون علينا ونحن نلعب لعبة الحبل أو نقفز عن خطوط مربعات الطبشور!

لم تترك العمة بيتي قصة ولادة كوان بلا نظرية أيضاً، لكن نظريتها لم تكن مأساوية هذه المرة بقدر ما كانت ساحرة. قالت: أثناء الحرب، كان أبي طالب جامعة في غيلين، يقوم أحياناً بشراء ضفادع طازجة لتحضير العشاء، يشتريها من امرأة تعمل في الدكان، كان اسمها: لي تشن. في وقت لاحق تزوج أبونا منها، وفي عام 1944 أنجبت له ابنة، هي تلك الفتاة النحيفة التي تظهر في الصورة: كوان. نظرية العمة بيتي عن زواج أبينا كانت جيدة أيضاً. (كان أبوك وسيما ومتعلماً، يتحدث الإنجليزية بطلاقة كما أتحدثها أنا وأمك، كان مميزاً بالنسبة إلى رجل صيني، لكن لماذا تزوج من فتاة قروية؟ ليس هنالك من سبب سوى أنه كان رجلاً سيئاً أيضاً، ما من سبب آخر.) كنت كبيرة كفاية لأفهم ما عنته العمة بيتي حين قالت أن أبي كان سيئاً.

على أي حال، في عام 1948 توفيت زوجة أبي الأولى بمرض رئوي أظنه كان السل، بعد ذلك قام أبي بالرحيل إلى هونج كونج لأجل العمل، تاركاً كوان في رعاية الأخت الصغرى لزوجته، والتي كانت تعيش في قرية جبلية تسمى تشانجميان، وكان يرسل النقود لمساعدتها - سألت نفسي: لعله لم يكن يفعل؟- . في عام 1949 استولى الشيوعيون على الصين وصار

من المستحيل على أبي العودة إلى ابنته ذات السنوات الخمس هناك. ما الذي يستطيع أن يفعله الآن؟ بقلب قاسٍ، غادر إلى أمريكا ليبدأ حياة جديدة مخلفاً وراءه كل هذا الحزن. وبعد مرور أحد عشر عاماً، بينما كان على سرير موته في المستشفى، ظهر شبح زوجته الأولى، لتقف أمام سريره وتحذره: أحضر ابنتك، وإلا فلن تنجو من عواقب الجحيم بعد موتك. هذه هي القصة التي تركها أبي قبل موته بلحظات، كما قالتها لنا العمة بيتي بعد موته بسنوات.

عندما أنظر للماضي، أستطيع تخيل ما شعرت به أمي حينما سمعت بكل هذا، زوجة أخرى؟! ابنة في الصين؟! كنا عائلة أمريكية مثالية. نتحدث الإنجليزية. وبالطبع كنا نتناول الطعام الصيني لكن من الوجبات الجاهزة كما يفعل الجميع هنا، عشنا في منزل محافظ في مدينة دالي. عمل أبي محاسباً في مكتب حكومي، أما أمي فكانت منتظمة في الاجتماعات العامة للأعمال الخيرية والمدرسية، ولم تسمع أبي يتحدث في أي يوم عن الصين وخرافاتها، كانا يذهبان للكنيسة بانتظام، كما أنهما اشتريا وثيقة تأمين على الحياة بالمقابل.

بعد وفاة أبي، صارت أمي تخبر الجميع مراراً وتكراراً عن علاقتها بأبي، قالت إنه كان يعاملها كإمبراطورة صينية. قامت أمي بفعل كل ما يمكن أن تفعله زوجة تعرضت لكارثة، لم تترك قسماً إلا وأدته لله أمام قبر أبي، وحسب ما قالته العمة بيتي، في الجنازة، أقسمت أمي بأنها لن تتزوج من جديد. كما أقسمت على تعليمنا نحن الأطفال كيف نحفظ شرف عائلة يي، وأقسمت بأن تعثر على الابنة الأولى لأبي، كوان، وأنها سوف تحضرها إلى أمريكا. لكنها ومن بين كل هذه الوعود، لم تحفظ سوى وعدها الأخير.

لطالما تسببت طيبة القلب لأمي ولنا بالمعاناة، كانت تندمج في حمى الأعمال التطوعية كل موسم. ذات صيف، احتضنت كلباً من دار إنقاذ

الحيوانات المشردة، وكان البيت كله يعبق برائحة بوله! قامت بتركنا في مناسبتين لعيد الميلاد وذهبت لتطهو للمشردين في مطبخ كنيسة سانت أنتوني، وها هي تذهب بعيداً اليوم، إلى هاواي، مع ذاك الشخص الذي يفترض أنه حبيبها الحالي، حيث تقوم بتقديم العرائض لتحصل على زيادة في التمويل بصفتها خدمت ضمن طواقم الدعم الصحي، فعلت كل هذا بينما كانت حماستها لم تزل متقدة، لكنها وفي الأخير، ودائماً، تتخلص من كل شيء لتعود وتنخرط في عمل جديد، حتى أنني شككت بأنها تفكر في كوان كمجرد طالبة أجنبية ضمن برنامج الاستضافة، ربما تقوم باستضافتها لعام، لتكون غريبة بيننا مثل سندريلا صينية!، والتي قد تصبح فيما بعد مكتفية ذاتياً، وقادرة على أن تحظى بحياة أمريكية مثالية.

خلال الوقت الذي سبق مجيء كوان، تصرفت أمي حيالها مثل قائدة في فرقة تشجيع، تحفزنا على الترحيب بالأخت الكبرى التي سوف تدخل حياتنا. كان تومي صغيرا جداً بحيث كان يوافق على كل ما تقوله له أمي مجيباً إياها بإيماءة صغيرة:-ألستم متحمسين لأنكم سوف تحظون بأخت كبرى؟-. أما كيفن فكان يستهجن ما تقوله أمي ويتصرف حياله ببرود. أنا الوحيدة التي كانت تقفز بحماس، لأنني بدأت أفهم أن كوان سوف تكون إضافة لي كأخت، ولن تكون بديلة عني.

لكنني كنت طفلة وحيدة، وأفضل سلحفاة أو دمية جديدة، ولا أفضل أحداً ينافسني على انتباه أمي المشتت أصلاً، ولا على بقايا الذكريات الضئيلة من حبها. وباستعادة الذكريات، أعرف أن أمي أحبتني، لكن ليس تماماً. عندما أقوم بمقارنة الوقت الذي أمضته مع الآخرين، حتى مع أولئك الأجانب منهم، مقارنة بالوقت الذي أمضته معي، أراني في ذيل قائمة الناس المفضلين لديها، فيصيبني الحزن، كانت تمتلك متسعاً من

الوقت في حياتها لتواعد الرجال، أو لتتناول الغداء مع رفيقاتها، أما معي، فكان وقتها مليئاً بالارتياب، وعودها لي كي تصحبني إلى السينما أو إلى المسبح كانت تتلاشى دوماً بأعذار النسيان، أو الاستياء، إضافة لتبريراتها الواهية عما وعدتني به، وماذا قالت، أو ماذا كانت تعني بما قالته. قالت ذات مرة: (إنني أكره منظرك حين تعبسين يا أوليفيا، لا أضمن الذهاب معك للسباحة، لقد أحببت أن نذهب، لولا أنك عابسة هكذا!). كيف أستطيع مناقشة حاجاتي في مواجهة نواياها؟ تعلمت أن أهمل أي شيء، وأن أقفل على أحلامي وأضعها على رف عالٍ لا أطاله، قلت لنفسي بأن لا أمل في هذه الأحلام على أية حال. حاولت تجنب أثر الجرح العميق الذي خلفه الإحباط بي. حينما كان الألم يلسعني سريعاً في بعض الأحيان، كان ذلك يشعرني بأنني محطمة من جديد. كطفلة، كنت أدرك أني أحتاج مزيداً من الحب، هل يولد كل إنسان بمشاعر متدفقة بلا نهاية هكذا؟

لكل هذا وبالطبع، لم أرغب بكوان كأخت لي، لكنني وعلى النقيض، بذلت كل جهد أملكه لأبدو متحمسة أمام أمي، كان نوعاً من التناقض، شيء تمنيت ألا يصير حقيقة، ثم تمنيت له أن يتحقق! قالت أمي أن الأخت الكبيرة مجرد نسخة أكبر مني، جميلة ولطيفة، لكنها تتميز بكونها نسخة صينية فقط! سوف تقوم بمشاركتي كل الأشياء الممتعة. تخيلت أنها النسخة الأخرى والتي سوف ترقص وهي ترتدي ثياباً مثيرة وتكون حياتها حزينة ومدهشة مثل ناتالي وود في فيلم قصة الحي الغربي، لكن بعينين مائلتين، هذا ما ظننته حين كنت في الخامسة من العمر. يخطر لي الآن فقط، أنني وأمي كنا نربط تخيلاتنا دوماً بممثلات يتحدثن لهجات ربما لا يفهمنها، يتحدثنها لأجل التمثيل فقط.

في إحدى الليالي، وبعد أن أخذتني أمي للسرير، سألتني إن كنت أرغب في الصلاة قبل النوم. أعرف أن الصلاة تعني قول تلك الأشياء

اللطيفة التي يرغب الآخرون في سماعها، تماماً كما كانت تصلي أمي. لذا فقد صليت ودعوت الله ليساعدني حتى أصبح خيرة. ثم تمنيت أن تأتي أختي كوان سريعاً، لمجرد أن أمي تحدثت عن قدومها. ثم أنهيت صلاتي، وكانت عينا أمي غارقتين بالدموع، بدت فخورة بي. وبمباركة أمي بدأت أجمع الهدايا لأجل الترحيب بكوان، الشال الذي أهدتني إياه العمة بيتي في عيد ميلادي، عطر الورد الذي حصلت عليه في عيد الميلاد، حلوى عيد الهالوبين. بكل محبة، قمت بتجميع كل شيء في صندوق كتبت أمي عليه: من أجل الأخت الكبرى لأوليفيا. بعدها أقنعت نفسي بأنني سأكون أفضل بكثير لو أن أمي أدركت بأننا لا نحتاج أختاً أخرى.

أخبرتنا أمي لاحقاً بما واجهته من صعوبة في إيجاد كوان. قالت: في تلك الأيام، لم تكن الأمور بسيطة بحيث يمكنك كتابة رسالة فقط ووضع الطابع عليها ثم إرسالها لتشانجميان. لقد اضطررت لعبور التلال القابعة خلف الخط الأحمر، ملأت عشرات الوثائق، قليلون هم الذين يخوضون هذا السبيل لإنقاذ إنسان من براثن بلد شيوعي. عمتكم بيتي ظنت أني مجنونة! وحذرتني قائلة: كيف تجلبين فتاة غير ناضجة لا تستطيع حتى أن تنطق كلمة إنجليزية واحدة؟ لا تعرف الصحيح من الخطأ، ولا تميز اليمين من اليسار.

المعاملات الورقية لم تكن العائق الوحيد المجهول أمام كوان لتقهره. فبعد عامين من وفاة أبي، تزوجت أمي من بوب لاغوني، كانت تعتقد أن لاغوني مكسيكي من أصل إيطالي، وهذا ما دفع كيفن للتعليق فيما بعد بقوله: إن قدر أمنا كان يقودها لمواعدة رجال أجانب ومستوردين. حملت أمي اسم عائلة بوب، وهكذا صارت أسماؤنا تنتهي بلاغوني، وهو ما كنت سعيدة بالتخلص منه بعد زواجي من سيمون، لأحمل اسم عائلته

(بيشوب). يكمن العائق في أن بوب لم يرد لكوان أن تجيء، كانت أمي معتادة على تلبية رغبات بوب وتقديمها على رغبات الجميع، لكن بعد طلاقهما، وكنت قد صرت طالبة في الكلية حينها، أخبرتني أمي كيف ضغط عليها بوب قبل زواجهما بوقت قصير،حتى تلغي معاملات جلب كوان من الصين، ظننت أنها سوف تنصاع وتنسى أمر كوان في ذلك الحين، لكنها قالت لي: رأيتك تصلين، بدوت شفافة وحزينة وأنت ترجين الله أن يجلب كوان من الصين.

كنت أبلغ السادسة من العمر عندما أتت كوان إلى البلاد. كنا ننتظرها في قاعة انتظار القادمين في مطار سان فرانسيسكو، العمة بيتي كانت معنا كذلك. ظلت أمي متوترة ومتحفزة، لم تتوقف عن تحذيرنا: اسمعوا يا أولاد، ربما ستكون خجولة، فلا تتحلقوا حولها، سوف تكون نحيلة مثل عود نبتة، لذا لا أريد أن يسخر منها أحد. انتظرنا إلى أن ظهر المرافق الحكومي الخاص في القاعة ومعه كوان، أشارت العمة بيتي إليها وقالت: هذه هي، أنا متأكدة أنها هي، وهزت أمي رأسها. لكن هذه المخلوقة بدت قصيرة وممتلئة، لا تشبه الفتاة المشردة النحيلة التي صورتها لنا أمي، بل إنها لا تشبه المراهقة المبتهجة التي تخيلتها. كانت ترتدي ثياباً فضفاضة قذرة، أما وجهها المسطح ذو البشرة البنية، فكان محاطاً بجديلتين ثخينتين من كل جهة.

لم تكن كوان خجولة أبداً، ما إن وصلت حتى رمت حقيبتها، ثم فتحت ذراعيها، أخذت تضحك وتكرر بصوت يشبه النعيب: مرحباً مرحباً، تقفز وتهلل، تماماً مثل ما يفعله كلبنا حين يحظى بنزهة خارج البيت، هذه الفتاة الغريبة كلياً، ألقت بنفسها في حضن أمي، ثم في حضن بوب، أمسكت بكتفي تومي وكيفن ثم قامت بهزهما. عندما رأتني في

الأخير، هدأت. بعد ذلك جثمت على أرض القاعة، ثم رفعت يديها على اتساعهما. تمسكت بثوب أمي: هل حقاً ستكون هذه أختي الكبيرة!؟

قالت أمي: إنها تملك نفس بنية أبي، ونفس شعره البني. ما زلت أمتلك الصورة التي التقطتها العمة بيتي لنا حينها: أمي بشعرها المتناثر وثوبها المخملي، تبتسم ابتسامة مراوغة، أما زوج والدتنا الإيطالي فقد بدا منذهلاً، فيما غرق كيفن وتومي في قبعتيهما ولم يظهر من وجهيهما الكثير، كوان بابتسامتها العريضة وهي تضع يدها على كتفي، ثم أنا بثوبي الشفاف، واضعة إصبعي على فمي المفتوح. كنت أبكي قبل التقاط الصورة بلحظات، وذلك لأن كوان أعطتني هدية غريبة، وهي قفص صغير منسوج من القش، أخرجته من جيب معطفها الواسع، ثم قدمته إلي بفخر، عندما قربت القفص إلي وحدقت بما يقبع فيه، شاهدت وحشاً صغيراً بستة أرجل، ولون أخضر، له فكان حادان، وعينان منتفختان مريعتان. صرخت وأنا أرمي بالقفص بعيداً.

في البيت، وفي الفراش الذي تشاركته مع كوان منذ ذلك اليوم فصاعداً، احتضنت كوان القفص الذي يحوي صرصور العشب،ها هو الآن بعد خسارته لإحدى أرجله الست، يبدأ بعزفه المزعج بمجرد أن يحل الليل، عزف أقرب لزعيق زامور دراجة هوائية يحذر الناس كي يتنحوا عن الطريق. بعد قدوم كوان، لم تعد حياتي أبدا كما كانت من قبل، بالنسبة لأمي كانت كوان حاضنة أطفال مفيدة، تتطوع للمساعدة، تتقبل الأمور، ومتفرغة. وقبل أن تخرج أمي في وقت العصر إلى صالون التجميل أو للتسوق مع رفيقاتها، تطلب مني بأن لا أفارق كوان. (كوني أختاً طيبة و عِديني بأن تشرحي لكوان أي شيء لا تتمكن من فهمه؟). لذا وكل يوم بعد رجوعي من المدرسة، كانت كوان تلتصق بي وتضيق علي الطريق أينما

ذهبت. بسبب كوان صرت خبيرة من الدرجة الأولى في التعرض لمواقف مخجلة ومذلة أمام الناس. كانت كوان تسأل كل تلك الأسئلة الغريبة التي تدفع أولاد الحي ليظنوا أنها قدمت من المريخ! كانت تسألنا: ما هي إم وإم؟ من هو بوباي البحار؟ لماذا رحل ذو العين الواحدة، وهل هو لص؟ حتى تومي وكيفن ضحكا كثيراً من كوان وأسئلتها.

بوجود كوان بيننا، استطاعت أمي الذهاب إلى شهر العسل مع بوب دون أن تتعرض لأي شعور بالذنب. فعندما اتصلت معلمتي بالبيت لأنني أصبت بالحمى، لم يكن هنالك سوى كوان والتي ظهرت فجأة في غرفة ممرضة المدرسة وحملتني إلى البيت. وعندما سقطت عن لوح التزلج، قامت كوان بمعالجة ركبتي، كانت تصفف لي شعري، وتحضر طعام المدرسة لكيفن وتومي ولي. حاولت تعليمي الأغاني الصينية التي تغنى لأطفال الحضانات، واستني حين فقدت أحد أسناني، حتى أنها كانت تقوم بتنشيف عنقي وظهري بعد أن أستحم. كان من المفترض أن أكون ممتنة لكوان، فلطالما كنت أعتمد عليها، أما هي فلم تكن تفضل شيئاً مثلما تفضل البقاء بقربي، لكنني وبدلاً عن ذلك، شعرت بالاستياء لأن كوان أخذت مكان أمي. ما زلت أتذكر الحادثة الأولى التي أردت فيها التخلص من صحبة كوان. كان الوقت صيفاً فيما أنا جالسة مع تومي وكيفن في الحديقة الأمامية للبيت، بانتظار شيء ما أن يحدث. قام بعض أصدقاء كيفن بالتسلل من أحد جوانب البيت ثم شغلوا نظام الري الخاص بالحديقة، سمعت أنا وأخوتي صوت قرقرة الماء في الأنابيب، فهربنا مسرعين قبل انفجار رذاذ الماء بلحظات، أما كوان فقد ظلت واقفة هناك، مبتلة، تتعجب من كل ذلك الماء الذي تفجر من الأرض في لحظات، أخذ كيفن وأصدقاؤه يصرخون ويضحكون، فيما صرخت أنا: هذا ليس عملاً لطيفاً! بعد ذلك،

أحد أصحاب كيفن، واحد من أولئك الفتيان المتبجحين الذين لا يمكن أن تطيقهم الفتيات قال لي: تلك الصينية البلهاء، هل هي أختك؟ يا أوليفيا، ألا يعني هذا أنك بلهاء مثلها ؟ اضطربت وصرخت في هياج: لا، ليست أختي، أنا أكرهها، وأتمنى لو أنها تعود إلى الصين.

في وقت لاحق، أخبر تومي أبانا بوب عما حصل، فما كان منه إلا أن قال: لويز، من الأفضل أن تفعلي شيئاً حيال ابنتك. هزت أمي رأسها بحزن ثم قالت: أوليفيا، نحن لا نكره أحداً أبداً. الكره كلمة فظيعة، تؤذيك بقدر ما تشعرين بها تجاه الآخرين. بالطبع، لم يؤصر كلام أمي بي، بل جعلني أكره كوان أكثر!

الجانب الأسوأ، كان يتمثل بمشاركة كوان لغرفة النوم معي، كانت تحب ترك الستائر مفتوحة في الليل، حتى يتسلل ضوء الشارع إلى الغرفة، حيث نتمدد قرب بعضنا في سريرين متجاورين. وأسفل قمر أمريكا الجميل كما كانت كوان تسميه، تبدأ الثرثرة طويلاً بالصينية، كنت أتظاهر بالنوم فيما هي مستمرة تتكلم وتتكلم إلى أن أستيقظ. بتلك الطريقة، كنت الوحيدة في العائلة التي تعلمت الصينية، تأثرت بلغة كوان التي أخذت تتسرب إلى مسامي فيما أكون نائمة، لقد دفعت بأسرارها الصينية إلى رأسي، والتي جعلتني أغير طريقة تفكيري تجاه العالم، حتى كوابيسي، قد أراها بالصينية عما قريب!

بالمقابل، تعلمت كوان الإنجليزية مني، لم أكن معلمة مخلصة، وهذا هو السبب الذي يجعلني أعتقد بأن كوان لا تتحدث الإنجليزية بطلاقة حتى الآن. ففي إحدى المرات وحين كنت لم أزل في السابعة، قمت بخداعها بلؤم.فبعد حلول الظلام، بينما كنا نستلقي في سريرينا سألتني

بالصينية: ليبي[1]، الإجاص الشهي الذي تناولناه هذا المساء، ما اسمه بالإنجليزية؟ قيء، هذا هو اسمه. قلتها وغطيت فمي بيدي حتى لا تسمع كوان قهقهتي.

ظلت تعيد الكلمة وهي تتعثر في نطقها، ثم قالت: ياه، ما هذه الكلمة الخرقاء التي تطلق على طعم لذيذ كهذا! لم آكل فاكهة لذيذة مثلها من قبل. ليبي، أنت فتاة محظوظة، لو أن أمي لم تمت. كانت كوان تتواصل مع الأحزان التي حملتها معها من حياتها السابقة، تحدثني عنها وتنقلها إلي بلغتنا الصينية، لغتنا السرية.

في وقت لاحق، رأتني كوان أرتب بطاقات عيد الميلاد، كنت ألقي بها على سريري عندما قدمت والتقطت إحداها ثم سألتني: ما هذا الشكل؟ أجبتها: إنه قلب. إنه يعني الحب، هل ترين؟ كل هذه البطاقات تحويه، يجب علي أن أعطي كل طفل في صفي واحدة منها، لكن هذا لا يعني أنني أحب الجميع حقاً. عادت إلى سريرها وتمددت فيه ثم ما لبثت أن قالت: ليبي، أتمنى لو أن أمي لم تمت بمرض القلب. تنهدت لسماع ما قالته لكنني لم ألتفت تجاهها. الحزن مجدداً. صمتت للحظات ثم عادت:

- هل تعرفين عن مرض القلب؟

- لا لا أعرف؟

- إنه يجعل جسدك يشتعل على مرأى من عائلتك، ثم يتركك لتصيري رماداً وتتبخرين، ليحملك مع القش بعيداً في الهواء[2].

(1) من الواضح أن كوان لم تكن تتقن نطق اسم أختها أوليفيا بشكل صحيح.

(2) تشير كوان هنا إلى جثة أمها التي تم حرقها بعدما ماتت بمرض القلب.

-أووه. حقاً.

-هل رأيت؟ لم تمت بذات الرئة، أو أي شيء من هذا القبيل. بعد ذلك أخبرتني كوان كيف سبب والدنا الهلاك لكثير من الأحلام الجميلة، وذلك لأنه لم يستطع التوقف عن التفكير بالنقود والحصول على حياة سهلة، تخلى عن وجودنا وغسل ذكرياته من الأم والطفلة اللذينِ خلفهما وراءه.

- همست كوان بصوت أجش: لا أظن أن أبانا كان رجلاً سيئاً، ليس كثيراً على الأقل، لكن وفائه لم يكن موجهاً لنا. ليبي، هل تعرفين ما هو الوفاء؟ لو طلبت من أحدهم أن يقطع يده التي تمسكين بها حتى لا تسقطي من على ظهر السطح، فيقوم حالاً بقطع يديه الاثنتين بكل سعادة حتى ينقذك، هذا ما يبدو عليه الوفاء.

-أووه.

لكن والدنا لم يفعل مثل هذا، تركنا في الوقت الذي كانت أمي فيه على وشك إنجاب طفل آخر. هذه هي الحقيقة يا ليبي، لا أكذب عليك، حصل كل هذا عندما كنت أبلغ الرابعة وفق التقويم الصيني، لن أنسى أبدا استلقائي عكس أمي، أحك واضغط لها بطنها المنتفخة مثل بطيخة، كانت بهذا الحجم، (وفتحت كوان ذراعيها إلى أقصى حد ممكن). لقد انساب كل ذلك الماء من بطنها تماماً مثلما كانت الدموع تنساب من عينيها، كانت أمي حزينة جداً. (أسقطت كوان ذراعيها فجأة إلى مكانيهما). ذلك الطفل الجائع البائس في بطنها، التهم قطعة من قلب أمي، فماتت، ومات معها.

إنني متأكدة من أن كوان لم تعن بعض ما صورته لي حرفياً، لكنني كطفلة في ذلك الحين، رأيت كل ما صورته لي على أنه حقيقة مطلقة. يدان مقطوعتان تسقطان عن بيت بلا سقف، أبي الذي طفا مختفياً في بحر

الصين، الطفل الصغير الذي التهم قلب أمه، كل الصور صارت شبحية، أمام طفلة تشاهد فيلم رعب، فيما يداي تغطيان عيناي اللتين تحدقان من بين أصابعي، كنت أسيرة لمخيلة كوان، فيما كانت كوان حاميتي.

في نهاية كل قصة من قصص كوان، تقول لي دوماً: أنت الوحيدة التي تعرف، عِديني ألا تخبري أحداً، أبداً يا ليبي؟ كنت أومئ برأسي المتأرجحة بين الشعور بأني صاحبة أولوية وبين خوفي. في إحدى الليالي، وبينما كان النعاس يثقل أجفاني، بدأت كوان تتمتم بالصينية مرة أخرى: لا بد أن أقول لك سراً محرماً، لم أعد أحتمل إخفاءه في داخلي أكثر. تثاءبت منتظرة أن تشرح تلميحها هذا.

- إنني أمتلك عيني ين

- ماذا تقصدين؟

- إنها الحقيقة، أمتلكهما، أستطيع رؤية ناس ين.

- وماذا تعنين ؟

- حسناً، لكن عديني أولاً بألا تخبري أي مخلوق؟

- أبداً، إنني أعدك.

- قالت كوان: حسنا إذن، ناس عالم ين، هم أناس ميتون!

- برزت عيناي من محجريهما، ماذا؟، هل ترين الأموات؟ أتقصدين الأشباح؟

- لا تخبري أحداً، لقد وعدتني يا ليبي؟

- همست لها: هل هم هنا الآن؟

- آه، نعم، العديد العديد من الأصدقاء الجيدين هنا.

- غطيت وجهي بالفراش: رجاء، أخبريهم أن يبتعدوا.

- لا تخافي يا ليبي، اخرجي، إنهم أصدقاؤك كذلك، إنهم يضحكون منك الآن لأنك خائفة. لكنني شرعت بالبكاء، مرت لحظات إلى أن تنهدت كوان وقالت بصوت محبط: حسناً، لا تبكي بعد الآن، لقد رحلوا.

هكذا بدأ مشروع الأشباح هذا بالظهور. بعد أن رفعت رأسي من الفراش أخيراً، رأيت كوان واقفة باستقامة،محاطة بنور قمرها الأمريكي الصناعي، تحدق خارج النافذة متظاهرة بأنها تراقب تلاشي زوارها في حلكة الليل. في الصباح التالي، ذهبت إلى أمي ونكثت بوعدي لكوان: أخبرت أمي عن عيني ين اللتين تمتلكهما كوان.

* * *

الآن، أنا ناضجة، وأدرك أن ذهاب كوان إلى مستشفى الأمراض العقلية لم يكن خطئي، في الواقع، هي من سعت إلى ذلك بنفسها، برغم كل شيء، كنت طفلة صغيرة، بسن السابعة، ملأ الرعب رأسها، كان يجب أن أخبر أمي بكل ما قالته كوان. ظننت أن أمي ستطلب منها التوقف. كان هذا إلى أن عرف أبي بوب بشأن أشباح كوان، فأدلى بدلوه، اقترحت أمي أن نأخذها إلى كنيسة القديسة ماري. لتتحدث مع الكاهن، لكن أبي بوب رفض، قال بأن الاعتراف للكاهن غير كافٍ، وقام بحجزها في جناح الأمراض العقلية، بمساعدة الكنيسة بالطبع. عندما زرتها في الأسبوع التالي، همست لي: اسمعي يا ليبي، سأقول لك سراً ولا تخبري أحداً! تركت الإنجليزية وقالت بالصينية: عندما يطرح الأطباء أو الممرضات الأسئلة

علي، فإنني لا أراهم، لا أسمعهم، ولا أتحدث إليهم، أعاملهم مثل أشباح أمريكية. قريباً سوف يدركون أنه لا يمكنهم تغييري، مما سيجبرهم على تركي لأذهب. أتذكر كيف بدت كوان وهي تقول هذا، راسخة مثل تمثال حجري لكلب، يتربع أمام قصر ما. لكن وللأسف، صمتها الصيني هذا ارتد عليها، ظن الأطباء أنها مصابة بالجمود، ووفقاً لما كان الطب عليه في فترة الستينات، شخص الأطباء أشباح كوان على أنها ناتجة عن اضطراب عقلي خطير، قاموا بمعالجتها بالصدمات الكهربائية. قالت إنهم فعلوا ذلك لمرة، ثم مرتين، وبكت، لقد صدموها مرات ومرات. حتى هذه اللحظة تصطك أسناني لمجرد التفكير بما حدث لها.

في المرة التالية التي رأيتها فيها، أسرت لي من جديد: كل هذه الكهرباء تمكنت من سحب لساني، لم أستطع البقاء صامتة مثل سمكة، صرت ثرثارة مثل بطة قروية، أبكي وأثرثر حول عالم ين. إلى أن صرخ بي أربعة من أشباحه السيئين: كيف تخبرينهم بأسرارنا!لقد قاموا بمعاقبتي، أجبروني على نزع نصف شعر رأسي، ولهذا قامت الممرضات بحلقه كاملاً، لم أستطع التوقف عن نزع شعري، حتى صار أحد جانبي رأسي أملساً مثل بطيخة، الجانب الآخر صار مشعراً مثل حبة جوز هند، لقد لعنتني الأشباح لأصير ذات وجهين، أحدهما مخلص، والآخر خائن، لكنني لست خائنة، انظري إلي يا ليبي، أليس وجهي مخلصاً، ماذا ترين؟

ما رأيته في وجهها ملأني بالخوف، بدا كأنهم حلقوا شعرها بجزازة عشب. كان المشهد مؤلما مثل مشاهدة حيوان يركض في الشارع، متسائلاً ما الذي كانه من قبل[1]. لولا أنني كنت أعرف ما كان يبدو عليه شعر

(1) تشير إلى أن كوان ضائعة كأنها صارت حيواناً مشرداً بعد أن كانت إنسانة، دون إدراكها لكل ذلك.

كوان من قبل، ينساب حتى خصرها، كان باستطاعتي تمرير أصابعي بين خصلات شعرها الأسود، الحريري المتموج. قبل أن يحدث هذا لها، كان بإمكاني شد ذؤابة شعرها مثلما يشدون بغلا أمريكياً وأصرخ: إلى الأمام، وما كان من كوان حينها سوى أن تتحرك.

أمسكت كوان بيدي، وقامت بفركها على رأسها التي صار ملمسها مثل ملمس ورق الصقل الخشن، بينما استمرت تهمس عن الأصدقاء والأعداء في الصين، استمرت تهمس وتهمس،كأن الصدمات الكهربائية حطمت مفاصل فكيها فلم تعد قادرة على التوقف عن الكلام، كنت خائفة أن تتسبب لي بعدوى الكلام المستمر التي حلت بها.

حتى اليوم، لا أعرف لماذا لم تلمني كوان على كل ما حصل، رغم تأكدي بمعرفتها بأنني سببت لها هذه المشكلة. بعد عودتها من جناح الأمراض العقلية، أعطتني إسوارتها الطبية التي تحمل اسمها كتذكار، تحدثت عن فرقة الترانيم المدرسية والتي كانت تزور الجناح في عطلة الأحد وتغني للمرضى أغنية: الليل الصامت. وكيف كانوا يرتعبون عندما يصرخ أحد المرضى: اخرسوا! قالت لي بأن بعض المرضى كانوا ممسوسين بالأشباح، والتي لم تستلطف ناس ين (أشباح) الذين تعرفهم، وكم كان هذا مثيراً للشفقة. لكن كوان لم تقل لي أبداً: لماذا أفشيت سري يا ليبي؟ لم أزل أتذكر، لم أزل أشعر بأنني خنت كوان، وأن هذا ما جعلها مجنونة، أؤمن كذلك بأنني السبب في تعرضها للصدمات الكهربائية، لقد صدموها، وطردوا كل أشباحها منها.

كان هذا قبل ثلاثين عاماً أو أكثر، ولم تزل كوان تتحسر حتى الآن: كان شعري جميلا، لامعا وناعما مثل الماء، منساباً مثل سمكة في حوض،

انظري الآن، كل تلك الصدمات الكهربائية، أقعدتني مهملة في البيت، أجلس على أثاث رخيص لمدة طويلة، كل بهائي تلاشى، والنعومة تجعدت، شعري الآن مثل كتلة من الأسلاك، الرسالة التي أقحموها في دماغي: لا حديث عن عالم ين بعد اليوم، هذا ما فعلوه بي، هه، لكنني لم أتغير، أترين؟ بقيت قوية.

كانت كوان محقة، لأن شعرها حين نما من جديد،نما بخشونة، مثل كومة أسلاك، ولما كانت تمشطه، كانت خصلاته تتوزع واقفة وتتنافر كأنها غاضبة، فيما خيوط الشعر تحيط بالخصلات مثل هالة ضوء. فسرت كوان هذا بأنه يعود للطبيب الذي دفع بكل تلك الكهرباء في دماغها، إنها تجري في جسدها الآن مثل حصان يركض في حلبة السباق،وتدعي أن هذا ما سبب لها عدم القدرة على الوقوف لأبعد من ثلاثة أقدام عن محيط التلفاز الموضوع أمامها دون أن يشتغل. حتى إنها لم تستخدم جهاز الاستماع المحمول الذي أعطاها إياه زوجها جورج، اكتفت بتثبيت الراديو على فخذها، ولم تحفل أبداً بالمحطة التي كانت تبث، لأن كل الذي تسمعه كان مجرد موسيقى فظيعة. لم تكن قادرة على ارتداء أي ساعة، ورغم حصولها على ساعة رقمية كهدية كسبتها في البينجو، إلا أنها حين شغلتها، بدأت أرقام الساعة بالتبدل بسرعة تماماً مثل تلك الموجودة في آلة الحظ في الكازينو. ما إن مرت ساعتان حتى انطفأت الساعة.

-لقد ربحت الجائزة، قالت لي. خمسة أرقام من خانة الثمانية، أرقام محظوظة، أكسبتني ساعة منحوسة. وبدا أن كوان تؤثر على الأشياء.

على الرغم من أن كوان لم تتلقَ أي تدريب تقني خاص، لكنها بدأت تحدد المشاكل التي تصيب المعدات الكهربائية بدقة. سواء كان مقبس

حائط، أو مصدر ضوء متنقل، حتى إنها ساعدتني في معداتي الخاصة -بعد أن صرت مصورة مواد تجارية-، تبذل جهداً لإيجاد العيب وتحدد القسم المعطوب في آلة التصوير أو الكابل أو إن كانت البطاريات تالفة. لاحقاً، عندما كنت أرسل آلة التصوير إلى ساكرامانتو لأجل الصيانة، كان يثبت أن كوان على حق. أيضاً، رأيت كوان تعيد الطاقة إلى أسلاك هاتف ميتة بمجرد ضغطها على قطبي الشاحن. لم تكن تستطيع شرح قدراتها، وبالمقابل كانت تبدو قادرة على الشرح، لكن كل الذي أستطيع قوله، أن أغرب شيء كانت تفعله من بين هذه الأشياء، كان قدرتها على تشخيص الأمراض. تخبر الغرباء إن كانوا قد أصيبوا بكسر في العظم، رغم شفائهم منذ زمن طويل، تفعل هذا بمجرد مصافحتهم فقط. كانت تعرف حالاً إن كان الشخص يعاني من الروماتيزم، أو من تجمع الماء- أو حتى عرق النساء، إنها بارعة في شؤون أمراض العضلات والعظام تلك، كانت تسميها: العظام المشتعلة، أو الأذرع المحمومة، الأربطة المتآكلة. قالت إن كل ما شخصته من أمراض عائد إلى تناول الناس الأطعمة الساخنة والباردة مع بعضها البعض. تشخص كوان إحباطاتك من خلال أصابعك، وندمك في حال كنت تحرك رأسك كثيراً، أو تكشف القلق المخبوء بين فكيك وقبضتيك، لكنها لم تكن لتشفي أحداً في الحال، لم تمشِ في الكهف المقدس، معظم الناس اعتقدوا أنها تملك لمسة شافية، تماما مثلما اعتقد زبائنها في مركز سبنسر، الصيدلية القابعة في حي كاسترو، حيث كانت تعمل.

معظم زبائنها ممن كانوا يجيئون بوصفات لأدويتهم كانوا من الرجال الشاذين، أما كوان فقد لقبتهم (بالعزاب)، ولأنها تعمل في الصيدلية منذ ما يزيد عن عشرين عاماً، فإنها شهدت إصابة معظم زبائنها الدائمين بالإيدز. عندما كانوا يزورونها هناك، لم تكن تجد مانعاً من التربيت على كتف أحدهم

وتعطيه نصيحة طبية: هل مازلت تتناول الأطعمة الحارة، وتشرب البيرة في ذات الوقت؟ أووه، ماذا سأقول لك، كيف تظن أن هذا فعل جيد؟ عاملتهم تماماً كما لو أنهم أطفال فاسدون بحاجة للتوجيه، معظمهم كان يمر كل يوم إلى الصيدلية، أو يحصل على ما يريد من خدمة التوصيل المجاني، والسبب في هذه الشعبية أن كوان عندما تضع يدها على مكان الألم، تشعرك بوخز العاطفة، تشعر بآلاف الجنيات يرقصن، ثم ينتابك إحساس بتدفق ماء دافئ في عروقك، لن تشفى في الحال، لكن ستشعر بالتحرر من القلق والندم، سوف تطفو على بحر من السكون.

قالت لي كوان ذات مرة: عزاب ين[1]، يستمرون في زيارتي بعد موتهم، ينادونني: الطبيبة كوان، على سبيل المزاح، ثم أضافت بخجل: ربما يقولونها أيضاً على سبيل الاحترام، ما رأيك يا ليبي؟ لطالما سألتني عن رأيي.

لا أحد من العائلة تحدث عن القدرات الغير طبيعية لكوان. كان هذا سيستدعي الحديث عما هو معروف مسبقا، عن الصِديقة كوان، وفقاً للأعراف الصينية، حتى وفقاً لأعراف سان فرانسيسكو، كان لمعظم الأشياء التي تفعلها كوان أثر قوي على معظم الناس من البسطاء ممن لا يؤمنون بالأدوية الطبية أو من قرويي المزارع. لكنني لم أعد أؤمن بأن أختي مجنونة. أو أتساءل حول ذلك، كانت لا تشعر بالأذى إلى حد ما، حتى لو لم يأخذها الناس على محمل الجد، فلن تقوم بالنواح على الرصيف مثل ذلك الشخص في شارع السوق الذي يستمر بالصراخ أن كاليفورنيا ستصاب باللعنة وتنزلق بالمحيط كما ينزلق طبق من الرخويات. كذلك لم تكن كوان متأثرة بعصر الاستغلال الجديد، فأنت لن تكون مضطرا لأن تدفع لها مئة

---

(1) تقصد زبائنها في الصيدلية، يزورونها بعد موتهم.

وخمسين دولاراً للساعة حتى تسمع تشخيصها للعيوب التي يحملها ماضيك، ستخبرك مجاناً، حتى بدون أن تطلب منها ذلك.

في معظم الأحيان، كوان إنسانة مثل باقي البشر، تقف في الصف، تشتري بضائع رائجة، وتقيس نجاحها بتوفير بعض النقود. تقول لي خلال مكالمتنا اليومية المعتادة: ليبي، اشتريت البارحة حذاء مقابل آخر مجاني من التنزيلات في متجر كابويل، خمني كم وفرت؟

كانت كوان غريبة الأطوار، لا مجاملة في هذا، كانت تسليني عادة بغرابتها، وفي بعض الأحيان تثير سخطي. في معظم الأحيان تشعرني باستياء وغضب، ليس منها هي، بل لأن الأشياء لم تمضِ كما يأمل المرء، أتعجب أحياناً: لماذا حصلت على كوان كأخت؟ لماذا حصلت علي؟ بينما في كل مرة، أتساءل كيف كانت ستمضي الأمور بيني وبين كوان لو أنها كانت أكثر طبيعية، لكن أيضاً، من الذي يستطيع تحديد ما هو الطبيعي؟ لربما في بلد آخر كانت كوان ستعامل على أنها طبيعية، ربما في الصين أو هونج كونج أو تايوان كانوا سيبجلونها، لربما هنالك مكان آخر في هذا العالم يملك الجميع فيه أختاً تحمل عينا ين.

قاربت كوان اليوم من سن الخمسين، أصغرها باثنتي عشرة سنة كاملة، هذا ما كانت تشير إليه بفخر في حال سألنا أحد بتهذيب من منا هي الأكبر. وأمام الناس، لم تكن تتوانى عن الإمساك بخدي لتذكرني بأن جلدي تجعد لأنني أدخن السجائر وأفرط في شرب القهوة والنبيذ -وهي عادات سيئة لا تفعلها كوان-.

- ألا تريدين الإقلاع، ألا تتوقفين. كانت مولعة بقول هذا.

لم تكن كوان إنسانة عميقة ولا سطحية، كل شيء فيها يطفو بوضوح على السطح، لو نظر إلينا أي شخص، لم يكن ليعرف أبداً أننا أختان. قال كيفن مازحاً ذات مرة: الشيوعيون أرسلوا لنا الطفلة الخطأ، معتقدين أن الأمريكيين سيظنون الصينيين جميعاً هكذا. أثناء استماعي لكيفن، كنت أتخيل قدوم رسالة من الصين ذات يوم، لتقول: عذراً أيها الشعب، لقد ارتكبنا خطئاً جسيماً. لم تتوافق كوان مع عائلتنا بأي طريقة، حتى أن صورة العائلة التي نأخذها سويا كل عيد ميلاد بدت مختلطة المعالم، ما العيب في تلك الصور؟ في كل عام تتخذ كوان موضعاً لها في الصورة، مرة في المقدمة، مرة أخرى في الوسط، مرتدية ملابس صيفية عديدة الألوان، حلقين كبيرين من البلاستيك يتدليان من كلتا أذنيها، مبتسمة ابتسامة تجعل خديها ينتفخان، حتى تشبه ابتسامة مجنون.

في يوم ما، وأخيراً، وجدت أمي عملاً لكوان، كفتاة توصيل في مطعم أمريكي-صيني، احتاجت كوان شهراً لتدرك أن الطعام الذي يقدمه المطعم هو طعام صيني! في الواقع، لم يساهم الزمن في جعل كوان تتأقلم لتصير أمريكية، أو حتى ليكشف ولو بعض الشبه بينها وبين أبينا.

من ناحية أخرى، يخبرني الناس أنني أنا الأكثر شبهاً بأبينا، في مظهري وشخصيتي. لطالما كررت العمة بيتي على مسامعي: انظروا كيف تأكل أوليفيا كثيراً دون أن يزداد وزنها ولو كيلواً واحداً، إنها مثل جاك. فيما تقول أمي: تتمعن أوليفيا في التفاصيل، ولا تترك أدنى شيء، إنها تحمل عقلية المحاسب التي حملها جاك، لا عجب أنها صارت مصورة. تلك التعليقات جعلتني أتساءل إن كان ثمة شيء آخر ورثته عن جينات أبي، هل ورثت عنه مزاجه السوداوي، ووضع الملح على الفواكه، وهل ورثت عنه الفزع من الجراثيم؟

على النقيض، كانت كوان مثل محركٍ صغير، بالكاد يصل طولها لخمسة أقدام، بدت مثل ثور مصغر في ذلك المطعم الصيني، كل شيء حولها صاخب، فيما هي ترتدي مئزراً بنفسجياً وبنطالاً فيروزياً. تهمس عالياً قدر ما تستطيع، كأنها مصابة بالتهاب مزمن في حنجرتها، في الحقيقة لم تكن مريضة أبداً، لكنها كانت تثرثر كثيراً، تصرف نصائحها الطبية، وتوصياتها عن الأعشاب، تقول رأيها حول تصحيح أي خطأ، بدءاً بالكؤوس المحطمة وانتهاء بالزيجات الفاشلة. تقفز من موضوع إلى موضوع، تبعثر نصائحها هنا وهناك لتجد القبول. قال تومي ذات مرة أن كوان تؤمن بحرية الكلام، وتقديم العون بلا مقابل، تماماً كأن تقوم بتنظيف أثاث سيارة مجاناً عندما يدفع لغسلها من الخارج فقط. الشيء الوحيد الذي تغير في لغة كوان هو أنها صارت تتكلم بشكل أسرع في الثلاثين سنة الأخيرة، وفي اللحظة الحالية، تظن أن لغتها صارت عظيمة، لطالما حاولت تصحيح الكلمات لجورج مرتكبة أخطاء تغير معاني الكلمات.

بالنكاية من كل اختلافاتنا الواضحة، ظلت كوان تظن أني وهي متشابهتان، وفقاً لمعتقد صيني، ترانا مرتبطتين بذلك الحبل السري الكوني الذي منحنا نفس الميزات والغرائز حين ولدنا، نفس الدوافع الشخصية، كما منحنا الحظ والقدر. أنا وليبي، تقول ثم تخبرني عن اكتشاف جديد: نحن متساويتان هنا، ثم تربت على جانب رأسي، كل منا ولدت في عام القرد، من هي الأكبر سناً إذن؟ خمني، أينا؟ ثم لا تلبث أن تفرك خدها بخدي.

لم تتمكن كوان أبداً من لفظ اسمي بشكل صحيح، كانت أوليفيا بالنسبة إليها ليبي-آه، لا يمكن أن تكون صافية، مختلطة مثل عصير البندورة، لكنها كذلك مثل دولة معمر القذافي، وبناء على هذا فإن زوجها جورج لو وولداه من زوجته الأولى وكل هذا الجانب من عائلتي صاروا

ينادونني بليبي-ااه أيضاً. ااه تلك هي ما كان يزعجني. إنها المعادل الصيني لكلمة: يا. كأنهم ينادونني بشكل دائم، يا ليبي، تعالي إلى هنا. سألت كوان ذات مرة إن كانت ستحب أن أناديها ب : كوان-ااه، أمام الناس. فما كان منها إلا أن صفعتني على ذراعي وهي تضحك بشدة حتى كاد نفسها ينقطع، ثم قالت بصوت أجش: أحب أجل أحب، سيكون انتصاراً لتبادل الثقافات، ليبي-ااه الآن، وإلى الأبد. لا أقول أني لم أحب كوان، كيف للمرء ألا يحب أخته الوحيدة؟ أحترمها في معظم الحالات، لطالما كانت أماً لي، بدلاً عن أمي الحقيقية، أشعر باستياء لأني لم أرد التقرب منها، الذي أعنيه أننا كنا مقربتين لأننا نتشارك الكلام. ولامتلاكنا تاريخاً مشتركاً، نعرف الكثير عن بعضنا، بدءاً بمشاركة بعضنا نفس الخزانة، نفس معجون الأسنان، ونفس حبوب الإفطار، تشاركنا الأشياء في كل صباح لمدة اثني عشر عاماً، كل اليوميات والعادات التي تتشاركها عائلة واحدة. إنني أعتقد حقاً أن كوان لطيفة ووفية، بل وفيةً جداً، لم تكن تتوانى عن فرك أذن أي شخص يتفوه بكلام غير لطيف عني. وهذا يحسب لها، أنا التي لم أشأ التقرب منها فقط، ليس كما تتقرب الأخوات من بعضهن كصديقات حميمات. وبكل حال، لم أكن أشاركها كل شيء، على عكس ما كانت هي تفعل، حتى أنها كانت تخبرني بتفاصيل خاصة عن حياتها، تماماً كما فعلت الأسبوع الماضي حين حدثتني عن زوجها جورج:

-ليبي، عثرت على دملة، كبيرة بحجم أنف، وجدتها بين ذلك الشيء، ماذا تسمونه؟ ذلك الموجود بين ساقي الرجل، نسميه في الصينية: ين نانج، مدورتان وملتصقتان مثل حبتي بندق؟

-تقصدين الخصيتين

-نعم نعم، عثرت على دملة على خصيتيه، إنني أفحصها كل يوم لأحرص ألا تكبر أكثر.

بالنسبة لكوان، لم تكن هنالك حدود بين أفراد العائلة، كل شيء متاحٌ لمناقشة حادة وشاملة - كم من الوقت تمضي في عطلتك، ما هي مشكلتك مع مظهرك، هل لهذا السبب تعتقد أنك سمكة ملعونة تقبع في حوض أسماك في مطعم؟ وبعد كل هذا تتساءل كوان لماذا لم أجعلها جزءاً من حياتي الاجتماعية، اعتادت كوان دعوتي إلى العشاء مرة كل أسبوع، حيث اجتماع العائلة الممل، هذه المرة تحتفل عمة جورج بحصولها على الجنسية الأمريكية بعد خمسين عاماً، هذا أحد ضروب الملل، تعتقد كوان بأن مصيبة كبيرة، هي فقط ما سوف يمنعني من الحضور، وتبدي لي قلقها الكبير: لماذا لم تحضري في الليلة الماضية؟ هل من شيء مهم؟

لا شيء مهم؟

- هل تشعرين بالمرض؟

- لا.

- ألا تريدينني أن آتي لأطمئن عليك، سوف أحضر لك بعض البرتقال؟ عندي برتقال جيد، حصلت على ست حبات مقابل دولار واحد.

- حقاً؟ أنا بخير، لا أريد.

تبدو كوان مثل قطة يتيمة، تتمرغ على باب قلبي، وستكون كذلك طوال حياتي، تقشر لي برتقالة، تشتري لي الحلوى، تثني على بطاقات تقاريري وتخبرني كم أنا ذكية، بل أذكى من أي أحد آخر. لكنني حقاً لم أفعل شيئاً لأقرب نفسي منها. عندما كنت طفلة، رفضت دائما اللعب معها،

صرخت عليها، وأخبرتها بأنها تحرجني دوماً. لا أتذكر عدد المرات التي كذبت فيها لأتهرب من رؤيتها.

لفترة معينة، كانت كوان تفسر استيائي على أنه نوع من النصائح، أما أعذاري الواهية فتفسرها على أنها نوايا حسنة تعبر عن وفائي لأخوتنا، لكنني صدمتها وأخبرتها بأنها مجنونة. وقبل أن أعود وأتراجع عن كلماتي الحادة، كانت تربت على ذراعي، تبتسم ثم تضحك. والجرح الذي تلقته يشفى من تلقاء نفسه مباشرة، وبالمقابل، يجعلني هذا أشعر بالذنب إلى الأبد.

خلال الشهور الأخيرة، صارت كوان أكثر إزعاجاً، كانت تصمت عادة حين أكرر رفضي لموضوع ما للمرة الثالثة. لكن الآن، صار يبدو أن عقلها عالق في دوامة استعادة أوتوماتيكية. سخطي الدائم معها جعلني أقلق من أنها تمر بانهيار عصبي. مرة أخرى علق كيفن بأن كوان ربما تمر بفترة سن اليأس ولربما أثر هذا عليها. لكنني أظن أكثر من هذا، الهواجس صارت تنتابها أكثر من المعتاد، شبح ين خاصتها يظهر بانتظام وأكثر من المعتاد. صارت تتحدث عن الصين في كل محادثة لها معي. كم يتوجب عليها أن تعود إلى الوراء، حتى تتوقف هناك، قبل أن تتغير الأشياء لتصير حالتها هكذا الآن؟ وكم تأخرت عن هذا. هي نفسها لا تعرف لكم تأخرت؟

بعد كل ذلك دست كوان نفسها في زواجي. ببساطة، لم تتقبل كوان أنني وسيمون سوف ننفصل، في الواقع، حاولت كوان إيجاد الأسباب حتى تفسد الطلاق، خلال الأسبوع الماضي، أقمت حفلة عيد ميلاد كيفن عندي، ودعوت إليها ذلك الشاب الذي كنت ألتقيه مؤخراً: بين ألباوم. عندما التقى بكوان وأخبرها خلال حديثهما أنه يعمل كمغنٍ في مواد الراديو الدعائية، ردت كوان عليه: أووه، أنا وليبي نملك موهبة أيضاً في

التخلص من المواقف السيئة، موهوبتان كذلك باختيارنا طريقنا بأنفسنا، أليس صحيحاً ليبي؟ ثم حدقت بعينيها وهي تضيف قبل أن أجيب: آآه، أظن زوجك سيمون كان سيوافقني على ما أقول؟ أجبتها: قريباً سيكون زوجي السابق. اضطررت بعد ذلك أن أشرح لبين: معاملات الطلاق سوف تنتهي بعد خمسة أشهر من الآن، في الخامس عشر من ديسمبر.

سارعت كوان للقول: ربما لا. ربما لا. ثم ضحكت وضربتني على ذراعي، وعادت لتوجيه الكلام إلى بين: هل قابلت سيمون يوماً؟

هز بين رأسه مجيباً: التقينا أنا وأوليفيا في...

- لم تلبث كوان أن قاطعته: أوه، إنه جميل جداً، قالتها كأنها تغرد، ثم وضعت يدها على فمها وأشارت: سيمون وأوليفيا يشبهان توأماً، إنه نصف صيني!

- رددت مباشرة: بل نصف هاواوي[1]، كما أننا غير متشابهين أبداً.

- سألت كوان بين بينما تشد بيدها طرف سترته المصنوعة من الكشمير: وماذا يعمل والداك؟

- رد بين: لقد تقاعدا الآن، إنهما يسكنان في ميسوري.

- كررت كوان: ميسوري، ميسوري، ثم نظرت لي وقالت: هذا محزن!

في كل مرة تجيء فيها كوان على سيرة سيمون، يكاد رأسي ينفجر وأنا أمنع نفسي من الصراخ أثناء المحادثة، تعتقد أني أستطيع التراجع عن الطلاق بسهولة، تماماً كما قررته قبلاً.

---

(1) نسبة إلى جزيرة هاواي.

سألتني بعد حفلة عيد ميلاد كيفن: لماذا لا تصفحين؟ كانت واقفة تنتزع البتلات الميتة من زهرة الأوركيد . العناد والغضب سوف يضران بك. لما التزمت الصمت، جربت من ناحية أخرى: أعتقد أنك ما زلت تحبينه، آه، انظري إلى وجهك، إنه أحمر، إنه الحب الذي يتدفق من قلبك إليه، ما زلت تحبينه، ألست محقة؟ أجيبيني: ألست محقة؟ لكنني بقيت أفتش في رسائل البريد، أطمس وأمزق أي رسالة تحمل اسم سيمون على مغلفها، لم أناقش أبداً سبب انفصالي عن سيمون مع كوان، لم تكن لتفهم، فالسبب معقد، لم يكن هنالك حدث أو شجار حتى أشير إليه بوضوح على أنه السبب. الانفصال نتج عن أسباب عديدة: بدايتنا السيئة، توقيتنا المتنافر، سنوات من التفكير بخلسة وصمت في أين تكمن الحميمية بيننا، بعد سبعة عشر عاماً سوية. أخيراً أدركت أنني بحاجة للمزيد في حياتي، فيما بدا أن سيمون يحتاج للأقل، أحببته كثيراً، لكن، ربما ليس بما فيه الكفاية، احتجت فقط لمن يعتبرني الأولى، وفوق كل شيء في حياته. لن أقبل بمزيد من الرسائل العاطفية التي يرسلها في البريد.

لن تتفهم كوان هذا، لا تعرف كيف يمكن للناس أن يجرحوك بما لا يحتمل الشفاء. إنها تؤمن بأولئك الناس الذين يحلون الأمور بقولهم: أنا آسف. لأنها ساذجة، تنتمي لأولئك الذين يؤمنون بكل ما يبثه التلفزيون من إعلانات تجارية على أنه حقيقة قابلة للتصديق، هاهو منزلها، مكدس بالأشياء، سكاكين جينسو، قطاعات ومقصات، عصارات عصير، أوانٍ كهربائية للطهي السريع، فقط قل لها اسم أداة، لتقوم هي بشرائها، فقط بتسعمائة وتسعة وخمسين، اطلبه الآن، العرض مستمر حتى منتصف الليل!

حدثتني كوان هاتفياً اليوم: ليبي، هنالك شيء عاجل ومهم لأخبرك إياه، صباحاً تحدثت مع لولو. واتفقت أنا وهو أنك وسيمون لا يجب أن تتطلقا.

- أوه، أنت وهو قررتما! كم هذا لطيف. في الواقع كنت أعدل دفتر مواعيدي متظاهرة بالاستماع إليها.

- أجل قررنا، أنا ولولو، لا بد أنك تتذكرينه.

- لولو قريب جورج.

(كان جورج على صلة بكل صيني يقطن سان فرانسيسكو تقريباً!)

- لا ليس قريب جورج، كيف لك أن تنسي لولو؟ لقد حدثتك عنه كثيراً من قبل، الرجل العجوز الأصلع، ذو الذراع القوية، والساق القوية، صاحب المزاج الحاد، الذي فقد مزاجه ورأسه مرة واحدة[1].

- انتظري لحظة يا كوان، شخص ما بدون رأس يخبرني الآن كيف أتصرف حيال زواجي؟

- لقد قطعت رأسه منذ مئة عام، لا تقلقي، إنه يبدو بخير الآن، لولو يعتقد أنك وسيمون وأنا، سوف نزور الصين سوية، وستصبح الأمور على ما يرام. اتفقنا، ليبي؟

- تنهدت ورددت: كوان، إنني حقاً لا أملك وقتاً للحديث عن هذا الآن، إنني مشغولة في شيء.

- لكن لولو يقول أنك لا تستطيعين ترتيب دفتر مواعيدك فقط، إنك بحاجة لترتيب حياتك كذلك.

كيف بحق الجحيم عرفت كوان أني مشغولة بدفتر مواعيدي؟ لكن لطالما سارت الأمور هكذا بيننا، في اللحظة التي أهملها فيها، تأتي بمفاجأة

(1) تتحدث كوان عن أحد أشباحها.

تبقيني خائفة، وتجعلني أسيرتها من جديد، بوجود كوان، لم أستطع عيش حياتي على عاتقي، كانت تتدخل دوماً وتبدي الاهتمام. لماذا تعاملني على أني كنز ؟ وعلى أني أهم مخلوقة في حياتها؟ لماذا تقول دائماً أننا حتى لو لم نكن أختين، فإنها سوف تشعر تجاهي كما تشعر الآن، دائما تقول لي: ليبي - ااه، لن أتركك أبداً؟ أريد أن أصرخ فيها: لا. لا تقولي هذا ثانية. لأنها كلما أعادت هذا الكلام، كانت تحول كل خياناتي لها إلى حب تعيده علي، كلنا نعلم أنها وفية، وإلى الأبد، إنها شخص كان يجب أن أحظى به، لكن وحتى لو أني قطعت يدي الاثنتين، فلن تكون هنالك فائدة، قالت كوان قبلاً: إنها لن تتركني أسقط. يوماً ما ستعوي الريح بقوة، ستشد كوان العنان، وتحلق، متجهة إلى عالم ين. هيا بنا يا ليبي، سوف تهمس في منتصف العاصفة: أسرعي بالقدوم، لكن، لا تخبري أحداً!



2
اصطياد الرجال

قبل السابعة صباحا بقليل، قرع الهاتف، لا بد أنها كوان التي تتصل، ومن سواها يجري مكالمة معي في هذا الوقت المبكر. تركت المجيب الآلي يتلقى المكالمة.

ليبي؟ همست: ليبي، هل أنت هنا؟ هذه أنا، أختك الكبيرة كوان، هنالك أمر هام سأقوله لك، هل تريدين الاستماع؟ في الليلة الماضية حلمت بك أنت وسيمون، حلماً غريباً، حلمت أنك ذهبت إلى البنك لتتفقدي رصيدك، وفجأة تعرض البنك للسرقة، فقمت بتخبئة محفظتك، لقد قام اللص بسرقة كل الموجودين عداك. لاحقاً، وحين عدت إلى بيتك، قمت بتفقد المحفظة، أوه لم تظهر، أين اختفت؟ لكنها لم تكن المحفظة، بل قلبك الذي كان قد سرق! الآن لا تملكين قلباً، كيف ستتمكنين من العيش؟ لا طاقة فيك، خداك بلا لون، شاحبة وحزينة ومتعبة. سيقول مدير البنك الذي احتفظت بنقودك عنده: سأعيرك قلبي، لكن سترفضين، ولن تهتمي بعرضه بتاتاً، سوف تبحثين عن وجهه لتعرفي من هو. هل تعرفين من هو، خمني يا ليبي؟ إنه سيمون، نعم سيمون، يريد إعطاءك قلبه. هل ترين، ما زال يحبك. ليبي، هل تؤمنين بذلك، ليس مجرد حلم. ليبي، هل تستمعين لما أقول؟

بفضل كوان، امتلكت موهبة استعادة الأحلام. موهبة ظلت ترافقني حتى اليوم، أستطيع استعادة ثمانية أحلام، عشر، وأحياناً العشرات منها، علمتني كوان ذلك، إبان عودتها من مصحة ماري. اعتادت أن تنتظر استيقاظي صباحاً لتسأل: ليبي، بمن التقيت في الليلة الماضية؟ ماذا رأيت؟ أكون حينها نصف مستيقظة، أسحب خيوط الحلم من عالم الليل المظلم مستعيدة نفسي إلى هناك، محاولة أن أصف لكوان الحياة التي خرجت منها للتو - الصخرة التي انزلقت عنها، الخدوش التي تركتها على حذائي، وجه أمي الحقيقية وهي تناديني من البعيد-. وعندما أتوقف عن سرد ما استعدته لكوان تسأل: في أي حياة كنت قبل ذلك؟ تستحثني فأحاول استعادة طريقي إلى الحلم الذي سبق حلمي هذا، ثم الذي سبقه، أستمر هكذا إلى أن أستعيد عشرات الحيوات، أحياناً أستعيد الميتات كذلك. لأشخاص لا يمكن أن أنساهم بعدها، إلى آخر لحظات في حياتي.

خلال سنين حياتي التي عشتها في الأحلام، أو في حيوات أخرى، تذوقت فيها طعم الرماد المتساقط مثل مطر في ليلة عاصفة، شاهدت اللهيب ينطلق مثل رماح من صوب التلال، تحسست نتوءات السور الحجري الذي يفصلني عن الواقع، محاولة الهرب قبل أن يتم قتلي، كانت رائحة خوفي تلتف حول عنقي مثل حبل، لأشعر بنفسي خفيفة بلا وزن، أحلق في هواء خفيف، أستمع لحشرجة صوتي، وهو يتلاشى في البعيد، قبل أن تنزلق حياتي، وتضيع مني إلى الأبد.

تعود كوان لتسأل: ماذا رأيت بعد موتك؟!

- لا أتذكر، لقد كانت عيناي مغلقتان.

- إذن، عندما يجيء الموت في المرة التالية، أبقِ عينيك مفتوحتين!

لمعظم فترة طفولتي، كنت أظن أن الآخرين قادرين على تذكر أحلامهم وحيواتهم الأخرى مثلي، كوان كانت تفعل ذلك بالطبع، فبمجرد عودتها من المصحة، ظلت تحدثني عن أناس ين. لا تنفك تتحدث عن امرأة اسمها: بانر[1].

وعن رجل اسمه: كاب، وعن فتاة من قطاع الطرق تملك عيناً واحدة، وعن نصف رجل فقد جزأه العلوي أو السفلي. تقمصتني أشباحها، لكنني لم أعد أحدث أمي عن ذلك، ولا عن أي شيء تقوله كوان نظراً لما حصل لها في المرة الأخيرة.

تقدم الزمن، و صرت طالبة في الكلية وظننت أنني تحررت من عالم كوان أخيراً. إلا أن كوان التي زرعت مخيلتها في عقلي جعلتني أدرك أن التخلص من عالمها بات متأخراً حقاً، لقد أبت أشباحها أن تخلي مكانها من أحلامي.

تعود كوان لتقول لي بالصينية: ليبي، هل أخبرتك قبلاً بما وعدت به الآنسة بانر قبل وفاتنا[2]؟ أراني متظاهرة بالنوم فيما تستمر كوان في الحديث: بالطبع، لست متأكدة من الوقت الذي حصل فيه هذا، الوقت يختلف بين حياة وأخرى، أظنه حصل خلال العام 1864، كان عام القمر وفقاً للتقويم الصيني، أو في تاريخ آخر حسب التقويم الغربي، لست متأكدة.

---

(1) رأت كوان وأوليفيا أحلامها وحياتها السابقة خلال أحداث الحرب الصينية التي وقعت في القرن الثامن عشر.

(2) تقصد كوان الحياة السابقة التي تعتقد أنها عاشتها مع أوليفيا سابقاً، والتي تستعيدها من خلال الأحلام.

في الأخير، سأكون غارقة في النوم عند نقطة ما من حكاية كوان، لا أستطيع أن أتذكر بالضبط أين، وأي جزء ذاك الذي ينتمي لحلمها، وأي جزء ينتمي لأحلامي؟ أين يتقاطع الحلمان؟ كانت تسرد قصصها علي كل ليلة، فيما أنا ممددة، صامتة، عاجزة، متمنية لو أنها تخرس!

أجل، أجل، إنني متأكدة أنه حصل في العام 1864، أتذكر الآن، إنه عام يفرض نفسه بغرابة. فقط أنصتي إلى هذا: (yi-ba-liu-oi). هذا ما قالته الآنسة بانر، كأنها تحدثت عن فقدان الأمل، والانزلاق نحو الموت، لكنني أقول بأنها لم تعن هذا أبداً، بل عنت: تمسكي بالأمل، واتركي الموت. للكلمات الصينية وقعها السيئ والحسن في آن واحد، إنها لا تعتمد على ما تقولينه بلسانك، بقدر ما تعتمد على الذي تضمرينه في قلبك! على أي حال، 1864، هي السنة التي قدمت فيها الشاي للآنسة بانر، أما هي فقدمت لي صندوق الموسيقى، نفس الصندوق الذي سرقته منها ذات مرة، قبل أن أقوم بإعادته إليها، أتذكر الليلة التي وضعنا فيها الصندوق بيننا بكل ما يحمله من موسيقى لا يمكن نسيانها، كنا وحيدتين في تلك اللحظة، في بيت التاجر الشبح[1]، حيث عشنا هناك لستة أعوام، بصحبة المبشرين. كنا واقفتين قرب النبتة المقدسة التي تنبت أوراقاً مميزة، الأوراق ذاتها التي اعتدت أن أصنع الشاي منها. ها هي الآن وقد تم تقطيع سيقانها. فيما الآنسة بانر تأسف لتركها الجنرال كاب يقتل النبتة. يا له من موقف محزن، في ليلة حارة، والماء ينساب من على وجوهنا، يختلط العرق بالدموع، صوت صراصير الليل يعلو أكثر فأكثر، ثم فجأة، تغرق في الصمت. لاحقاً، لحظة

---

(1) تتحدث كوان عن شبح تاجر مات في الصين، وعن قصصها مع الأرواح في حيوات أخرى عاشتها، تراها ضبابية من خلال الأحلام.

وقفنا معاً في الممر، خائفتين حتى الموت. ونشعر بالسعادة في ذات الوقت، كنا سعيدتين لأننا وجدنا شيئاً مشتركاً بيننا في كوننا خائفتين لذات السبب. كانت تلك السنة، هي السنة التي تناسخت[1] فيها أقدارنا.

عندما التقيت بها للمرة الأولى، قبل ستة أعوام من الآن، كنت في الرابعة عشرة من العمر، بينما كانت هي في السادسة والعشرين، لم أكن لأعرف أبداً عمر شخصٍ من الأجانب. أتيت من بلدة صغيرة تقبع فوق جبل الشوك، جنوب تشانجميان، لم نكن من الصينيين ركاب القوارب، الذين يعيشون على ضفاف النهر الأصفر والذين يجري دم قبيلة هان[2] في أوردتهم، مما جعلهم يدعون الحق في امتلاك كل شيء. لم نكن ننتمي لقبائل زوانج أيضاً، كنا نتحارب فيما بيننا طوال الوقت، قرية ضد قرية، وقبيلة ضد أخرى، نحن ننتمي للهاكا، هه! - مجرد ضيوف مؤقتين على أي أرض، غير مدعوين للبقاء والاستقرار في أي مكان، لذا فقد عشنا مبعدين، في أكواخنا المدورة التي تتوزع على الأنحاء الفقيرة من الجبال، حيث يجب أن تقف على المرتفعات الصخرية مثل ماعز جبلي لتحرث بين مصطبتين من الصخر حتى تتمكن من زراعة قبضة واحدة من الأرز؟

في قبيلتنا، كانت النساء تؤدي الأعمال الشاقة تماماً كما الرجال، لم يكن هنالك من فرق بينهما فيمن ينقل الصخور، أو يجمع الحطب، أو يسهر على حراسة المحاصيل ليلاً من قطاع الطرق. هكذا كانت نساء الهاكا، كلهن قويات. لم نكن نتخير لخطواتنا مثل بنات قبيلة هان، واللواتي كن ينتعلن

---

(1) تقصد هنا تناسخ الأرواح، وانتقال ذكريات الماضي من حياة عاشتها، إلى حياة أخرى، تأتي على هيئة أحلام أو أشباح.

(2) عشيرة صينية تتميز بالتعالي وادعاء أحقيتها لملكية القرى والمواشي والمزارع.

الأحذية و يتمايلن في مشيتهن هنا وهناك، مثل قرون موز متعفنة. كنا نجوب أنحاء الجبل كله حافيات، لنؤدي أعمالنا، نمشي فوق الأشواك الحادة التي منحت جبلنا اسمه الشهير: جبل الشوك. وفي موسم الزواج، كانت عروس الهاكا المناسبة، هي تلك العروس التي تنحدر من الجبال، بقدميها الخشنتين المنحوتتين، ووجهها العريض القسمات. لقد كان هناك المزيد من عائلات قبيلة الهاكا، ممن يمكثون قرب المدن الكبيرة في يونجان على الجبال، أو في جينتيان قرب النهر. كانت الأمهات من العائلات الأكثر فقراً يفتخرن بأبنائهن الذين يتنافسون للحصول على أجمل الفتيات في مواسم الزواج، حيث يتوجب على الشباب التسلق عالياً للوصول إلى قرانا في جبل الشوك، وتكون الفتيات هناك بانتظارهم، يغنين أغاني الجبل القديمة التي ورثناها عن الشمال منذ آلاف الأعوام، كان يتوجب على الشاب منهم أن يرد ويكمل أغنية الفتاة التي يرغب بالزواج منها، لكن إن كان صوته ناعماً، أو كلماته متعثرة، فإن الزواج لن يحصل للأسف. بسبب هذه العادات، لم يكن الهاكا قويين جداً فقط، بل كانت أصواتهم جميلة كذلك، وعقولهم صافية، كانوا أذكياء بحيث يحصلون على أي شيء يريدونه.

هنالك مقولة شائعة بيننا تقول: عندما تتزوج فتاة من جبل الشوك، فإنك ستحظى بثلاث ثيران مقابل زواجك هذا: واحد للتناسل، واحد للحراثة، وآخر لكي يحمل أمك العجوز ويتنقل فيها في الأرجاء. تلك هي القوة التي تمتعت بها فتاة الهاكا، لم تكن لتشكو أبداً، حتى لو أن حجراً سقط من سفح الجبل، وسحق عينها! هذا ما حصل لي حينما كنت في السابعة من العمر، سحق حجر عيني، كنت فخورةً جداً بالجرح الذي أصابني! لم أبك إلا قليلاً، بينما جدتي تخيط الفتحة التي كانت ذات مرة بمثابة عينٍ لي. قلت لجدتي أن الذي رمى الحجر كان شبحاً لحصان يمتطيه شبح العذراء

الشهيرة: نونومو -نو تعني فتاة، أما نومو فتعني: التي تحدق بحدة خنجر-. نونومو، الفتاة التي تملك نظرة حادة مثل خنجر، هي أيضاً فقدت إحدى عينيها عندما كانت يافعة، لقد شهدت حادثة عندما قام رجل من راكبي القوارب بسرقة الملح من رجل آخر، لكنها وقبل أن تتمكن من الهرب، قبض الرجل عليها وغرس خنجره في وجهها. بعد ذلك، زحفت وقد غطت عينها المطعونة بطرف منديلها، عينها الأخرى انتفخت، صارت كبيرة وغامقة، حادة ومقوسة مثل عين قط. صارت قاطعة طريق، لا تسرق سوى من راكبي القوارب، كانوا يرتعبون لمجرد النظر إلى عينها. احترمها جميع سكان جبل الشوك، ليس لأنها كانت تسرق المتبجحين من راكبي القوارب فقط، بل لأنها كانت الأولى من بين قطاع الطرق الذين انضموا إلى الكفاح من أجل السلام بين القبائل بعد عودة الملك العظيم إلينا ليقدم العون. شكلت جيشاً صغيراً من عذراوات الهاكا وانطلقت نحو غيلين[1]، لكن ما لبث المنشوريون[2] أن قبضوا عليها، ثم قاموا بقطع رأسها، ورغم قطعهم له، ظلت شفتاها تتمتمان، لاعنة المنشوريين وعائلاتهم حتى مئة جيل لاحق. في ذلك الصيف الذي خسرت فيه عيني، والذي أخبرت فيه الناس عن نونومو التي تركض ممتطية الحصان الشبح، قال الناس بأن تلك علامة على أن نونومو اختارتني لأكون رسولتها، تماماً كما فعل إله المسيح عندما اختار رجلاً من الهاكا ليكون ملكنا العظيم، صار الناس ينادونني: نونومو، حتى أنني أحيانا، وفي وقت متأخر من الليل، صرت أعتقد أنني أرى العذراء قاطعة الطريق، ليس بوضوح، كانت تتراءى لي فقط، لأنني بالطبع، كنت في ذلك الوقت أملك عين ين واحدة

(1) مدينة جنوب الصين قرب النهر الأصفر أو نهر لي.

(2) مجموعة قبائل من قوميات الصين.

فقط. بعد ذلك بزمن، حظيت بلقاء أول أجنبي[1]، حيث وصل الأجانب إلى مقاطعتنا، جميع الناس في الريف الممتد من نانينغ وحتى غيلين تحدثوا عن الأجانب الذين جاؤوا ليبيعوا قمامتهم لنا، الأفيون الذي جعل هؤلاء الغربيين يحلمون أحلاماً جنونية عن الصين، بعضهم جاء يبيع الأفيون والبعض الآخر أتى لبيع الأسلحة وبارود المدافع والبنادق. لم تكن أسلحة جديدة وسريعة، كانوا يبيعوننا مخلفات أسلحتهم القديمة البطيئة، منها ما غنموه من المعارك التي خسروا أو كسبوا فيها! أما المبشرون فقد جاؤوا إلى مقاطعات الهاكا لأنهم سمعوا أن الهاكا من أتباع الله، لقد أرادوا منا أن نذهب إلى جنة إلههم، ربما لم يفهموا أن التابع لله لا يشبه التابع للمسيح. لاحقاً، سندرك جميعنا، أن آلهتنا، ليست واحدة.

الأجنبي الذي التقيت فيه لم يكن مبشراً، كان واحداً من الجنرالات الأمريكيين، أسماه الصينيون بالجنرال كاب لأنه ظل دائماً يرتدي قبعة واسعة، وقفازات سوداء وجزمة سوداء، إضافة لسترة قصيرة رمادية اللون مطعمة بالأزرار التي تلمع مثل عملات معدنية وتمتد من عنقه حتى خاصرته. يحمل في يده عكازاً ملفوفاً بشريط فضي يحيط بمقبضه العاجي الذي يتخذ شكل امرأة عارية. عندما أتى إلى جبل الشوك، هبط سكان القرى من سفوح الجبال واجتمعوا في الحقل الأخضر الواسع، وصل إلينا ممتطياً حصانه الممشوق على رأس فرقة من خمسين جندياً، يتكونون من العتالين ومجدفي القوارب، ها هم الآن يمتطون الأحصنة ويشكلون جيشاً

(1) تقصد هنا بالأجنبي، الأمريكان وغيرهم من بريطانيين وفرنسيين، احتلوا جزءاً من الصين في حدود العام 1862 فيما سمي بحرب الأفيون الثانية ، حيث سعت الدولتان للحصول على امتيازات للموانئ الصينية وتجارة الأفيون المربحة، إضافة لنشر الدين المسيحي في البلاد.

بعد أن ارتدوا الثياب العسكرية، كانوا يصرخون من البعيد بلغة أبعد من أن تكون صينية، أو حتى منشورية. بدا أنهم المرتزقة التي تبقت من الحرب الفرنسية في إفريقيا. كانوا يصرخون فينا: لستم وحدكم أتباع الله، نحن أتباعه أيضاً!

فيما بعد، ظن بعض الناس أن الجنرال كاب هو المسيح، أو أنه على الأقل، لا يختلف عن الملك العظيم، ربما يكون واحداً من أخوته الصغار، كان الجنرال طويلاً، يتمتع بشارب طويل ولحية ضيقة، شعره أسود متموج ينحدر إلى كتفيه. يشبه إلى حد كبير الشعر الذي يملكه رجال الهاكا بعد أن تخلوا عن الجدائل الطويلة اتباعاً لأوامر ملك السماء بالتمرد على قوانين وأعراف المنشوريين. لم أكن قد رأيت أجنبياً من قبل، لذا لم أكن قادرة على تحديد عمره الحقيقي، بدا لي كبيراً في السن. لون جلده أبيض محمر، مثل لون حبة لفت، عيناه غامقتان عميقتان مثل ماء ضحل، ينتشر النمش في وجهه كأنه ندوب حادة لشخص كان يعاني من مرض ما. ورغم أنه كان يضحك كثيراً، إلا أنه نادراً ما ابتسم. أما كلماته حين يتحدث فكانت أشبه بنهيق الحمار. كان يبقي أحد رجاله بجانبه كوسيط للترجمة، يترجم كل ما يقوله الجنرال بصوت رخيم. في المرة الأولى التي رأيت فيها وسيط الترجمة، ظننته صينياً، لكن وبعد مرور لحظة، بدا لي من الأجانب، لكنه لم يكن هذا ولا ذاك، بدا أقرب إلى الحرباء التي تغير لونها حسب الغصن أو الأوراق التي تحيط بها. عرفت لاحقاً أنه يحمل في عروقه دماً صينياً من أمه الصينية، ودماً أمريكياً، من والده التاجر الأمريكي، لذا كان دمه مختلطاً. أطلق عليه الجنرال اسم يبان رين، والذي يعني: الرجل النصف.

أخبرنا يبان أن الجنرال حضر للتو من المقاطعة بعد أن التقى الملك العظيم، قائد ثورة السلام، وقد عقدا عهداً للصداقة فيما بينهما. ذهلنا جميعاً

حين سمعنا ما قاله لنا عن ملك السماء المقدس الذي ولد من قبيلة الهاكا، ثم اختاره الله ليكون ابنه الأغلى، وليكون الأخ الأصغر للمسيح. استمعنا بحرص لكل ما قاله يبان عن نبوة ملك السماء! أضاف يبان: الجنرال قائد في الجيش الأمريكي، جنرال عظيم يحمل أعلى الرتب. غمغم الناس. أكمل وسط الغمغمة: لقد عبر البحر قادماً إلى الصين، ليساعد أتباع الله، أنصار السلام المقدس. صاح الناس مهللين: جيد، عظيم. لقد كان بنفسه واحداً من أتباع الله، ومعجباً بنا، بقوانيننا التي تمنع الأفيون، والسرقة، وارتياد بيوت الدعارة. أومئ الناس برؤوسهم معجبين، أما أنا، فحدقت بعيني الوحيدة الباقية إلى منحوتة السيدة العارية التي تزين مقبض عكاز الجنرال. قال لنا الجنرال أنه جاء ليساعدنا على هزيمة المنشوريين، وأضاف : هذه هي خطة الله، المكتوبة منذ آلاف السنين في الكتاب المقدس الذي يحمله بين يديه الآن. تدافع الناس مقتربين ليشاهدوا الخطة. لا بد إنها ذات الخطة التي أخبرنا عنها الملك العظيم، عن أننا سنرث الأرض لنفرض فيها قوانين الإله الصيني المقدس. أضاف الجنرال أن جنود السلام المقدس تمكنوا من احتلال مدنٍ عديدة، وجمعوا الكثير من الأرض والمال، وها هم يستعدون الآن للانطلاق نحو الشمال، لكن فقط إن انضمت إليهم الهاكا من جبل الشوك وشكلوا جيشاً. لمح الجنرال فيما بعد إلى أن الذين سوف يقاتلون، سوف يمنحون ملابس باهظة ودافئة، طعاماً جيداً وأسلحة، علاوة على أرض خاصة لهم، رتباً عسكرية وبيوتاً ومدارس لهم ولأبناءهم. ليتطوع من يرغب من الرجال والنساء. والملك العظيم، سوف يتكفل بإطعام عائلاتهم أثناء غيابهم. ما إن صمت حتى تقدم الناس هاتفين: السلام المقدس، السلام المقدس! ما لبث الجنرال أن ضرب الأرض بعكازه فساد الصمت بين الناس من جديد. دعا يبان ليتقدم ويعرض على الناس الهدايا التي أمر

الملك الجنرال بحملها. براميل بارود، جعبات تتكدس فيها البنادق، وسلال تتكدس فيها ملابس عسكرية، إفريقية وفرنسية، بعضها ممزقة وملطخة بالدماء، لكن الناس ظلوا مبهورين يتهامسون فيما بينهم: انظروا لتلك الأزرار، ولتلك الأردية. في ذلك اليوم، تطوع الكثيرون وانضموا إلى الجيش، رجالاً ونساء. كنت في السابعة من عمري ولا أستطيع الانضمام مثلهم، شعرت بالحنق عندما بدأ جنود الفرقة بتوزيع الملابس العسكرية، لكنهم أخذوا يعطونها للرجال فقط، وأهملوا النساء، عندما رأيت هذا. خفت وطأة حنقي عن السابق. انهمك الرجال بارتداء ملابسهم الجديدة، فيما انهمكت النساء بتجربة البنادق وتلقيمها. ضرب الجنرال الأرض بعكازه من جديد طالباً الانتباه،ثم سأل يبان أن يحضر هديتنا الأخرى، تدافع الجميع بفضول مقتربين ليشاهدوا الهدية. وضع أمامنا قفصاً من القش يحوي حمامتين بيضاوين! أعلن الجنرال بلهجة صينية متعثرة أنه سأل الله أن يمنحنا علامة لنكون الجيش الذي سوف ينتصر، نحن الهاكا الفقراء، التواقون للسلام منذ آلاف السنين. فتح الجنرال القفص، رمى بالحمامتين في الهواء، فانطلقتا، زأر الناس راكضين خلفهما، محاولين الإمساك بهما قبل أن تحلقا بعيداً، انزلق رجل عن صخرة قفز عليها محاولاً اللحاق بهما، شج رأسه وسال الدم منه، لكن الناس استمروا بمطاردة الطائرين النادرين[1] الثمينين. تمكنت إحدى الحمامتين من التحليق بعيداً، أما الأخرى، فسوف تكون وجبة العشاء للرجل الذي تمكن من الإمساك بها.

انضم أبي وأمي للتحالف، أخوتي الأكبر، عماتي، أعمامي، وكل من جاوز سن الثالثة عشرة من جبل الشوك، انضموا. تجمع الناس من المدن

(1) يبدو أن الحمام لم يكن يعيش في مناطقهم الجبلية تلك.

القابعة خلف الجبل، فلاحون، وملاك الأراضي، الباعة المتجولون، المعلمون، قطاع الطرق والشحاذون. وليس من الهاكا فقط، حتى رحالة زوانج من قبائل اليوس والمياوس، حتى الفقراء من بين راكبي القوارب. ربما خمسون أو ستون ألفاً من الناس. بدت لحظة عظيمة للصين، اجتمع الصينيون فيها بهذه الطريقة.

تركوني خلفهم في جبل الشوك، لأظل مع جدتي، لنبقى مع بقايا القرية المهملة، التي لا تصلح لشيء. أطفال وأولاد، كبار في السن وأصحاب العاهات. بعض الجبناء والبلهاء. رغم بقاءنا، إلا أننا كنا سعداء، فقط بسبب وعد الملك، الذي أرسل جنوده ليحضروا لنا الطعام، وكان هذا ألطف شيء تمنيناه عبر مئات السنين. أحضر الجنود معهم أيضاً قصص النصر العظيمة، وكيف أن الملك أمر بتجهيز حياة جديدة لنا في مملكة نيانغ، التي تتوفر فيها الفضة أكثر من الأرز، وعن بيوتها الجميلة التي تتسع للجميع، حيث يوجد مكان للرجال، ومكان آخر للنساء، يا لها من حياة مسالمة، حيث سنرتاد الكنيسة في عطل أيام الأحد، حيث لا عمل، سلام وسعادة فقط. كنا سعداء لأننا سوف نعيش في زمن السلام العظيم.

بعد مضي عام على الوعود، جاءنا الجنود بالأرز والسمك المقدد. في العام التالي، جاؤوا بالأرز فقط. وهكذا، حتى مرت بضعة أعوام، إلى أن جاء يوم عاد إلينا فيه رجل كان يعيش ذات يوم في قريتنا، قادماً من نانينغ. أخبرنا أنه كاد يموت مما رآه من السلام العظيم. وقال أن الناس لم يعودوا متساوين، الغني طماع، والفقير إما حسود أو سارق، لو أن هنالك سلاماً، لتساوى الناس. لكن الجميع يبحث عن الأشياء الثمينة، والمتعة، وبيوت الدعارة. حتى إن الملك العظيم يعيش الآن في قصر مهيب برفقة محظياته. لقد سمح لرجل مسه الشيطان أن يحكم المملكة، أما الجنرال، الذي حشد

كل الهاكا ليقاتلوا معه، فقد انضم إلى المنشوريين، وصار خائناً، أغراه مصرفي صيني، أغرقه بالذهب، ووعده بالزواج من ابنته. يا لها من سعادة كبيرة، حتى أنها جعلتنا نذرف الكثير من الدموع!

بدا أن الرجل يقول الحقيقة، في جوف كل منا شعرنا أنها الحقيقة، كنا جوعى، الملك العظيم تخلى عنا، أصدقائنا الأجانب قاموا بخيانتنا. لم نعد نحصل على الطعام، ولا نسمع قصص الانتصارات العظيمة. فقراء، بلا آباء ولا أمهات، بلا عذروات يغنين، ولا شباب. كان البرد يلسعنا، في الشتاء.

في الصباح التالي، غادرت القرية، هبطت الجبل. ها قد بلغت الرابعة عشرة من عمري وصرت كبيرة بما يكفي لأشق طريقي الخاصة في الحياة. توفيت جدتي في العام الماضي، لكن شبحها لم يمنعني من المغادرة. إنه اليوم التاسع، من الشهر التاسع، أتذكره جيداً، فهو اليوم الذي يتوجب فيه على الصينيين الصعود إلى الجبل، لا الهبوط منه، حتى يقدموا النذور لأسلافهم، إنه اليوم الذي يخرق في أتباع الله التزامهم بالتقويم الغربي وآحاده الاثنين والخمسين[1] عائدين لتقديس التقويم الصيني. لذا، هبطت من الجبل، ثم خضت في الوديان. لم أعد أعرف بماذا أؤمن، أو بمن أثق، قررت انتظار إشارة ما، ورؤية ما سوف يحصل.

بعد زمن، وصلت إلى مدينة جينتيان، القابعة قرب النهر. قلت للهاكا الذين التقيت بهم هناك أنني نونومو، لكنهم لم يكونوا يعرفون العذراء، قاطعة الطريق الأسطورية، لم تكن مشهورة في جينتيان. ولم يبجل أحد عيني التي اقتلعها الحصان الشبح. أحاطني الناس بالشفقة، وضعوا

(1) تقصد هنا مجموع أيام الأحد خلال السنة، وهي بالطبع أيام الصلاة والعطلة عند المسيحيين.

قبضة من الأرز العفن في يدي وحاولوا جعلي شحاذة بنصف عين. رفضت أن أصير ما يظن الناس أنني يجب أن أصيره.

لذا، عدت للتجول في المدينة، أفكر في عمل أستطيع فعله لأحصل على الطعام. شاهدت في طريقي بقايا جيش التحالف مبعثرين، بعضهم ينزعون الأصابع من أقدام الموتى. اليوس يقتلعون الأسنان. النهريون ركاب القوارب يغرسون إبرهم في الأقدام المتورمة. لم أكن أعرف أنه يمكن كسب النقود من خلال العبث بالأعضاء المريضة أو الميتة من أجساد الآخرين. مشيت حتى وصلت إلى الضفة السفلى من النهر. رأيت صيادين في قوارب صغيرة. يرمون بشباك واسعة في الماء. لم أكن أملك قارباً، ولا أحمل شباكاً للصيد، خطر لي الأمر بسرعة، أن اختلس سمكة. لم أتمكن من تقرير ما أفعل، فقد سمعت صوت الناس من أعلى الضفة صارخين: لقد وصل الأجانب. ركضت صوب المرفأ لأشاهد بحارين صينيين، أحدهما كهل والآخر شاب، يعبران الرصيف الخشبي ويفرغان صناديقاً وبضائع من قارب كبير. بعدها نزل الأجانب، رأيت واحداً أو اثنين ثم أربعة، خمسة، يقفون على الحافة بثيابهم السوداء البغيضة، باستثناء واحد صغير الحجم يرتدي ملابس بنية فاتحة، مثل خنفساء الشجر. تلك، كانت امرأة، هي الآنسة بانر، بالطبع، لم أعرف ذلك في حينها. عيني الواحدة تراقبهم جميعاً، تتبعت الأزواج الخمسة من العيون الغريبة التي كانت على قارب الرجلين الصينيين والتي بدأت تتخذ طريقها الخشبي الضيق إلى الضفة. حمل البحاران عمودي الحمالة على كتفيهما، تاركين المساحة في الوسط تتدلى وتتأرجح فيما بينهما بما تحويه من صناديق مكدسة على حبال تربط بين العمودين. فجأة، قفزت الغريبة صاحبة الرداء البني إلى الرصيف الخشبي تحث الرجلين على اتخاذ الحذر - ومن يعرف لماذا؟- الممشى الخشبي أخذ

بالتمايل، بدأت الحمولة تتأرجح والرجال يتمايلون. بدأ الأجانب الخمسة بالصراخ: تراجعوا، تقدموا. توزعت نظراتنا بينهم وبين البحارين، أما صاحبة الملابس الفاتحة فأخذت تخفق بيديها مثل عصفور صغير يتخبط، رأيت البحارين يضغطان عضلاتهما محاولين التقدم. في اللحظة التالية، تمزق كتف البحار العجوز، سقط على الأرض الخشبية، مطلقاً صرخة ألم حادة، أظن عظمة برزت من كتفه، سمعت صوت التمزق. تلا ذلك صوت اندفاع الماء في كل اتجاه، البحاران، والحمولة، وصاحبة الرداء الفاتح، سقطوا جميعاً في الماء. ركضت إلى حافة الماء، كان البحار الشاب قد تمكن من السباحة حتى الضفة مسبقاً. بدأ اثنان من البحارة الآخرين بمطاردة الحمولة التي سقطت عن محفتها. تناثرت الملابس مثل أشرعة، طفت القبعات وانتشرت مثل سرب من البط على وجه الماء. أما القفازات الطويلة فتشربت الماء وصارت تتحرك لوحدها مثل أصابع الشيطان. لم يحاول أحد إنقاذ البحار الجريح أو صاحبة الملابس الفاقعة، الأجانب لم ينقذوهما أيضاً، كانوا خائفين من الاقتراب من الممشى الخشبي. تجمدوا منتظرين تدخل القدر. أما أنا فلم أخف مثلهم، أنا من الهاكا أتباع الله، الهاكا الذين يصطادون الرجال. ركضت مع الضفة، أمسكت بالحبال التي انفلتت وتركتها تتدلى في الماء، البحار والغريبة قبضوا على الحبال بأيديهما الشغوفة، ومن ثم. سحبت الحبال بكل ما أوتيت من قوة.

هرع راكبو القوارب وقدموا لي العون، انتشلوا البحار الجريح وألقوه على الأرض فيما هو يشتم ويلعن. كان اسمه لولو، والذي سيصير البواب فيما بعد لأن كتفه الممزقة لن تسمح له أن يعود للإبحار من جديد. أما الآنسة بانر التي دفعوا بها عالياً ورموها على الشاطئ، فقد تقيأت ثم انخرطت في البكاء.

ما إن هبط الأجانب أخيراً عن المركب، حتى تحلق راكبو القوارب حولهم صارخين: أعطونا بعض النقود. فما كان من أحد الأجانب إلا أن ألقى ببضع عملات معدنية على الأرض فاندفع هؤلاء إليها مثل سرب عصافير يتجمع حول الفتات، تخاطفوا العملات ثم تفرقوا كل في اتجاه. وضع الأجانب الآنسة في إحدى العربات، وضعوا البحار المصاب في أخرى، ثم قاموا بتحميل صناديقهم وحمولة سلالهم في العربات الثلاث المتبقية وانطلقوا قاصدين منزل الإرسالية في تشانجميان. قمت باتباعهم، إنه السبب الذي سوف يجعلني لاحقاً أقيم بصحبتهم في ذات البيت. عند ذلك النهر، تلاقت أقدارنا نحن الثلاثة، تشابكت وامتزجت مثلما تتشابك شعور النساء الكثيفة. بدا الأمر متشابكاً فعلاً، لو لم تتأرجح الآنسة بانر، لما سقط البحار وانكسرت كتفه، لو لم تنكسر كتف البحار لما سقطت الآنسة بانر واضطررنا لإنقاذها من الغرق. ولو أنني لم أقم بإنقاذها لما تأسفت على كتف لولو. لو أنني لم أنقذ لولو لما أخبر الآنسة بانر عن إنقاذي له، ولما طلبت مني بعد ذلك أن أرافقها. ولو أنني لم أصبح رفيقتها، لما خسرت أبداً الرجل الذي وقعت بحبه فيما بعد.

كان بيت التاجر الشبح يقبع في تشانجميان، تشانجميان تتبع جبل الشوك أيضاً، لكنها تقع إلى الشمال من قريتي، تستغرق الرحلة إليها نصف يوم من جينتيان. لكن، ومع كثير من الحمولة والرجال المتذمرين على متن العربات، اتخذت الطريق منا ضعف الوقت الطبيعي. فيما بعد، عرفت أن اسم تشانجميان يعني: الأغاني التي لا تنتهي. ذلك أن الكهوف، مئات من الكهوف، تقبع على الجبال خلفها. وكانت كلما هبت الريح. تفتح الكهوف أفواهها مغنية: هوو هوو. تنتحب بأغاني حزينة، تماماً مثلما تغني الأمهات لأولادهن الذين ضاعوا في الحرب. ربما هذا هو السبب الذي جعلني

أمضي ستة أعوام من عمري في ذلك البيت. عشت هناك مع الآنسة بانر، مع لولو، إضافة للمبشرين، سيدتان وسيدان محترمين. المبشرون القادمون من إنجلترا. لم أعرف ذلك في البداية، عرفت من الآنسة بانر بعد ذلك بعدة أشهر، عندما تمكنا من التحدث لأول مرة باللهجة المحلية. قالت أن المبشرين أبحروا حتى وصلوا جزر الماكاو، حيث قاموا بالتبشير لفترة، وهناك التقوا بالآنسة بانر. بعد ذلك بحين، علموا بالمعاهدة الجديدة التي مكنت الأجانب من دخول الصين والبقاء فيها حيث يريدون. عندها أبحر المبشرون من عمق البلاد قادمين من غربي النهر إلى جنتيان، واصطحبوا الآنسة بانر معهم.

كان بيت الإرسالية مجمعاً واسعاً، يتوسطه فناء كبير، ويليه أربع بيوت صغيرة تحيط ببيت رئيسي كبير، يتبعه ثلاث بيوت أصغر، ترتبط كلها بممرات تصلها ببعضها، كان المكان كله محاطاً بسور مرتفع يفصله عن الخارج. منذ مئات السنين، لم يسكن أحد هذا البيت الملعون إلا الأشباح. وحدهم الأجانب قرروا البقاء فيه، بعد أن أخبرونا بأنهم لا يؤمنون بوجود أشباحنا الصينية.

طلب الناس المحليون من لولو ألا يسكن معنا في البيت، قالوا إنه مسكون بأرواح الثعالب. لكن لولو أخبرهم بأنه لا يهاب شيئاً، لأنه بحار ينحدر من عرق بحارة أشداء، وأنه قوي كفاية ليواجه الموت، ذكي كفاية ليعثر على الإجابة عن أي شيء يريد أن يعرفه! فلو أنك سألت لولو مثلاً عن عدد قطع الملابس التي تحتفظ بها نساء الإرسالية الغربيات، لأجابك في الحال بأنهن يملكن دزينتين منها، ثم يقوم بالتسلل إلى غرفهن فيما هن منهمكات في الطعام ليحصي قطع ملابسهن. دون أن يسرق منها شيئاً بالطبع. وسيقول لك بأن الآنسة بانر تملك زوجين من الأحذية وزوجين

من الجوارب الطويلة، أحدهما أسود، والآخر أبيض، ثم سيخبرك أنها تملك مظلة واحدة وخمس قبعات، إضافة لستة أزواج من القفازات وإلخ. سوف يحصي كل قطعة بأمانة. لكنه لن يتمكن أبداً من معرفة أي جزء من الجسم يجب أن تغطيه تلك الملابس! لكنني من خلال لولو، تمكنت من معرفة الكثير عن الأجانب بصورة أسرع. كما استطعت أن أعرف منه لاحقاً لماذا يعتقد السكان المحليون أن هذا البيت مسكون بالأشباح. فقبل سنوات عديدة، كان هذا البيت قصراً صيفياً، مملوكاً لتاجر ثري. والذي مات هنا ميتة غامضة ومرعبة، ثم ماتت زوجته من بعده بنفس الأسلوب. أفراد العائلة الأربعة ماتوا هنا بشكل مرعب. الأصغر منهم ثم الأكبر، كان يحصل هذا في كل مرة يكتمل فيها القمر. لكنني مثل لولو، لم أشعر بالخوف من هكذا قصة، إلا أنني يجب أن أقول لك يا ليبي: إن الذي حصل في ذلك البيت في السنين الخمس التالية، كان كفيلاً بأن يقنعني أن التاجر الشبح، عاد من جديد.

3

الكلب والوشاح

منذ انفصالنا وحتى اليوم، لم نزل أنا وسيمون نتشاجر بشأن رعاية كلبي بوبا، حتى إن سيمون طالبني بحقوق زيارته، وبالتنزه معه في أيام العطل. لم أكن لأمنعه من أخذ الأولوية في تنظيف مؤخرة ذلك الكلب، لكنني كرهت أسلوبه المتعجرف مع الكلاب، فقد اعتاد سيمون على تنزيه بوبا دون ربطه بسلسلة، تاركاً إياه يتقافز راكضاً في ممرات المشاة في بريسيدو[1]، أو تاركاً إياه ليركض في حقل كريسي[2] المغطى بالرمل. حيث تتنزه كلاب أخرى مثل البيتبول الشرس أو الروتوايلر، وحتى كلاب السبانيال المعتوهة، والتي تستطيع تمزيق كلب شيواوا صغير مثل بوبا إلى نصفين.

في ذلك المساء، جلسنا في شقة سيمون، نرتب ونحصي قيمة الفواتير التي تراكمت خلال سنوات من العمل، لم نكن قد فصلنا أعمالنا عن

---

(1) منطقة في سان فرانسيسكو.

(2) منطقة اخرى في سان فرانسيكو استخدمت فيما بعد كمهابط للطائرات العسكرية. عبارة عن مساحة منبسطة ورملية.

بعضها بعد. أخذنا نحسب قيمة الخصومات التي فرضتها علينا الضرائب، ثم قررنا أن ملف متعلقاتنا خلال الزواج يجب أن يعاد. توقف سيمون عن الحساب وقال:

- أيضاً يحق لبوبا أن يتنزه معي بحرية بين الحين والآخر.

- أجل، حتى يموت، تماماً مثلما مات سارج، هل تتذكر سارج؟

أخذ سيمون يحرك عينيه من اتجاه لآخر ثم توقف وحدق بي قائلاً:

- عدت لهذا الموضوع من جديد؟

سارج كلب كوان، من نوع هجين بين الكلاب البكينية والمالطية، كان من النوع العنيف الذي يتحدى أي كلب قد يلاقيه في الشوارع، منذ خمس سنوات أخذه سيمون في نزهة دون أن يربطه بسلسلة، مما جعل الكلب الطليق يمزق أنف كلب آخر من نوع البوكسر. ولم يكن من صاحب الكلب الآخر إلا أن طالب كوان بدفع ثمان مائة دولار كفاتورة للطبيب البيطري. قلت لسيمون أنه هو من يجب أن يدفع، لكن سيمون قال أن صاحب الكلب يتحمل مسؤولية الدفع، لأن كلبه استفز سارج ليهاجم. اضطرت كوان فيما بعد لمجادلة الطبيب في مستشفى الحيوانات حتى يقوم بتخفيض القيمة. عدت لسيمون:

- تخيل لو أن بوبا ركض باتجاه أي كلب عدواني مثل سارج؟

- رد سيمون بثقة: كلب البوكسر هو من بدأ حينها.

- لكن سارج كان كلباً عنيفاً، أنت الذي حررته من سلسلته، وانتهى الأمر بأن تكلفت كوان دفع فاتورة الطبيب البيطري.

- ماذا تقصدين؟ أعرف بأن صاحب الكلب الآخر هو الذي دفع.

- لا. لم يفعل. قالت كوان هذا أمامك حتى لا تشعر بالحرج. أنا التي أخبرتك بما حصل فعلا، هل تتذكر؟

لوى سيمون فمه وبدا على وجهه ذلك التجهم الذي يسبق الإنكار.

- لا أتذكر ذلك.

- بالطبع أنت لا تتذكر، لأنك لا تتذكر إلا ما تحب أن تتذكره.

شعر سيمون بالحنق، ورد باحتقار: آه، كأنك لا تفعلين ذلك أيضاً. وقبل أن أتمكن من الرد عليه، رفع يده ووضع كفه أمام فمي ليوقفني.

- إنني أعرف. أعرف أنك تملكين ذاكرة قوية، لا يمكن لها أن تنسى شيئاً، لكن دعيني أقول لك شيئاً: استعادتك لكل تفصيل وعدم قدرتك على النسيان، ليس لهما علاقة بذاكرتك، هذا له علاقة بلعنة الحقد التي تتمسكين فيها.

ما قاله سيمون جعلني منزعجة طوال تلك الليلة. هل أنا حقاً من النوع الذي يتمسك بسيئات الذاكرة؟ لا أظن. إنه سيمون الذي اتخذ موقفاً دفاعياً ورمى بتعليقه اللاذع علي. هل دفعته لفعل هذا لمجرد أنني ولدت بذاكرة تحتفظ بكل الأشياء؟ كانت العمة بيتي أول من قال لي بأني أملك ذاكرة فوتوغرافية. ذلك أنني قمت بتصحيح ما قالته في وصفها لأحد الأفلام أمام الأصدقاء. والذي كنا قد شاهدناه سوية من قبل. هذا ما جعلني أؤمن بأني سوف أصير مصورة فوتوغرافية حين أكبر. ها أنا اليوم أصنع لقمة عيشي بفضل وقوفي خلف عدسة آلة التصوير. لكنني ما زلت غير متأكدة مما يعنيه الناس بالذاكرة الفوتوغرافية. إنني لأ أتذكر الأشياء ببساطة مثل من يقوم بتقليب مجموعة من الصور، أظن أن ذاكرتي أكثر عمقاً وانتقائية. فلو أن أحداً سألني عن عنوان بريدنا حين كنت في السابعة

من عمري، لما تمكنت من إجابته مباشرة، ولما خطرت لي الأرقام في الحال. كنت لأستحضر مشهداً ما يربطني بتلك الأرقام. سأتذكر درجة الحرارة في ذلك اليوم، ورائحة عشب الحديقة المجزوز، ضربات السيور الجلدية التي تصفع كعبي وأنا أركض بحذائي ثم أصعد السلم ذو الدرجتين لأصل لصندوق البريد وقلبي يخفق فيما يداي تتحسسان الرسائل، أين هي؟ أين الرسالة الغبية التي أنتظرها من راديو الفنون[1] لتخبرني بقبوله لانضمامي إليهم. سأظن للحظة أنهم أخطئوا العنوان. لكن لا. ها قد عثرت عليها بين الرسائل. في الأسفل أرقام الصندوق النحاسية: 3624. كاملة، ومثبتة ببراغٍ صدئة.

هكذا، أتذكر غالباً، ليست الأرقام والعناوين، بل الألم الذي يعلق في الذاكرة، تلك الكتلة التي تعلق في الحلق لتذكرني بأن العالم يعبث بي ويحاول إجباري على الانصياع. هل هذا هو الحقد الذي ذكره سيمون؟ لقد أردت بشدة أن يستضيفني راديو الفنون في ذلك الوقت الذي كان يقدم فيه برنامج: الأطفال يقولون أكثر الأشياء غرابة. حيث يمكن للأطفال أن يصيروا مشهورين. كنت أريد أن أثبت لأمي أنني طفلة مميزة، نكاية بكوان، ولأثير غيظ الأطفال في الحي ولأجعلهم يرون كم أنني ظريفة بشكل لم يعرفوه من قبل. كنت أحضر لما سأقوله في البرنامج طوال الوقت بينما أتجول بدراجتي الهوائية في الشارع. قررت أن أخبر مقدم البرنامج عن كوان، عن الأشياء المضحكة فيها فقط. تماماً مثل هادئ الجنوبي[2]، الاسم

---

(1) شبكة راديو وتلفزيون عريقة تبث في أمريكا منذ 1942. والمقصود بالاسم هو مقدم البرامج آرثر غوردون مؤسس البرنامج linkletter.

(2) تقصد فيلم : جنوبي الهادئ، جنوب المحيط الهادئ. وهو فيلم موسيقي أنتج عام 1958.

الخطأ والمضحك، الذي كانت تظنه اسم الفيلم الذي تحبه، فيما هو : جنوبي الهادئ. حينها سوف تجحظ عينا مقدم البرنامج، ثم يرفع حاجبيه مستنكراً: أوليفيا، لا بد أن أختك تقصد فيلم جنوبي الهادئ؟ ثم سيضرب الناس في القاعة ركبهم بأيديهم وهم يضجون بالضحك فيما سأظهر أنا ببراءتي الطفولية وتعبيري اللطيف.

الفن القديم أراد أن يصورنا نحن الأطفال على أننا ملائكة، وأننا طيبون وساذجون، لا نقصد قول الأشياء المحرجة، ولا نفعلها. مع أنني متأكدة أن الأطفال جميعاً في ذلك البرنامج، يعرفون جيداً عن ماذا يتحدثون. لكنهم لا يتحدثون بصدق عما يفعلونه. إنهم أحياناً يلعبون لعبة الطبيب والممرضة، أو يسرقون العلكة والألعاب النارية ومجلات كمال الأجسام من على ناصية المتجر المكسيكي المجاور في شارعنا. أراهم يفعلون كل هذا. إنهم يشبهون أولئك الأولاد الذين كبلوا يدي في الحي ذات مرة وحاولوا التبول علي وهم يسخرون ويقولون: أوليفيا أخت الفتاة المعاقة. لقد لاحقوني حتى شرعت بالبكاء، وصرت أكره كوان، وأكره نفسي أيضا. بعد تلك الحادثة، قامت كوان بمواساتي، أخذتني كوان معها إلى متجر حلويات يدعى الأحلام اللذيذة، اشترت لي البوظة وجلسنا نلتهمها على مهل في الخارج فيما الكلب المشرد الذي أنقذته أمي يقعي عند أقدامنا، منتظراً نصيبه من قطرات البوظة الذائبة. سألتني كوان: ليبي، ما معنى (عاق) تلك الكلمة التي ناداني بها الأولاد؟

صححت لها: تقصدين معاق. شددت على الكلمة وأنا أقولها. كنت لا أزال غاضبة من كوان ومن أولاد الحي. لعقت المزيد من بوظتي وأنا أفكر في الأشياء المعاقة.التي تفعلها كوان. قلت لكوان: معاق تعني فانتو، بالصينية. إنها تعني شخصاً لا يفهم أي شيء، أومأت كوان برأسها موافقة،

أضفت: شخص يقول الأشياء الخطأ في التوقيت الخطأ، أومأت برأسها ثانية، تكونين معاقة عندما يضحك الأولاد عليك دون أن تعرفي سبب ضحكهم. ظلت كوان صامتة لمدة طويلة حتى بدأت أشعر بوخزة في صدري ولم أعد أشعر بالراحة. خرجت عن صمتها في الأخير لتسألني: ليبي، هل تظنين أن كلمة معاق تلك تعنيني أنا؟ أجيبيني بصدق. استمريت بلعق قطرات الحليب الذائبة عن أطراف قمع البوظة خاصتي وتجنبت النظر في عيني كوان، لاحظت أن الكلب يحدق بي أيضاً فازداد شعوري بالحنق، ثم ما لبثت أن تنهدت تنهيدة كبيرة وأنا أجيب كوان: لا ليست تعنيك حقاً. لم أتمالك نفسي بعدها، جننت حين ابتسمت كوان ابتسامة عريضة وهي تربت على يدي فصرخت في الكلب: كابتن، أيها السيئ، توقف عن التوسل. انطوى الكلب المسكين خائفاً، أما كوان فقالت بصوت سعيد وهي تلاعب الكلب: لا، إنه لا يتوسل، إنه يأمل فقط، ثم قربت قمع بوظتها من رأس الكلب آمرة إياه: تكلم الإنجليزية! هيا، عطس الكلب مرتين مطلقاً صوته المبحوح. تركته يلعق من البوظة ثم عادت وأمرته: الآن: تكلم الصينية!، فما كان من الكلب إلا أن نبح مرتين بنباح رفيع. استمرت بعدها بتقديم البوظة للكلب، كانت فرحة لأنه أطاعها، وكم شعرت بأنني غبية لغضبي وأنا أراها فرحة هكذا مع الكلب.

لاحقاً وفي تلك الليلة، ظلت كوان تلح علي وتسألني عن معنى الكلمة التي نعتها بها الأولاد، ظلت تضايقني بسؤالها حتى ظننت أنها معاقة حقاً. أخذت تبث أفكارها: ليبي: هل نمت؟ حسناً، إنني أعتذر. ابقي نائمة، إنه ليس بالأمر المهم، أردت سؤالك من جديد عما تعنيه كلمة معاق، لا بأس، نؤجل السؤال للغد، ربما بعد عودتك من المدرسة. ربما من المضحك الآن أن أخبرك أنني ظننت أن الآنسة بانر كانت معاقة ولم تكن

تفقه شيئاً، أنا التي علمتها كيف تتحدث يا ليبي، ليبي هل استيقظت؟ إنني آسفة، عودي للنوم فقط. لكنني أخبرك بالحقيقة، لقد كنت معلمتها. لقد كانت تتكلم مثل الأطفال حين التقيت بها للمرة الأولى، كلامها يثير الضحك، لكنها لم تهتم، فكل منا لم تتقن لغة الأخرى، كنا نتفاهم بالإشارات مثل ممثلتين تقلدان بعضهما على المسرح، نحرك أيدينا، نشير بأعيننا، ونغير مواضع أقدامنا محاولات أن نوضح قصدنا. بهذه الطريقة أخبرتني بما كانت تفعله قبل مجيئها إلى الصين. قالت إنها ولدت لعائلة سكنت قرية بعيدة، بعيدة جداً إلى الغرب من جبل الشوك، في وسط البحر الصاخب، في أرض يسكنها ناس كلهم سود، بعيداً وراء بلاد الجنود الإنجليز، وبلاد البحارة البرتغاليين. كانت أرضهم كبيرة، أكبر من كل هذه القرى مجتمعة. كان والدها بحاراً يملك الكثير من السفن التي يقوم بإرسالها إلى أراضٍ أخرى، حيث جمع الكثير من المال الذي كان ينبت تماماً مثل الأزهار، إن مجرد اشتمام رائحة ذلك المال كان يجعل الكثير من الناس سعداء. لكنها حين صارت في الخامسة من العمر، فقدت أخويها الصغيرين، اللذين أخذا يطاردان دجاجة في أحد الأيام، إلى أن سقطا في فوهة البركان، وذهبا إلى العالم الآخر. لم تفهم أمها الأمر، فرفعت رأسها مثل ديك وأخذت تجوب الأرض منقبة عنهما كل يوم منذ الصباح إلى أن تغيب الشمس، في النهاية عثرت على ذات الحفرة التي سببت الثقب في الكرة الأرضية! فما كان منها إلا أن تسلقت حتى الحفرة ولحقت بابنيها إلى العالم الآخر. بعد ذلك، أخبر الأب بانر بضرورة البحث عن أمها وأخوتها الضائعين، أخذها وأبحرا في البحر الصاخب حتى وصلا إلى جزيرة بغيضة، حيث تركها والدها لتعيش في قصر يسكنه أناس ضئيلو الأجسام يشبهون المسيح، وبينما تركها والدها وانطلق ليجمع المال الذي كان ينمو في

كل مكان مثل الزهور. قام المسيحيون الصغار برجمها، وقصوا لها شعرها الطويل[1]! عندما عاد أبوها بعد عامين، اصطحبها من هناك ليتركها في جزيرة أخرى، كانت مملوءة هذه المرة بالكلاب التي طاردتها ذات يوم ومزقت ثوبها بينما والدها في أرض أخرى، يجمع المال كما تجمع الزهور[2]. ركضت حول الجزيرة تستنجد بأبيها الذي لم يكن موجوداً، وبدلاً عن أبيها عثر عليها رجل من الأجانب. أبحرت معه إلى الصين حيث انتشر الأجانب هناك، لكنها لم تعثر على عائلتها في الصين. وفي يوم ما وبينما هي ممددة قربه في السرير، بدأت حرارة جسده ترتفع بشدة، ثم تنخفض بشدة، إلى أن انتفخ بطنه مثل بالون، ثم سقط في البحر[3]. لحسن حظها التقت بأجنبي آخر، يحمل معه الكثير من البنادق، حملها معه إلى المعسكر. في كل ليلة تقريباً، يضع البنادق قرب السرير، ويكون على بانر أن تنظفها جميعاً قبل أن تنام. في يوم ما، استطاع ذلك الرجل الاستيلاء على جزء من الصين، الجزء الأجمل المغطى بالقصور والمعابد الفخمة. أبحر بعدها على متن جزيرته العائمة (سفينته)، أهدى القصور لزوجته، وأعطى الجزيرة للملك. بعدها، التقت بانر بغريب آخر، أمريكي. لكن هذا الأخير كان يمشط لها شعرها، ويطعمها الخوخ، لقد أحبته كثيراً، إلى أن جاء يوم اقتحم فيه الهاكا غرفتهما وأخذوه بعيداً. في النهاية، هرعت بانر إلى المبشرين طالبة النجدة. طلبوا منها أن تركع على ركبتيها ثم قالوا لها: صلي، فصلت. حملوها معهم إلى جينتيان، إلى حيث سقطت في الماء، حيث قمت أنا بإنقاذها.

---

(1) تشير بانر هنا إلى إحدى الإرساليات المسيحية، حيث سكنت معهم وتقصد بالمسيحيين الصغار أطفالاً مسيحيين عاشوا معها هناك.

(2) كل ما ستنقله كوان عن بانر في هذه الصفحات سيتم تفسيره في الصفحات اللاحقة بشكل منطقي يشرح ما قالته بانر لكوان.

(3) تسرد ذكرياتها كطفلة.

لاحقاً. تعلمت بانر مزيداً من الكلمات الصينية، ثم عادت لتحدثني عن حياتها من جديد. كم صارت حياتها مختلفة الآن عما سمعته منها قبلاً! حتى أن الذي تخيلته عنها صار مختلفاً أيضاً. ولدت بانر في أمريكا، وهي أبعد من إفريقيا، ومن إنجلترا والبرتغال. أما قرية أهلها التي سمتها (nu ye) التي بدت بالصينية بقرة القمر، فليست سوى نيويورك على ما أظن. حتى إن شركة السفن التي سمتها روسيا أو روسو، لم تكن ملكاً لأبيها، لم يكن أبوها سوى موظف في الشركة التي كانت تشتري الأفيون (الزهور التي قصدتها بانر) من الهند، ثم تبيعه في الصين. توزع أحلام الأفيون المريضة على الصينيين.

عندما كانت بانر في الخامسة، لم يمت أخواها جراء سقوطهما في حفرة وهما يطاردان دجاجة. لقد أصيبا بجدري الدجاج. دفنوهما في الساحة الخلفية للبيت. بعد ذلك بحين، لم تنتفخ عنق أمها مثل الديك أبداً. لقد أصيبت بورم خطير في الغدة الدرقية، لم يمهلها طويلاً، إلى أن دفنت قرب ولديها في ساحة البيت الخلفية. بعد تلك المأساة، حملها والدها معه إلى الهند، حيث المسيحيون الصغار هم مجرد طلاب في مدرسة دينية إنجليزية، ليسوا مقدسين كما ظننت، كانوا مجرد أولاد مزعجين وغريبي الأطوار. عندما عاد والدها وحملها معه إلى ملقة، تركها هناك من جديد في مدرسة إنجليزية أخرى، وكان أولادها أكثر تمرداً وفوضى من الذين كانوا في الهند، مما جعلها تراهم كالكلاب.

تركها والدها وعاد إلى الهند ليستورد مزيداً من الأفيون، لكنه هذه المرة، ذهب بلا رجعة، دون أن يعرف أحد السبب. ظلت وحيدة والحزن ينهش قلبها، بلا أب ولا مال أو مأوى. فيما بعد، كانت لم تزل عذراء حين التقت برجل اصطحبها معه إلى جزيرة ماكاو، هناك حيث يكثر البعوض، لم

يلبث طويلاً إلى أن أصيب بالملاريا ومات، ثم ألقوا جثته في البحر. عاشت بعدها مع قائد من قادة الحملة الإنجليزية، قاتل في صف المنشوريين ضد المبشرين. وكان يقبض ثروة على كل مدينة يتمكن من احتلالها. أبحر في النهاية عائداً إلى إنجلترا، حيث أنفق ثروته هناك على زوجته وعلى الحكومة الإنجليزية. في المرة التالية، ذهبت بانر لتعيش مع جندي آخر، أمريكي هذه المرة، ويقاتل مع المبشرين ضد المنشوريين. تمكن من جمع ثروة هو الآخر عن كل مدينة أحرقها . في الأخير، أشارت الآنسة بانر إلى أن أياً من هؤلاء الرجال لم يكن من أعمامها[1].

بعد سماعي لقصة الآنسة بانر قلت لها حينها: من الجيد أن أولئك الرجال الذين نمت معهم لم يكونوا أعمامك، كان هذا سيقع وقع الصاعقة على عماتك. ضحكت كثيراً حينما قلت لها هذا الكلام. كما ترين يا ليبي، في ذلك الوقت، كنا متفاهمتين، نضحك معاً، ونتبادل الأحاديث والأشياء، حتى إن حذائها القديم الذي أعطتني إياه في ذلك الوقت، بدأ يضيق على قدمي بسرعة، لكنني تمكنت من تعليمها الصينية قبل أن يضيق تماماً. عندما بدأت بتعليمها قلت لها أن اسمي نونومو، لكنها نادتني مو. بدأنا نجلس في ساحة بيت الإرسالية وأخذت أعلمها أسماء الأشياء، تماما كما لو أنها طفلة صغيرة. تعلمت مني بانر بسرعة ونهم كما لو أنها طفلة حقاً، لم يكن عقلها مغلقاً أو صدءاً مثل عقول المبشرين الباقين بألسنتهم الثقيلة التي لا تتعلم أو تقول غير ما هو مألوف. أما هي فامتلكت ذاكرة غير عادية، ذاكرة أكثر من ممتازة جعلتها تلتقط كل ما أقوله لها، لتلفظه مباشرة دون أن تنساه.

---

(1) بدافع من تبرير طفولي، كانت بانر أخبرت كوان بأن اولئك الرجال الذين التقت بهم هم أعمامها.

علمت بانر أن تتعرف على العناصر الخمسة التي تكون الأرض، من الحديد، والخشب والنار والماء والتراب، شرحت لها عن الشمس وكيف تجعل الأرض صالحة للحياة بشروقها وغروبها، عن الريح والغبار، عن البرد والحر، عن التراب والمطر. لتتذوق وترى وتسمع ما يستحق أن يُعاش، صهيل الأحصنة، عواء الريح، وقع الحصى وهو يسقط في الماء. علمتها ما يستحق أن تخافه في هذا العالم، الخطوات المسرعة في الظلام، صوت الثياب وهي تتمزق، النباح المتواصل للكلاب. والصمت المطبق لصراصير الليل.

أخبرتها عن الأشياء التي يمكن مزجها معاً، عن الماء والقذارة اللذين يصنعان الوحل، عن الماء والنار اللذين نصنع منهما الشاي، وعن الأجانب والأفيون اللذين إذا جمعناهما معاً، يصنعان لنا المصائب! علمتها أن مذاق الأشياء المعتقة واللاذعة والمالحة لا يمكن أن ينسى. بقدر ما يمكن أن ننسى أنفسنا ونعرفها من خلال الأشياء. فذات يوم، أشارت بانر براحة يدها إلى مقدمة صدرها وطلبت مني أن أخبرها عن اسمه بالصينية، قالت:

- آنسة مو، أتمنى لو أعرف ماذا يعني هذا بالصينية.

أدركت بسرعة أنها تعني قلبها، كانت تريد أن تعبر عما في داخله.

في اليوم التالي اصطحبت الآنسة بانر إلى جولة في المدينة. رأينا ناساً يتشاجرون، قلت لها: هذا هو الغضب. وحين مررنا بالمذبح وشاهدنا امرأة تقدم النذر وتتبرع بالطعام أشرت لبانر: هذا هو الاحترام. أما اللص الذي صادفناه بنير حديدي في عنقه فقلت لبانر أنه يعني العار. وأخيراً، وحين وصلنا إلى النهر رأينا فتاة ترمي شباكها المرقعة في الماء الضحل محاولة اصطياد السمك، شرحت لبانر أن ذلك يعني الأمل. حاولت تعليمها كيف

نعبر عن المشاعر، لكنها لاحقاً وحين شاهدنا رجلاً يحاول ضغط جذع شجرة ليمرره عبر الباب الذي كان صغيراً، أشرت لبانر أن ذلك أمل أيضاً، لكنها قاطعتني مسرعة:

- لا، ليس أملاً، إنه مجرد غباء، يأتي من الأرز الذي يعشش في رؤوسكم. أخذت أفكر في تلك المشاعر التي عددتها لبانر، وإن كان الأجانب يملكون مشاعر مثلها، أو أن مشاعرهم تختلف تماماً عن تلك التي يحملها الصينيون في داخلهم؟.. لعل جميع أحلامنا وآمالنا ليست سوى ضرباً من الغباء بالنسبة إليهم.

مع مرور الوقت، علمت الآنسة بانر كيف ترى العالم كله مثل مخلوقة صينية. لكنها قالت لي أنها تكره نكهة صراصير الليل[1]، إنها تشبه أوراق الشجر الميتة، تسقط، تصدر صوتاً مثل طقطقة الورق وحسيس النار، رائحتها تفوح مثل رائحة الغبار، أما مذاقها المقذع، فيشبه مذاق الشيطان بعد أن تقليه بالزيت. كرهت بانر صراصير الليل وافترضت أنها لا يجب أن تكون ضمن مخلوقات هذا العالم. ورغم إنها صارت تعبر بحواسها الخمس عن مشاعرها، تماماً مثل أي صيني، لكنها كانت تمتلك حاسة سادسة إضافية، حاستها الأمريكية التي تكسبها الأهمية، والتي جعلتها تصل إلى آراء ونتائج مختلفة عن تلك التي أصل إليها، وهذا ما سبب الخلافات بيننا لاحقاً.

---

(1) في تلك الفترة كان الصينيون يستخدمون بعض أنواع الحشرات ضمن طعامهم.

لمعظم فترة طفولتي، بذلت جهداً كي لا أنتبه إلى العالم الذي تصفه لي كوان، حاولت تحاشي كلامها عن أشباحها، وبعد أن تعرضت للصدمات الكهربائية، نصحتها أن تتظاهر بأنها لا ترى تلك الأشباح وإلا فإن الأطباء لن يتركوها لتخرج من المستشفى. أشارت لي كوان حينها موافقة:

- آه، تقصدين أن أحتفظ بالسر، أومأت برأسها موافقة وأضافت: أنت فقط التي تعرف.

لما عادت إلى البيت، اضطررت للتظاهر بأن أشباح كوان موجودة، حتى أبين لها كيف تكون غير موجودة أمام الآخرين. حاولت الحفاظ على هذا التناقض بين الحالتين مما جعلني أخيراً أرى ما لا أرغب برؤيته. كيف لي أن أقاوم رؤية الأشباح أصلا، فيما معظم الأطفال يتخيلونها قرب أسرتهم في الليل دون أن يحتاجوا وجود أخت مثل كوان. لكن المميز في أشباح كوان، هو أنهم كانوا يصعدون إلى سريرها، ثم يستندون جالسين قبالتها. لقد رأيتهم. إنني لا أتحدث عن أشباح بيضاء تظهر في النيجاتيف بعد التقاط الصور لتجعلنا نصرخ متعجبين، أشباح كوان لم تكن خفية مثل تلك التي اعتدنا تصويرها في التلفاز وهي تحرك الأكواب والأقلام رافعة إياها في الهواء. بدت أشباحها حية فعلاً، كانوا يتحدثون إليها عن الأيام الجميلة الغابرة، يثرثرون، يقلقون ويستمرون أحياناً بالشكوى، حتى أن أحدهم خدش عنق الكلب في إحدى المرات، وطفق كلبنا كابتن يرفع قدمه وذيله ثم يحك عنقه. لكنني وعكس كوان، لم أتحدث لأحد عما أرى. خوفاً من أن يأخذونني للمستشفى مثلها ويعرضوني للصدمات الكهربائية. بدا الأمر كما لو أن مشاعر ناس آخرين من حياة أخرى قد انتقلت إلي، لم يكن كل شيءٍ أحلاماً، بعضها بدا أقرب إلى الحقيقة، كما لو أن عيناي صارتا آلة عرض سينمائي، تتجول في حيوات الآخرين.

أتذكر يوماً عادياً، ربما حينما كنت في الثامنة. جلست يومها وحيدة على سريري، وأخذت ألعب بلعبة الباربي التي أملكها، أُلبسها الملابس ثم أبدلها، فجأةً، سمعت صوتاً يقول: (gei wo kan). التفت إلى مصدر الصوت وإذا بدمية شاحبة تجلس على سرير كوان، أخذت تطالبني برؤية لعبتي. لم أشعر بالخوف أبداً، لطالما بقيت هادئة عند رؤية الأشباح كأن جسدي كله ممزوج بالمهدئات. سألت تلك الدمية بكل تهذيب: من تكونين؟ أجابتني بسرعة بصوت منتحب: ليلي، ليلي، ليلي. رميت الدمية إلى سرير كوان فتلقفتها ليلي ثم نزعت نسيج ثوبها وأخذت تحدق تحت طبقة الساتان الضيقة التي ظلت تغطي جسد اللعبة. لم تلبث أن بدأت بنزع أجزاء اللعبة بعنف، نزعت يديها وقدميها. حذرتها لكي تتوقف عن تحطيمها، لكنها استمرت. مر زمن حتى انتبهت إلى فضولها ودهشتها، ثم إلى خوفها حين ظنت أن اللعبة ماتت! لم أسأل نفسي لماذا استطعت كشف مشاعرها، كنت خائفة من أن تأخذ باربي معها إلى بيتها. قلت لها:

- يكفي الآن، أعيديها إلي في الحال.

ظلت صامتة، كأنها لا تسمعني فما كان مني إلا أن اقتربت وانتزعت اللعبة من يدها ثم عدت مسرعة إلى سريري، غير أني انتبهت لاختفاء الريشة التي كانت على وشاح اللعبة، عدت وصرخت فيها لتعيد الريشة، لكنها كانت قد اختفت. انتبهت لحظتها إلى أن حواسي عادت إلي، وأنها كانت مجرد شبح. بحثت تحت الأغطية، وأسفل الأسرة، بحثت عند زاوية جدار الغرفة وفتشت كل الأشياء، دون أن أعثر للريشة على أثر. أمضيت كل الأسبوع أمشط كل صندوق أو خزانة أو مكان في البيت، دون أثر. قررت أخيراً أن دمية الفتاة الشبح تلك قد سرقتها مني. لكن الآن، وبعد أن كبرت، لا بد أن أفكر في تفسير أكثر منطقية، ربما قام كلبنا كابتن بدفنها

في الساحة الخلفية للمنزل، أو أن أمي سحبتها وهي تنظف بمكنستها الآلية، أو شيء من هذا القبيل. بما أنني كنت طفلة حينها، لا بد أنني لم أكن أفرق جيداً بين الواقع والخيال، كانت كوان ترى الأشياء كما تؤمن بها، أما أنا فكنت أرى الأشياء التي لم أرغب في الإيمان بها.

تقدمت في السن أكثر، واستبدلت أشباح كوان من مخيلتي، حل مكانها سانتا كلوز، وذو السن السحرية وأرنب عيد الفصح. لم أخبر كوان بذلك حتى لا أدفعها إلى الحافة مجدداً إن حاولت إقناعي بأشباحها من جديد. استبدلت بصمت مفهوم كوان عن أشباح عالم ين بقديسي الكنيسة ومخلوقاتها المقدسة التي تسبح في عالم الحاضر وعالم الآخرة. تعاملت معها بسعادة كأنني أقوم بجمع الحسنات والهبات الخيرة لأجل الله. تماما مثلما كنا نفعل حين نشتري من منتجات شركة سبيري وهنسون[1]. حين كنا نشتري من بضائعهم ونكافئ بطوابع خضراء نجدها على كتيبات الشرح. نجمعها حتى نحصل على هدية من الشركة، ربما محمصة خبز، أو آلة أخرى. بهذا الشكل، يحصل الإنسان على تذكرة واحدة بلا رجعة، للجنة، للجحيم، أو ربما يظل معلقاً للأبد بينهما. وفقاً لما فعله من سيئات أو حسنات خلال حياته. لكن لو أنك ذهبت إلى الجنة، فلن تعود أبدا إلى الأرض كشبح، ربما تعود كقديس، ربما لم أحفل بهذا بقدر ما أعجبتني الفكرة.

سألت أمي ذات مرة عن الجنة، أجابتني بأنها مكان نقضي فيه عطلة أبدية. حيث يتساوى فيه كل البشر، من ملوك وأساتذة ومتشردين وأطفال صغار.

---

(1) شركة أدوات منزلية تأسست عام 1930 واستمرت لعام 1980 كانت اول شركة تستخدم فكرة تقديم هدايا للزبائن عن طريق الطوابع.

سألت أمي: حتى نجوم السينما هناك؟

ردت أمي: نعم، قد تلتقين بكل أنواع البشر، ماداموا طيبين كفاية ليدخلوا الجنة.

في الليل، بينما كوان في السرير تغمغم بلغة صينية مبعثرة، كنت أحصي على أصابعي أنواع الناس الذين أريد لقاءهم في الجنة محاولة ترتيبهم من الأهم إلى الأقل أهمية. لا بد أن عددهم محدود، سألتقي خمسة منهم في كل أسبوع، أولا الله، ثم المسيح، ثم مريم. لا بد أن أعطيهم الأولوية. ثم يتبعهم أبي ثم أفراد العائلة المقربون ممن توفوا. لكن ليس أبي بوب، قد أنتظر مئة عام لأضعه على قائمتي. انتهيت من ترتيب مواعيد الأسبوع الأول في الجنة، ممل لكنه ضروري. الأسبوع الثاني سيكون مرحاً وأكثر أهمية، سوف ألتقي فيه الناس المشهورين إن كانوا قد ماتوا. سألتقي بالبيتلز[1] وبشيرلي تيمبل[2] وهايلي مايلز[3] ودواين هاكمان[4]. وربما ألتقي بمقدم برامج المواهب في الراديو، ذلك المثير للاشمئزاز الذي يجب أن يدرك أنه يجب أن يستضيفني في برنامجه.

في بداية مراهقتي بدأت رؤيتي لفكرة الحياة بعد الموت تصير أكثر خفوتاً وشحوباً. بدت لي النهاية مجرد مكان يشبه قصراً عظيما يحوي معرفة لا يمكن لها أن تنتهي، حيث تكون كل ظواهر الكون مرتبة فيه كما تكون الكتب على أرفف مكتبة وسط المدينة، لكنها فقط أضخم. سوف تتردد في

---

(1) أشهر فرقة بريطانية في التاريخ عزفت موسيقى البوب منذ الستينات.

(2) مغنية وممثلة وسفيرة أمريكية سابقة 1928-2014.

(3) ممثلة مسرحية بريطانية شهيرة.

(4) من مواليد 1934 مقدم برامج وعازف بيانو وممثل امريكي معروف.

جوانبها أصوات الأتقياء وهم يصدحون بالمعرفة، كأنها تنطلق من داخلك، وليس مثل تلك التي تتردد في مكبرات الصوت. لكن إن كنت وضيعاً ولا أمل للخير فيك. فلن تذهب إلى الجحيم، لكنك ستدفع ثمناً ما، لكن لو كنت مجرماً أو أكثر سوءاً، سوف تذهب إلى قصر آخر، يشبه مدرسة داخلية يقيم فيها الأولاد المتأخرون في التحصيل، المجبرون على إتمام متطلبات النجاح. إلى حيث ينتمي الأولاد السيئون، المدخنون، والذين يهربون من بيوتهم، لصوص المتاجر والذين ينجبون أطفالاً دون زواج. إن اتبعت القوانين، ولم تجرح مشاعر المجتمع، فإنك لن تمر بكل هذا وستذهب مباشرة إلى الجنة. وللذهاب إلى الجنة يجب أن تتعلم إجابات تلك الأسئلة الشفوية التي يطرحها عليك الأساتذة في المدرسة والجامعة مثل سؤالهم عما يجب أن نتعلمه لنكون بشراً؟ أو لماذا يجب علينا مساعدة الآخرين ممن هم أقل حظاً منا. أيضاً سؤالهم عن كيف نتمكن من منع الحروب من أن تقع؟

في سنٍ أكثر نضجاً، أهملت كل هذا وتعلمت كيف أبحث عن الأشياء التي تنسى بمجرد فقدانها، تماماً مثل ريشة لعبتي الباربي، أو مثل حجر الراين الذي اختفى من سلسلة عنقي. شككت حينها بأخي تومي الذي أنكر وأخذ يقسم بأنه لم يسرقه. أكثر من ذلك انشغلت عن الآخرة بالدنيا وبدأت أفكر في إجابات لبعض الأحداث الغامضة. فكرت في إن كانت ليزي بوردون[1] قد قتلت عائلتها حقاً؟ من هو الرجل الذي يرتدي القناع الحديدي؟ وما الذي حصل حقاً لإميليا إيرهارت[2]؟ فكرت في

---

(1) امرأة ذاع صيتها في أمريكا في 1892 لاتهامها بقتل والدها وزوجة والدها، وقد أطلق سراحها لعدم وجود دليل ولم تحل القضية أبداً.

(2) امرأة طيارة وشهيرة، كانت تقوم برحلات قياسية على متن طائرتها إلى أن اختفت ذات يوم ولم يعثر أبدا على الجثة أو حطام الطائرة.

حقيقة كل الناس الذين ماتوا في حوادث غريبة أو تم إعدامهم، هل كانوا مذنبين أم بريئين؟ ومن بين كل الأسئلة ظل يلح علي السؤال المتعلق فيما إذا كان أبي قد أخبرنا بالحقيقة قبل موته عن الكيفية التي توفيت فيها والدة كوان، إذ لم أهتم بما أخبرتني به كوان عن الموضوع.

في سنوات الكلية، أدركت أنني لم أعد أؤمن بالجنة أو الجحيم بعد الآن. لا أظن أن أياً من هاتين الاستعارتين عن مكافأة الإنسان أو عقابه تنتميان حقاً للخير أو الشر المطلقين. بعد أن التقيت بسيمون في تلك الفترة، صرنا نقف معاً في مواجهة زملاءنا، ونخوض معهم نقاشاً عما يقبع بعد الموت:

- يا رجل، تعيش لأقل من مئة عام، وبمجرد موتك، وفجأة، تنتقل إلى حياة أبدية من مليارات السنين! إما تتمدد فيها على شاطئ جنة لا مثيل له، وإما يتم شواؤك في الجحيم مثل كلب. ثم هل من المنطق أن المسيح كان المخلص الوحيد للبشر ؟! ماذا سنفعل بالهندوس والبوذيين وباقي اليهود والأفارقة الذين لم يعرفوا المسيح؟ هل سوف نلقيهم في الجحيم أيضا؟ أما الكوكس كلان[1] فسيذهبون إلى الجنة بكل بساطة!! ثم ياه! ما هو وجه العدالة في كل هذا؟ هل سيتعلم الكون شيئاً من هذا كله؟

لم نكن أنا وسيمون نلتقط أنفاسنا في هكذا نقاشات مهمة وحادة أحياناً. معظم زملاءنا كانوا مثلنا، لا يؤمنون بوجود شيء بعد الموت، ربما مجرد أضواء تخفت، وينتهي كل شيء، لا ألم ولا جنة أو جحيم. قال لنا أحد أصدقاءنا ذات مرة، واسمه ديف. قال إن الخلود هي أن يستمر أحد ما في

---

(1) مجموعة عنصرية تمجد العرق المسيحي الأبيض وتنبذ باقي الناس وخاصة السود، ظهرت قبل قرن تقريباً.

تذكرك، تظل خالداً طالما أن أحداً ما يفعل هذا. لذا فإن أفلاطون، كونفشيوس، بوذا أو المسيح، هم خالدون. قال ديف ذلك بعدما طلبنا من الأصدقاء الوقوف لدقيقة صمت في ذكرى صديقنا إريك الذي قتل في حرب فيتنام.

علق سيمون على ما قال ديف سائلاً: حتى لو أنهم لم يحبوا الطريقة التي نتذكرهم فيها؟

رد ديف : أجل.

قاطعتهما فجأة : وماذا لو أن الناس تذكروا هتلر طويلاً، ونسوا إريك وغيره من الضحايا، هل سيعني ذلك أن هتلر خالدٌ أكثر من إريك!؟

هم ديف بالإجابة على سؤالي لولا أن سيمون قاطعه من جديد قائلاً لي وللجميع:

- كان إريك عظيماً، ولن ينساه أي منا، ولو أن هناك نعيماً من أي نوع، فإن إريك سوف يكون فيه بكل تأكيد.

أتذكر أنني أحببت سيمون في ذلك اليوم، لأنه أسرع وقال ما كنت أشعر به تجاه إريك وأردت قوله في تلك اللحظة. كيف اختفت مشاعري تجاه سيمون فيما بعد؟ تلاشت تماماً مثلما تلاشت ريشة وشاح اللعبة، لكنني لم أبذل أي جهد لاستعادة مشاعري، هل يجب أن أبذل جهداً أكبر في البحث عنها؟

ليس صحيحاً أني أتمسك بالضغائن فقط كما نعتني سيمون، إنني أتذكر شبح الدمية، أتذكر إريك، أتذكر الطاقة التي كان يمنحني إياها الحب العميق والمتين، في ذاكرتي مكان أحتفظ فيه بكل هذه الأشباح.

4

بيت التاجر الشبح

حصلت أمي على صديق جديد، جيمي غوفريه. وبالطبع، لم أكن بحاجة لأن ألتقي به لأعرف بأنه فاتن، يكفي بالنسبة لأمي أن شعره داكن، وأنه يملك حق الإقامة في البلد، إضافة إلى لكنته المميزة التي فتنت أمي وجعلتها تسألني: أليس ساحراً يا أوليفيا؟ بالنسبة لأمي، تصير الكلمات أكثر جاذبية بمجرد أن يكافح رجل ما ليقولها لها، وتصير كلمة أحبك بالفرنسية، ذات وقع مختلف وجذاب عما هي عليه في العادة. ورغم رومانسية أمي، إلا أنها امرأة عملية، وتريد دوماً دليلاً على الحب، ترى أنها تعطي لتأخذ. باقة ورد مثلاً، دروس رقص مشتركة، وعداً بالإخلاص إلى الأبد، إنها تترك هذه الأشياء إلى الرجل ليقرر إن كان سيفعلها. كل هذا عدا عن تضحيات لويز اللازمة لأجل الحب، كأن تتخلى عن التدخين لأجل حبيبها وتحصل معه على أسبوع نقاهة مقابل ذلك في منتجع ما، ومن الأفضل لو يكون ذلك في كاليستوغا أو في حمامات وادي سونوما. إن المثير أكثر من كل هذا، هو اعتقادها بأن الرجال القادمين من (العالم الناشئ) سوف يتفهمون رغبتها في تبادل الحب بطريقة مادية كهذه بشكل أفضل. لم

تكن تقبل أن تسميه بالعالم الثالث. ترى أمي أن الرجال المحكومين بالدكتاتورية في تلك المستعمرات، يعانون فيها القمع، وأذى السوق السوداء، مستعدون للمخاطرة لأجلك أكثر من غيرهم، وسيبذلون كل ما بوسعهم لكسب قلبك، إنهم يتضرعون لعقد صفقة.

بهذه الأفكار، عثرت أمي على حبها الحقيقي لعدة مرات مع عدة رجال! ربما بعدد المرات التي ضحت فيها وأقلعت عن التدخين. كانت إذا لم تعثر على فرصة للذهاب إلى بلد ناشئ على حد قولها، تذهب في رحلة إلى الهند أو إيرلندا أو حتى إيران. حيث يقطن الرجال المتفهمون!

في هذا الصباح، أشعر بالابتهاج، لأن أمي طلبت أن تزورني حتى تخفف عني. وربما لتمضي معي ساعتين من الزمن وهي تعقد مقارنة بين زيجتينا الفاشلتين، وعن زوجها بوب وزوجي، ستشكو لي على الأغلب عن قلة ولاءهما، وعن عدم رغبتهما في تقديم أي تضحية، يأخذان فقط ولا يرغبان في إعطاء شيء. وبينما تستمر في تعداد مساؤهما، سوف تشير إلى كرمها وكرمي في العطاء من صميم قلبينا. سوف تأخذ سيجارة مني ثم تستطرد:

- شعرت بأن الطلاق قادم لا محالة، اشتممت رائحته القوية عندما ذهب سيمون إلى هاواي وتركك هنا وحيدة مع الزكام. هل تتذكرين يا أوليفيا؟

- أنا التي طلبت منه الذهاب يا أمي، لقد اشترى حينها تذاكر غير قابلة للاسترجاع، كان بإمكانه شراء واحدة فقط، لم يكن من الجيد أن أثنيه عن الذهاب.

- لكنك كنت مريضة حينها، كان عليه أن يبقى ويصنع لك حساء الدجاج بدلاً من أن يلهو على الشاطئ.

- كان يلهو مع جدته! كانت في فترة نقاهة بعد إصابتها بسكتة. بدا صوتي مثل طفلة وأنا أبرر لأمي.

ابتسمت بإشفاق قبل أن تقول: يا حبيبتي، لست مضطرة إلى الإنكار بعد الآن. ألا تتذكرين؟ أنا أمك، وأعرف كيف تشعرين. أخذت نفساً من سيجارتها قبل أن تعود وتعلق بأسلوب تقليدي وقاطع كأسلوب عامل بسيط: لم يمنحك سيمون الحب الكافي لأنه بليد، أما أنت، فتحبين بسخاء، وليس من شيءٍ خطأٍ فيك.

أومأت موافقة بجفاف ثم قلت: أمي، في الواقع، يجب أن أتوجه إلى العمل الآن.

- حسناً. وتطلعت إلى ساعتها ثم أضافت: سوف يقوم فنيو المتفجرات بالتخلص من شقتي عند الساعة العاشرة، لا بد من الانتظار لساعة أخرى حتى أطمئن أنهم انتهوا.

هكذا، بقيت في مكتبي بعد ذلك، لكنني لم أستطع التفكير في العمل. يا إلهي، كيف قررت أمي كم أحمل من طاقة للحب في داخلي!؟ ألا تعرف كم مرة آذتني فيها دون أن تدرك ذلك حتى؟ ثم تجيء لتشكو لي من أن الزمن الذي أمضته بصحبة بوب كان مجرد وقت ضائع، إذن، ماذا عني، ماذا عن الوقت الذي لم تمضه معي أبداً؟ ألم يكن ذلك خسارة أيضاً؟ لم أعد طفلة صغيرة تشكو الإهمال الآن، لكن لماذا تلح علي الصور؟ ها أنا أراني في الثانية عشرة، أتمدد قبالة سرير أختي. واضعة فمي على طرف المخدة، حتى لا تسمع كوان ما أتمتم به من كلمات قبيحة، بينما تهمس لي كوان:

ليبي: هل هنالك شيء؟ لعلك مريضة، ربما أكلت الكثير من كعك عيد الميلاد؟ في المرة القادمة لن أصنع الكثير من الحلويات. ليبي، لعل

هديتي لم تعجبك يا عزيزتي، فقط قولي لو لم تعجبك وسأحيك لك سترة جديدة، فقط قولي لي ما اللون الذي تريدينه لها، أي لون، ولن تستغرق حياكتها أكثر من أسبوع. سأغلفها لأجلك وأهديك إياها من جديد.

ظللت أتمتم ولم أجبها فأضافت: أنا متأكدة أن أبي وأمي سوف يجلبان لك هدية جميلة حين يعودان من منتجع يوسميت، سوف يريانك الصور من هناك أيضاً، صور جميلة للثلج، وهو متراكم على قمة الجبل. أووه. أرجوك يا عزيزتي، لا تبك، لا لا أنا متأكدة أنك لا تقصدين ما تقولينه الآن. كيف تقولين أنك تكرهين أمك!؟ يا إلهي، ووالدك بوب أيضاً؟! آه .

بعد أن سمعت كوان ما قلته، تمتمت شيئاً ما بصينية غير مفهومة.

عادت لتطلب مني الإذن بإنارة ضوء الغرفة: ليبي، هل أستطيع إشعال النور؟ أريد أن أريك شيئاً.

لا تغضبي، حسناً، ها قد أطفأت النور من جديد، أترين، كنت أريد فقط أن أريك القلم الذي سقط من جيب بنطال أبينا بوب. عندما تقومين بإدارة رأسه ليفتح، يظهر نقش سيدة برداء أزرق، إن أدرته حتى الأخير، هههه! يختفي ثوبها. إنني لا أكذب، انظري بنفسك، سأنير الغرفة لتريه، هل أنت مستعدة؟

آه، توقفي عن البكاء يا ليبي، عيناك تورمتا من البكاء، يكفي. سأضع خرقة رطبة على الورم حتى يخف وإلا لن تكونا جميلتين غداً في الصباح. انظري لهذا القلم، لقد رأيته يتسلل هارباً من جيب أبينا بوب في قداس الأحد، لاحظت ذلك لأنني كنت أراقبه وهو يتظاهر بالصلاة، عرفت ذلك لأنه أخذ يشخر، كان يغط بالنوم فدفعته دفعة صغيرة، لم

يستيقظ، لكنه توقف عن الشخير. ألا ترين هذا مضحكاً؟ لماذا لا تضحكين يا ليبي؟

على أي حال، بعد ذلك انشغلت بالنظر إلى ورود عيد الميلاد، إلى الشموع والكؤوس الملونة. أخذ القس يحرك مشكاة البخور يميناً ويساراً، ومن بين الدخان، شاهدت المسيح، أجل، إنه المسيح! فكرت في أنه حضر حتى يطفأ شموع عيد ميلاده، قلت لنفسي: أخيراً تمكنت من رؤيته، لا بد أني صرت كاثوليكية الآن. كنت أنظر مبهورة عندما استفاق والدنا بوب ودفعني لأنتبه، لكنني بقيت أبتسم للمسيح حتى انتبهت فجأة إلى تقاسيمه، أوه، لا، ليس هذا المسيح، إنه صديقي القديم من حياة أخرى، إنه لولو.

أخذ لولو يشير إلي ويضحك: لقد خدعتك، أليس كذلك؟ لست هو، هل تظنين أن المسيح كان أصلعاً مثلي؟[1]. تقدم لولو وتجاوزني، اقترب من والدنا بوب ولمس بإصبعه الصغيرة المضيئة مقدمة رأسه، صفع بوب نفسه ظناً منه أن ذبابة ما حطت على رأسه، في تلك اللحظة سحب لولو القلم من جيبه، وبكل خفة، تركه ليسقط في فتحة ثوبي ثم قال ساخراً: لماذا تذهبين إلى كنيسة الأجانب، هل تظنين أن الكرسي الوثير القابع أسفل مؤخرتك سوف يساعدك على رؤية المسيح!؟

اعذريني، لا تضحكي يا ليبي، أعرف أن لولو تحدث بقلة أدب، لكنني أظنه كان يتذكر آخر حياة سابقة عشنا فيها معاً. لقد كنا مضطرين للجلوس على قاعدة حجرية صلبة لمدة ساعتين في صلاة كل أحد، أجل في كل أحد وبرفقتنا الآنسة بانر. حضرنا الصلوات لعدة سنين، دون أن نتمكن من رؤية المسيح، ولا حتى مريم، علماً أنه في تلك الحياة، لم يكن من

---

(1) في الفقرة إشارة إلى الصورة الغربية المعممة لكل العالم عن المسيح وعن شكله. وفي الفقرة سخرية من تلك الفكرة الاعتباطية.

المهم أن يرى أحد مريم، فرغم أنها كانت أم المسيح، لكنها كانت مجرد محظية لأبيه أيضاً! أما في هذه الأيام، فهيهات أن نتخلص منها، كنيسة القديسة مريم، مشفى مريم، جمعية مريم الخيرية. ماري أم الإله، اغفري لنا خطايانا! إنني سعيدة لأنها تحصل على الدعاية هذه الأيام. لكن في تلك الأيام، لم يتحدث المبشرون عنها إلا نادراً. لذا كنت أقلق بشأن إمكانية رؤيتي لله فقط. أتصدقين؟ في كل يوم أحد كان يسألني المبشرون: هل تؤمنين؟ وكنت أجيب: ليس بعد. ربما يفترض أن أكون مهذبة وأقول نعم، لكنني لم أحب أن أكذب. كنت قلقة من أن شيطان الأجانب سوف يزورني بعد موتي ليعاقبني على أكثر من شيء، ربما لعدم إيماني،ولتظاهري بأنني مؤمنة. أعتقد بأنني لم أتمكن من رؤية المسيح لأنني صينية، عيناي صينيتان. لم تتمكن الآنسة بانر من رؤيته أيضاً، أخبرتني أنها لا يمكن أن تنتمي لذلك النوع المتدين من البشر. سألت الآنسة بانر عن عدم رغبتها بالتدين فتطلعت إلي وأجابت باستهجان:

- لقد صليت لله أن ينقذ أخوتي، صليت له حتى يبقي على أمي، ولأبي حتى يعود بعد أن رحل. أظن التدين يجعلك تهتمين بالأمل، لكن آمالي ذهبت أدراج الرياح، فبماذا أحتاج الإيمان بعد اليوم؟

- آه، لم تعودي تأملين بشيء؟ كم هذا محزن.

- ربما تبقت لي بعض الآمال البسيطة، لكن لا شيء منها يستحق الصلاة لأجله.

- ولا حتى لأجل حبيبك؟

- شهقت بانر بنبرة حزينة: آه، ولا حتى لأجل حبيبي. إنه لا يستحق أي صلاة هو الآخر. لقد هجرني. كتبت له رسائل عديدة وبعثتها

إلى مقر البحرية في شانغهاي. كان موجودا هناك برفقة وحدته العسكرية ولم يرد. حتى عندما صار قريباً في غيلين، ويعرف مكاني تماماً، لم يرد. لماذا لم يأت لزيارتي حتى؟

في ذلك الحين، لم أعرف أن حبيبها هو الجنرال كاب بحد ذاته!! قلت: أما أنا، فما زلت آمل أن ألتقي بعائلتي مرة أخرى. ولأجل ذلك، ربما يجب أن أؤمن بالمسيح.

- ردت ساخرة: لتؤمني فيه، يجب أن تمنحيه كل جسدك!

- كم منحته أنت؟

- قبضت على طرف إبهامها بيدها ورفعته أمامي، أترين، بهذا القدر.

فيما بعد، أصبت بالذهول بسبب صلوات الأحد تلك. ظننت كالمعتوهة أن الإيمان سوف يكلفني منحه قدمين على الأقل، أو جزءاً آخر من جسدي. عرفت أن بانر اضطرت أن تعمل في صلاة كل أحد، لأن القس بحاجة لمن يترجم خطبة الأحد. لم يكن الأجانب يفهموننا، ولم نكن لنفهم إنجليزيتهم. لهذا أجبر القس بانر على الوقوف كل أحد بباب الكنيسة، لتقوم بدعوة الصينيين للكنيسة ولتترجم خطبة القس، لم يكن هنالك من خيار، وإلا فإنها سوف تخسر المأوى والطعام اللذين تعطيهما إياها الكنيسة. كان القس يبكي ويتضرع إلى الله بالإنجليزية، أما هي، فتترجم كلامه منادية على الناس: تعالوا، أسرعوا وادخلوا إلى بيت الله، سوف تحصلون على وجبة من الأرز بعد الاجتماع!

تلك الكنيسة كانت بيتاً للتاجر الشبح وعائلته فيما سبق. كانت معبدا خاصاً فيه، تنتمي لآلهته وأسلافه الميتين. ظن لولو حينها أن الأجانب

وقعوا على أسوء اختيار حين قرروا أن يجعلوا من ذلك المكان كنيسة. قال لولو أن ذلك يشبه صفعة على الوجه، وأن إله الحرب سوف يأتي على صهوة حصانه قريباً لينتقم. إنه قادر على طمرهم بروث حصانه فقط. أضاف بوثوق: سوف ترين: سيأتي عما قريب.

في النهاية، استمر المبشرون بحملتهم، كانوا يمشون في المقدمة، تليهم الآنسة بانر ثم لولو وأنا. أما في الكنيسة، عمل معنا صينيون آخرون، خادمتان، طباخ، نجار، وعامل إصطبل، وآخرون نسيتهم. أخيراً، بدأ الناس يحضرون إلى الكنيسة، معظمهم من الشحاذين، وبعض من الهاكا، ثم جاءت امرأة عجوز، ركعت مؤدية الصلوات أمام المذبح لثلاث مرات. ظلت تركع مثل عبدة رغم أننا طلبنا منها عدم تكرار ذلك. جلس معظم القادمين الجدد في المقاعد الخلفية تحسباً من ظهور شبح التاجر في أي لحظة، كان الجلوس هناك يسهل لهم الهروب! أما أنا ولولو، فبقينا نحتفظ بمقاعدنا الأمامية، مباشرة مقابل المبشرين. ما إن يرفع الواعظ رأسه وتقع عيناه علينا، حتى نصرخ، آمين، آمين. سميناه بالقس آمين. حتى إن اسمه كان قريباً من تلك الكلمة، هامين، أو ربما هاليمين. كان من الممنوع أن نتحرك أثناء جلوسنا على مقاعدنا، السيدة آمين (الواعظة) كانت تقفز أمامنا واضعة إصبعها على فمها محذرة إيانا من إصدار أي إزعاج. هكذا، أخذوا يعلموننا عن المحرمات: لا تحك رأسك المليئة بالقمل، لا تمسح أنفك بيدك، ولا تلعن لأي سبب. كان لولو يلعن دائماً، خصوصاً إذا أفسد أحد عليه نومه. بالطبع كان ممنوعاً أن نغفو أثناء الخطبة، عدا عن تلك اللحظة التي يستعد في الواعظ للدعاء وقول آمين، كان الجميع يغلقون أعينهم، يستغل لولو ذلك لأخذ أطول غفوة ممكنة، أما أنا فكنت أبقي عيني مفتوحة، أراقب وجه الواعظ، وأجول بنظري لعل المسيح يظهر قادماً

من السماوات. رأيت ذلك يحدث مرة مع واحد من المبشرين، دخل الله إلى جسد ذلك الرجل العادي، رفعه في الهواء، ثم طرحه أرضاً، وحين أفاق الرجل، صار يملك قوى خارقة، حتى أن السيوف التي كانت تحاول طعنه، كانت تلتوي ثم تتحطم إلى نصفين من تلقاء نفسها. لم يحدث شيء من ذلك للواعظ. لكنني انتبهت في إحدى المرات إلى شحاذ كان يقف أثناء الصلاة على باب القاعة، لا بد أن الآلهة الصينية تفعل ذلك، تتنكر أحياناً على هيئة شحاذ وتأتي لتتطفل على ما يحدث، لترى من يؤمن، ومن يقدم الولاء لآلهة الأجانب. أظن أن آلهتنا غاضبة الآن لرؤيتها آلهة الأجانب وهي تحتل المكان الذي كان يجب أن تكون هي فيه. بعد لحظة، نظرت إلى الباب من جديد، كان الشحاذ قد اختفى.

من يعلم، ربما يكون هو الذي سوف يتسبب بتلك المصائب التي سوف تحل علينا بعد خمسة أعوام.

بعد انتهاء وقت الصلاة، تبدأ الحفلة، يعظ القس لخمس دقائق، يتحدث ويتحدث، ثم يتحدث المبشرون بعدة بلغات لا نفهمها، تتكرر كلمة آمين مرة تلو أخرى، ثم تبدأ بانر بالترجمة إلى الصينية:

إياكم والانزلاق مع الشيطان، قولوا آمين. ثم تشرح عن شروط دخول الجنة وتكرر: قولوا آمين. أحضروا رفاقكم معكم في المرة التالية، هيا جميعاً: آمين، آمين. ما إن يتفرق الحاضرون، حتى يبدأ الهمس عن مدى شعورهم بالملل. يتذمرون من اضطرارهم للجلوس لساعتين كاملتين كالأصنام حتى تتخدر مؤخراتهم وتتخدر عقولهم أيضاً.

الجزء الوحيد الذي كان يعجب الجميع، هو العرض الذي يأتي في النهاية، والذي تقدمه الآنسة بانر مستخدمة صندوق الموسيقى الخاص بها.

لم يكن صوتها جميلاً، لكن بمجرد أن تبدأ الموسيقى، نشعر جميعاً أن معاناتنا قاربت على الانتهاء. ما إن تصدح الموسيقى حتى يرفع القس يديه مطالباً إيانا برفع أيدينا بينما تتقدم السيدة آمين وتنهرنا لنرفع أيدينا، تلك المرأة العصبية، المسماة لاشر، كنا نطلق عليها السيدة آمين، والسيدة الأخرى سميناها ماوس. كان هنالك طبيب أيضاً، أسميناه ليتل، هكذا كان وقع اسمه الإنجليزي علينا حين نحاول قوله بالصينية، لا عجب أنه كان يخيف المرضى بمجرد أن يسمعوا اسمه. كانت مهمة الطبيب تتضمن أن يقوم بتشغيل صندوق موسيقى الآنسة بانر. وبمجرد أن يشتغل، يبدأ هو والآنسة بانر والسيدة آمين بالغناء، تنساح الدموع من عيني السيدة آمين بينما يبدأ الحاضرون في السؤال عما إذا كان الصندوق يحوي أجانب صغار جداً، يغنون من داخله!

قالت لي الآنسة بانر فيما بعد بأن ذلك الصندوق هدية من أبيها، وأنه الذكرى الوحيدة المتبقية من عائلتها. في داخله احتفظت الآنسة بانر بدفتر مذكرات صغير، أما تلك الأغنية التي كانت تنطلق من الصندوق، هي مجرد أغنية ألمانية تتحدث عن الشرب والرقص مع فتيات جميلات. ظلت كذلك إلى أن كتبت السيدة آمين كلمات جديدة لنرددها مع اللحن: نحن من نمشي خلف المسيح بساقين تتبعان الإيمان، حين يظهر الموت من الركن، سوف نقابل إلهنا. إلخ. يا لها من كلمات من ذلك القبيل. نبهتني الآنسة بانر حينها: هل ترين: لم أنس كلمات الأغنية القديمة، لكن تم الآن تغييرها.

بكل حال كنا نسمع تلك الأغنية كل أحد، ثم نطلب من الناس الذهاب إلى الخارج وتناول طبق من الأرز كهدية من المسيح. معظم الشحاذين ظنوا أن المسيح إله حقول يملك الكثير من مزارع الأرز.

في أيام الآحاد التالية، بدأ القس والسيدة آمين يتحدثون لخمس دقائق، فيما تترجم الآنسة بانر لثلاث دقائق. في أحيان أخرى تقوم بانر بالاختصار أكثر، وتصبح المدة أقصر وأقصر. حتى أن أحد الصلوات استمرت لساعة ونصف الساعة فقط. عندما انتبه القس لذلك، استدعى بانر وخاض نقاشاً معها، وأجبرت من جديد لتترجم لنا بذات المدة التي يتكلم فيها القس، لكنها لم تعد تتحدث عن شروط دخول الجنة أو أي شيء من ذلك القبيل. صارت تروي لنا الحكايات، وتتحدث عن مملكة بعيدة، فيها عملاق، عاش مع ابنة النجار الذي كان ملكاً هناك... حتى ينتهي دورها في الترجمة فتترك الحديث للقس حتى يكمل ثم تطلب منا أثناء ذلك التفكير في القصص التي كانت ترويها، لنفكر فيها إن كانت الأميرة ماتت، أو استطاعت إنقاذ العملاق. في النهاية لم يفهم أحد لغة القس. كانت الآنسة بانر تطلب من الناس بمجرد انتهائهم من التهام الأرز، أن يقولوا آمين بصوت عالٍ!

بعد مدة، بدأت الكنيسة تأخذ مكانة أفضل، وصار الشحاذون يأتون من كل صوب ليستمعوا إلى قصص الآنسة بانر الساحرة. والتي احتفظت بها منذ الطفولة. شعر المبشرون بالسعادة لقدوم المزيد من الناس، شعر الناس بالسعادة لأنهم كانوا يلتهمون الأرز كل أحد. الآنسة بانر بدت سعيدة أيضاً. أنا الوحيدة التي كنت أشعر بالقلق، ماذا لو انتبه القس إلى ما كانت تقوله، ماذا لو فهم يوماً لغتنا؟ هل كان سيعاقبها؟ هل يجب أن أقلق من أن المبشرين سيجمعون الحطب ويحرقونني إذا ما عرفوا أنني لا أعلم القس الصينية بشكل صحيح؟ ربما لو عرف القس لشعر بالجنون وشنق نفسه. أما الناس الذين يجيئون لأجل قصص بانر ولأجل الأرز، لا لأجل المسيح، هل سيذهبون في الآخرة إلى جحيم الأجانب!؟

عندما أخبرت الآنسة بكل مخاوفي تلك، ضحكت مني كثيراً ثم عقبت:

- لا، لا شيء من هذا سوف يحصل.

- وكيف تعرفين؟

- لأنه إن كان الناس كلهم سعداء هكذا، فلماذا يؤدي هذا إلى الأذى والجحيم؟

تذكرت حينها ما قاله الرجل الذي عاد يوماً قبل مغادرتي لجبل الشوك، لقد قال لنا أن السعادة العظيمة، تأتي بعد طوفان من دموع الحزن.

حظينا بعدها بخمس سنين من السعادة، أصبحت أنا والآنسة بانر صديقتين مخلصتين. أما ما تبقى من الأجانب المبشرين، فظلوا أجانب بالنسبة لي. مع مرور الوقت، أخذت أكتشف أسرارهم شيئاً فشيئاً، كان لولو يخبرني بالأفعال المخجلة التي يراهم يرتكبونها وهو يرقب من خارج نوافذهم. حدثني كذلك عن الأشياء الغريبة التي شاهدها في غرفهم. قال أنه شاهد الآنسة ماوس ذات مرة وهي تضم شعر شخص ميت وتبكي. ثم رأى مرة الطبيب ليتل يمتص حبوب الأفيون حتى يخفف من ألم معدته. ولا ننسى السيدة آمين العصبية، التي تخفي خبز الإرسالية في خزانتها الخاصة، والغريب أنها لم تكن تتذوق شيئاً منه، لقد سمعها تقول أنها تحتفظ بالخبز كمؤونة إلى أن يحين يوم القيامة. أغرب من كل هؤلاء، كان القس الذي أرسل برقية إلى أمريكا ذات يوم، وقال فيها أن مئة شخص آمنوا بالمسيحية، رغم أن واحداً فقط، كان قد تحول إلى المسيحية في ذلك الحين.

قلت للولو أني أعرف شيئاً من أسرارهم أيضاً، وأعرف أن الآنسة ماوس معجبة بالطبيب ليتل، إلا أنه لم يلاحظ إعجابها. ذلك أن الطبيب

كان معجباً بالآنسة بانر، لكن الآنسة بانر تظاهرت بعدم الانتباه. لم أخبر الطبيب بالطبع أن الآنسة بانر ما زالت تكن مشاعر الحب لحبيبها الثالث في قائمة قلبها، أظن أن اسمه كان وارن.

ظلت الأمور على ما هي لخمسة أعوام، لم يتغير شيء تقريباً، بعض الأمل، بعض الأمور الجيدة والأسرار. حتى أنا، صار لي أسراري أيضاً. لأنني ذات يوم، وأخيراً، حلمت بالمسيح، كان رجلاً يشبه الأجانب، شعره طويل، ذقته عريضة. ويمشي خلفه أتباع كثر. أخبرت الآنسة بانر بأني رأيت المسيح، لكن لم أذكر أني رأيته في الحلم فقط. سارعت الآنسة لإخبار القس بما قلته لها. فما كان منه إلى أن أرسل تلك البرقية قائلاً أن مئة شخص رأوا المسيح وآمنوا. لقد جعل مني مئة شخص. هكذا عرفت أنه يكذب. لم أطلب من الآنسة بانر أن تصحح له ذلك الخطأ في العد! كان سيشعر بحرج كبير لو فعلنا ذلك.

ليس هذا بسر سيء أمام سري الثاني الأسوأ. عندما تحدثت الآنسة بانر عن فقدان الأمل وفقدان عائلتها. أملت حينها أن أواسيها ببقايا الأمل التي أحملها في داخلي، وهذا ما جعلني أصلي لمئة يوم، حتى أدعوا أن يعود حبيبها إليها. كان هذا مصدراً لسعادتها. صرنا نجلس في غرفتها في الأمسيات الهادئة، نتحدث ونتحدث في الأمور المعتادة. في إحدى الأمسيات كنت جالسة في غرفة الآنسة بانر عندما طلبت منها أن نشغل صندوق الموسيقى. ردت مباشرة:

- بالطبع، هيا، ولنستمع لأي شيء.

فتحت الصندوق ولم أعثر على مفتاح التشغيل، فعادت بانر وقالت:

- إنه في درج الخزانة، اعثري عليه.

- ما إن فتحت الدرج وبحثت حتى وقعت يدي على منحوتة عاجية صغيرة، جذابة بحيث لا يمكن إهمالها، رفعتها بيدي وقربتها من وجهي، كانت منحوتة صغيرة لسيدة عارية. تذكرت أنني رأيت مثلها مرة من قبل. سألت بانر: من أين لك بهذه؟

- إنها من حبيبي، كانت تزين مقبض عكازه إلى أن انكسرت ذات يوم فأعطاني إياها للذكرى.

عرفت حينها، أن حبيب بانر لم يكن سوى ذلك الخائن، الجنرال كاب، والذي صليت كثيراً وطوال الوقت، حتى يعود إليها! أحرق ذلك الاكتشاف كل الآمال في رأسي. هكذا كتمت سراً آخر، أما السر الثالث، فهو أني صرت أصلي حتى لا يعود الجنرال كاب هذه المرة.

دعيني أخبرك في النهاية يا ليبي: لم أكن أعرف كم كانت بانر جائعة للحب، الحب الصافي لا يدوم، من الصعب العثور عليه أصلاً، أما ذلك القذر، فإنه الأقوى، والأقدر على ملءِ الفراغات. وهذا الأخير، هو نوع الحب الذي نما حول بانر منذ طفولتها، هذا ما اعتادت عليه، وربما رغبت فيه لاحقاً. ما أخذته بانر ذات يوم، سوف يعود عليها، بشيءٍ ما لاحقاً.



5
يوم الغسيل

بكل دقة، وللصباح الثالث على التوالي، يقرع جرس هاتفي في الثامنة وتكون كوان هي المتصلة بالطبع، كل مرة في اللحظة التي أكون فيها منشغلة بتحضير إفطاري. هذا الصباح وقبل أن أتمكن من قول مرحباً، عاجلتني كوان قائلةً:

- ليبي، اسألي سيمون عن ذلك المحل الذي يصلحون فيه أجهزة الستيريو، ماذا كان اسمه ؟

- ما مشكلة جهازك الستيريو؟

- يصدر الكثير من الإزعاج.

- هل حاولت ضبط المحطة، أو على الأقل ابتعدي عنه بعد تشغيله ولا تظلي ملتصقة فيه حتى لا تعترضي الإشارة، الجو ماطر اليوم أيضاً كما ترين.

- ليبي، لقد حاولت ضبط الإشارة عدة مرات، حسناً سوف أبتعد عنه، فقط اتصلي بسيمون واسأليه عن اسم ذلك المحل.

أنا في مزاج جيد هذا الصباح، لذا حاولت أن اترك كوان لأرى إلى أين سوف تمضي بخدعتها هذه، كنت أعرف اسم المحل، لكنني قررت تضليلها وإعطائها اسماً شبيهاً. قلت لكوان:

- نعم لا داع لسيمون، أعرف المحل، اسمه بوكوس، ومكانه في شارع السوق. قلت ذلك وصمت، شعرت أني أستمع لعقل كوان الآن وهو يضرب أخماساً بأسداس ويتخبط في اتجاه آخر.

- ردت كوان ضاحكة: آه، كم أنت فتاة سيئة، تكذبين، لا يوجد محل هناك يحمل ذلك الاسم.

قاطعتها مسرعة: وكذلك لا توجد مشكلة في جهازك الستيريو يا عزيزتي.

- حسناً، على الأقل اتصلي بسيمون وقولي له أن كوان تهنؤك بعيد ميلادك.

- في الحقيقة، كنت سأهاتفه لذات السبب.

- كم أنت سيئة يا ليبي، لماذا تعذبينني وتحرجينني إذن.

قالت ذلك وأطلقت ضحكة مدوية، وما إن التقطت أنفاسها حتى قالت: بعد مكالمة سيمون، لا تنسي أن تكلمي أمنا يا ليبي.

- قلت ساخرة، لماذا، هل جهازها الستيريو محطم أيضاً؟

- لا تسخري، بل قلبها هو الذي تحطم.

أصابني القلق فجأة: لماذا، هل من مشكلة، ماذا حصل؟

- أمي حزينة، صديقها الأخير، ذلك الذي يلحن في الكلمات، لقد تشاجرا، تعرفينه؟

- آه، تشاجرا، قلتها ببطء، الذي يلحن في الكلام.

- تابعت كوان، فعلا، يلحن ويزور الكلام حقاً، لقد تبين أنه متزوج من قبل، من سيدة تشيلية، لقد ظهرت فجأة وعكرت صفو كل شيء، ثم طالبته بالعودة إلى البيت!

- لا، قلتها وقد تسرب إلي شعور بالسعادة للتخلص من ذلك الرجل، لكنني في ذات الوقت شعرت بتأنيب الضمير لأني نسيت فجيعة أمي.

- جاءني صوت كوان من جديد: أمي ستجن، منذ أسبوع فقط اشترت تذكرتين للذهاب في رحلة على متن سفينة: قارب الحب[1]، حيث طلب منها غوفريه أن تدفع ثمن التذاكر. ومن ثم سيتكفل هو بدفع كل التكاليف لاحقاً. الآن، لن يتكفل بشيء، ولن تستطيع حتى الذهاب لوحدها أو إرجاع التذاكر. مسكينة أمي، لطالما اختارت الرجال الخطأ. أتعرفين يا ليبي، أنا أستطيع اختيار رجل أفضل لها، أفضل حتى ممن تختارهم هي. سأحاول ذلك، فقط تمني لي الحظ!!

- لا أظن أن تلك فكرة جيدة، خصوصاً الآن يا كوان.

- لكنني لا بد أن أحاول، هذا واجبي تجاهها.

لم أحتمل أكثر، أنهيت المكالمة مع كوان. إنها تتحدث عن واجبها تجاه أمنا كأنها هي المتضررة، لا عجب إذن في أن كوان تعتبر طلاقي الوشيك من سيمون خسارة جسيمة لها هي. لا بد أنها لم تزل تؤمن أنها من ربطت قدري وقدر سيمون مع بعضيهما، كنت أنا التي طلبت منها إقناعه ذات مرة. من الصعب أن أطلب منها الآن نسيان هذا الأمر.

---

(1) باخرة لرحلات شهر العسل ورحلات العشاق.

التقيت بسيمون منذ سبعة عشر عاماً، أثناء تلك المرحلة السخيفة من حياتينا، حيث كنا نؤمن بلغة الجسد فيما بيننا، و كنا مسحورين بالكيمياء البرازيلية[1]، وبناء على تشجيع كوان وأشباحها، بدأنا نتورط في قصة حب. وقعت في حب سيمون، فيما كان سيمون يحب امرأة أخرى، والتي ماتت قبل أن ألتقي بسيمون . لم أعرف عنها شيئاً إلا بعد ثلاثة أشهر من بدء علاقتي معه.

أتذكر رؤيتي لسيمون أول مرة، كان ذلك في بدايات العام 1976، كان يحضر صف اللسانيات في جامعة بيركلي ولم يكن بالإمكان عدم ملاحظته لأنه كان يحمل اسماً لا يناسب ملامحه الآسيوية أبداً، عدا أن ملامحه طاغية بين الأوروبيين القلائل الذين كانوا يشاركوننا الدروس حينها. كنت كلما حدقت فيه، أشعر بأنه توأم روحي، شبيهي في حياة ما أخرى. يدهشني هذا التقارب، وتدهشني فكرة تقاطع الجينات تلك. تذكرت أن تلك الصفات التي تميز عرقاً ما وتسيطر عليه، أو ينسبها إليه وحده فقط بدافع عنصري ما، ربما ليست صحيحة، أتذكر عدا سيمون، أني التقيت مرة بفتاة صينية اسم عائلتها تشان، لكنها كانت شقراء الشعر وتملك عيوناً زرقاء. عندما سألتها عن ذلك، عرفت أن جد والدها كان على علاقة سرية ذات يوم بامرأة بريطانية، وبأخرى برتغالية أثناء وجودهما في هونغ كونغ. أعجبتني الفتاة، لأنني كنت مضطرة دوماً لشرح مصدر اسم عائلتي الصينيين مقابل مظهري المختلط، لو أن شكلي يشبه أخوي أكثر، ربما بمظهرهما الإيطالي وشعرهما الطويل المتشابك، أو وجهيهما الأكثر ألفة.

---

(1) مفهوم شائع في البرازيل عن حركات معينة بين أشخاص معينين، تظهر مدى توافقهم مع بعضهم تماماً ككيمياء الحب وغيرها.

أتذكر ذلك لأن سيمون كذلك لم يبدُ عليه الانتماء لعرق معين، كان شكله مزيجاً مثالياً، نصفه صيني ونصفه الآخر من هاواي. تنصهر جيناته مع بعضها بقوة. عندما تم توزيع صف اللسانيات إلى مجموعات دراسية، وقعت مع سيمون في ذات المجموعة، لم نتحدث بيننا وقتها عن الأشياء التي نشترك فيها بوضوح.

أتذكر المرة الأولى التي أتى إلينا فيها على ذكر حبيبته، كنا منهمكين بالتحضير لامتحان نصف الفصل، كنت أدرس اللغة الأتروسكانية، وهي لغة شبه منقرضة ومعزولة عن اللغات الأخرى. فجأة أعلن سيمون أمامي: حبيبتي، إلزا، ذهبت ذات مرة في رحلة دراسية إلى إيطاليا وشاهدت تلك الأضرحة الأتروسكانية المبهرة. نظرنا إليه، كيف قال جملته تلك؟ كأنه قال: حبيبتي!؟ من هي حبيبته تلك، أليست ميتة الآن؟!، تماماً مثل اللغة الأتروسكانية التي كانت تدرسها. لقد تحدث عنها بعد موتها، تماماً كما لو أنها لم تزل حية ترزق، تجلس على متن الأورال[1] وتجوب أوروبا وترسل إليه البطاقات البريدية من توسكاني. بعد أن قال ما قاله، ساد صمت أخرق لبعض الوقت بدا سيمون خلاله مثل أبله يتحدث مع نفسه أمام الآخرين وهو ماشٍ في الطريق. يا له من شاب مسكين، شعرت لحظتها كيف تسارعت دقات قلبي واتجهت ناحيته.

ما إن انتهت الدراسة حتى صرت أتبادل عزائم القهوة مع سيمون، نجلس في المقهى لساعات ونثرثر عن حياة الآخرين، نتعمق في موضوعات كثيرة. أخذنا نتناقش عن البدائية من منظور غربي، واتفقنا على أن الحيوانية هي الشيء الوحيد الذي ينتج التمييز العنصري، قال أن السخرية والهجاء،

---

(1) قطار يجوب في أنحاء أوروبا.

لا بديل عنهما لكشف الحقائق، أضفت أن المحاكاة مهمة كذلك. قال لي سيمون حينها أنه يريد صنع فلسفته الخاصة، لتقود حياته، ولتمنحه تغييرات جوهرية. هكذا يمكن أن يتغير العالم، قالها بثقة وصمت.

في تلك الليلة بحثت في القاموس عن معنى كلمة جوهري، أردت أن تتغير حياتي مثله أيضاً، اعتقدت أن ذلك ممكن إن كنا سوياً، شعرت كأن سراً قد انكشف أخيراً، وأني عثرت أخيراً على نصفي الأفضل. واعدت قبل سيمون عديداً من الرجال، لمجرد أني انجذبت لأحدهم، لكن تلك العلاقات لم تكن تتجاوز قضاء أوقات ممتعة في الرقص وتبادل أحاديث عادية، إضافة للجنس في بعض الأحيان. كانت علاقات بسيطة وجميلة لا تزيد عن أخذ رشفة هواء صباحية قبل العودة إلى النوم، أما سيمون، فالعلاقة معه مختلفة، جعلني أضحك بقوة، أفكر بعمق، وأشعر بالشغف لاكتشاف حياة أبعد من مجرد نقاش حول كوب من القهوة. كنا نتبارز بأفكارنا، نتصارع حول المفاهيم ونرمي بها لبعضنا مثل لاعبي تنس محترفين، في الواقع، كنا نحلق ببعضنا حتى نرتفع بعيداً عن كوكب الأرض.

كم كان غريباً أننا نشترك في الكثير من الأشياء، كلانا توفي أحد والديه قبل أن يبلغ الخامسة، هو توفيت والدته. أما أنا فوالدي، هو كان يرعى سلحفاة مثل حيوان أليف، تماماً مثلي، لكنها ماتت لأنه تركها تسبح في بركة مرشوشة بالكلور. كلانا كان الوحيد بين أخوته، لسيمون أختان غير متزوجتين. هو أيضاً ترك لمربية منزل حتى تعتني به، أنا كذلك. أخبرته كيف تركتني أمي لكوان وأشباحها حتى يعتنوا بي! كنت أقول لسيمون: كم أنا مفتونة بك، حتى أكثر مما أنت مفتون بي، كنت أقولها وأضحك. كم أشعر بالخيبة، لأن الذي أضحكني يوماً، يسبب لي الألم الآن.

- قلت لسيمون متهكمة وقتها: أمي الجيدة تعمل في الخدمة الاجتماعية، تكرس كل وقتها لمساعدة الأجانب مهملة بيتها، بل إنها تحافظ على موعدها في الصالون لتطلي أظافرها، وغير مستعدة حتى لتمد إصبعاً واحداً كي تساعد أبناءها. إنها تحدثنا من خلال الهاتف غالباً، إنها ليست مريضة كما تعلم لكن...

- قاطعني سيمون بسرعة: في بعض الأحيان، جرح صغير يسبب لنا ألماً إلى الأبد، أعتقد أن قلة اهتمام أمك بك هو ما جعلك قوية كما أنت عليه اليوم.

لمست كلماته قلبي، أومأت موافقة على كلامه بحماس فيما تابع سيمون كلامه: في الحقيقة، صديقتي إلزا خسرت والديها حين كانت طفلة، كم كانت قوية حين التقيتها، أظن أن هذا هو السبب!

بتلك الطريقة، صرت وسيمون مقربين من بعضنا، نتحدث بعمق وحميمية عن أي موضوع. بدأت أنجذب إليه أكثر، بل وأشعر برغبة جنسية تجاهه فيما هو متشبث في مكانه لا يبدي أي رغبة جديدة تجاهي. كان يضع يده برفق حول كتفي ثم يتملص مني قائلاً:

لاغوني، أشعر بالإرهاق، إنني مضطر للمغادرة الآن، إن كنت ستدرسين للامتحان في نهاية الأسبوع فكلميني على الهاتف.

بهذه النهاية السريعة، يتركني أنسحب إلى شقتي وحيدة أجرجر خطاي. لقد ألغيت كل مواعيدي لليلة الجمعة حتى يتسنى لي لقاؤه. لعلني أتصرف بغباء في حبي له، ربما أحدق فيه كثيراً، أقهقه أمامه بصوت عالٍ، أسرح وأنا في صحبته كأنني مخبولة. لقد جعلني آوي إلى سريري وحيدة لمرات عديدة، أتقلب مع شهوتي دون أن أجد سبيلاً لإشباعها. أتساءل إن

كنت الوحيدة التي أخذ الحب عقلها في ذلك الحين؟ أعرف أن لديه صديقة أخرى لكنني أعرف أيضاً أن الإنسان وهو في الجامعة، يغير رأيه في أي شيء، وفي أي وقت. من الممكن جداً أن تصير صديقته الأخرى مجردَ ماضٍ، بين ليلة وضحاها.

لكن ذلك لم يحصل ببساطة، حتى إن رأي سيمون في جعلني أعرف أنه لم يلتفت لمغازلتي له:

- هل تعرفين ما الذي يعجبني فيك؟ ببساطة أنت تعاملينني كصديق حميم، وتتركين لنا المساحة لنتحدث في كل شيء، وعن أي شيء بعمق، دون أن تذكري الأشياء الأخرى بين الأصدقاء.

- ماذا تعني بالأشياء الأخرى؟

- أقصد حقيقة أننا... أنت تعرفين بالطبع، تلك الأشياء عن العلاقة مع الجنس الآخر.

- حقاً!؟ قلت متظاهرة بالذهول: أنت تعني العلاقة بيني كفتاة، وأنت كـ..؟

هه حقا، لعلني لا أعرف ما أنت!! ما إن قلت ذلك حتى أخذنا نضحك بجنون، لكنني في تلك الليلة انخرطت ببكاء شديد مؤنبة نفسي على غبائي، كم مرة أقسمت ألا أتشبث بأي أمل من علاقتي مع سيمون، كأنني ببساطة أستطيع منع نفسي من أن تحب! قررت على الأقل أن أحافظ على مكانتي الحالية عنده، استمريت بدوري كصديقة مخلصة. أرسم له ابتسامة على وجهي وأحتفظ بالألم في قلبي، توقعت أن نتجه للأسوأ، فقد بدأ سيمون باستحضار إلزا في كل حين، رغم معرفته جيداً أنها مصدر قلق لي.

وهكذا، عرضت نفسي لمازوخية الاستماع إلى سيمون طوال ثلاثة أشهر جعلتني أعرف معظم التفاصيل عن حياة إلزا. لقد عاشت إلزا قرب مدينة البحيرة المالحة. نشأ معاً حتى إنهما كانا يتعاركان معاً منذ سن الخامسة، وبسبب ذلك العراك حصلت على ندبة ملتوية مثل دودة على ركبتها كذكرى غريبة من أيام الطفولة. كانت رياضية أيضاً، تركب القوارب. وتحب الترحال، كانت خبيرة في التجول خلال البلاد على القارب. عدا عن ذلك، ملكت موهبة في الموسيقى، عملت كملحنة مبتدئة مع ارتورو بالس[1] في مخيم الموسيقى الشهير الذي كان يقام على التلة الزرقاء في مدينة ماين! حتى إنها كانت تكتب ألحانها الانطباعية عن ألحان غولدبيرغ![2].

كنت أقاطعه دائماً عند كل تفصيل يستحق عنها: حقا!؟ كل هذا، إنه مذهل. لكن المذهل حقاً كان إصرار سيمون في الحديث عن إلزا بصيغة الحاضر دوماً. حتى أني ظننتها لم تزل على قيد الحياة. في إحدى المرات انتبه سيمون إلى أن بعضاً من أحمر الشفاه علق على سني، وما كدت أمسحه حتى علق: لم تكن إلزا تضع أي نوع مواد التجميل، ولا حتى أحمر الشفاه، إنها لا تؤمن بهذه الأشياء.

يا إلهي، كم وددت أن أصفعها لو كانت موجودة في تلك اللحظة، وددت أن أصرخ فيه: وما الذي تؤمن فيه الآنسة إلزا!؟ تلك المتبجحة المخبولة، التي تود أن تكون مختلفة عن كل الدنيا، وتمشي وحدها مختالة بأخلاقها الإنسانية التي لا تمت لحيواناتنا بصلة! حتى لو كانت إلزا جميلة ومميزة، فإنني لم أزل أحتقرها، بالنسبة لي، هي لا تستحق سيمون، لماذا يجب

---

(1) ملحن وعازف بيانو شهير، وهو أمريكي من أصل بولندي.

(2) مجموعة ألحان كتبها الموسيقي الشهير خوان سيباستيان باخ.

أن يكون سيمون أحد مكاسب إلزا في هذه الحياة؟ لعلها تستحق ميدالية ذهبية لعبورها نهر الأمازون، أو تحصل على نوبل للسلام لنشاطها ضد عنف الأطفال، حتى إنها تستحق أن تعزف الأرغن ضمن جوقة في كنيسة المورمون، تستحق أي شيء مما تتقنه، لكن ليس سيمون.

أنا التي أستحق سيمون، أنا الأقدر على استكشاف خبايا روحه والوصول إلى أعماقه التي سدت إلزا الطريق إليها بنقدها المتواصل واعتراضها الدائم عليه، ربما إن قمت بتشجيعه وأثنيت على طريقة تفكيره. وهذا ما فعلته عندما عاد سيمون ليقول:

- ما رأيك؟ تعتقد إلزا أننا لا يجب أن نكتفي بالأشياء السهلة والواضحة، من الخطأ أن نركن إلى الاستسهال، لأن ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة.

- لكنك لا تستطيع الاقتناع بكل ما تقوله إلزا!

-نعم، هذا ما قالته لي أيضاً: لا يجوز أن تتمسك بشيء ما على أنه حقيقة نهائية، قالت إنها تكره أسلوبي هذا، وأن على المرء أن يسعى وراء استنتاجاته الذاتية في آخر الأمر. تماماً مثلما كتب والدن[1] انطباعاته الذاتية عن الطبيعة والحياة. بكل حال، كانت إلزا تصر على ضرورة النقاش، حتى نحفر بعمق بحثاً عن الحقائق التي نؤمن بها، و نعرف لماذا نؤمن.

- إنني أكره النقاش.

---

(1) كتاب، لمؤلفه هنري دافيد، كتب فيه انطباعات شخصية وفلسفية عن حياة عزلة عاشها في الغابات.

- إنني لا أقصد الشجار يا أوليفيا، بل مجرد جدال ودي، تماماً كما نفعل أنا وأنتِ.

حاولت أن أحافظ على مرحي وهو يعقد مقارنة أكرهها بيني وبين إلزا، قلت مبتسمة: وأنتما، بم كنتما تتجادلان؟

- مثلاً، تناقشنا ذات مرة عن مسؤولية المشاهير كمؤثرين مهمين، وليس مجرد ناس عاديين، هل تتذكرين عندما رفض محمد علي كلاي التجنيد؟[1].

- أجبت كاذبة: بالطبع.

أظن أنا وإلزا أنه كان عظيماً برفضه للحرب.تمت محاربته لذلك، لكنه في النهاية كسب بطولة العالم للوزن الثقيل، حتى أن الرئيس فورد دعاه ليزوره في البيت الأبيض. كانت إلزا مبهورة فيه وعلقت حينها: هل تصدق ما فعله؟

- قلت لها: لست أصدق، لو أني دعيت للبيت الأبيض، لذهبت.

-ردت إلزا: ستقبل دعوة رئيس من الحزب الديمقراطي، وخلال حملته الدعائية في سنة الانتخابات؟! لقد قامت إلزا بكتابة رسالة إليه في ذلك الحين.

- ماذا، كتبت رسالة إلى الرئيس؟

- لا يا أوليفيا، بل إلى محمد علي.

---

(1) محمد علي، ملاكم أمريكي أسود وهو الأشهر في العالم، مسلم، رفض القتال في فيتنام واعتبر الحرب جريمة إنسانية.

- آه، فهمت.

- تقول إلزا أنه لا يجب علينا أن نكتفي بالاستماع إلى السياسيين أو متابعة الأشياء عبر التلفاز فقط.، بل يجب علينا أن نعبر عن رأينا وإلا كنا جزءاً من تلك الأشياء.

- جزءاً من ماذا يا سيمون؟

- كما تعرفين، جزءاً من النفاق العام أو الفساد.

تخيلت إلزا في تلك اللحظة وهي تشبه باتي هيرست[1]، مرتدية قبعتها العسكرية وتطلق تصريحاتها المزعجة فيما بندقيتها تتدلى على خصرها.

- أكمل سيمون: إنها تؤمن أن على الإنسان أن يتخذ موقفاً أخلاقياً من الحياة. عدا ذلك فإن العالم المتصارع قد يذهب إلى حتفه، ربما خلال ثلاثين عاماً أو أقل! لذا فإن معظم أصدقاءنا رأوا أن إلزا متشائمة، لكنها كانت تصر على أنها متفائلة، لأنها تريد فعل شيء حتى يتغير العالم إلى الأفضل. ألا ترين أنها كانت متفائلة فعلاً؟

أخذ سيمون يفصح عن آراء إلزا التي شعرت بأن معظمها سخيفة، وأخذت أتخيل قسماته وهو يحكي عنها، شعرت بأنهما كانا ملتصقين مثل حرباتين تتبدلان، تخيلت قسماته وهي تتحول من قسمات رجل من هاواي، إلى قسمات رجل من الأزتيك، من فارسي إلى بوذي إلى بنغالي أو أندونيسي.

سألت سيمون ذات يوم:

---

(1) باتريسيا هيرست، ابنة أحد عمالقة النشر الصحفي في أمريكا، اختطفت عام 1974 من قبل جماعة متطرفة ثم قامت بتبني أفكارهم.

- ما معنى اسم عائلتك (بيشوب)؟

- نعم، من ناحية أبي، كان ضمن رهابنة الإرساليات، إنني أنحدر منهم، أوَتعلمين؟ الاسم ينتمي لجزيرة أوهو[1]، لقد ذهب والدي مع الرهابنة إلى هناك ليعالجوا المجذومين ويبشروا الوثنيين، لكن الأمر انتهى بهم بالزواج من بنات الأسرة الحاكمة وامتلاك نصف الجزيرة!

- هل تمزح معي؟

- مطلقاً، إنني أنتمي إلى ذلك القسم منهم والذي لم يرث أي ثروة أبداً، ولا حتى حقل أناناس، أو ملعب غولف صغير. أما من جهة أمي، فقد كانت عائلتها نصف صينية ونصف آخر من هاواي. ربما كانت على صلة قرابة ببعض الأميرات من هاواي، كن يشتركن في الجينات، لكن لا شيء مباشر يمكنني من الحصول على ملكية شاطئ في هاواي!

قالها وضحك، ثم عاد ليقول: قالت إلزا ذات مرة أني ورثت إيماني الأعمى بأشياء ما عن جانب الرهابنة من العائلة، أما أولئك الذين صاروا ملكيين فلم أرث عنهم سوى نزعتي لجعل الآخرين يكتشفون حاجاتي وينجزون أموراً عني أكثر مما يمكن أن أفعل أنا.

- لا أظن ذلك صحيحاً يا سيمون، حديثها عن طبيعتنا التي نرثها، كأننا محكومون بقدر يجعلنا أشخاصاً محددين بطبيعة محددة دون أن نملك أي خيار، أعني بذلك: ألم تسمع إلزا عن الحتمية من قبل؟

بدا سيمون كمن تلقى ضربة على رأسه، صمت للحظة وهو يفكر في سؤالي بينما شعرت أنا أني قمت بحركة رشيقة قهرت فيها إيمان سيمون

(1) إحدى الجزر من ضمن سلسلة جزر الهاواي.

بأفكار إلزا إلى أن عاد سيمون ليضيف: لكن ألا يتحدث مذهب الحتمية عن أن خيارات الإنسان محكومة بقوانين طبيعية خارجة عن إرادته، ألا يتفق هذا مع المعنى الذي قصدته إلزا!؟

- لكنني أعني... وأخذت أتلعثم وأنا أحاول استعادة ما تصفحته ودرسته في صف الفلسفة إلى أن استجمعت أفكاري: لكنني أعني، كيف يمكن لك أن تحدد ماهية تلك القوانين الطبيعية، أقصد من وماذا يحدد ما هو الطبيعي من غير الطبيعي!؟

قلت ذلك وأنا أهز برأسي محاولة الابتعاد بنفسي عن الغموض فقلت: إضافة لذلك، ما هي الخلفية التي بنت عليها إلزا أفكارها؟

- رد سيمون: كانت تنتمي للمورمون، لقد تبنوها حين كانت تبلغ عاماً من العمر، وأسموها إلزي، إلزي فان ديرفورت، لم تعرف من هما والداها الأصليان، لكنها ومنذ صارت في سن السادسة، استطاعت وبمجرد سماعها لأي أغنية، أن تعيد عزف لحنها قطعة فقطعة، حتى قبل أن تتعلم كيف تقرأ القطعات الموسيقية. لقد أحبت موسيقى شوبان ومندلسون وكوبلاند وآخرين نسيتهم. بعد ذلك، اكتشفت إلزا أن كلاً من هؤلاء الموسيقيين كان إما بولندياً أو يهودياً، ألا تجدين ذلك غريباً؟ بكل حال فإن عشقها لهؤلاء الموسيقيين جعلها ترى أنها إما بولندية، أو يهودية، ودفع بها لتغيير اسمها إلى إلزا بدلاً من إلزي.

- أشرت بذكاء على سيمون: لكن، أنا أحب باخ وشومان وبيتهوفن، لكن ذلك لا يجعل مني ألمانية!

- ليست الموسيقى فقط يا أوليفيا. لأن إلزا حين بلغت العاشرة، تعرضت لموقف غريب أقسم أنه حقيقي لأنني شهدت جزءاً منه، لقد

كانت تطالع في مكتبة المدرسة، وبينما كانت تقوم بتقليب صور الموسوعة المرئية عثرت على صورة لطفل يبكي مع عائلته فيما الجنود يحيطون بهم، بينما المعلق يقول بأن هؤلاء يهود تم أخذهم لأوشفيتز. لم تكن تعرف أين يقع أوشفيتز، بل لم تكن تعرف أنه معسكر اعتقال. لكنها حدست بشيء مريع جعلها تكتئب ثم ترتجف. وما كان منها بعد ذلك إلا أن ركعت على ركبتيها وأخذت ترنم بصوت عالٍ: أوشفيتزيم، أوشفيتزيم. شعرت أمينة المكتبة بالرعب، لكن إلزا لم تتوقف عن ترديد ما تقوله فاضطرت أمينة المكتبة إلى جرها جراً حتى عيادة ممرضة المدرسة. الآنسة سينباوم، والتي كانت بولندية الأصل، شعرت بالذعر لمجرد سماعها إلزا تردد تلك الترنيمة (أوشفيتزيم). حتى إنها ظنت أن إلزا تقول ذلك لتسخر منها، إذ أنها كانت تقول اسم المعسكر بالبولندية! ما إن استعادت إلزا وعيها، حتى تأكدت أن والديها كانا يهوديين بولنديين، نجيا من معسكر أوشفيتز!!

- ماذا تقصد يا سيمون بأنها تأكدت؟

لقد عرفت ذلك في حينها، تماماً كما تعرف الصقور كيفية التحليق في الهواء، أو كيف تتجمد الأرانب حين تخاف، إنها معرفة فطرية، لا يمكن لأحد أن يعلمنا إياها. لقد قالت لي بأن ذكريات أمها انتقلت من قلبها إلى رحمها. وانتقلت لتنطبع في دماغها حين كانت جنيناً.

- حقاً، قلتها بلا مبالاة، إنها تشبه أختي كوان!

- وكيف ذلك؟

لقد ابتدعت كوان كذلك نظرية لتبرر ما تؤمن به، لكن وبكل حال، الغريزة البيولوجية و الذكريات الداخلية ليست نفس الشيء، ربما أن إلزا قرأت عن أوشفيتز أو سمعت عنه سابقاً ثم نسيت ذلك. إن الناس

يشاهدون الصور القديمة أو الأفلام ثم يظنون بعد زمن أنها جزء من ذكرياتهم الخاصة كما تعلم، بعض الناس أيضاً يظنون أنهم مروا بذات الموقف أو الإحساس من قبل في زمن ما. يسبب كل هذا ضرراً في تغذية الذاكرة الطويلة المدى. ما أعنيه:

- هل إن إلزا تبدو حقاً يهودية أو حتى بولندية؟

ما إن سألته حتى خطرت لي فكرة خطيرة، عدت وقلت:

- سيمون، هل تحمل صورة لإلزا؟

أخرج سيمون محفظته فيما قلبي يخفق بسرعة شديدة مثل سيارة سباق لأنني قررت مواجهة منافستي على سيمون. خفت أن تكون فاتنة المظهر، خارقة الجمال مثل إنجريد بيرغمان[1] وهي تشع وحيدة مثل ضوء منارة قرب مسار مطار مظلم، أو مثل لورين باكال[2] وهي تعبس في أحد البارات ثم يتلاشى وجهها في الدخان. لكن الصورة أظهرت فتاة متسكعة ينحدر ضوء الغروب من خلفها فيما يتخذ شعرها المتجعد شكل هالة حول وجهها المتجهم. أنفها طويل وذقنها صغيرة كذقن طفل أما شفتها فترتخي للأسفل في الصورة لتمنح فمها نصف إغلاقة. شعرت أنها تشبه كلب البولدوغ وهي تقف قرب خيمة للتخييم تاركة يداها تنسابان حتى تصلا لخصرها. ترتدي جينزاً قصيراً وضيقا جداً يزدادُ ضيقه حين ينحدر إلى فخذيها. أما قميصها فحمل تلك العبارة البارزة المكتوبة بميلان سخيف: من يملك القوة؟ كانت العبارة تتمدد مشدودة بفعل ثدييها الكبيرين.

---

(1) ممثلة أميركية اشتهرت في الخمسينات من القرن الماضي.

(2) ممثلة ومغنية أميركيو معروفة أيضا منذ الخمسينيات.

قلت لنفسي: لماذا تعجب سيمون إذن؟ إنها ليست مثيرة، حتى إن أنفها بشع. تشبه كلباً بولندياً دون أي تجميل. حاولت كبح ابتسامتي رغم أني كنت مستعدة لرقص البولكا من فرط سعادتي، بدأت أرى أن المقارنة بيني وبينها ستكون مجحفة وغير عادلة، لم أكن قادرة إلا أن أشعر بالسعادة، لقد كنت أجمل منها، أطول وأكثر نحافة. أقرب للموضة. لم يكن من الضروري أن يحب المرء شوبان وبادريسكي لكي يدرك ببساطة أن إلزا تنحدر من عرق سلافي من الفلاحين. كلما تطلعت إلى صورتها أكثر، كلما سعدت أكثر. كأن شياطين القلق التي كانت تتلبسني قد غادرت الآن تماماً مثلما غادرت الملائكة التي كانت تحميها مثل طفلة.

ما الذي يعجب سيمون فيها بحق الجحيم؟ حاولت أن أكون إيجابية، حاولت أن أنظر إليها كما ينظر إليها رجل، كانت رياضية، كما كانت تعطي الانطباع بأنها ذكية، لكن بطريقة بغيضة وغير جذابة. ثم إن ثدياها كبيران، أكبر من ثدياي، قد يكون ذلك المميز فيها لو أن سيمون كان غبياً كفاية ليعجب بكتلتي اللحم الكبيرتين اللتين سوف تتدليان حتى تصلا إلى سرتها ذات يوم! حتى عيناها اللتان تبدوان مثيرتين للانتباه، تنحرفان وتضيقان مثل عيون القطط. بل إضافة لذلك فإنهما تتباعدان على وجهها وتبدوان مجرد بقعتين داكنتين تلوثانه. تحدق بعينيها مباشرة في آلة التصوير، تبدو عيناها فارغتين وعميقتين في آن. حقيقة، تقول عيناها أنها تدرك حقيقة ما حدث، وما سوف يحدث في المستقبل، ومن عينيها، يبدو أنها تدرك أن كل شيء سوف يجيء، سيكون محزناً.

استنتجت من رؤيتها أن سيمون كان مشوشاً بإخلاصه في حبها. ربما لأنه عرفها منذ الطفولة، إنه يستحق الاحترام لأجل إخلاصه هذا.

أعدت صورتها إلى سيمون محاولة ألا أتصرف بسخرية. قلت له:

- للأمانة، تبدو فظيعة، هل هذا ما ورثته وجعلها بولندية يهودية؟

- تطلع سيمون إلى الصورة ملياً قبل أن يجيبني: كانت تتصرف بلطف عندما تريد ذلك، تستطيع انتحال أي شخصية لأجل المرح، تعلق بشكل جميل، تتحدث في مواضيع عديدة ولهجات عديدة، كانت مرحة بالفعل في بعض الأحيان. قال ذلك ثم توقف أخيراً عن الدفاع عنها وأردف: إنها تتمسك كثيراً بمحاولة جعل الأشياء تتغير، بل وكيف يجب أن تصير الأشياء، إنها تصر بشكل يقود إلى الذعر، في الحقيقة، لطالما كانت جدية ومزاجية، بل وتستطيعين القول إنها محبطة. لا أعرف من أين يأتي هذا لكنها بدت في كثير من الأحيان غير منطقية. قال سيمون كل ما عنده، ثم بدا لي مضطراً للصمت بعد أن تناول إلزا من جانب آخر، بدا أن بريقها خبا، وأنها صارت أقل جاذبية. تلقيت ما حصل على أنه سلاح قد أستخدمه في المستقبل للتخلص من جاذبية إلزا، عزمت أن أصير متفائلة حقيقية، وأن أتخذ موقفاً أمام سيمون يوضح كم كانت هي سوداوية، سأصير مرحة، ذاك ما قررته، قررت أيضاً أن أعكس أعماق سيمون من خلالي. وأن أتخذ مواقف سياسية كتلك التي كان يتخذها، يجب أن أضحك، أجل، لأري سيمون كيف يكون شريك الروح مرحاً، لا سوداويا وكئيباً.

قررت أن أفعل كل ما هو ضروري حتى أنتزع إلزا من قلب سيمون. فبعد رؤيتي لهيئتها في الصورة، ظننت أنه من السهل التخلص منها. يا لغبائي حينها، لأني لم أدرك أنه يتوجب علي أن أحرر قلب سيمون من قبضة شبح. في وقتها، أسعدني أن كوان دعتي للغداء، ولكي أبدو مرتاحة، تظاهرت يومها أني سوف أستمع لكل نصائحها بشأن سيمون.

* * *

أشارت علي كوان بأن أتوقف:

ليبي، اتركيني أفعل ذلك، أنت لا تعرفين كيف تستخدمين الغسالة، لا تضعي الكثير من سائل الغسيل، لا ترفعي الحرارة كثيرا، استمري بتبديل الحوض كل قليل. ليبي! لماذا تملكين الكثير من الملابس السوداء؟ إنها لا تليق بك، يجب أن ترتدي ملابس زاهية، ربما مثل تلك المطرزة بالزهور، أو بصور البولكا. البنفسجي يليق بك، أما الأبيض فلا. إني لا أفضله، ليس لأجل الخرافات التي تجعل الناس يؤمنون بأنه لون الموت، أبدا، لأنه في عالم ين توجد ألوان كثيرة، حتى أنك لا تعرفينها كلها، لأنك لا تستطيعين رؤيتها بعينيك والسلام، إنك تحتاجين لأن تستخدمي حواسك العميقة حتى ترينها، تخيلي أنك مملوءة بمشاعر طبيعية وعميقة، مشاعر سعيدة وأخرى حزينة بحيث لا تميزين بينها، هل تعرفين كيف هو الشعور بذلك؟ على كل حال، أنا لا أحب الأبيض لأنه يتسخ بسرعة.كما أنه يصعب تنظيفه. إنه ليس عملياً أبداً، أعرف ذلك جيداً لأني في حياتي السابقة، غسلت الكثير جداً من الملابس، كانت تلك إحدى الأعمال التي جعلتني أحصل على غرفة آوي فيها في بيت التاجر الشبح. كنت مضطرة لأن أغسل في اليوم الأول من كل أسبوع، وفي اليوم الثاني أقوم بكوي ما غسلته، أما اليوم الثالث فكان لتلميع الأحذية ورتق الملابس. في اليوم الرابع أقوم بتنظيف ساحة الكنيسة وممراتها. ثم أنتقل في اليوم الخامس لتنظيف الغرف ونفض الغبار عن الأثاث، وأخيراً وفي اليوم السادس، وهو اليوم الذي كنت أحبه كثيراً، حيث كنت أخرج برفقة الآنسة بانر لنقوم بجولة حول القرية، نوزع فيها نشرة الكنيسة للناس: الأخبار الجيدة. أعطوها هذا الاسم الذي لم يتقن أحد قراءته، لم أستطع قراءة الكلمات الإنجليزية التي كتبت بالطريقة بالصينية كما لم أستطع تعليم الآنسة بانر أن

تقرأها، في الأنحاء الفقيرة التي كنا نمر بها، لم يستطع أحد أيضاً قراءة تلك الكلمات، لكن الناس كانوا يتهافتون سعداء للحصول على النشرة، ذلك أنهم استخدموها في حشو ملابسهم الشتوية، قاموا بنزع أوراقها وغطوا فيها أطباق الأرز حتى لا يصل إليها الذباب، كانوا يلصقونها لتغطي التصدعات التي تصيب جدران بيوتهم! كان قارب الإرسالية يحضر معه دوماً المزيد من تلك المنشورات دون انقطاع. كان اليوم السادس يوم المنشورات، التي وزعناها دون أن نعلم أنها سوف تكون السبب في المشاكل التي سوف تحصل في المستقبل.

كنا نعود إلى بيت التاجر الشبح فرحتين، بعد جولتنا تلك. في بعض الأحيان كنا نجد لولو بانتظارنا، وما إن يرانا حتى يبدأ بتقديم عرضه الصغير المعتاد، كان يقفز على الحافة الضيقة لسقف البيت من الخارج، ويبدأ هناك بالمشي عليها فيما نحن نصرخ عليه خائفتين: إياك أن تسقط. كان لولو يستخدم الأكواب فيضعها على رأسه، ويمشي متوازناً على الحافة، أحياناً يضع فوق رأسه قطعة من الطوب أو طبقاً فارغاً، يجرب مختلف الأوزان فيما نحن نصرخ ونضحك. أظنه كان يستعرض مهاراته أيضاً محاولاً جعلنا ننسى صورته يوم التقيناه للمرة الأولى، يوم أن سقط في الماء هو والآنسة بانر.

اليوم السابع وبالطبع، هو يوم الذهاب إلى بيت الله، ثم أخذ استراحة وقت العصر. كنا نجلس في الساحة، نرقب غروب الشمس ثم ظهور النجوم. نتفرج أحياناً على برق عاصفة تمر بالمكان. أستغل الفرصة لانتزاع بعض الأوراق من الشجيرة التي نمت في الساحة، لا يتركني لولو أقول إنها شجيرة، يصر على أن يصحح لي دوماً قائلاً : إنها شجرة مقدسة، ثم يقترب منها ويقف رأساً على عقب كأن روح الشجرة تلبسته في ذلك

الليل، كأن روح الطبيعة استقرت في جوفه. ينظر إلي ويقول: عندما تأكلين من أوراق هذه الشجرة، سوف تجدين السلام، وتتعلمين التوازن، ولن تحفلي بعدها بالآخرين. اعتدت بعدها أن أنتزع الأوراق لأقوم بعمل الشاي في كل أحد، وذلك شكراً للولو على عرضه المسلي. كانت الآنسة بانر تتناول معنا بعض الشاي أيضاً، كنت أقول للولو: انظر، حقاً إن أوراق الشاي التي أنتزعها من هذه الشجيرة تشعر المرء بالسلام.

- بالطبع، إنها ليست أي شجيرة والسلام، هذه شجرة مقدسة، لكنها كما ترين لم تحمِ التاجر الشبح من اللعنة للأسف.

بقيت أقوم بعملي، أغسل الملابس، وأنظف الممرات المكسوة بالحجارة الصقيلة، كانت الممرات خالية إلا من شجرة كبيرة واحدة. أخرج هناك في الصباح ومعي دلوان من الماء الحار الممزوج بمادة منقية، كان المبشرون يمنعونني من غسل ملابس الرجال وملابس النساء معاً، لذا كنت أضطر لحمل دلوين أضع في أولهما الكافور فيما أنكه الآخر بلحاء القرفة. كانت رائحتهما تمنع القمل عن الملابس، في ماء الكافور أغسل ملابس الراهب والطبيب وأغطية أسرتهما والخرق التي يستعملانها لتنظيف وجهيهما وأنفيهما، أما في ماء الأكاسيا فأغسل أغطية أسرة السيدات وملابسهن الداخلية، بعد ذلك أقوم بوضع الثياب على صخرة مصقولة كالرحى، ثم أديرها كالطاحون حتى أعصر الملابس من الماء. ثم أجمع الملابس في سلتين منفصلتين، تظل ملابس الرجال منفصلة عن ملابس النساء، أسكب ما تبقى من ماء الكافور في ممرات الكنيسة ثم أسكب ما تبقى من ماء في دلو الأكاسيا النسائي أمام باب المطبخ! أحمل السلتين بعد ذلك ثم أتجه للساحة الخلفية حيث توجد زريبة للبغل وأخرى للثور، أعلق الملابس هناك على الحبل الممدود بينهما حتى تجف. أنظر هناك إلى يساري حيث تقبع الحديقة،

محاطة بأسوار عالية، كانت حديقة تنزه فاتنة صنعت بأيدي بستانيين مهرة، باتت الآن مهجورة وموحشة. أقواسها الحجرية وزخارفها لم تزل كما هي، البركة في أسفلها جفت، اختفت منها الأسماك ونمت الحشائش. اختلط فيها كل شيء، تشابكت أغصانها مع أوراقها والشجيرات تسلقت الجدران، جفت وتماسكت مع بعضها، ممراتها اختفت تحت الحشائش وتحت أكوام الزهور التي تراكمت من كل موسم وذبلت هناك. كانت ممراتها تتشابك تحت قدمي، تصدر هسيساً جميلاً، يجعلني أحلم بنفسي وأنا أشق طريقي عائدة إلى جبل الشوك. كانت إحدى تلال الحديقة كبيرة بما فيه الكفاية لتحمل كوخاً صغيراً فوقها، بجانب ذلك الكوخ، حجارة صغيرة وصقيلة مغطاة بالطحالب. في وسط تلك الحجارة تماماً، مساحة خالية محترقة. من تلك البقعة كنت أستطيع رؤية القرية من خلف السور، حيث تظهر القمم الحجرية المطلية حيث تمتد الممرات الحجرية للطريق حتى تقود إلى الوادي. بعد غسل وتجفيف الملابس، كنت أغسل بيض البط وأدفنه في التراب أيضاً حتى أنقيه من المرض، ثم أعود ثانية لأقف وسط الكوخ المرتفع، أنظر للقرية وللعالم من هناك، متظاهرة بأن ذاك العالم، كله ملكي. صرت أقف هناك بين وقت وآخر، فعلت ذلك لزمن طويل، إلى أن رآني لولو واقفة هناك ذات يوم فناداني محذراً:

- لا تعودي إلى هناك ثانية، هذا الكوخ هو المكان الذي مات فيه التاجر، صاحب البيت الأول.

طلبت من لولو أن يشرح لي كيف ذلك. قال إن التاجر كان يقف في الكوخ بصحبة زوجاته الأربع عندما نظر إلى السماء فشاهد سرباً من الطيور السوداء، قام التاجر بإطلاق لعناته وسبابه عليها. لم تمر لحظات حتى اشتعلت فيه النار، حتى إن جلده وشحمه أخذا يسيلان، أما زوجاته المذعورات

فبدأن بالصراخ لرؤيته وهو يحترق فيما رائحته تفوح كرائحة لحم مشوي بالثوم. فجأة أحاط دخان كثيف بالتاجر، ثم ارتفع واختفى، عندما اقتربت زوجاته من مكانه لم يجدن له أي أثر، فقط آثار قدميه، حذاءه، والرائحة المريعة واللذيذة في آن، كان قد اختفى تماماً!

بعد سماعي لقصة لولو، صرت أشعر بالقلق من الروائح التي أشتمها، كنت أشتم رائحة الكافور والأكاسيا، رائحة الأوراق والشجيرات والزهور الذابلة حين أدخل الحديقة لأدفن بيض البط، لكنني كنت أشعر أني أشتم رائحة التاجر الشبح كذلك، لأنني أتذكر ذلك اليوم القائظ، كان يوماً شديد الحرارة من تلك الأيام التي تخرج فيها صراصير الأرض من تحت التراب بعد أن تكون قد دفنت نفسها لسنوات. أظنني يومها اشتممت رائحة الثوم، ورائحة خوف التاجر من موته. كانت صراصير الليل تعزف لتجذب الإناث، تعزف أعلى وأعلى بينما عيني مثبتة على البوابة خوفاً من أن يأتي التاجر الشبح فجأة. لقد سمعت صوت خطوات تدوس الأرض، سمعت صوت الحشائش وهي تتكسر، شيء ما يباعد بين الأغصان، فجأة انطلق سرب من الطيور السوداء وحلق مختفياً في السماء، أما صراصير الليل فغرقت في الصمت فجأة. قررت أن أركض هاربة لولا أن شبح قاطعة الطريق العذراء همس فجأة من داخلي: خائفة؟! وتريدين الهروب، فقط من شبح تاجر ليس له قدمين! شعرت بعظامي تضطرب، إني الآن خائفة وتم تعنيفي لأني شعرت بالخوف! قالت لي: اذهبي للداخل واعرفي ما الذي يحصل. عبرت البوابة بحذر، مشيت على رؤوس أصابعي حتى عادت صراصير الليل لعزفها فركضت مسرعة في الحديقة والأوراق الميتة تتكسر تحت قدمي، وثبت فوق حجارة الجسر المصقولة وتجاوزت البركة الجافة، درت حول الحديقة، ركضت جيئة وذهاباً إلى أن تحول عزف الصراصير إلى

طقطقة فتوقفت. عدت لأركض ثم أتوقف ثم أركض منتظرة أن تخاف الصراصير وتصمت، في النهاية توقفت عند التل الذي يحمل الكوخ، درت حوله إلى أن صمتت الصراصير تماماً مخفية نفسها، هناك نظرت، فرأيت رجلاً جالساً على الصخرة الصقيلة وفي يده موزة يأكلها، لم أسمع من قبل عن شبح يأكل موزة! بعد ذلك، أخبرتني الأشباح الأخرى عن أنها تأكل الموز، لكن ليس الموز المسود الأطراف، فقط ذلك الطازج.

عندما رآني الرجل، هب واقفاً على قدميه، كان محياه غريباً ولطيفاً، لم يكن صينياً ولا من الأجانب، يرتدي ملابس رجال محترمين. كنت متأكدة أني رأيت ذلك الوجه من قبل. وقبل أن أفكر، سمعت أصواتاً قادمة من الجانب الآخر للتل، سمعت صوت التدفق العالي للماء على الصخور، صوت رجل يهمس، أقدام تدوس أوراق الشجر التي تجمعت من كل المواسم، رأيت تحت الشمس التماعة العكاز الفضية وهي تضرب على الأرض، ثم ظهر الوجه الشاحب للرجل صاحب العكاز، كان الرجل يقف منشغلاً بإغلاق أزرار بنطاله، ولم يكن هذا سوى الجنرال! الجنرال كاب. أما الرجل الواقف أمامي، صاحب الوجه اللطيف والموزة، فلم يكن سوى مترجمه ومساعده: نصف الرجل كما يلقبه الجنرال، يبان.

صاح الجنرال قائلاً شيئاً ليبان. فعاد يبان وسألني:

- آنستي، هذا الرجل، هو الجنرال الأمريكي الأعلى. أود سؤالك، إن كان هذا البيت هو البيت الذي يقطن فيه المبشرون من الأجانب؟

أوه، ذلك هو الجنرال حبيب بانر، الذي صليت لأجل أن يعود إليها، ثم صليت لأن يظل بعيداً، ليتني لم أصلي كثيراً، ها هو هنا الآن.

لم أجب على سؤال يبان، بقيت صامتة فيما الجنرال يحدق في حذائي. تذكرت الرجل الذي عاد إلى جبل الشوك يوماً وأخبرنا بأن الجنرال خائن، لقد انقلب على الهاكا.

عاد الجنرال وتحدث إلى يبان الذي ترجم لي ما قاله:

- إن الجنرال يقول أن الآنسة التي أعطتك هذا الحذاء هي صديقة عظيمة للقائد، ولا بد أنها تتحرق للقاءه الآن.

بعد ذلك، بسبب حذائي هذا، قدت الجنرال ويبان إلى الآنسة بانر، واتضح أن يبان كان محقاً، فقد حمل الجنرال بانر ورفعها عاليا في الهواء بعد أن عانقته محيطة إياه بذراعيها.

فعلت ذلك أمام السيد والسيدة آمين، الذين لم نرهما يفعلا ذلك أبداً رغم أنهما زوجان، لم يفعلاه حتى في غرفتهما. هذا ما علق به لولو. لاحقاً وفي تلك الليلة، في الوقت الذي ذهب فيه الجميع للنوم، فتحت بانر باب غرفتها، فتسلل الجنرال مسرعاً إليها، انتبهنا جميعاً إلى ذلك، لم نكن نملك نوافذ لنرى، لم تكن تفصلنا سوى فتحات خشبية في الجدران. كنت قد قلت للآنسة بانر عصر ذلك اليوم، وقبل أن تسمح للجنرال بالدخول لغرفتها تلك الليلة، أن الجنرال خان الهاكا، وأنه ربما يخونها أيضاً، لكنها استقبلت كلامي هذا بغضب كأن لعنة حلت عليها. قالت أن الجنرال بطل، ولهذا تركها تأوي مع المبشرين هنا في الكنيسة. أخبرتها بما قاله ذلك الرجل الذي عاد ذات يوم محطماً إلى جبل الشوك، لقد قال أن الجنرال تزوج ابنة أحد المصرفيين الأغنياء لأجل الحصول على الذهب. قالت بانر أن هذا الكلام مجرد ثرثرة قذرة، لأن قلبي صار قطعة لحم عفنة. قالت بأني لو بقيت أصدق هذا الكلام عن الجنرال، فلن نعود صديقتين مخلصتين بعد الآن.

قلت لها: عندما تؤمنين بشيء ما، كيف يمكن أن تتوقفي عن الإيمان به فجأة، حين تكونين صديقة مخلصة، كيف ستكفين عن ذلك فجأة؟

صمتت حينها، ولم تجبني.

في تلك الليلة سمعت صوت صندوق الموسيقى الذي أهداها إياه والدها حين كانت طفلة، سمعت تلك الموسيقى التي جعلت السيد والسيدة آمين يبكيان. ها هي الآن تجعل الجنرال يقبل بانر. أسمع همسها وصوتها الذي ينم عن فرح عظيم، هذا الفرح الذي يتسلل إلى غرفتي الآن، ليتحول إلى فيض من الحزن والدموع.

* * *

بدأت أحضر غسيلي إلى بيت كوان بشكل مستمر، لقد اعتاد سيمون أن يغسل ملابسنا من قبل، كان ذلك أحد الأشياء الجميلة لكوننا كنا متزوجين. كان يحب أن يرى البيت منظماً، وأغطية الأسرة نظيفة، غادر سيمون، عدت لأغسل ملابسي بنفسي. آلات الغسيل القابعة أسفل العمارة التي تقع فيها شقتي، في ذلك القبو حيث رائحة العفونة والرطوبة تسبب لي الهياج. كنت أنتظر حتى لا أعود أملك أي رداء داخلي نظيف، ولا واحد حتى، فأملئ الحقائب بغسيلي وأقود السيارة مسرعة إلى شارع بالبوا حيث كوان.

بعد أن وضعت ملابسي في نشافة كوان، تذكرت تلك القصة التي أخبرتني إياها حين كنت مملوءة بالحب تجاه سيمون. وكيف يتحول الفرح إلى حزن، قلت لها: كوان، لا أريد السماع عن تلك القصص مرة أخرى.

- ردت كوان: لماذا ؟

- قلت: إنها تحبطني، أريد أن أظل الآن في مزاج جيد.

- ربما لو أخبرتك بالمزيد فسيزول إحباطك، هل رأيت كيف ارتكبت الآنسة بانر ذلك الخطأ؟

- كوان، قلت لك أني لا أريد السماع عن قصص الآنسة بانر بعد الآن، أبداً.

فكرت: يا للطاقة والأثر اللذين تركهما حب سيمون بي، ها أنا أقف مواجهة كوان،لأقرر ما الذي أريد سماعه وما الذي لا أريد. أستطيع أن أكون مثل سيمون الآن، مخلوقة منطقية وعقلانية. لا محكومة بأشباح كوان.

لم أعرف أن سيمون سوف يملأ حياتي بأشباحه الخاصة هو الآخر.


II

6

اليراع

في الليلة التي قبلني فيها سيمون للمرة الأولى. كانت بعد أن عرفت الحقيقة كاملة عن إلزا. كان الربيع ينقضي. كنت مع سيمون، نمشي في حديقة جامعة بيركلي، كانت ليلة دافئة من شهر يونيو، أخذنا ندخن سيجارة ونمشي حتى وصلنا لأشجار البلوط المضاءة بأضواء خافتة تشبه أضواء عيد الميلاد. قلت لسيمون

- انظر إليها كيف تتحرك، كأنني أهلوس؟

- أجاب سيمون: إنها مجرد يراعات، انظري إليها، أليست مذهلة؟

- هل أنت متأكد أنها يراعات، لا أظنها تتواجد في كاليفورنيا، لم أرها أبداً من قبل.

- لربما جلبها أحد الطلاب إذن، ربما ليدرسوها في مختبر الأحياء، ومن ثم، قام بتركها تذهب.

جلسنا على جذع شجرة مقطوعة، بالقرب حشرتان تتجاذبان وتتغازلان بحركات غريزية محتومة، تضيئان ثم تنطفئان مثل طائرتين في

السماء. تقتربان من بعضهما، حتى تصيرا واحداً، ثم فجأة ، تنفصلان وينطفئ ضوءهما قبل أن تبتعدا.

سألت سيمون: هل تجد هذا رومانسياً؟

ابتسم سيمون، ثم اقترب وطوق خصري بذراعه، بقينا صامتين، مرت عشر ثوان، مر وقت أكثر، حتى بدأ وجهي بالاحمرار وتسارعت نبضات قلبي. شعرت أننا بدأنا نتخطى حدود صداقتنا الآن. كأننا نحطم السياج وننطلق إلى الطبيعة. بكل ثقة، بدأت شفتانا تقتربان من بعضهما، ترتجفان قليلا، تحتكان ببعضهما، تتلامسان بلطف، ترتجفان وتتحدان مع بعضهما، حين قرب شفته من شفتي، أغمضت عيني واقتربت منه أكثر حتى يشعر بشغفي. لكن سيمون توقف فجأة وعاد للخلف فيما شفتاه تتمتمان باعتذار ما:

- إني آسف حقاً يا أوليفيا، أنت تعجبينني فعلاً، لكن ماذا أقول... هذا معقد، أنت تعرفين.

لم أنظر إليه، دفعت بحشرة عن جذع الشجرة وتركتها تنقلب على ظهرها وتتخبط في كل اتجاه.

- أتعلمين، منذ رأيتها آخر مرة، منذ ستة أشهر، تشاجرنا معاً، الحقيقة أنني، ما زلت أحبها.

- وقفت على قدمي وقلت: سيمون، لا داع لأن تشرح عن أي شيء، هيا، لنعد الآن.

- أوليفيا، اجلسي رجاء، يجب أن أتحدث إليك، أريدك أن تفهمي جيداً، إنه أمر مهم.

- اتركني لأذهب، يا للهول، فقط تظاهر بأن شيئاً من هذا لم يحصل.

- لا، عودي يا أوليفيا، رجاء عودي واجلسي لأني يجب أن أقول لك شيئاً.

- وما هو هذا الشيء بحق الجحيم!

- أظنني أحبك أيضاً!!

تريثت عندها، بالطبع كنت أفضل لو أنه لم ينه تصريحه هذا بالظن، وبأيضاً تلك. قالها كأنني واحدة من حرمه اللواتي يحبهن. لكنه حين قال أحبك، بدا مفتوناً، للحب مذاق البلسم كما أن له مذاق السم في ذات الوقت. لذا عدت، وجلست مرة أخرى.

قال سيمون: إن استمعت إلي، سوف تعرفين لماذا لزمني كل هذا الوقت حتى أخبرك بحقيقة شعوري تجاهك.

بقينا صامتين لدقائق، كان قلبي ينبض بعنف شديد موزعاً بين الغضب والأمل، بقينا صامتين لعدة دقائق حتى قلت أخيراً: هات ما عندك؟

- حاول سيمون توضيح صوته ثم قال: تشاجرت مع إلزا في شهر ديسمبر، خلال عطلة نهاية السنة، كنت عائداً إلى يوتاه وكنا قد خططنا للذهاب في جولة للتزلج عند منحدرات غابة القطن هناك، طوال الأسبوع السابق ونحن نتضرع أن يهبط الثلج. وأخيراً، تراكم لما يزيد عن الثلاثة أقدام.

- وما الذي حصل، هل رفضت إلزا الذهاب؟

- بالعكس، لقد ذهبنا. أثناء القيادة كنا نتناقش فيما إذا كانت الخدمات السيئة المقدمة للفقراء هي السبب في جرائم الاغتصاب وسرقات

البنوك وجرائم أخرى، عندها خرجت إلزا عن الموضوع وسألت بوضوح: ما رأيك بالإجهاظ؟

ظننتها قالت الاغتصاب، أردت أن أشرح لكنها عادت وأكدت: الإجهاظ؟ قلت لها أن ذلك يشبه سمكة تصارع في الماء، أحياناً يجري الماء آخذاً بيوضها، ليس القرار لها دوماً لتحتفظ فيه. عادت وقاطعتني: أريد رأيك حقاً بالإجهاظ.

- سألت سيمون، ماذا عنت، هل عنت رأيك وشعورك الحقيقي تجاه الموضوع؟

- رد سيمون: نعم، ذلك ما سألتها إياه. فردت علي ببطء مركزة على الكلمة: عاطفياً؟ قلت لها عاطفياً ربما يكون الإجهاظ أمراً لا بأس فيه!

حينها ردت إلزا بغضب: لا بأس فيه! ، أنا لا أسألك عن الطقس، إنني أسألك عن حياة البشر، عن حياة حقيقية لامرأة، مقابل حياة أخرى تتكون في رحمها!

بدت هستيرية، كنت مندهشاً من تقلبات إلزا الغير منطقية حينها. أكملنا طريقنا بعد ذلك، لكن إلزا لم تحتمل، أوقفت السيارة وهبطت، تقيأت على الأرض، وعلى مزلاجيها، عادت إلي وصرخت بي: أنا حامل، في أحشائي طفل سوف يحطم حياتي! وسيجلب لي الألم فيما أنت جالس في مقعدك تبتسم وتقول لي: كل شيء على ما يرام.

- وكيف كان لك أن تعرف أصلاً بان إلزا حامل!! قلت ذلك وظننت في داخلي أن إلزا طلبت الزواج من سيمون وأنه رفض عرضها، ارتحت لهذا الاحتمال الذي ظننته نهاية القصة، إن هذا جيد لأجل سيمون.

ذهلت قليلاً عندما قطع سيمون أفكاري قائلاً: لا أعرف كيف حملت، كنا حريصين بخصوص مسألة الإنجاب تلك.

- لعلها لم تتخذ أي احتياط إذن؟

- رد سيمون: لا أظن، أبداً

- ماذا فعلتما إذن؟

- ارتديت زلاجاتي ولحقت بها، تتبعت آثارها على الثلج صارخاً عليها لتجيبني، كانت قد تجاوزت قمة التل واختفت، ولم أعد أراها. كم كان ذلك اليوم مشمساً وجميلاً، لا ينسى. أتعلمين يا أوليفيا، لا يمكن التفكير بحدوث مصيبة عندما يكون الطقس جميلاً هكذا.

قال سيمون كلامه هذا وضحك بمرارة. ظننت أنه لم يرَ إلزا بعدها، وقلت في نفسي أن تلك هي نهاية القصة. قلت له محاولة أن أبدو متعاطفة: على الأقل كان يجب أن تتناقش معك قبل أن ترمي عليك بكل هذا الحمل.

لم يرد سيمون، بل ابتعد قليلاً ووضع يده على وجهه ثم قال متألماً: يا إلهي.

قلت لسيمون، إنني أفهم أنها لم تكن غلطتك، توقف الآن عن التألم.

- دعيني أنهي لك القصة. نظر سيمون إلى ركبتيه ثم سحب نفساً عميقاً وقال: مشيت حتى ذلك المنحدر في نهاية الطريق، وصلت حتى اللافتة التي تحذر أن الطريق يتوقف ها هنا. بعد تلك الإشارة، رأيت إلزا جالسة عند الحافة، تبكي ويداها تحيطان بصدرها، ناديتها، أدارت وجهها ونظرت إلي، كان وجهها مريعاً حقاً، وقفت فجأة على مزلاجيها، واندفعت قافزة عن المنحدر. ظللت أراها وهي تنحدر إلى القاع، كان الثلج في

الأسفل ساحراً وعميقاً، كأنه بلا قاع. ظلت تنزلق بسرعة للأسفل حتى اصطدمت بكتلة ثلج عميقة أجبرتها على التوقف.

- نظرت لعيني سيمون وهو يتحدث، وكانتا تنظران لشيء بعيد ضائع.

استدرك سيمون: ناديتها، لكنها كانت مشغولة بمقاومة الثلج المنهار بعصا التزلج. حاولت تخليص مزلاجيها من الثلج المتراكم. صرخت من جديد: إلزا، إلزا. ساد صمت قليل إلى أن سمعت صوت انهيار الثلج، مثل إطلاقة بندقية، بدأ الثلج بالتصدع، لم تنتبه له، لم يبعد عنها سوى مئتي ياردة ربما، كانت الشمس تمنعها من الرؤية، تصدع الثلج من أعلى المنحدر ثم بدأ يتشقق بسرعة وينهار مثل سحاب انفتح فجأة، بدأ كل شيء ينهار، تشققت الأرض الثلجية تحت قدمي، شعرت برأسي وصدري يتشققان من الألم. ظلت إلزا تحاول التخلص من مزلاجيها الغارقين في الثلج.

- سيمون، أرجوك، لا أريد سماع المزيد.

- استمر سيمون يقول: تمكنت أخيراً من انتزاعهما، صرخت فيها أن تذهب إلى جانب المنحدر، كانت تقاوم وهي مغطاة حتى خصرها بالثلج، صارت الأرض ماء تحتها. سفح الجبل انهار قطعة واحدة مثل سن سقطت، الأشجار تقصفت تحت هدير الثلج الهابط من الأعلى.

- يا إلهي!

رأيتها تسبح في الماء، على سطح الجليد، صرخت فيها لتحاول الصمود، لكنها غرقت، اندفع الثلج وغطى الماء وكل شيء. واختفت. بعد أن هدأ كل شيء وثبت في مكانه، استطعت اشتمام رائحة اللحاء الممزق للشجر، حاولت ألا أشعر بالذعر. إن ذعرت فسينتهي كل شيء، هكذا

قلت لنفسي. تزلجت بهدوء على جانب المنحدر من الجهة التي أبقت فيها الأشجار الثلج على حاله. حددت مكان إحدى مزلاجي إلزا، ثم استطعت تحديد مكان عصا التزلج، ومن هناك، رسمت دائرة عريضة بنظري حتى أضيق مساحة البحث. لكنني بمجرد أن هبطت للأسفل لم اعد قادراً على تحديد شيء، المكان من هنا ليس كالأعلى، كل شيء مختلط وممزق. أخذت أتخبط باحثاً في تلك الكثبان الثلجية الباردة، شعرت أني في كابوس، كأن قدماي قد أصابهما الشلل.

- سيمون، لست مضطراً لأن تكمل لي القصة.

لكن سيمون لم يستمع لي واستطرد: في النهاية، شعرت بهدوء كبير، تماماً كذاك الذي يسبق العاصفة، فكرت في أن إلزا لطالما تواصلت معي بأفكارها، لا بد أن تقودني لمكانها إذن، هدأت وذهبت إلى الجهة التي ظننت أن إلزا سوف تكون فيها، هناك بدأت بالحفر. بقيت أحفر بمزلاجي إلى أن حلقت طائرة دورية الإنقاذ فوقي أخيراً فصرت ألوح لها بلهفة. من الهليوكوبتر قفز رجلا إنقاذ برفقتهما كلب بحث وزحافة ثلج. جننت، صرت أشرح لهما عن تركيبة إلزا الجسمانية وعن سرعة نبضات قلبها، وعن قدرتها على التحمل وكم ميلاً كانت تتزلج في كل أسبوع، تركني رجلا الدورية وأخذا الكلب ثم شرعوا بالبحث على امتداد الصدع وإلى الأسفل. بقيت أحفر في مكاني، مخبراً إلزا أني سوف أصل إليها. كنت موقناً أنها مدفونة هنا. مر وقت ما حتى سمعت نباح الكلب من مكان قريب، أشار لي الرجال فنظرت، كانت إلزا هناك، نعم هناك ونصفها الأعلى بارز من الثلج، لم تكن في المكان الذي ظننت أنها يجب أن تكون فيه، هبطت مندفعاً ، يكاد نفسي أن ينقطع، وصلت إلى حيث يقف رجلا الدورية. أخذت أشكرهما بشدة لأنهما عثرا عليها، بدت لي بخير، كنت سعيداً جدا لأنها بدت حية .

- قلت لسيمون، الحمدلله، قبل أن تقول هذا ظننتها بصراحة قد...

- قاطعني سيمون: كانت عيناها مفتوحتان، كانت عالقة كما هي، نصفها العلوي ظاهر، ويداها أمام فمها ثابتتين ومتحدتين كالكوب، تماما مثل من يضع يديه أمام فمه ليجمع ماء المطر، فعلت كما علمتها تماماً، لتحافظ على مساحة تحت الثلج تسمح لها بالتنفس. ضحكت عندما رأيتها وقلت: جميل يا إلزا، لا أصدق أنك بقيت هادئة وتذكرت ما علمتك إياه. قاطعني رجلا الدورية ودفعاني بعيداً عن إلزا، قال أحدهما: أعتذر يا رجل، لقد توفيت منذ بعض الوقت. صحت فيه: ما الذي تقوله؟ ما زالت هناك، انظر إليها. وضع الرجل يده على كتفي وقال من جديد: يا صديقي: لقد حفرنا لساعة حتى عثرنا عليها، حتى إن جهاز القياس سجل ساعة أيضاً قبل أن نبدأ الحفر. تعرف أنها كانت تملك عشرين دقيقة فقط لتتنفس، ربما خمسة وعشرين على الأكثر. صرخت فيهما: بل كانت تملك عشرة دقائق فقط، أصابني الجنون يا أوليفيا، حتى أنني ظننت أن إلزا طلبت منهم أن يقولوا ذلك لأننا كنا قد تشاجرنا. دفعتهم من طريقي واقتربت من إلزا لأخبرها أني أدرك الآن، في داخلي، وفي قلبي، كم أن الحياة جميلة، لا تستحق أن نستسلم أمامها ببساطة، لا هيولا أنا، أو أي أحد.

طوقت كتف سيمون بذراعي بعد أن صار يعب الهواء بصعوبة مثل مريض ربو.

- قال سيمون، عندما وصلت إليها، أزلت الثلج الذي ظل عالقاً في فمها، وعرفت بعدها، أنها لم تعد تتنفس. لم ينجح ذاك الذي علمتها إياه عن التنفس تحت الثلج. نظرت للدمعة المتجمدة تحت عينها، ولوجهها الشاحب، قلت لها انها لا تستطيع الاستسلام الآن، شددتها من ذراعيها، كانتا باردتين جداً، قلت لها ألا تذهب، لكن...

- أعلم، أعلم، قلت لسيمون بنعومة، أعرف كم تألمت.

- كانت تصلي، أتصدقين، ربما لم تتمكن من قول شيء لكن يديها كانتا مضمومتين لأنها حاولت، دعت المسيح، دعت أي شيء، رجت الله ألا يتركها تموت.

أشحت بوجهي عن سيمون، شعرت برغبة شديدة بالبكاء، لم أعثر على كلمة لأواسيه فيها. من المفترض أن أشعر بالعزاء أو الأسى لأجل سيمون، شعرت بذلك لكنني في داخلي شعرت بألم عذب! لقد كرهت إلزا، وتمنيت أن تموت. لكن بعد كل هذا، شعرت كأنني قمت بقتلها، وأنني سوف أدفع الثمن، كل ما تفعله يعود عليك، هكذا هي دائرة القدر، تماماً مثلما حصل مع كوان في مستشفى المجانين. نظرت إلى سيمون، كان سارحاً يحدق بشجرات البلوط، وبضوء اليراعات وهي تدور حولها.

- قال سيمون بهدوء: أتعلمين، أظنها لم ترحل تماماً، لأنني أحياناً أفكر فيها، كأنها لم تمت، أحياناً أستمع لأغنيتنا المفضلة على الراديو، وفي تلك اللحظة ذاتها يتصل أحد أصدقائها المقربين من يوتاه ليطمئن علي، لا أظن أنها مصادفة، أحدس بها، أشعر فيها، لقد كنا مرتبطين جداً، في كل الأشياء. ليس جسدياً فقط، فهذا أقل رابط، بل أعمق من ذلك، أوليفيا سأقرأ لك شيئاً كتبته إلزا.

- أومأت دون اعتراض.

أخرج سيمون من محفظته ورقة ثم قام بفضها، كانت مهترئة الأطراف. قال لي: لقد أرسلت لي هذه ضمن هدية عيد ميلادي، كان ذلك قبل الحادثة بشهر.

استمعت بأسى لسيمون وهو يقرأ:

الحب مخادع، إنه ليس دنيوياً فقط، ولا يومياً، ولا يمكن أن تعتاده تماماً، يمكنك فقط المشي بجانبه، وتتركه يمشي بقربك، بعد ذلك لا تستطيع التوقف، ولا اقتياده لأي مكان، الحب هو الذي سوف يقودك، كأنك مربوط بخيط رفيع، سوف يأخذك إلى عمق البحر، ثم يرميك على الشاطئ من جديد. إنه مقاومة يومية للألم، حتى تخطو تجاه السعادة. تستطيع الهروب منه، لكنك لا تستطيع أن تقول له لا. إن هذا مفروض على كل البشر.

أنهى سيمون ما قرأه ثم أعاد الورقة إلى محفظته وقال لي: ما زلت مؤمناً بما هو مكتوب هنا.

حاولت أن أفهم معنى كلمات إلزا في الرسالة، لكن عقلي كان مملوءاً بكل ما قاله سيمون، كل شيء اختلط وصار مجرد ثرثرة بلا معنى. لعله قرأ الرسالة في الأخير ليخبرني بشيء يخصني ويخصه معاً. علقت في الأخير: جميلة.

وبقيت صامتة بعد أن عجزت عن قول أي شيء ذي معنى عما سمعته في رسالة إلزا.

بدت عينا سيمون مشعتان، راضيتان وهو يقول لي وكأنه تخلى عن حمل ثقيل: كم أنا حي الآن، بعد أن حدثتك عن إلزا. أشعر أن إلزا هي المخلوقة الوحيدة التي عرفتني بحق، وحدها. إني أتخيلها طوال الوقت. أعلم أني أريد نسيانها لكن، عندماأمشي في حرم الجامعة مفكراً فيها، اكتشف أنها لن تختفي أبداً ربما. أحياناً أراها، أرى شعرها المتشابك في اللحظة التي تستدير فيها ذاهبة. غالباً ما تكون امرأة أخرى، لا يهمني كم مرة أخطأ في كونها هي أم لا. لكنني لا أستطيع التوقف عن البحث عنها! كأنني مشدود إليها بخيط، تجعلني مشدوداً إليها، أرجع للماضي بطريقة

سيئة. لأبحث عنها في كل شيء وكل شخص. توقف سيمون عن الكلام ونظر إلي بعينين متقدتين ثم أكمل: تماماً مثل صوتك، عندما التقيت بك لأول مرة، ظننته صوتها!

كان يجب أن أرتعد، عندما أكمل سيمون حديثه: يجب أن تعرفي أني كنت تحت تأثير الحادثة عندما التقيت بك، لم تكن قد مضت ثلاثة أشهر على وفاتها، كنت ما زلت رافضاً لحقيقة أنها ماتت. كنت أريدها حية هناك في يوتاه ولم تزل تحبني. أفكر الآن، أن صوتك ليس تماماً كصوتها. مرر سيمون إصبعه على يدي ثم تابع: ظننت أن الحب الذي حظيت به مع إلزا كان كافياً، ظننت أنه من الصعب على الإنسان أن يحظى بحب كذاك طوال حياته. تعرفين ما أقصده الآن؟

- أجل، لقد كنت محظوظاً بحبها.

ظل سيمون يحرك إصبعه على يدي تاركاً إياي أتذكر ما كتبته إلزا في رسالتها عن أن الإنسان لا يستطيع الهروب من الحب.

نظر سيمون إلي وقال: بكل حال، لأجل ذلك أردت أن تعرفي كل شيء. لأكون حرام معك من الآن فصاعداً، ولأنك الآن تفهمين حقيقة مشاعري التي لم تزل موجودة، إضافة لمشاعري تجاهك، ها أنت تفهمين الآن.

- بالكاد تنفست الصعداء، وقلت له بصوت خافت: أجل، أفهم.

بعد ذلك، نهضنا دون أن ننبس بأدنى حرف. مشينا سوية، وتجاوزنا التلة عائدين إلى شقتي.

تلك الليلة التي كان من المفترض أنها رومانسية، كانت واحدة من أسوأ الكوابيس، طوال ممارستنا للحب وأنا أشعر أن إلزا في مكان ما من

الشقة تراقبنا. شعرت أني أمارس الحب في جنازة! خفت من إصدار أي صوت، أما سيمون، فلم يتصرف كأنه ارتكب أي إثم أو ذنب. كأنه نسي أنه أخبرني منذ قليل بقصة إلزا الحزينة جداً. كان متلهفاً مثل أي عاشق في ليلته الأولى. يحاول أن يريني مهاراته وخبرته في الحب، قلقاً من ألا يثيرني ويمتعني، بدا لي أنه جاهز لجولة أخرى من ممارسة الحب. بعد أن انتهينا، تمددت في السرير، لم أنم، أخذت أفكر في موسيقى شوبان وغراوسن، ألا يبدوان مقربين للقلب؟ أخذت أتخيل إلزا. تخيلت وجهها في الطفولة، وركبتيها التي كانت إحداهما صافية وجميلة مثل ابتسامة، فيما الأخرى مصابة بندبة غريبة تلتف على ركبتها مثل دودة الأرض، كيف يمكن لطفلة أن تصاب بتلك الندبة. رحت أتخيل عينيها ونظرتها في الصورة، كانتا مشبعتين بالأمل، وبالألم والعنف اللذين ورثتهما. الحب يحركك كأنك مربوط بخيط، هذا ما كتبته إلزا، رأيتها وهي تطفو على وجه جبل الثلج الذي انهار.

قبيل الفجر، رأيت إلزا، تماماً كما كان يراها سيمون، كانت محاطة بهالة من الضوء، ومن جلدها الناعم نبت جناحان، ومن عينيها الزرقاوين تستطيع رؤية كل شيء، الماضي والمستقبل، ستظل عيناها فاتنتين، عتيقتين، وعميقتين كذلك المنحدر الثلجي الذي كان بلا قعر.

حين أتذكر هذا الماضي، أشعر أني كنت غبية لبقائي مع سيمون، لكنني كنت شابة حينها، مأخوذة بالحب، مشتتة بين قصة سيمون المريعة وبين الحب. شعرت بالأسى حياله وانتدبت نفسي لأنقذ سيمون من الحزن. لطالما جذبت الحزن إلي، ابي، كوان، والآن إلزا. شعرت بالذنب تجاه كل شيء سيء ظننته بإلزا. ولأجل أن أعوض عن ذلك، بحثت عن رضا إلزا، صرت أشاركها وجودي، وحاولت أن أعيد إحيائها!

حتى أني طلبت من سيمون مرة أن نذهب في رحلة إلى يوسميت بعد أن قلت له أن إلزا كانت تحب الطبيعة كثيراً. قلت لسيمون أننا لو ذهبنا، فلا بد أن إلزا ستكون معنا هناك، بدا سيمون ممتناً لكلامي هذا. هكذا كانت علاقتي مع سيمون تتطور، كل ما أحتاجه هو أن أنتظر لبعض الوقت، حتى تتحسن الأمور. تذكرت لاحقاً ما حصل حين خيمت مع سيمون في رحلتنا قرب منحدرات رانشيريا، في الأعلى، كانت السماء مرصعة بالنجوم، كبيرة ومضيئة مثل أحلامي تماماً. أردت أن أشارك سيمون سعادتي، حاولت استجماع الكلمات في عقلي وقلبي، لن كل شيء أتى ركيكاً عندما نظر إلي سيمون فقلت له: هل تعرف أن تلك النجوم التي ننظر إليها الآن، هي ذاتها التي نظر إليها أول عاشقين على هذا الكوكب؟ لم يرد سيمون، بل تنفس بعمق ثم نفث الهواء من رئتيه، لم يدهشه كلامي، بدا حزيناً. التزمت الصمت. ربما لم يزل يفكر في إلزا، ربما تخيل أنها ترى تلك النجوم أيضاً، ربما قالت له فكرة مشابهة عن النجوم ذات يوم، ربما قالتها بشكل أجمل مما قلتها أنا أيضاً. لعل صوتي في تلك الظلمة بدا له كصوت إلزا، بنغمته الشغوفة تلك، لعله حقاً سمع صوت إلزا، التي كانت تقول أفكاراًمميزة، ليست كأفكاري العادية، إلزا التي أرادت أن تنقذ هذا العالم اللعين كله بأفكارها. شعرت أني ضئيلة وتافهة، لأني أهان بفضل قلبي الكبير المملوء بالحب، لو أن قوانين الجاذبية والتوازن سقطت، لكانت تلك النجوم الآن تطير مثل اليراعات في السماء، لكنها ليست الآن سوى بقع تلطخ سماء هذا الليل، تمتد في دوامة كبيرة محاولة البقاء في مكانها قدر الممكن.

* * *



7
مائة حاسة سرية

لقد أثرت حياة إلزا السابقة علي بطريقة مدهشة، كأنها كانت في يوم من الأيام عزيزة علي، أو صديقتي المفضلة. حتى أننا في أول مرة أعددنا طعام عيد الشكر أنا وسيمون، أضفنا طعام إلزا المفضل من المحار والكستناء إلى الأرز واللحم اللذين كنت أفضلهما، كنا نشرب قهوتنا في الأكواب التي كانت ملكاً لإلزا منذ أن صنعتها في المخيم السنوي للأطفال. في أيام الإجازات وعطلة نهاية الأسبوع كنا نضع أغاني البلوز وأغاني راندي نيومان وكارول كينج التي تفضلها إلزا أيضاً. وبالطبع كنا نستمع إلى تلك السيمفونية المحزنة التي ألفتها إلزا، صار بالإمكان تشغيلها بعد أن قامت فرقة الجامعة السيمفونية بتسجيلها تخليداً لذكرى إلزا. كنت أقول لسيمون أن تلك المقطوعة دليل حي على ما كانت تؤمن فيه إلزا، لكنني في الحقيقة كنت أجد تلك المقطوعة مملة، ومزعجة جداً مثل صوت قطط الحاويات في الليل وهي تدوس العلب المعدنية الفارغة بعد أن ترمي عليها حذاء من النافذة.

اقترب شهر ديسمبر، واقترب عيد الميلاد، سألني سيمون إن كنت أرغب بهدية معينة. أخذت أستمع لأغاني عيد الميلاد في الراديو وأفكر فيما

كانت ستطلبه إلزا، لربما اشتراكاً في نادي الرقص، أو مجموعة من اسطوانات غراوسن. بقيت أفكر وأفكر إلى أن سمعت أغنية أجراس العيد في الراديو، ليوغي يورغسن. أتذكر أني سمعتها آخر مرة حين كنت في الثانية عشر من عمري. كنت حينها أظن السخرية هي ما يجعل المرء لطيفاً جداً ومميزاً، في ذلك العام أهديت كوان لوح لعبة اليويغا كهدية لعيد الميلاد، وجلست أتفرج على كوان وهي محتارة في لوحة الأرقام والكتابات المكتوبة أسفلها.

قلت لها: تستطيعين استخدام لوح اليويغا لتطلبي من الأشباح الأمريكية أن تهجأ لك الكلمات الإنجليزية.

- كم هذا جميل ومفيد، قالت كوان ذلك وربتت على اللوح.

في تلك اللحظة، علق بوب زوج والدتي بغضب: هل تجدينه شعوراً جيداً أن تسخري منها!؟ كانت كوان تتفحص لوح اليويغا وقد بدا لها معقداً أكثر من ذي قبل.

- رددت على زوج والدتي: لم تكن سوى مزحة، هل اتفقنا؟

- قال بوب: تقصدين مزحة لئيمة، لا تصدر إلا عن قلب لئيم كقلبك.

قال هذا وسحبني من يدي قائلا: يا فتاة، لقد انتهى عيد الميلاد بالنسبة إليك منذ هذه اللحظة.

أتذكر أني أمضيت باقي العيد حبيسة غرفتي، هناك، شغلت الراديو وسمعت يومها أغنية أجراس العيد لأول مرة. قادتني الأغنية لأتذكر هديتي لكوان، بدت الأغنية سيئة كهديتي لها، بكيت بحرقة وأنا أسأل نفسي يومها: كيف أكون لئيمة تجاه كوان وهي لم تشعر بذلك حتى؟، ولماذا لا أكون لئيمة، كوان معتوهة، تستحق اللؤم، لأنها تترك الناس يسخرون

منها. لا سوء في الحصول على بعض التسلية وقت العيد. لربما يظن الناس أن العيد أكثر قدسية من أن نكون لئيمين فيه. لا بأس، سوف يرى الجميع من هو اللئيم الحقيقي. عليت من صوت الراديو، بدأت الأغنية تصدح بشكل مزعج، نظرت إلى مقبض الباب المغلق وتخيلته أنف بوب زوج أمي، أنفه الإيطالي كبير وحشري كمقبض الباب، أردت الضغط على المقبض حتى ينكسر. عندما ضحك يورغسن في منتصف الأغنية، سمعت زوج أمي بوب يشتم صارخاً: أطفئي الراديو اللعين. لا أظن اللعنات والشتائم، من الأشياء الصالحة لتقال في العيد، أطفئت الراديو وبي رغبة في الانتقام. بعد ذلك أتت كوان إلى غرفتي لتعبر لي عن بهجتها بهديتي لها، قالت كوان : أحببت اللوح كثيراً. قلت لها متذمرة: توقفي عن التصرف مثل المعاقين، قلت ذلك وأنا أنظر إليها محاولة الحفاظ على نظرة اللؤم في وجهي. لم أنجح في ذلك، لأني خفت، أخافني الأذى الذي سببته لكوان بنظرتي تلك في ذلك اليوم.

ها هو سيمون يسألني اليوم عن الهدية التي أريدها في عيد الميلاد، ها أنا أستمع للأغنية من جديد على الراديو وأتذكر. أكاد أن ابكي، بعدما شعرت أن محاباتي لسيمون لن تجدي، ما أردته حقاً في عيد الميلاد، هو أن أسحب سلك الراديو من المقبس، وأن تموت إلزا نهائياً، أن أتخلص من أشباحها للأبد.

لكن، بعد ستة أشهر من التظاهر بالنبل، وأن كل شيء على ما يرام، كيف يمكن لي أن أقول لسيمون فجأة أنني أريد طرد شبح إلزا من سريرنا. تخيلت أني أجمع صورها وأسطواناتها وكل نمط حياتها ذاك، لأضع كل شيء في صندوق، -لأجل الحفاظ على أغراضها- كنت سأخبر سيمون أني سأقوم بالتنظيف لأجل قدوم الربيع أو أي شيء، بعدها سأقود السيارة

حتى بحيرة تيمس حيث سأضع زجاجات مملوءة بالرمل في الصندوق، ثم أرميه ليستقر في قعر البحيرة المظلم. سأقف بعدها لأرى الفقاعات الطافية على السطح وهي تتلاشى، سوف يتلاشى غضبي وانتقامي معها، وسيذهب كل شيء في النسيان. بعد ذلك سأفسر لسيمون وأقول أن الصندوق تمت سرقته، سأقول لسيمون: كم هذا رهيب! لعل اللص ظن الصندوق يحوي أشياء غالية الثمن. أعني أنه غال بالنسبة لنا فقط، أنا وأنت! لا أعرف لماذا لم يسرق اللص جهاز الستيريو بدلاً عن الصندوق!؟ أظن أن سيمون كان ليلاحظ عيناي المراوغتين وأنا أقول له هذا، كان سينتبه إلى الابتسامة على فمي، والتي لم أتمكن من كبحها. في النهاية، سأعترف بما اقترفت. سأخبره عن شعوري الحقيقي تجاه إلزا وتجاه أكوابها وكل متعلقاتها. وسيشعر سيمون بالغضب. في تلك الحالة، فليذهب سيمون إلى الجحيم معها. لكن. بعد مدة، وحين يتلاشى هذا النصر عليها من ذاكرتي، سوف أضيع، لأنني لا أستطيع ترك سيمون يذهب، تماماً مثلما لا يستطيع هو ترك إلزا كي تختفي للأبد.

لأجل التخلص من شبح إلزا، بحثت بعقلية إجرامية مثيرة للشفقة عمن يمكن أن يشاركني في التخلص منها، لذا، لم أعثر سوى على كوان.

شرحت لكوان الموقف باقتضاب، لم أخبرها أني أحب سيمون حتى أتجنب تعليقاتها وفضولها، ناهيك عن نصائحها المعتوهة التي ستنهال علي فيها.

قلت لكوان: إنه مجرد صديق.

- ردت كوان: آه، مجرد صديق. ثم خمنت مضيفة: لعل الأمور مثيرة بينكما

- لا يا كوان، إنه مجرد صديق.

- كررت كوان: صديق مقرب إذن؟

- بل مجرد صديق.

- حسناً، إنني أفهم ما تعنين.

شرحت لكوان عن إلزا التي ماتت بحادثة، وكيف أن سيمون لم يستطع مفارقتها حتى الآن، وأنه حزين، قلت لها إن ذلك سيضر به، ولو أنه سمع نصيحة منها أو من أشباح ين خاصتها، لربما يتغير. كنت أعرف أن كوان تتحرق دوماً لمساعدتي في أي شيء. لذا قلت لها ما أرغب فيه بالضبط.

- ربما يستطيع شبح إلزا إخباره أن الوقت حان ليبدأ كل منهما حياة جديدة، هي وسيمون. يجب أن ينساها، وألا يذكر اسمها بعد الآن.

- قالت كوان: ليبي، تلك الفتاة كانت حبيبته إذن.

- لا، فقط صديقته.

- ابتسمت كوان بخبث ثم قالت: آه، صديقة مثلك إذن، هل هي صينية أيضاً؟

- بل بولندية، وأظن أنها يهودية كذلك.

- هزت كوان رأسها: بولندية يهودية، لا تعثرين على الكثير منهم، معظمهم موتى، تماماً مثل الصينيين، كثير منهم موتى[1]. تستطيع أشباح ين العثور على شبح آخر لو كان صينياً، أما لو كان بولندياً، أو يهودياً، ربما لن

---

(1) تشير كوان بما لحق باليهود من مجازر في الحرب العالمية الثانية، وكذلك تشير للمنسي من مجازر تعرض لها الصينيون.

تعثر عليه أبداً، لأنه قد لا يكون ذهب لعالم ين، ربما تذهب أشباحهم إلى مكان آخر.

- هل تقصدين أن العالم الآخر معزول عن عالم ين؟ وأنه لا يمكنك الذهاب لعالم ين إلا إن كنت صينية؟

- قالت كوان: لا، لم تكن الآنسة بانر صينية يا ليبي، ورغم ذلك فإنها ذهبت لعالم ين، إن ذلك يعتمد على ما تؤمنين به، وعلى ما تحبينه. إن كنت تحبين المسيح، ستذهبين إليه، إن كنت تحبين الله (إله المسلمين)، ستذهبين إليه، أما إن كنت تحبين النوم، ستنامين إلى الابد.

- قلت لكوان: وماذا لو كنت لا تؤمنين بشيء قبل موتك؟

- ردت كوان: عندها ستذهبين إلى مكان شاسع، يشبه ديزنيلاند! هنالك كل شيء، وهناك ستقررين وتختارين بما ستؤمنين، دون أي تكلفة بالطبع.

أخذت كوان تتكلم وأنا أتخيل تلك المساحة الشاسعة، تخيلت عملاء تأمين يرتدون زي ملائكة ويلوحون بأوراق لامعة، يعرضون على المارة جولة في جهنم، أو في الأعراف حيث يذهب الأطفال الذين لم يعمدهم أهلهم. للحظة، تخيلت جماعات من عبدة القمر والبرق، وهم يتلقون عرضاً لزيارة الجحيم، حيث سينعمون هناك بعذاب أبدي في أتون الكبريت والنار!

- قلت لكوان: إذن، من الذي يذهب لعالم ين؟

- أجابت كوان: العديد من الناس، كل من يظن أنه نادم على خطأ ما، كل من أضاع فرصة ثمينة في الحياة، أو فقد زوجة أو زوجاً، كل من فقد طفلاً أو أختاً.

صمتت كوان ثم أكملت مبتسمة: وكل من يفتقد الطعام الصيني أيضاً! سيذهب كل هؤلاء إلى عالم ين، ثم سيعودون في هيئة شخص آخر.

- كوان! أتقصدين تناسخ الأرواح؟

- ماذا تعني هذه الكلمة يا ليبي؟

- أعني، أن روحك تنتقل بعد موتك لتعيش في مخلوق جديد آخر، شيء من هذا القبيل.

- قالت كوان: نعم، شيء من هذا القبيل، لكنك لا تستطيعين أن تكوني متطلبة، قد تعودين إلى الحياة بسرعة، خلال تسعة وأربعين يوماً، قد تريدين العودة إلى الحياة لأجل شخص مميز، لتتزوجيه مثلاً. لكن العودة قد تستغرق وقتاً أطول أحياناً، كأنك تقفين في مطار كبير، وأمامك أماكن كثيرة لتذهبي إليها، لكنك تريدين السفر في الدرجة الأولى، ورحلة دون محطة توقف، ربما تريدين الحصول على خصم على الرحلة أيضاً، شيء من هذا القبيل، قد تتأخرين لتقرري، ربما تتأخرين لمئة عام، سأخبرك بسر يا ليبي، ولا تقوليه لأحد، معظم أشباح ين، خمني ماذا يريدون أن يصيروا حين عودتهم للحياة؟

- قالت كوان: رؤساء لأمريكا .

- قلت مستهجنة: لا .

- إنهم سيصيرون كذلك يا ليبي.

- من هم يا كوان؟ أو، لا شيء، إنسي، أخبريني فقط بما يريدون أن يصيروه.

الصينيون يا ليبي! هم الذين سيصيرون كذلك. سأخبرك الحقيقة. لا الفرنسيون، ولا اليابانيون ولا حتى السويديون، فالطعام الصيني هو الألذ، له نكهات كثيرة، وفي كل مرة يكون مذاقه مميزاً، أيضاً، الصينيون متقاربون جداً، ومخلصون في علاقاتهم وصداقاتهم، إن كان لك صديق منهم أو عائلة، فسيظلون معك للأبد، سيبقون معك لآلاف الحيوات لا في حياة واحدة! ولهذا السبب، يعيش الكثير من الصينيين في العالم هذه الأيام. تماماً مثل الهند، ذلك شائع هناك لأن الهنود يؤمنون بتناسخ الأرواح كذلك. إنني اسمع أن الطعام الهندي ليس سيئاً كذلك، أطباقهم تحوي الكثير من البهارات، ونكهة الكاري. لكن بالطبع، الكاري الصيني هو الأفضل. ما رأيك يا ليبي؟ ألا يعجبك طبق الكاري الذي أعده أنا. إن كنت تحبينه، سأعد واحداً الليلة، ما رأيك؟

طلبت من كوان أن تعود لموضوعنا عن إلزا. سألتها:

- ما الذي نستطيع فعله للعثور على شبح صديقته؟ أين يذهب البولنديون اليهود عادة؟

- ردت كوان، البولنديون اليهود، ربما يذهبون لأماكن كثيرة، بعضهم لا يؤمن بالحياة بعد الموت. بعضهم يؤمن بشيء بين الحياة والموت، كأولئك المنتظرين للتشخيص في عيادة الطبيب. بعضهم يذهب إلى جبل صهيون، هنالك حيث ملجأهم الوهمي. حيث لا يمكن لأحد أن يشكو هناك من أي شيء، ولا يطلب منهم أحد دفع ثمن أي شيء، يحصلون على خدمة جيدة فقط. هزت كوان رأسها بعد أن أنهت كلامها، ثم سألتني:

- كيف ماتت إلزا بكل حال؟

- ماتت في حادث تزلج في يوتاه، في انهيار ثلجي، لقد غرقت كما أظن.

- قالت كوان: غرقت بعد الغداء! تقصدين أنها كانت تسبح بعد أن تناولت الكثير من الطعام[1].

- لا، لم اقل أنها غرقت بعد تناولها الغداء. لقد قلت...

- قاطعتني كوان: لم تتغدى، هي غرقت فقط لأنها لا تجيد السباحة.

- لا، لم تغرق بالمعنى، لقد دفنت تحت الثلج.

- تحت الثلج! قالت كوان عابسة: لماذا قلت أنها غرقت إذن؟

كدت أجن من عقل كوان. سألتني كوان: هل كانت صغيرة جداً؟

- كانت في الحادية والعشرين.

- علقت كوان: إنه لشيء محزن، ومتى حدث ذلك؟

- منذ عام تقريباً.

فجأة، ضربت كوان كفاً بكف وقالت: كيف نسيت ذلك !؟ صديقي الأعزب، توبي ليبسكي، ينتهي اسمه بالكاف والياء أيضاً، إنه يهودي ظريف من عالم ين، مات في السنة الماضية بسرطان الكبد. لقد أخبرني أن كلامي كان صحيحاً، قال أن نصيحتي عن الإفراط بشرب الخمر في الديسكو وغيره كانت صحيحة، قال: عندما أعود في حياتي الأخرى، لن أفرط في الشرب. عندها سوف أمتلك حياة أطول، وحباً أطول، بل وعضواً أطول كذلك! كان يمزح معي بالطبع. لقد أخبرني توبي أيضاً بأني

---

(1) لم تفهم كوان كلمة انهيار جليدي بالانجليزية جيدا وفهمت أن الفتاة غرقت وهي تسبح بعد تناولها للكثير من الطعام.

لو احتجت أي خدمة من عالم ين، فسيقدمها لي بكل امتنان، سوف أسأله عن الفتاة. ماذا كان اسمها يا ليبي؟

- إلزا، اسمها إلزا.

- نعم ، إلزا، إذن يجب أن أكتب رسالة في خيالي، ثم أرسلها لتوبي. أغمضت كوان عينيها وأخذت تضرب بسبابتها على جانب رأسها. فتحت عينيها فجأة ثم تمتمت: لتذهبي لعالم ين، من خلاصة القلب والعقل معاً، واستخدمي الحاسة السرية المئة.

- سألت كوان: ماذا تقصدين بالحاسة السرية؟

- لقد قلت ذلك كثيراً من قبل يا ليبي، لكنك لم تستمعي لي جيداً، إنها ليست سرية بالفعل، لأن الجميع يمتلكها، لكن الجميع ينسونها أيضاً. إنها دقيقة وحساسة جداً، مثل خطوة نملة، مثل خرطوم فيل، أو جناح خفاش، مثل حاسة الشم في أنف الكلب، أو لسان الأفعى، مثل أذن الحوت، أو حراشف سمكة، مثل بتلة في جوف وردة. إنها حاسة عميقة، خليط من كل شيء.

- أتقصدين الغريزة؟

- قالت كوان: تقصدين الرائحة؟ ربما أن الرائحة تقودنا أحياناً إلى...

- ليست الرائحة يا كوان، إنني أعني الغريزة، إنها شيء تولدين وهو معك، تماماً ككلبنا بوبا عندما يحفر في التراب ليخفي برازه.

- صحيح يا ليبي، لم تتركين كلبنا يفعل ذلك، هذه ليست حاسة، إنه انعدام حس وفوضى، لماذا تتركينه يتبرز في تربة الورد ويفسدها؟

- كوان، كنت أحاول فقط أن أشرح شيئاً آخر، حسناً لتنسي كل شيء وأخبريني فقط، ما هي الحاسة السرية؟

- حسناً، ربما هي مزيج، من الذاكرة، من أشياء تقال، أشياء نسمعها، ونشعر فيها، تستطيعين معرفة الحقيقي منها من خلال قلبك. تتطور حاستك، ربما تصير مثل رعشة تسري فيك حين تحدسين بشيء. هل تعلمين، رعشة العظام تعني أن المطر قادم، أما تنبه عقلكن وسريان القشعريرة في جلدك ويديك، فهذا يعني أن شيئاً ما يخيفك. إن اقترب الشيء المخيف أكثر، سيظل جلدك المرتعش ينبه عقلك، وهكذا، ستعرفين أن ذلك الشيء حقيقي. سوف يتسرب ذلك لقلبك، وإن لم تقتنعي رغم ذلك أن خطراً ما قادمن فسيرتعش جلد أنفك وإبطك وحتى عنقك، حينها ستكون هنالك كارثة قادمة. أحياناً تستخدمين حاستك تلك وتتلقين رسالة من أي جهة، ربما تكون بين أشخاص ميتين وآخرين أحياء، إن هذا لا يهم، إنهم يملكون الحاسة نفسها!

- قلت لكوان: بغض النظر إذن، يجب أن تسعي لاكتشاف تلك الحاسة إذن.

- ردت كوان بتذمر: وهل تظنين أني أعمل في مكتب بريد، أرسل برسائل عيد الميلاد التي يتبادلها الناس! وأسعى لاستقبال وإيصال كل الرسائل؟لا ليست الأمور هكذا، ولا بأي شكل آخر، بكل حال، في عالم ين لا حاجة لأحد للاهتمام بالوقت، كل شيء متأخر أصلاً. لكي تصلي لأي شخص، يجب أن تحدسي بمشاعره. على مشاعرك أن تصير مشاعره. ومن ثم، ستكون مصادفة جميلة، حينما تتحد نفسان معاً، وتسري إحداهما مع مشاعرها في داخل الأخرى.

- حسناً يا كوان، إذن احرصي على إخبار ذلك الرجل توبي، أن اسم الفتاة هو إلزا فانديرفورت. ذلك اسم العائلة التي تبنتها، إنها لم تعرف أهلها الحقيقيين. كانوا يهوداً بولنديين ممن ذهبوا لمعسكر أوشفيتز. كما أنها تحب موسيقى شوبان وتلك الأشياء الموسيقية والفنية.

- قالت كوان: ليبي، أنت تتكلمين بسرعة.

- إذن، سأكتب ما قلته لك على ورقة. اضطررت لاختصار كل هذه المهزلة مع كوان لأساعدها كي تستخدم رؤاها في تخليص سيمون من شبح إلزا.

بعد مرور أسبوعين، أخبرتني كوان أن توبي عثر على الكنز، لقد تمكن من العثور على شبح إلزا وتحديد موعد معها مباشرة في أول ليلة يكتمل فيها القمر. قالت كوان أن أشباح ين سيئون في تحديد المواعيد لأنه لا أحد منهم يستخدم تقويماً أو يملك أي ساعة. الطريقة الوحيدة لتحديد مواعيدهم كانت بأن يراقبوا تحولات القمر. وهذا السبب في أن أشياء غريبة تحدث عادة عندما يكون القمر مشعاً ومكتملاً. تماماً مثلما تضيئين شرفتك ترحيباً بالضيوف ثم تدعينهم للدخول. هكذا تتجمع الأحداث حين يضيء القمر، هذا ما قالته كوان لتشرح لي.

ما زلت أشعر بالذنب حتى اليوم، وذلك للسهولة التي خدعت سيمون فيها وقتئذ. لقد جرت الأمور بتلك الطريقة: لقد قلت له أننا مدعوان للعشاء عند كوان فوافق.

منذ اللحظة الأولى التي خطونا فيها لبيت كوان قالت كوان: سيمون جميل. اندفع سيمون ورد عليها: لا يبدو أنك تكبرين أوليفيا باثني عشر عاماً، لا بد أن أوليفيا كانت تمزح. أشع وجه كوان وشعرت بالإطراء،

ثم ردت: أوه، تتحدث بأسلوب جميل أيضاً. طبق الكاري لم يكن سيئاً، حديث السهرة كان لطيفاً، زوج كوان وأبناؤه تحدثوا بحماس عن الشجار الذي حضروه في مصف سيارات السيفوي. خلال العشاء، لم تتصرف كوان بغرابة كعادتها، لكنها سألت سيمون بفضول عن عائلته. سألت أي والديه صيني؟ هل هي أمه؟ قال لها بأن أمه من هاواي، سألته كوان إن كانت أمه تجيد رقصة هاواي (الهولا هولا). رد سيمون أنها ماتت في سن مبكرة. شعرت كوان بالأسف لذلك وقالت إنها شاهدت رقصة الهولا في التلفاز ذات مرة ورأت الراقصين يدورون بخصرهم مثل المراوح ويلوحون بأيديهم كما تلوح العصافير بأجنحتها. عندما ذهب سيمون لدورة المياه، غمزتني كوان وقالت: لماذا قلت أنه مجرد صديق فقط، إن كل شيء واضح على وجهيكما، إنه ليس مجرد صديق. ألست محقة؟ قالت ذلك وضحكت ضحكة هستيرية من كل قلبها. بعد العشاء، لمحت كوان لزوجها جورج. فحمل الأولاد وذهبوا لغرفة العائلة ليشاهدوا فيلم حرب النجوم، بعد ذلك طلبت كوان مني ومن سيمون اللحاق بها إلى غرفة المعيشة لأنها ستقول لنا شيئاً مهماً. جلسنا على الأريكة فيما جلست هي على مقعدها الخاص، أشارت كوان للموقد المزيف الذي كان يعمل بالطاقة الكهربائية وقالت: الجو بارد جداً، أشرت وسيمون برأسينا موافقين. وضعت يديها في حضنها وسألت سيمون وهي تبتسم مثل جنية عارفة: هل تعجبك أختي أوليفيا؟ حاولت تحذير كوان لكن سيمون أجابها بسرعة: تعجبني كثيراً.

بدت كوان راضية مثل قطة انتهت للتو من لعق جسدها كله بلسانها. قالت من جديد: أنت حتى لا تحتاج لإخباري، لقد رأيت هذا مسبقاً، أتعرف لماذا؟

رد سيمون بابتسامة خجولة: ربما لأن هذا واضح.

قالت كوان: لا ، ليس لأن أحداً من والديك أخبرني[1]! بل لأني أعرف هنا، وأشارت بإصبعها لرأسها، إني أملك عيني ين.

نظر سيمون إلي والحيرة في عينيه، بدا أنه يقول لي: أوليفيا، ساعديني، إني لا أفهم ما تقوله كوان؟

أشارت كوان لسيمون: انظر هناك، ماذا ترى؟

نظر سيمون أمامه ظاناً أن كوان تمارس معه لعبة ما من تلك الألعاب الصينية. كانت كوان تشير إلى الموقد.

قال سيمون: ربما تقصدين تلك الشموع على الموقد.

ردت كوان: لا، أنت ترى الموقد، أليس كذلك؟

- آه، لعلك تعنين ذلك الشيء فوق الموقد.

- ردت بسرعة: لا، أنت ترى الموقد أما أنا فأرى شخصاً من ين، يقف هناك، شخص مات في يوم من الأيام.

- ضحك سيمون : شخص ميت،، تقصدين شبحاً ما إذن؟

- أجل، إن اسمها هو إلزي!

أخطأت كوان في اسم إلزا لكنها قالته تماماً كما كانت تطلقه إلزا على نفسها!

أكملت كوان: ربما تعرف إلزي يا سيمون، إنها تقول أنها تعرفك.

---

(1) كلمة واضح وكلمة والد ووالدة parents تتشابه كلها في اللفظ بالانجليزية وكوان كعادتها خلطت بين الكلمتين.

تلاشت ابتسامة سيمون من على وجهه، نظر للأمام وسأل: إلزا؟

- قالت كوان: أوه، إنها الآن سعيدة جداً لأنك تتذكرها. قالت ذلك ونظرت تجاه شبح إلزا المفترض ثم أرهفت سمعها، أخذت تتمتم وتقول: آه، سمعتك، نعم، نعم. نظرت إلينا وقالت: سيمون، لن تصدق أن إلزا التقت بكثير من الموسيقيين الذين ماتوا، المشاهير منهم. عادت تتطلع إلى الموقد وتتمتم من من جديد، آه، نعم نعم، كل هؤلاء، إلزي توقفي، إنها أسماء كثيرة لرجال مشهورين، أكاد لا أستطيع تكرار أسمائهم، آه من الأخير؟ لم أسمع جيداً، أتقولين شومان؟

صححت مسرعة لكوان: تقصدين شوبان.

قالت كوان: نعم، شوبان أيضاً، لكنني أسمعها الآن جيداً، إنه شومان.

بدا سيمون مسحوراً لما قالته كوان، أما أنا فدهشت حقاً، لأني أعرف أن كوان لا تفقه شيئاً في الموسيقى الكلاسيكية، كانت بالكاد تستمع لموسيقى الريف التي تتحدث دوماً عن نساء مكسورات القلب، بدت كوان صادقة حقاً بما نقلته عن إلزا.

قالت كوان: تقول إلزي أنها سعيدة جداً الآن، لأنها التقت أخيراً بأمها وأبيها الحقيقيين، بل وبأخوها الأكبر أيضاً، إنها تقول أن اسم عائلتها هو: واوسكي، لا بل واكوسكي، يبدو يابانياً. صمتت كوان لثوان ثم قالت: لا لا، إنه بولندي، ماذا يا إلزي؟ آه، بولندية يهودية. لكنهم ماتوا منذ مدة طويلة، لأنهم ذهبوا إلى...

أكملت مقاطعة كوان: أوشفيتز، ذهبوا لمعسكر أوشفيتز.

لا، قالت: كوان بالألمانية (auto-ditch)، هذا ما قالته. لقد ماتوا في حادث ارتطام حافلة. عقبت كوان: من الصعب فهم كلام شخص من عالم

ين، قالت ذلك وقربت أذنها ثم أردفت: إنهم يتكلمون بسرعة، أليس كذاك؟ رفعت كوان رأسها برفق وقالت: لقد أخبرتني إلزا الآن أن جديها ماتا في أوشفيتز، وليس والداها، ماتا أثناء الحرب في بولندا. نظرت كوان إلي ثم غمزتني! عادت بعد ذلك وتطلعت إلى الموقد باهتمام ثم قالت: أوه، أجل! لقد عانيت حقاً يا إلزي، كم هذا محزن. استدارت كوان إليها ثم نظرت إلى ركبتها وقالت: لقد أصيبت في حادث اصطدام الحافلة، هكذا حصلت على تلك الندبة في ركبتها وهي طفلة!

لا أتذكر أني كتبت لكوان أي تفاصيل عن ندبة إلزا، سأكون سعيدة لو أني فعلت، لقد أضافت كوان لمسة حقيقية على قصة إلزا.

اندفع سيمون ليسأل فجأة: إلزا، الطفل، ماذا حصل للطفل الذي كان في أحشائك؟

نظرت كوان إلى الموقد لتسمع من إلزا، أما أنا فحبست أنفاسي، لأني لم أذكر شيئاً لكوان عن الطفل. بقيت تنظر للموقد باهتمام إلى أن استدارت إلينا من جديد، رفعت يدها في الهواء بلا مبالاة وقالت: تقول إلزا أنه لا توجد مشكلة، لقد التقت بذلك الشخص الذي من المفترض أن يصير ابنها، إنه لطيف حقا، لكنه لم يمت، لأنه لم يولد بعد. إنها مسألة وقت فقط حتى يولد لأم أخرى.

تنفست الصعداء بعد أن أنهت كوان كلامها. لكن كوان عادت تنظر إلى جهة الموقد، كان ترتجف هذه المرة وتحدق فيها رأسها تهتز. بدأ جلدي يقشعر وشعرت أني أرى شرارات مضيئة تنطلق من الموقد. قالت كوان: تقول لك إلزا يا سيمون، إنسها، لا تأت على ذكر اسمها بعد اليوم، إنها سعيدة مع رفاقها الموسيقيين شوبان وشومان، سعيدة مع أبيها وأمها

وأخيها، تعيش حياة جديدة. آه، لقد قالت: إنسى، ولا تضيع حياتك، عش حياة جديدة، تماماً كما تفعل هي الآن. بعد ذلك بدأت كوان تقول لسيمون أنه يجب عليه أن يمضي في حياته معي قبل أن تضيع الفرصة التي قد لا يحصل عليها خلال حيوات كثيرة! أخذت تخبره أني صادقة ومخلصة، لطيفة وذكية. ثم أشارت لسيمون: ربما أن أوليفيا لا تجيد الطبخ جيداً، لكن لو صبرت، فستتقن الطبخ، إن لم تفعل، سأعلمها بنفسي. بعد ذلك، أومأ سيمون برأسه واستمع جيداً لكل ما قالته كوان، بدا حزيناً وممتناً في ذات الوقت. كان يجب أن أكون مرتاحة بعد كل ما حصل، لكنني كنت قلقة حقاً، لقد رأيت إلزا وسمعتها أيضاً !! تماماً مثلما رأتها كوان. لم تكن كتلك الأشباح التي كنت أراها في طفولتي، تبدت لي مثل شرارات تحمل كل إحساس وعاطفة حملتهما إلزا ذات يوم. كانت تدور مثل زوبعة، تتراقص في أنحاء الغرفة، تتوسل سيمون لكي يسمعها. لقد عرفت كل شيء بفضل حواسي السرية المئة، بلسان الأفعى، شعرت بحرارة رغبتها لكي يراها سيمون. وبدقة جناح الخفاش، استطعت تحديد مكانها، كانت ترفرف قرب سيمون وتحاول أن تتجاهلني ولا تقترب مني، كان هواؤها الحار يلسع جلدي. شعرت بدموعها المتساقطة مثل صاعقة تضرب قلبي، وبإحساس بتلة الورد الصغيرة، شعرت بقلقها وهي تنتظر سيمون ليسمعها، غير أني كنت أنا التي سمعتها، لم أسمعها بأذني، بل سمعتها بتلك البقعة الكامنة في العقل، التي تجعلك تتأكد من أن الشيء حقيقي، لكنك تظل راغباً في عدم تصديقه. لم تكن مشاعرها كما عبرت عنها كوان، لقد كانت تتوسل سيمون باكية، حتى يسمعها: كانت تقول مراراً وتكراراً: لا تنسني وانتظرني، سوف أعود إليك.

لم أخبر كوان أبداً بما سمعته، لم أصدق ما سمعته أصلاً وظننته مجرد هلوسة. لكنني وطوال سبعة عشر عاماً من عمري، أدرك أن القلب يشعر

بما يشاء، ليس مهماً ما تتمناه، ولن تجدي المحاولات لدفع جذور الخوف كي تنمو بعيداً عن قلبك. سوف تعود مثل نبات ضال لتتسلق جدران قلبك، سوف تحتل حجرات قلبك وتتسلل إلى روحك، ستنتشر في عروقك ثم تندفع من مسام جلدك. في ليالٍ كثيرة، كنت أستفيق في الظلام والحمى تنتابني، رأسي تدور، أفكر في الحقيقة وأنا خائفة. يا ترى، هل سمعت كوان ما سمعته أنا من إلزا؟ هل أخفت ذلك لأجل مصلحتي؟ لو أن سيمون اكتشف فيما بعد أننا قمنا بخداعه، كيف كان سيتصرف حينها؟ هل سيتوقف عن حبي حينها؟

بدأت الأسئلة تراودني أكثر وأكثر، تركتها تتراكم حتى ظننت أن فكرة زواجي من سيمون سوف تنهار، لقد حطمتها إلزا. لقد كان ذلك الانهيار الثلجي، الذي جعلني أطرح السؤال الغامض على نفسي: لماذا نحن هنا معاً؟ أظل أفكر حتى تظهر الشمس من النافذة، يأتي نور الصباح فجأةً مانعاً عيناي من الرؤية بوضوح، أنظر للساعة، أفتح صنبور الماء، أستحم بماء حار تارة، وبارد تارة أخرى، أحاول أن أستيقظ، أشعر بالماء وهو يضرب جلدي بقوة. أشعر بالامتنان لأني بدأت أعود لطبيعتي وروتيني، ولأني بدأت أشعر بحواسي الطبيعية، تلك التي أستطيع أن أثق فيها تماماً.

8

صائد الأشباح

يجب أن أشكر الخدمة الحكومية العامة، لأنها قادتني في نهاية الطريق إلى المذبح برفقة سيمون لنقدم نذور الزواج. لقد عشنا بسببها سوية ولثلاثة أعوام، عامان منهما بعد التخرج. قضيناها في محاولة لتحقيق حلمنا بإحداث تغيير حقيقي في المجتمع، عملنا معاً في الخدمات الإنسانية. عمل سيمون مستشاراً في تغيير نمط الحياة، كان يساعد الفتيات ممن يحملن سجلاً إجرامياً. أما أنا فكنت عاملة متفرغة ضمن برنامج الفرصة الأخرى والذي يقدم النصائح للحوامل المدمنات. لم نكن نكسب الكثير من المال، لكننا استطعنا التوفير بعد أن عرفنا كيف نعيد المصروفات إلى دائرة الضريبة كي نقلل من قيمة الضريبة التي ندفعها. استطعنا توفير المبلغ لندفع للحكومة ستمئة دولار وبعض الفكة في السنة. ومع ذلك الوضع الصعب، ناقشت مع سيمون إن كان من حق الحكومة أن تقدم إعفاءات أعلى للمتزوجين، وكيف أنها تتلاعب بشكل ماكر في الضرائب، ولماذا ندفع لها ذلك المبلغ الذي تشتري فيه الحكومة الأسلحة!؟ إننا حتى نستطيع استخدام ذلك المبلغ في شراء سماعات ستيريو جديدة او أي شيء آخر. كان

سيمون هو الذي اقترح أن نتزوج، أتذكر حين قال: ما رأيك؟ بذلك سوف نتحد معاً، ونوحد ملف ضريبتنا أيضاً؟

حددنا مكاناً قريباً من حدائق بوابة رودن الذهبية. رأينا أن المكان مريح ورومانسي. كما أنه محاط بلوحات فسيفسائية جميلة. لكن الزواج تم في أحد أيام يونيو التي انتشر فيها الضباب القادم مع رياح المحيط الأطلسي الرطبة، يومها، طايرت الريح شعرنا وملابسنا، وفي الصور التي التقطناها في حفل الزواج نحن والضيوف، بدا الجميع مشوشين. وبينما كان الأب يتلو تعاليم الزواج، ويستعد لتقديم مباركته، أعلنت إدارة الحديقة في المكبرات أن الجو مضطرب وأنها ستمنع التجمعات للتو، لذا، اضطررنا لتجاوز الأعراف وتلونا قسم الزواج مسرعين ثم جمعنا طعام الحفل والهدايا وهرعنا إلى شقتنا الصغيرة في شارع ستانيان.

وحتى تكمل الأمور بعد أن تلفت كعكة الزواج، فإننا لم نجد شيئاً واحداً عملياً من بين كل هدايا الأصدقاء يمكن أن يعيننا على ظروفنا، لم يحضروا مناشف مطبخ مثلاً ولا أغطية سرير أو أي شيء من عاديات البيت، اقتصرت هداياهم على الأشياء التي ظنوها غريبة ولطيفة، أحضر بوب زوج والدتي مزهرية من الكريستال، أهل سيمون أهدونا طبقاً خشبياً يحمل نقوشاً عتيقة. باقي العائلة حاولوا إحضار ما ظنوه شيئاً مميزاً، شيئاً ربما يظل حتى يرثه أحفادنا، جلبت أمي منحوتة لرجل وامرأة متعانقين، من أعمال صديقها الحالي: باهر سين. أما أخي تومي، فأحضر لنا آلة مراهنة يابانية قديمة، والتي ظل يلعب فيها كلما قام بزيارتنا. أحضر أخي كيفن صندوقاً من النبيذ الأحمر، والذي من المفترض أنه معتق منذ خمسين عاماً، سرعان ما فرغت زجاجات النبيذ بالطبع بعد بضعة أنخاب مع الأصدقاء في العطلات والمناسبات. أما هدية كوان فكانت جميلة ومدهشة حقاً،

أهدتني صندوقاً مصنوعاً من خشب الورد بغطاء مموج، وبمجرد أن رفعت الغطاء، انطلقت موسيقى أغنية: حيث كنا. كان اللحن فاتناً، أما في مكان ركن المجوهرات في الصندوق، وضعت كوان كيساً من الشاي. قالت لي حين أعطتني الصندوق، إن أثر الشاي يدوم لزمن طويل.

* * *

في السنوات السبع الأولى من زواجنا، كنت وسيمون نتفق على كل شيء تقريباً. في السنوات السبع التي تلت ذلك، بدأنا نختلف. لم نعد نتناقش في مسائل ذات قيمة كما كان يفعل سيمون مع إلزا، لم نعد نتحدث في الأمور الإيجابية، ولا نناقش أمور المجتمع وما يمكن إصلاحه منه. صرنا نذهب إلى أمور تافهة، أعظمها أن نتجادل إذا ماكان الطعام سيصير ألذ لو أني جعلت الزيت يغلي في المقلاة أولاً قبل وضع الطعام، كان سيمون يصر على رأيه، وأصر أنا على رأيي. لم نكن نتشاجر بعنف، لكننا تخاصمنا كثيراً حتى صرنا جامدين، وصار الأمر اعتيادياً، وحل الجمود بيننا أكثر من الحب. صرنا مع الوقت، نتكتم على آمالنا وأحلامنا، رغباتنا الذاتية صارت سرية ومبهمة، صار من المخيف أن نذكرها لبعضنا، تركنا كل شيء ينمو في داخلنا مثل سرطان يجعل الجسد يأكل نفسه بنفسه.

بتذكر الماضي، تنتابني الدهشة كيف أن زواجنا استمر لمدة طويلة. فكرت في زيجات الناس الآخرين وفي أصدقاءنا، يا ترى، كيف استمرت في هذه الروتينية وهذا الملل، ربما أن الزيجات خليط من الأمل والخوف، لعل الأمل يخفف من حدة الخوف ويدفعنا للاستمرار. لم أظن أبداً أن زواجنا هو الأسوأ مقارنة بالآخرين. كان زواجنا أفضل من غيرنا في أحيان كثيرة،

لقد كنا نبدو كزوجين سعيدين في الحفلات، كنا نحافظ على علاقة جنسية صحية بيننا، كما كنا نملك أهم شيء مشترك، كنا نعمل معاً في مجال العلاقات العامة ومع جمعيات طبية غير ربحية تماماً. خلال سنوات، شكلنا قائمة محترمة من الزبائن الدائمين، عملنا مع جمعية الكلى الوطنية وجمعية أبحاث أمراض الدماغ ودعمنا القضايا الطبية الإنسانية كذلك. كنا نربح من الدعايات الرخيصة التي تصر عيادات شفط الشحوم وزرع السيليكون للنساء على إعلانها، قبل وبعد، تلك الصور التي كانوا يحبون أن ننشرها لهم. عملت وسيمون معاً في غرفة خصصناها للعمل في شقتنا، كنت أصور وأصمم الإعلانات، عملت كفنانة ملصقات. أما سيمون فكان محرراً ومسؤولاً عن شؤون العملاء وشؤون شراء العروض ومسؤولاً عن التقييم الفني والجمالي. عاملنا بعضنا بحذر واحترام، تعاونا في وضع المخططات والقياسات وتجهيز العمل، كنا محترفين حقاً. وكان أصدقائنا يقولون إننا محظوظان، ولسنوات، أردت أن أصدق ما اعتقدوه عنا، لقد ظننت أن خلافاتنا ليست سوى حالات غضب ثانوية، تماماً مثل شظايا صغيرة تحت الجلد، أو بقع تلطخ السيارة، أشياء من السهل إزالتها بمجرد أن نحاول ذلك.

بعد ذلك، مرت ثلاث سنوات أخرى، توفي خلالها أبي بالمعمودية: دودلي. كان محاسباً متقاعدا، ولم أعد ألتقي فيه منذ طفولتي. لكنه توفي بعد أن ترك بعض الأسهم باسمي في شركة الأبحاث الجينية التي عمل فيها. لم تكن الأسهم تستحق الكثير حين توفي، لكن منفذ الوصية أبلغني عن حصتي بعد أن تطورت الشركة وصارت عامة، تضاعفت الأسهم -شكرا لمعجزات الدي إن إيه- . واستطعت أنا وسيمون أن نحصل مبلغاً جعلنا نشتري منزلاً جميلاً في أحد الأحياء المميزة برغم ارتفاع الأسعار في سان فرانسيسكو. كان الأمر جميلاً إلى أن قالت أمي أنه ربما يجب أن نتشارك

المكان مع تومي وكيفين وكوان، ذلك أن دودلي كان صديق والدنا وأعطاني الأسهم كناية عن أخوتي لأني كنت المفضلة عنده. أظن أمي كانت محقة، لكنني تمنيت لو أن الجميع يقول: شكراً، احتفظي بكل شيء. وحدها كوان التي فرحت ورقصت مثل شخص ربح الجائزة الكبرى في دولاب الحظ. بعد أن حصلت على حصتي من الميراث، وبعد أن أزحت مع سيمون نسبة كبيرة من الضرائب، استطعنا أخيراً توفير ثمن شراء بيت عصري في حي ما من أحياء المدينة.

استغرقنا البحث عن بيت أكثر من سنة، اقترح سيمون بيتاً من طراز البيوت المبنية عام 1950، بقمة مثلثة مرتفعة كتلك البيوت في مقاطعة ريدين، قال أننا نستطيع استثمار البيت بعد سنوات وبيعه بضعف الثمن. لكنني أردت بيتاً أقل فخامة، واحداً من تلك البيوت المبنية على الطراز الفيكتوري والتي تكون سقوفها أكثر انخفاضاً. بيتاً يمكننا ترتيبه ليكون دائماً وليس لنستثمره ونعيد بيعه. قال سيمون بعد أن رأينا أحد تلك البيوت التي أحبها: تقصدين كوخاً حقيراً، لا بيتاً دائماً.

لم نشهد أنا وسيمون إمكانية لما سميناه مستقبلنا المشترك، هذه الإمكانية بالطبع، كانت تحتاج للمزيد حتى تتحقق بيننا، كنا نعرف أن الإهمال بيننا يحتاج إلى نوع من التجديد حتى يزول. لم يكن حبنا يحتاج لتجديده أكثر من بعض السعادة المتمثلة بالبقاء قريبين من بعضنا في سرير صغير، لكننا بدلا عن ذلك اشترينا سريراً كبيراً بفاصل، ووضعنا ستارة كهربائية يتحكم فيها كل واحد من طرفه.

في يوم أحد صيفي رطب، لاحظت وسيمون أحد البيوت المتاحة ضمن وحدة البنايات السادسة في المرتفعات المطلة على أطراف المحيط

الهادئ. كان الإعلان قديماً وشبه ممزق ومعلقاً بخيط رث. حين زرنا البيت، وجدنا توسعة على الطراز الريفي في مؤخرته، حيث الشبابيك والأبواب مغطاة بقطع معدنية كبيرة . كان يمتد لثلاث مباني تفصلها ممرات مسقوفة بقوسين عتيقين وكان المجمع بعيداً عن الشوارع الأكثر رقياً في مرتفعات الهادئ، كانت الشوارع حوله مكتظة بالعائلات والناس الذين ينزهون كلابهم وبالشباب الذين يقيمون هنا وهناك لفترات محدودة، هذا بالإضافة لمنزلين إضافيين في المجمع.

في رواق المجمع الذييقبع في المنطقة الشبه فخمة في مرتفعات الهادئ، التقط سيمون اللوحة التذكارية الخاصة بالمكان وأخذ يقرأ بصوت عالٍ: بكل فخر وعظمة، بني هذا القصر في عام 1893 من قبل المهندس المبجل: أرشيبالد ميهو. بدا ذلك مدهشاً، حتى إن اللوحة ذكرت وجود عشرة غرف ومساحة واسعة للاصطفاف. كل ذلك مقابل مبلغ يفوق ما نملكه بقليل. عدا ذلك، رأينا خمس غرف شاغرة في المكان، تصير ستة لو ألغينا موقف السيارات وأضفناه. أعجبتني الوحدة الخامسة وأشرت لسيمون أن السعر أفضل من أسعار البيوت المجاورة. قال سيمون: إنها حتى ليست مستقلة. وستضطرين للخضوع غلى قوانين شركة العقارات لو قررت حتى تغيير مصابيح الكهرباء.

قلت لسيمون: انظر إلى السلم، يبدو أصيلاً، ربما أنه السلم الخشبي الأصلي الذي بني مع المنزل، ألا يبدو ذلك مميزاً؟

إنه مزيف، انظري للأضواء المركبة فيه، إنها مرتبة بشكل دقيق جداً لم يكن موجوداً في تلك الأيام. أنهى سيمون أي احتمال لقيمة المكان، لذا اقترحت أن نغادره في الحال. في تلك اللحظة سمعنا صوت خطوات على

السلم وشخصاً يطلب منا الانتظار وأنه قادم خلال لحظات، قام سيمون بإمساك يدي بعفوية، منذ زمن طويل لم يفعل سيمون ذلك. وبالرغم من انتقاده للمكان، إلا أنه يجب أن يعجب ببعض إمكانيات مباني القصر القديم، إنها تكفي لتجعلنا نظهر بمظهر الزوجين السعيدين. اللذين يملكان الموارد الكافية للشراء، واللذين يملكان الكفاية حتى يظلا بعيدين عن أي فترة تأمين أو رهن حتى يضمنا تأمين قيمة الشراء. وكيل الممتلكات الذي يحمل قائمة المبيعات، كان يرتدي ثياباً أنيقة، وجهه جذاب وحليق، أظن اسمه كان ليستر رونالد أو رونالد ليستر، لم أعد أتذكر الآن. كان يملك عادة مزعجة بمحاولة توضيح صوته قبل كل جملة يقولها، بدا لي أنه يكذب أو أنه على شفا قول شيء يثير دهشتنا في كل مرة.

لوح لنا ببطاقة تعريفه وسأل: هل سبق لكما أن اشتريتما في هذا الحي يا سيد وسيدة ..؟

رد سيمون: بيشوب، سيمون وأوليفيا بيشوب. نحن نعيش في مقاطعة مارينا الآن.

قال السيد رولاند: إذن لا بد أن تعرفا أن هذا الحي واحد من أفضل المناطق السكنية في المدينة.

- رد سيمون بلا مبالاة: تقصد مرتفعات الهادئ وليس هذا المبنى المبني على الطراز الريفي.

- إنني أقترح أن تلقي نظرة على القبو أولاً.

- قال سيمون: حسناً، هيا بنا إذن.

قام ليستر رولاند بأداء واجبه كاملاً وأرانا خزانات المياه و مستوعبات الماء الساخن المستقلة وأنابيب المياه المضادة للصدأ، شحذ السيد رولاند

حلقه من جديد وأشار إلينا أن أساسات المنزل المبنية من الطوب، وتشطيباته كلها أصلية.

علق سيمون موافقاً: أجل، هذا شيء لطيف.

قطب السيد رولاند حاجبيه وقال قبل أن يمنحنا وقتاً حتى نتشاور: كما تعلمان، معظم البنوك لا ترغب بتمويل قرض لشراء بيوتٍ مؤسسة على الطوب، بسبب مخاوفهم من الزلازل وغير ذلك، لكن المالك يأمل بالحصول على عقد رهن إضافي فقط، لا يتجاوز حدود أسعار السوق، هذا إن كنتما مؤهلين لذلك بالطبع. في تلك اللحظة، شعرت أني عرفت لماذا المبنى معروض للبيع بسعر قليل. سألت:

- هل من مشكلة في المبنى؟

رد السيد رولاند: لا، على الإطلاق، مجرد تصدعات سطحية تحتاج لبعض الترميم والتجميل فقط. كل المباني العتيقة تتعرض للتصدعات. إنها ضريبة العمر الطويل للمكان، هل تريدين أن يبدو المكان ممتازاً بالمطلق، يجب أن تأخذي بالحسبان أن لوحة السيدة الضخمة، تلك المرسومة على الحائط، نجت من زلزال عام 1989، إن هذا لا يحصل البتة في تلك البيوت الكبيرة الجديدة، إنها لا تحتمل، أرجو ألا تنسي ذلك.

بدا السيد رولاند حريصاً على إقناعنا. لكنني بدأت أنظر للزوايا المظلمة التي تتكدس فيها أشياء عفنة وقذرة، رأيت حقائب وصناديق محطمة نخرتها الفئران وقد امتلأت بالرمل وبقايا الفينيل. وفي زاوية أخرى للتخزين، رأيت كومة من الأغراض الصدئة لمقيمين سابقين، رأيت قطع غيار لسيارة ما، وبقايا آلة لرفع الأثقال وأغراض رجولية أخرى. ترك سيمون يدي فجأةً.

- قال السيد رولاند: الوحدة السكنية ملحقة بمصف يتسع لسيارة واحدة فقط، لكن جاركما في الوحدة المجاورة رجل أعمى، تستطيعان استخدام مصفه لسيارتكما الثانية دون أي مشكلة!

سأل سيمون عن كلفة المبنى في ذات اللحظة التي قلت فيها أننا لا نملك سيارة ثانية أصلاً!

بعيني قطة لامعتين، نظر السيد رولاند لي ولسيمون ثم قال لي: إذن، هذا أفضل، إنه يوفر علينا الوقوع في بعض المشاكل، أليس كذلك؟ قال ذلك وقادنا إلى أعلى السلم لنرى المدخل الخلفي، حيث كانت تقبع مساحة للخدم هناك ذات مرة كما قال رولاند. أشار لنا قائلاً: بالمناسبة، على بعد مبنيين من هنا، توجد مدرسة خاصة ممتازة من الطراز الأول. إنهم يقومون بتعليم الأطفال كيف يطورون ويستخدمون أجهزة الحاسوب منذ وصولهم للصف الثالث. كم هو رهيب ما يمكن أن يعلموه لأطفالك هذه الأيام!

قلت أنا وسيمون في ذات اللحظة: نحن لا نملك أي أطفال. ثم نظرنا لبعضنا مندهشين حين ابتسم السيد رولاند وقال: أحيانا، من الحكمة ألا ننجب أي أطفال!

أتذكر أننا في بداية زواجنا، تشاركنا الحلم في إنجاب الأطفال. لقد كنا مشغوفينِ برغبتنا في أن تتحد جيناتنا وكان سيمون يرغب بطفلة تشبهني فيما كنت ارغب في إنجاب طفل يشبهه هو. لكن، وبعد أن كنت اقيس حرارتي وأقوم باختبار الحمل بين كل دورة شهرية وأخرى، وبعد ممارستنا الجنس بانتظام. ذهبنا أخيراً إلى طبيب مختص. في ذلك اليوم قال لنا الطبيب برادلي: إن سيمون مصاب بالعقم، أنكر سيمون وقال: تقصد أوليفيا؟

أعاد الطبيب كلامه وقال إن سيمون مصاب بالعقم، وأن التحاليل أثبتت ذلك منذ وصوله لسن الثالثة. أكد الطبيب أن سيمون يعاني من ضعف في الحيوانات المنوية وشرح كيف يجب أن تكون حرارتها أقل من حرارة الجسم وأخذ يتحدث عن إنها ضعيفة الطاقة والحركة. حاول سيمون الإنكار كمعظم الرجال لكن الطبيب أكد أن النتائج قاطعة وغير خاطئة، وأن ذلك لا علاقة له بقوة الرجل الجسدية أو قدراته الجنسية وقوة احتماله. لكنه كان مصاباً بضعف الحيوانات المنوية منذ سن البلوغ. أتذكر أن الطبيب قال لسيمون أن الأمر لا علاقة له بإرضاء الشريك، لم يقل الزوجة، كأن الطبيب كان يستشرف احتمالات الماضي والحاضر وحتى المستقبل! يبدو أنه لم يعد منشيء لنفعله حيال حذاء الأطفال المضاد للمطر، ولا لكتب الأطفال أيضاً والتي أحضرتها أمي مسبقاً لأجل حفيدها المنتظر. تخيلت سيمون وهو يفكر بما قالته إلزا قبل أن تقفز عن حافة المنحدر الثلجي، وفيما إذا كانت مخطئة بما قالته له عن كونها حاملاً. أعتقد أن سيمون سوف يظن أنها كذبت، كان موتها وهي حامل يجعل الأمر أكثر حزناً. لكن لماذا تكذب؟ ربما كان لها حبيب آخر! لكن لو أنها حملت من شخص آخر، فلماذا قامت بلوم سيمون أصلاً. لا أظن أن شيئاً من كل هذا سيلقى إجابة مقنعة.

منذ تلك الجلسة في منزل كوان منذ سنوات، كنا قد تجنبنا أنا وسيمون ذكر اسم إلزا. الآن نجد نفسينا محاولين أن نتجنب أي نقاش حول عقم سيمون، وحول ما حصل مع إلزا. بدأت الأسئلة تطفو على السطح. أما مشاعرنا فصارت تحوم حول الشك، ومع مضي سنين زواجنا بقينا نتجنب ذكر موضوع الأطفال. كنا نتخيل ربما، ونأمل. ظللنا نتجنب كل شيء حتى وقفنا في ذلك الطابق الثالث من المبنى بصحبة ذلك الغريب،

السيد رولاند. لنضطر أن نقول له: لا أطفال. كأننا قررنا ذلك منذ سنين، وظل الأمر كما هو عليه الآن.

بدأ السيد رولاند يفتش عن المفاتيح ضمن حلقة تحوي الكثير من المفاتيح وهو يتمتم: إنها هنا، إنها أحد هذه المفاتيح. لا بد أنه الأخير، ها هو ذا، سحب المفتاح وفتح الباب ثم تحسس الجدار حتى وجد مفتاح الإنارة. بدت شقة الطابق الثالث مألوفة، كأننا زرناها آلاف المرات، بدت مثل شقة للمواعيد الغرامية في جنح الليل، أبوابها الخشبية الثقيلة مغطاة بزجاج ثقيل وعتيق. ممرها عريض و مكسو بخشب السنديان الغامق. أما عوارض النافذة التي يمر منها الضوء فمكسوة بالغبار، بدا لنا أننا دخلنا بيتاً يقبع في الماضي. لم يسعفني إحساسي لأميز إن كان البيت مألوفاً حقاً أم منفراً. أعلن السيد رولاند بحماس أننا يجب أن نرى ردهة الضيوف، كانت مؤثثة وفقاً لذلك الطراز الغربي من العصر القوطي. أشار رولاند إلى أن المكان كان مأوى مؤجراً للباعة المتجولين ولأرامل الحرب في فترة العشرينيات وحتى الأربعينيات. تم تطوير المكان ليصبح على الطراز القوطي من قبل عمال مهرة بعد أن كان مقسماً لمساحات صغيرة يتم تأجيرها كمأوى أيام الحرب. و في الستينات، صار شققاً للطلبة. ثم قبيل الانفجار السكاني في الثمانينات، تمت إعادة تأهيل المبنى وألحق ضمن شركة العقارات ضمن عروض البيوت المتوسطة الفخامة. تطلعت إلى الثريات المعلقة في الردهة، نظرت لزجاجها الرخيص وفكرت في أننا لو قلنا أن المكان متوسط الفوضى بدلاً عن متوسط الفخامة لكان ذلك وصفاً أفضل!

بدت غرف البيت متناقضة في تركيبتها تلك، كان المطبخ مكسواً بالطوب الإسباني الأحمر، ومسقوفاً بصفائح خشبية جعلتني أتأكد أنه لم يبق فيه أثر من العصر الفيكتوري الذي بني فيه. زوايا السقوف كانت مزينة

برسومات عديمة الفائدة لورق الزنجبيل. المبرد لم يكن يعمل لأنه أنابيبه كانت مفصولة عن المحرك في الأسفل، وحتى الموقد كانت عوارضه الأمامية غير مكتملة لأن بعض الطوب فيها تحطم. الفراغات خلف العوارض الخشبية بدا أنها استخدمت كخزائن لفترة مؤقتة، فكرت في أن كل خرائب وبقايا العصر الفيكتوري هذه يجب أن تتحول إلى مساحات مرتبة وذات قيمة، تخيلت ساخرة المساحة الزجاجية الصغيرة خلف مصطبة السلم، أظنها تنفع كقاعة عزف لفرقة من الأقزام. أخذ السيد رولاند يتحدث عن تحويل المساحة الخلفية من جهة سلم المدخل إلى مكتبة للأطفال، ثم عاد واستدرك أنها ربما تنفع مكتبة للكبار، أما غرفة الغسيل فلا بد أنها تصلح لتصير خزانة ملابس بعد أن يتم كسوها بخشب الأرز المميز. عاد السيد رولاند ليقول أن الشقة المحاذية لشقتنا كانت تستخدم كمكان لحفظ المخطوطات! طوال الوقت والرجل يبالغ في قيمة المكان. لكننا استمعنا إليه بصبر وهو يثرثر ويطلق الكلمات مثل ذلك المسلسل الكرتوني الذي يحاول فيه الكلب مهتاجاً الركض على مساحة مطلية بالشمع ولا يستطيع، كانت كلمات السيد رولاند مثل ذلك الكلب، مهتاجة ولكنها لا تذهب إلى مكان ولا تؤثر فينا حقاً. لقد لاحظ أن اهتمامنا بالمكان بدأ يتناقص. لذا، خفف من لغته المتحمسة وحاول أن يبين أن المكان يعتبر اقتصادي السعر كونه كلاسيكياً وأنه يمكن أن يلين أكثر من ناحية التكلفة. أظهرنا له أننا لم نعد مهتمين برؤية الغرف الأخرى، حجرة نوم الأطفال، ردهة الإفطار، لم يتبق شيء تقريباً لنراه سوى غرفة واحدة في الأعلى. حتى خزان المياه كان صغيرا ولا يكاد يكفي سوى لمستأجر واحد ربما، ناهيك عن المساحة الضيقة للحمام. صعدنا أخيراً إلى الغرفة الأخيرة التي كانت بمثابة علية في وقت ما وقد تحولت الآن لمخدع فخم. شعرنا بالصدمة حتى أن أفواهنا

ارتحت وكأن أحداً صدمنا بحقيقة مقدسة ما خلال نقاش عادي. كان سقفها مزيناً برسومات تنحدر لتطال الجدران، كانت مساحتها تعادل مساحة الغرف في الأسفل وكانت إضاءتها جيدة إضافة لكونها مطلية ونظيفة بشكل مميز. نوافذها الثمانية بارزة عن الجدران للخارج بحيث تسمح لعيوننا أن تنظر للسماء باتساع. أما الأرضية فكانت شفافة ومطلية بلون ثلجي يبعث إضاءة خافتة. أمسك سيمون بيدي من جديد وربت عليها، ربت علي يده بدوري، أخذت أنظر للغرفة التي تشرح الصدر وأفكر في أن الفرصة لم تزل متاحة لنملأ الفراغ فيما بيننا.

في اليوم الذي انتقلنا فيه لذلك البيت. بدأت مباشرة بتلميع وصنفرة جدران حجرة الأطفال، أردت الكشف عن ذلكالخشب الفيكتوري العتيق المرصع بطبقات من خشب الماهوني والتي قال السيد رولاند أن الجدران مصنوعة منها. أردت للمكان أن يتحول للصورة التي كونتها عنه في داخلي وتخيلت نفسي مثل عالمة آثار تبحث تحت طبقات الخشب عن كنز. قمت بنزع القشرة الرقيقة من الخشب ذو اللون العنبي ثم طليت مكانها رسوماً صغيرة على شكل نجوم أحادية. كان ذلك كافياً لتغطية الرسومات التي كانت موجودة على الجدار. كانت الألوان على الجدران تتوزع بين أخضر الستينات واللون البرتقالي من السبعينات إضافة لأسود الستينات وألوان أخرى. في الأفاريز بين الجدران رسوم لفراشات ذهبية صغيرة ورسم لكيوبيد وهو يحمل باقة من زهور الربيع. بدا كل شيء مثل رسوم نباتات وحيوانات ما قبل التاريخ كتلك التي رسمت على جدران الكهوف. لا بد أن أمهات كن يهدهدن أطفالهن المصابينبالحمى في تلك الليالي المؤرقة عشن في حجرة الأطفال هذه، أو عمات كن مصابات بالسل أو أطفالاً مزعجين يتعلمون المشي، كل هؤلاء عاشوا هنا بين هذه الرسومات.

بعد أسبوع من التنظيف والحفر، وصلت أخيراً إلى عمق الجدار الخشبي الذي لم يكن مبنياً من خشب الماهوني ولا كان أصيلاً كما قال السيد رولاند بل كان عبارة نوعاً آخر أرخص من الخشب وبدل أن يكون معزولاً فقد كان مغطى بطبقة من العفن التي أظنها تشكلت بسبب دخان الموقد على مر قرن من الزمان. شعرت بالغضب رغم أني لم أكن أميل إليه أبداً، ركلت الجدار فمال أحد الألواح وسقطت كتلة رمادية من شعر شخص ما أمامي، صرخت صرخة مدوية مثل تلك التي في أفلام الرعب. هرع سيمون إلى الغرفة وبيده مجرفة كبيرة. كان تلك المجرفة سلاحاً فعالاً ضد كل هذه الفوضى. أشرت لسيمون بإصبعي إلى كتلة الشعر التي ظننت أنها من شخص عجوز ربما يكون تعرض لجريمة لم يكشفها أحد أبداً! بعد ساعة، قمت وسيمون بجمع الأسمال والبقايا لنلقيها بعيداً فيما تبين أن شعر الحصان الذي رأيته يتجمع في الجدار مثل أعشاش للفئران كان نوعاً من أنواع العزل الفيكتوري للجدران. وأنه ربما يفيد جداً في عزل الصوت. يبدو أن الفيكتوريين بنوا بيوتهم وعزلوا جدرانها لأنهم لا يحبون أن يتناهى لسمع أحد أي صوت ينم عما يفعلونه خلال ممارستهم للجنس أو حتى صوت أمعائهم وهي تنفجر بروائح ما!! لم أحفل وسيمون بإزالة ذلك الشعر من بين الجدران لأنني انتبهت فيما بعد أن التنظيف جعل فراغاً يتشكل داخل الجدران بمساحة قدم، وأن ذلك جعل الصوت ينتقل بين الشقق المحاذية وشقتنا، كانت الأصوات تتوزع وتختلف، تبدو أحياناً كالهمس أو الضرب وأحياناً أخرى تبدو مثل خطوات رقصة اللامبادا التي تصل للأعلى إلى غرفة نومنا. ومهما حاولت محاكاة تلك الأصوات التي كانت تنقر رأسينا بانتظام فإنني لن أستطيع وصفها بدقة، حاول سيمون تشبيه الأصوات بشخص ما ينقر على مفاتيح البيانو، أو أنه صوت الحمامات وهي ترفرف وتهدل في

الصباح، ربما كان الصوت أقرب لثلج ينهار ويتكسر، ذهبنا بعيداً في تفسير الأصوات التي بدت لنا آتية من عالم بعيد، كأننا نعيش عزلة كبيرة. الغريب أكثر، أنني كلما سمعت تلك الأصوات شعرت في تلك اللحظة أن سيمون اختفى وأنه غير موجود. في إحدى المرات، كنت أستحم حين سمعت صوتاً يشبه صوت صفارة الإنذار وهو يتكرر ولا يخرج من دماغي بل يظل يطاردني طوال اليوم، شعرت بذلك الصوت يطاردني. فيما بعد، اقترح مهندس البناء الذي استشرناه أن الصوت قادم من الأنابيب القديمة للمبرد. أما خبير أمان المباني فأخبرني أن ذلك ربما يعود لطبيعة المبنى الخشبي الذي لا تخلو جدرانه من حركة طبيعية بين الحين والآخر. وقال أن تلك الأصوات من همهمات وأصوات أبواب تصفق أو زجاج يتكسر ثم تتبعه ضحكة ما، كلها ليست سوى أشياء من نسج المخيلة عادة ذلك أن أحداً لم يشكو من هذه الأشياء على العموم. قالت لنا أمي أن تلك الأصوات آتية غالباً من الفئران. وربما حتى من الراكون. قالت أمي أنها واجهت تلك المشكلة بنفسها ذات مرة، حتى إن منظف المداخن قال لنا أنه لاحظ أعشاشاً للحمام في أنابيب المداخن القديمة للبيت. في النهاية قال أخي كيفن أن الفراغات بين الأسنان تسبب التقاط موجات صوتية ما! هرعت لزيارة أخي تومي الذي كان طبيب أسنان، وبكل حال مشاكل البيت استمرت.

الغريب في الأمر ما قاله لنا الجيران من أنهم لا يشكون من أي أصوات غريبة فيما أصر جارنا الأعمى على أننا نزعجه بصوت الموسيقى الذي يبعثه الستيريو خاصتنا وخصوصاً في أوقات الصباح وهو يمارس تمارينه البوذية المفضلة في التأمل كما زعم.

عندما سمعت كوان صوت الهمهمة والحركة في بيتنا، أدلت بدلوها هي الأخرى وقالت: لا أظن هذا الصوت آت من شيء، إنه بسبب شخص

ما، كأن أحداً يستمر مسرعاً في تقليب مجموعة من الكتب، دخلت كوان غرفة مكتبي، وهي تشم بأنفها وتبحث عن رائحة ما مثل كلب يبحث عن نبتته المفضلة ليحك جسده فيها. قالت كوان: ربما يكون شبحاً، في بعض الأحيان تضيع الأشباح، هل تريدين أن أمسك به، قالت ذلك ورفعت يدها مثل يد غواص تظهر فجأة من تحت الماء. أخذت أفكر بإلزا، التي لم نأت على ذكرها منذ زمن طويل، والتي لم تزل تقبع متجمدة في مكان ما من مؤخرة دماغي. والتي كان من المستحيل طردها منه نهائياً، الآن وقد أتت كوان على ذكر الأشباح، أظن إلزا انتهزت الفرصة لتطفو من جديد على السطح. ولذا، رددت على كوان بقسوة قائلة: ليس شبحاً، لقد أزلنا الطبقة العازلة بين الجدران وصار صدى الأصوات ينتقل بينها. لم تقبل كوان بتفسيري هذا واستقبلته بتكشيرة واثقة ثم أخذت تتجول في الغرفة وتضع يدها على الأرضية وتشتم مثل كلب بوليسي مطلقة همهمات عديدة كأنها وصلت لاستنتاجات ما. في النهاية، وقفت كوان بباب الغرفة وظلت ثابتة هناك ثم قالت: كم هذا غريب، أشعر أن تلك الأصوات تنبعث من شخص حي، يعيش هنا معكم، ويبدو أن طاقة ما تنبعث منه لأنه غاضب.

علقت على ما قالته كوان ساخرة: إذن، لا بد أن نجعله يشاركنا في دفع الإيجار.

تابعت كوان: الأحياء يفتعلون المشاكل أكثر من الأشباح، لأن الأشباح تفعل ذلك عادة لأنها حزينة، أو ضائعة ومرتبكة .

جعلني كلام كوان أفكر في شبح إلزا، ربما عادت تتوسل سيمون كي يسمع صوتها.

- قالت كوان: لو كان شبحاً، فإنني أستطيع القبض عليه، أقول لك بصراحة. نظرت كوان للأعلى، بدت جدية وصريحة فعلا، أكملت قائلة:

لأن عمتي الثالثة علمتني ذلك، فلو كان شبح امرأة عجوز، كل ما تحتاجينه هو وضع ثياب ناعمة ومريحة ثم تتركيها كي تراها. أما لو كانت فتاة صغيرة، فضعي لها مشطاً كانت تمتلكه أمها، إن الفتيات الصغيرات يحببن أن يكون لهن شعر كشعر أمهاتهن. ومن ثم، أقوم مثلاً بوضع كل هذه الأشياء في جرة كبيرة للزيت ثم أنادي على الأشباح وأخبرها أن الوقت قد حان للعودة إلى عالم ين. ستكون قد انتبهت لي بسبب تلك الأشياء التي تحبها، وحتماً ستستمع إلي. نظرت كوان إلى وجهي العابس ثم أضافت: أعرف أنه لا توجد جرار زيت في أمريكا، وربما لن تعثري أصلاً على النوع الذي يمكن أن يجذب الأشباح الأمريكية، ربما تستخدمين شيئاً آخر، ربما حافظة طعام كبيرة مثلاً. أو صندوق رحلات. شيئاً يشبه حقيبة رسمية من محل فخم، يجب أن يكون صندوقاً غالي الثمن، نعم يا ليبي، هذا هو الخيار الأفضل. ليبي، ما اسم ذلك المحل الفاخر الذي يبيع الأشياء بسعر مرتفع؟ ذلك الذي اشترى منه سيمون قلماً بمئة دولا لأجلك.

- قلت لكوان: اسمه تيفاني.

- قالت كوان: أجل، أجل. اشتري منهم حقيبة زرقاء، تماماً كلون السماء، الأشباح الأمريكية تحب لون السماء وغيومها. آه تذكرت، أين صندوق الزواج الذي أهديتك إياه. إن الأشباح تحب الموسيقى وتظن أن هنالك أناساً يعزفون الموسيقى في داخل الصندوق! اذهبي وأحضري الصندوق. في حياتي السابقة، كانت الآنسة بانر تملك صندوقاً للموسيقى مثله.

قلت : كوان، لدي عمل لأقوم به الآن.

- أجل أعلم..بكل حال أظن أن شخصاً حقيقياً تسلل إلى بيتك، وليس شبح. في الحقيقة، ربما قام ذلك الشخص ببعض الأفعال السيئة

واختبأ هنا حتى لا يمسك به أحد. من المؤسف أني لا أستطيع القبض على شخص حي. الأفضل أن تكلمي وحدة التحقيقات الفدرالية. آه، كلمي ذلك الرجل الذي يقدم برنامجاً في التلفاز، عن أخطر المطلوبين الأمريكيين، إنهم في كل أسبوع يقبضون على شخصٍ ما!

يا للنصيحة التي قالتها كوان.

بعد ذلك، حدث شيء آخر جعل إلزا تقتحم حياتنا من جديد بعدما اعتبرت كل ما حدث من قبل، مجرد مصادفات. كان ذلك حدثاً دراميا اقتحمنا فجأة، حدث ذلك عندما صار واحدٌ من أصدقاء إلزا أيام الجامعة منتجاً موسيقياً في شركة العصر الجديد للموسيقى. قام ذلك الصديق بجمع بعض المقطوعات التي ألفتها إلزا وسمتها: ضمير عالٍ. ثم قام بنشرها. بعد فترة صارت الموسيقى مشهورة وتم استخدامها ضمن مسلسل الملائكة المشهور الذي كان يتم عرضه في تلك الفترة. اشتهر المسلسل وبيعت اسطوانة الموسيقى على حدة وحققت مبيعات جيدة. بدأ سيمون يتأثر بتلك الشهرة البسيطة التي حققتها إلزا، ولم أظن أني سأكره ذلك المسلسل بتلك الشدة. ذلك أن سيمون الذي كان يكره الموسيقى التي تنتجها شركة العصر الجديد، صار يشغل اسطوانة الموسيقى التي ألفتها إلزا كلما زارنا الأصدقاء. ثم إنه صار يذكر أمامهم أن المؤلفة أهدت تلك المقطوعات إليه. وعندما كانوا يسألونه عن سبب إهداءها المقطوعات له، فربما يقول لهم أنهما كانا حبيبين. أو ربما صديقين مقربين، وبالطبع كان الأصدقاء ينظرون إلي مبتسمين بشكل خبيث. أشعرني هذا بالجنون. وكنت أضطر أحياناً لأن أقول أن إلزا ماتت قبل أن ألتقي بسيمون. ثم يبدو كأنني أدلي بكل شيء، كأنني أعترف بشيء. كأنني أنا التي قمت بقتلها، كنت أقول ما عندي ليسود الصمت في الغرفة بعد ذلك.

لم أتعامل مع الموضوع كما تعاملت مع الأصوات المزعجة التي كانت تتكرر في ردهات البيت. حاولت إهمال اهتمام سيمون بموسيقى إلزا وتظاهرت أن ذلك لا يؤثر على العلاقة بيني وبين سيمون، كنت محصنة ضد الكوارث المفاجئة وحاولت أن أتعامل كأن الموضوع مجرد حدث عادي ضمن أحداث الزواج، مثله مثل زلزال، مثل سرطان أو حدثٍ من أحداث الحرب. لكن بتظاهري أن علاقتي جيدة مع كل شيء في هذا العالم، نسيت أن أنتبه إلى الأخطاء التي تجعل علاقتي مع حياتي بهذا الشكل.

9

خمسون كوان

لم نقم بتغيير الزينة الزجاجية الرخيصة للثريا المعلقة في الردهة. حين انتقلنا للبيت مباشرة بدت لنا سيئة المظهر وخارجة عن الذوق. بعد ذلك بدت مجرد مزحة معلقة في السقف، فمصابيحها كانت تحترق بسرعة، كما اعتبرناها مجرد مصدر ضوء بسيط غير مهم، قمنا بشراء كمية من المصابيح من ماركة جيدة ومضمونة، كانت تضمن المصباح لخمسة آلاف ساعة تشغيل. لكن المصابيح الستة التي اشتريناها وعلقناها لم يتبق منها سوى واحد بعد أن احترق الباقون بسرعة في أقل من سنة. لم نقم بوضع السلم لاستبدالها، لقد مللنا منها.

قبل ستة أشهر تقريباً، حدث أن تعطل ذلك المصباح الأخير وتركنا في ظلام دامس. كنا خارجين أنا وسيمون لتناول الطعام في أحد المطاعم التي كنا نزورها دوماً بعد العمل. قال سيمون: سأشتري مصباحاً جديداً في الغد.

قلت له: ولم لا تشتري طقماً جديداً من المصابيح؟

- ولم ذلك؟ إن ذلك المصباح كان كافياً، هيا بنا لنمضي، إني جائع.

مضينا للمطعم وأنا افكر في الطريقة التي رد سيمون فيها، صار يهمل أي شيء من قبلي. كأن حياتنا المشتركة صارت بلا قيمة. صار الإهمال القيمة الوحيدة فيها.

في المطعم، الذي كان نصف ممتلئ، بدا المكان لطيفاً، تنبعث موسيقى خفيفة ورقيقة في الخلفية، ودون ضجة يمكن أن تزعج أحداً، جلست أنظر لرواده الذين كان معظمهم في العقد الخامس من العمر، امرأة متجهمة، رجل يبدو على وجهه الملل، كانوا يمضغون طعامهم فقط، يسكبون الماء في الأكواب، ويستمرون بذلك دون أن يرفع أي منهم عينه، لا ينظر أي منهم للآخر، كانوا مثل أزواج مستسلمين، لا تبدو عليهم أي سعادة ولا حتى امتعاض. يبدو أنهم فرغوا من كل خلافاتهم وغير مستعدين للنطق بأي كلمة.

أمسك سيمون بقائمة النبيذ وقال: هل صادف أن طلبنا نوعاً غير النبيذ الأبيض؟

- قلت له متحمسة: ما رأيك أن نتشارك زجاجة من النبيذ الأحمر هذه المرة؟

- لم ينظر إلي لكنه قال: إنها تسبب لي الحموضة، لا أريدأن أستيقظ في الثانية صباحاً بسببها.

- إذن، لنأخذ نوعاً آخر،نبيذ العنب الشاحب مثلاً.

مرر سيمون قائمة المشروبات إلي وقال: سآخذ المشروب الذي يقدمه المطعم لهذه الليلة، اختاري أنت ما ستشربين.

حدقت مذعورة في القائمة، أخذت أفكر بتصرفاتنا وحياتنا التي صارت فارغة وبلا معنى، كأني أجمع تفاصيل حياتنا مثل لعبة الأحجية

تلك حتى أكتشف كم صارت حياتنا مبتذلة. كيف تحول الأمل العظيم إلى إحباط، ربما كنا متوافقين في بعض الجوانب في العمل والجنس والذكاء، ربما كنا محترفين في أداء أعمالنا لكن لا شيء عميق بيننا. لم نكن مثل شخصين ينتميان لبعضهما البعض، مجرد شريكين يتبادلان قائمة الطعام والحياة. لم تكن شراكتنا بالحياة أفضل من كوننا منفردين. كأن حبنا لم يكن ضمن خطط القدر. بل كان مجرد نتيجة لحادثة إلزا المأساوية تلك، إضافة لخدعة الشبح ت. لهذا لم يشعر سيمون بالشغف تجاهي، ولهذا فكرت في أن تلك الثريا بنورها الخافت، تشبه حياتنا الشاحبة تماماً.

بعد أن عدنا للبيت، ارتمى سيمون في سريره وقال لي: لقد بقيت صامتة بشكل فظيع، هل تعانين من أي شيء؟

كذبت عليه وقلت: لا. في الحقيقة، لا أعرف بالضبط. جلست في جانبي من السرير وبدأت أقلب منشوراً يعرض بعض المشتريات منتظرة إياه ليسألني من جديد.

بدأ سيمون يقلب قنوات التلفاز كل بضعة ثوانٍ، مرة يظهر خبر اختطاف فتاة، ومرة يظهر مسلسل تلفزيوني بالإسبانية، ثم يأتي رجل سمين يقدم دعاية لأدوات رياضية. بدا أن الحياة على التلفاز تجاوزت حياتي ووجودي معه. حاولت استجماع عواطفي بشكل منطقي يمكن سيمون من فهمي والانتباه لي. لكنني مهما حاولت كنت أشعر باختناق في حلقي فلا تخرج كلمة من فمي.

لم أكن قادرة على الحديث مع سيمون عن عقمه، ليس لأني أردت الحصول على طفل في تلك الفترة من حياتنا. لكن كل شيء كان صعباً، الأصوات التي كانت تدور في البيت وكنا نتظاهر أنها طبيعية، وإلزا، كيف

لا نتحدث عن إلزا التي كانت في كل مكان من حياتنا، وفي ذكرياتي عن كذب كوان بخصوصها حين استدعتها من عالم ين، وعن موسيقاها التي يستمر سيمون بتشغيلها طوال الوقت. سوف أختنق طبعاً، إن لم أحدث تغييراً قوياً في حياتي.

استمر سيمون بتقليب محطات التلفاز حتى قلت له:

- هل تعرف كم هذا مزعج؟

أطفأ سيمون التلفاز ثم استدار وصار بمواجهتي، أحاطني بذراع واحدة وقال: أخبريني، ما بك؟ بدا لي حساساً ومهتماً.

- قلت: إنني فقط أتساءل: هل ستمضي حياتنا هكذا لعشر أو عشرين سنة تالية؟

- ماذا تقصدين بذلك؟

- كما ترى: نعيش في بيت مهلهل تسكنه أصوات غريبة، أضواؤه خافتة، يبدو كل شيء مبتذلاً، نذهب لذات المطعم في كل مرة، ثم يتكرر كل هذا الروتين المثير للاشمئزاز مرة تلو الأخرى.

بدا سيمون مشتتاً حين أكملت: أريد أن أحب الأشياء التي نفعلها معاً، أريد أن نكون مقربين أكثر.

- لكننا معاً طوال اليوم.

- إنني لا أتحدث عن العمل الذي يبقينا معاً كل الوقت. أشعر بأني طفلة، جائعة ومصابة بالحرارة، متحمسة ومتعبة. إنني محبطة ولا أعرف أن أطلب ما أريد. إني أتحدث عني وعنك، عما هو مهم في علاقتنا، أشعر بالخمول والعفن وقد استوليا على علاقتنا.

- لكنني لا أشعر أن الأمور تسير على هذا النحو.

- بل اعترف، اعترف أن حياتنا لن تتحسن، ولن تكون في الزمن القادم أفضل مما هي عليه اليوم. انظر إلينا، ما الذي نتشارك فيه غير العمل، وغير الأفلام التي نشاهدها والسرير الذي ننام فيه؟

- خففي عنك، أنت محبطة فقط.

- بالطبع محبطة، لأنني أرى إلى أين نحن ذاهبان، لا أريد أن أصير مثل الناس الذي رأيناهم الليلة في المطعم، محبطين يحدقون في صحون طعامهم ولا يوجهون كلمة لبعضهم البعض عدا عن سؤالهم فيما إن كانت الباستا جيدة أم لا.

- لكننا تحدثنا سوية الليلة.

- أجل، لقد تحدثنا عن زبوننا الجديد في نيونازي، وعن أننا يجب أن نرفع قيمة التأمين على حسابنا وأن شركة العقارات قد ترفع علينا الإيجار. ليس هذا ما أريد الحديث عنه بحق، حقاً ليست هذه الأشياء هي المهمة في حياتي.

ربت سيمون على ركبتي بلطف وقال: لا تخبريني أنك تعانين من أزمة منتصف العمر، ذلك كان يحصل للناس في عقد السبعينات، وإضافة لهذا، اليوم، يوجد البروزاك[1].

- أبعدت يد سيمون عني وقلت: توقف عن التعاطف بهذه الطريقة.

- أبعد سيمون يده وقال: إنني امزح فقط.

---

(1) دواء مشهور لمعالجة الاكتئاب والقلق.

- رددت بسرعة: لماذا تمزح دائماً في الأمور المهمة؟

- هل تعتقدين أنك وحدك التي تتسائل عن حياتها، لدي حياة أيضاً لأتسائل بشأنها، منذ كم لم أقم بالأعمال التي أراها ذات قيمة.

- قلت ساخرة: حقاً، وما هي الأعمال التي لها قيمة عندك؟

صمت سيمون. تخيلت ما يقوم به سيمون من عمل واهتمام بالبيت ومحاولته لجمع كثير من المال حتى يحصل على تقاعد مبكر. عدت وسألت سيمون: هيا، هات ما عندك؟

- الكتابة، أريد أن أكتب.

- لكنك تعمل في الكتابة بالفعل.

- لا، ليس ما أقوم فيه من كتابة على ملصقات الإعلان أو على إعلانات الصحة وشفط الكوليسترول وتلك السخافات.

- ماذا تريد أن تكتب إذن؟

- أريد كتابة القصص. ثم صمت بعد ذلك منتظراً أن أتكلم.

تساءلت إن كان كلام سيمون هذا وليد اللحظة لا أكثر. سألته: أي نوع من القصص؟

- عن الناس، عن الحياة هنا او في أي مكان آخر، أرغب بكتابة شيئ عن مدغشقر أو مايكرونيسيا، أو واحدة من تلك الجزر الأندونيسية التي لم يزرها سائح من قبل، أو عن أي شيء جديد.

- مثل التحقيقات الصحفية مثلاً؟

- دراما، مقالات، قصص، وأي شيء أستطيع أن أكتب من خلاله نظرتي لهذا العالم. والأسئلة التي تدور بذهني عنه، من الصعب أن أشرح أكثر. قال سيمون ذلك ثم حاول أن يأخذ النشرة الإعلانية التي كنت أتلهى بها من يدي.

- إياك أن تمسها. أخذتها منه مرة أخرى.

وأخذ كل واحد منا يدافع عن نفسه من جديد.

- صرخ سيمون: حسناً ظلي مع منشورك التافه. وقولي أننا لسنا بحال جيدة، وأن علاقتنا تسوء، وأننا لا نتكلم معاً بما يكفي. لو تطلعت إلينا بحق، فنحن لسنا مشردين، ولا مريضين أو فقيرين، كما أننا لا نعمل في وظائف نكرهها.

- وهل تريدينني أن أفكر بما قلته ثم أشعر بالسعادة فجأةً! هل تظنني بوليانا[1]!

شتم سيمون: ماذا تريدين؟ ما الذي يمكن أن يجعلك سعيدة؟

شعرت أني عالقة في فوضى التعبير عن رغبتي. كنت محبطة بما يفوق قدرتي على الصراخ بما أرغب ولا أرغب، كنت متأكدة أني عغير راضية عن كل شيء فقط.

عاد سيمون إلى مخدته، وضع بديه على صدره وأخذ يتمتم: إن الحياة كلها مجرد حالة تفاهم قذرة. نحن لا نحصل دوماً على ما نريد، ليس مهماً كم يكون المرء ذكياً أو جيداً أو يعمل بشدة ليحصل على ما يريد، هذه مجرد

---

(1) شخصية سينمائية من فيلم أنتج عام 1960 عن فتاة رحلت لمدينة حتى تلاقي المأوى والمال، كانت تسعد بأي شيء تكسبه.

خدعة. نحن فقط نبذل ما في وسعنا. شعرت بسيمون وهو يتكلم كأنه شخص غريب، قال كل ذلك وأطلق ضحكة ساخرة.

فقدت سيطرتي وقلت ما كنت أخشى قوله طوال الوقت: حسناً إذن، لقد سئمت من وجود إلزا كبديلة لي طوال الوقت.

ترك سيمون السرير ثم وقف وقال بغضب: وما دخل إلزا في كل هذا، ماذا تستطيع إلزا الميتة أن تفعل؟

بدوت سخيفة بكلامي ذاك، لكن، لم تمر سوى لحظات حتى قلت: لا شيء، أنت تستمر على الأقل بتشغيل تلك الاسطوانة الملعونة من موسيقى إلزا ولا تكف عن إخبار الجميع بأنها كانت حبيبتك، أليس كذلك؟

تطلع سيمون إلى السقف، إلى الجدران، وأطلق زفرة حادة، كأنها علامة استسلام ثم سأل: ماذا تريدين؟

- أريد أن نكون معاً. أن نحظى بحياة أفضل، تلعثمت ثم قلت: معاً، لم أستطع النظر في عيني سيمون وأنا أقول: أريد أن أكون مهمة لك، وأن تكون مهماً لي، أريد أن نشترك في أحلامنا معاً.

قال سيمون متردداً: نعم، عن أية أحلام تتحدثين؟

- هذا هو كل شيء، إني لا أعرف بالضبط، هذا ما أردت أن أتحدث عنه معك، لم نعد نحلم معاً، حتى إننا لم نعد نعرف ما معنى ذلك.

قلت ذلك ثم ساد بيننا الصمت، تظاهرت بقراءة إحدى مجلاتي فيما ذهب سيمون للحمام. حين عاد بعد حين، جلس قربي وأحاطني بذراعه. أخذت أبكي، لم أستطع منع نفسي عن البكاء. لا أعرف إنني فقط لا

أعرف، أخذت أقول وأنا أنشج فيما تناول سيمون منديلاً ومرره على عيني ثم مسح لي أنفي، كرهت نفسي لأني لم أمنعها عن البكاء.

قال سيمون بلطف: سيكون كل شيء على ما يرام، سترين، في الغد، ستكون الأمور بخير. لطف سيمون جعلني أشعر بالقنوط أكثر. حاولت أن أوقف نشيجي. حاولت أن اهدأ، أحاطني سيمون بجسده. لم يبق شيء لنقوله. لذا، بدأ سيمون يفعل ما يفعله دوماً حين لا نجد ما نفعله أو نقوله. أخذ يمارس الحب معي. وضعت يدي على شعره وأخذت بتحريكه ليظن أني راضية. لكنني كنت أفكر: ألا يقلق لوضعنا هذا معاً. وما الذي سيحصل بيننا في المستقبل؟ سوف تتحطم علاقتنا، إنها مسألة وقت فقط.

في الصباح التالي، أحضر سيمون كوب قهوتي إلى الفراش ثم فاجئني وأعلن: لقد فكرت فيما قلته الليلة الماضية عن كوننا لا نحلم سوياً، إذن، لدي خطة. اقترح سيمون أن نكتب معاً قائمة بما نتمناه من أشياء. لتكون شيئاً عملياً يجعلنا نحدد ما يجعلنا سعيدين في حياتنا. تحدثنا بانفتاح وحماس وسجلنا كل ما هو ممكن، عن أشياء يجب أن تكون خطيرة وممتعة في ذات الوقت. اقترحنا ان نذهب في رحلة مثيرة، أن نتناول طعاماً جديداً، والأهم أن نصنع فرصة بيننا لنرضي بعضنا عاطفياً. لم نقترح الرومانسية. قال سيمون أن جانب الحلم المشترك سوف يعتني بها. ثم تابع: والآن لنرى ما يمكن أن نحققه من هذه الأشياء. بعد ثلاث ساعات من النقاش بيني وبين سيمون. بدأنا نراجع الردود على العروض التي أرسلناها لأجل الرحلات. كنا قد أرسلنا عروضاً كثيرة. تلقينا عرضاً لرحلة إلى قرية في الصين، والتي تتضمن أن نصور ونكتب عن عادات أهلها وعن طعامهم وأشياء أخرى، كان عرضاً جميلاً سيقودنا للمتعة وكتابة بعض المقالات والصور عن الرحلة حتى أنه قد يقودنا لكتابة كتاب أو لعمل فيلم وثائقي يعرض في

التلفاز. كانت تلك أفضل محادثة حظيت بها مع سيمون منذ سنين. أظنه لم يفهمني جيداً حين تحدثت عن الأحلام، لأنه بدلاً عن الحلم، قام بوضع خطة، لكنني أظنه استجاب لي بقدر ما يستطيع، أليس هذا كافياً ليبعث الأمل في داخلي؟

كنت أظن أن فرصتنا شبه معدومة في تحصيل قبول على العروض التي أرسلناها. لكن بعد أن تلقينا موافقات من بعض أنحاء العالم، شعرت بحياتي القديمة كلها وهي تمتطي عربة الأمل. ما سيأتي لاحقاً سيكون أجمل بكل حال.

بعد بضعة أيام من محادثاتي مع سيمون وجهاً لوجه. اتصلت أمي لتذكرني بجدول المواعيد، وطلبت مني أن أحضر وأجلب معي آلة التصوير إلى بيت كوان في ذات المساء. يا للهول، نظرت لدفتر المواعيد وتذكرت بأنه عيد ميلاد كوان. صعدت السلم مسرعة إلى غرفة النوم حيث وجدت سيمونيتابع سلسلة تلفزيونية فيما كلبنا بوبا يقعي قربه ويعض لعبته. كان متمدداً على السجادة مقابل التلفاز بخمول. قلت:

- يجب أن نكون في بيت كوان خلال ساعة، إنه عيد ميلادها اليوم.

تذمر سيمون فيما قفز الكلب من قربه وأخذ يحرك قدميه ويشد سلسلته.

قال سيمون لبوبا: أنت، ستبقى هنا. أقعى الكلب في مكانه وأخذ ينظر لي بعينين شاحبتين.

قلت لسيمون: سنذهب لأجل المجاملة فقط، سنبقى لبعض الوقت ثم نرحل مبكراً، ما رأيك؟

رد سيمون فيما عيناه معلقتان على شاشة التلفاز: بالطبع، كأن كوان ستتركنا لنرحل مبكراً.

- بكل حال يجب أن نذهب، إنه عيد ميلادها الخمسين. قلت ذلك وأخذت أبحث في الرفوف عن أي شيء قد يصلح كهدية عيد ميلاد. عثرت على كتاب في الفن، ثم قلت لنفسي: لا. وقررت أنه لن يعجب كوان لأنها لا تهتم بالجماليات. نظرت لصندوق مجوهراتي وفكرت: ماذا عن ذلك العقد الفضي الذي بالكاد أرتديه؟ لكن زوجة أخي أهدتني إياه، حتماً ستكون في حفل عيد الميلاد. هرعت هابطة عن السلم وتوجهت إلى مكتبي، بحثت حتى رأيت ذلك الصندوق، أجل، الصندوق العظمي الذي يكبر علبة بطاقات التعريف بقليل، سيكون مناسباً لمعدات كوان الصغيرة الفوضوية. كنت قد اشتريت ذلك الصندوق عشية عيد الميلاد قبل شهرين. بدا لي مناسباً لأستخدمه في أي شيء وصغيراً كفاية لأضعه في حقيبتي. كنت أحتفظ به لأقدمه لأي زبون أو أحد كمقابل، في حال قدم لي أي منهم هدية في عيد الميلاد. لكن في هذه السنة، لم يفعل أحد.ذهبت لمكتب سيمون لأعثر على خيط ومقص لأغلف هدية كوان، في الدرج المفتوح من مكتبه رأيت قرصاً مرمياً في غير مكانه وحملته لأرجعه إلى صندوق سيمون، انتبهت إلى العبارة المكتوبة على القرص: رواية، 20/ 2/ 1990. إذن، وبعد كل شيء، كان سيمون يحاول كتابة شيء يعنيه ويهمه، وقد بدأ بذلك منذ زمن طويل. شعرت بجرح في قلبي، لأن سيمون لم يشاركني في شيء عن روايته تلك.

كان يجب أن أحترم خصوصية سيمون وأرجع القرص إلى مكانه، لكنني لم أكتف بذلك، كان لا بد لي أن أرى ما يحتويه، فقد كان سيمون كله هناك بمشاعره وقلبه وروحه. شغلت الحاسوب ووضعت القرص بيدين مرتجفتين. اخترت الملف الذي يحمل اسم الفصل الأول. ظهرت الكلمات الكثيرة على خلفية الشاشة الزرقاء. قرأت العبارة الأولى: منذ كانت إلزي

في السادسة من العمر، كانت حين تستمع لأي أغنية، تعيد عزف لحنها من ذاكرتها، الذاكرة التي ورثتها عن أجدادها الميتين. تجاوزت الصفحة الأولى وأخذت أقلب الصفحات، أخذت أردد في نفسي، هراء، سخيف، نصوص سخيفة. قرأت من الصفحات، كأنني أتجرع السم. شعرت أن إلزا هي التي تكتب بأصابعه هو. ثم تحدق فيه من خلال الشاشة. شعرت بها تنظر إلي من خلال الشاشة بابتسامة متكلفة وتقول: ها أنا قد عدت، والآن لن تصيري سعيدة، لأنني سأبقى هنا للأبد.

لم أعد أتطلع لجدول المواعيد بعد ذلك. مضى على عيد ميلاد كوان ستة أشهر، حينما عدنا إلى البيت من حفلة كوان. تشاجرنا بقوة. بقينا نتشاجر طوال ذلك الشهر وشعرت أن الألم الذي أعانيه سوف يستمر إلى الأبد. لقد تفتت حبنا في لحظة. ثم ترك سيمون الغرفة ونقل أغراضه إلى مكتبه. أقام هناك منذ شهر فبراير، وبقي لمدة طويلة حتى هذا اليوم، حتى أني ما عدت أتذكر الأسابيع الأولى التي قضيتها بمفردي،بدأت أتغير بعد ذلك، ألغيت الكثير من الروتينيات والعادات التي كنت أمارسها، خاصة بوجود سيمون. صار عدم انعدام الروتين عادتي الجديدة، وأعدت ترتيب نفسي، تماماً كما قالي لي أخي كيفن في عيد ميلاده الأسبوع الماضي: تبدين أوليفيا جديدة. قلت له بصوت شفاف: أجل، حتى أني أستخدم مزيجاً جديداً من خليط الفواكه لتجميل بشرتي. لقد فاجأت الجميع، ليس بتغيري فقط، بل ولأني بدأت حياة جديدة بالفعل، كان الجميع مندهشين عدا كوان، التي ظنت العكس تماماً.

في الليلة الماضية اتصلت كوان وبدأت تقول: صوتك متعب، هكذا يبدو على الهاتف. أعتقد أن سيمون متعب كذلك. لما لا تأتيان الليلة وتتعشيا عندي، مثل تلك الأيام السابقة، تعالا كصديقين؟

- أنا مشغولة، لا أملك الوقت.

- إذن تعالي في الغد، أم أنك ستكونين مشغولةً أيضاً؟

- آتي إن لم يكن سيمون موجوداً.

- إذن، كفى، تعالي اليوم لوحدك وسأعد لك كرات اللحم بالخضار التي تحبينها.

- لكننا لن نتحدث عن سيمون، اتفقنا؟

- اتفقنا، لن نتحدث، سوف نأكل فقط.

بدأت أتناول طبقي الثاني من كرات اللحم منتظرة أن تجيء كوان على ذكر زواجي. لكنها ظلت تتحدث مع زوجها جورج عن فيرجينيا، قريبة زوجته المتوفاة، في فانكوفر، قال أن لها قريباً في الصين يريد الهجرة إلى كندا. أضاف جورج بفم مملوء بالطعام: كانت حبيبته تنتظر رحلة إلى كندا كي تلحق به وتجبره على الزواج منها. فاضطرت فيرجينيا للبدء بالأوراق الرسمية للهجرة من جديد، حتى أصبحت الموافقة جاهزة تقريباً، ثم اضطرت للعودة من الصفر. وتضييع عام وخمسة أشهر أخرى في الانتظار. قالت كوان وهي تتناول حبات الفول بملعقتها: ثم يضيع مزيد من الوقت، في التنقلات بين هذا وذاك المكتب، ومن ثم قد يظهر طفل في الأفق لقريبها وحبيبته وتتعقد الأمور أكثر.

- قال جورج: لقد طلبت قريبتي الانتظار حتى يضيفوا الطفل في الأوراق. وتعيد المعاملة من جديد، لكن قريبها هناك قال: لا تخبري موظفي الهجرة عن الطفل. انتظري حتى نهاجر ونحصل على مقعد دراسي ثم نجد وظيفة جيدة، حتى نحصل بيتاً وسيارة. ومن ثم يمكن لنا أن نجد طريقة لإحضار الطفل بعد عام أو اثنين.

وضعت كوان طبق الأرز على الطاولة وقالت: يتركون الطفل خلفهم!؟ ما هذا التفكير. حدقت بي للحظة. كأني أنا من أتيت بفكرة ترك الطفل. قالت كوان: جامعة، بيت، مال. أين سيحصلان على كل هذا بسهولة؟ الجامعة لوحدها مكلفة. أومأت برأسي موافقة فيها همهم جورج. قالت كوان ونظرة اشمئزاز تعلو وجهها: الفول ليس لذيذاً، يبدو جافاً وقديماً، إنه بلا طعم.

قلت : وماذا حصل فيها بعد، هل أحضروا الطفل معهم؟

قالت كوان: لا، لا طفل، ولا زواج من قريبها. ستنتقل فيرجينيا قريباً إلى سان فرانسيسكو. أمريكا لم تمنح حق الهجرة لقريبها. العمة فيرجينيا لم تملك كل النفقات. والآن أم قريب فيرجينيا، وهي أختها بالمناسبة، تلومنا لأننا ضيعنا فرصة جيدة على ابنها. انتظرت من كوان أن تفسر لي أكثر.

طعنت كوان الهواء بملعقتها ثم قالت: قلت لها، ولم تعتقدين أن ابنك مهم جداً بالنسبة لنا، وأن أختك الوحيدة لم تأخذ مشكلته على محمل الجد! إن ابنك مدلل! أستطيع اشتمام رائحة ذلك من هنا، إنه مجرد بيضة فاسدة!

قلت لكوان: هل حقاً قلت لها ذلك؟

- لم أقابلها أصلاً!

- إذن لم لامتك على ما حصل لابنها؟

- لقد لامتنا في رسالة أرسلتها، ذلك أن فيرجينيا أخبرتها أننا دعوناها للبقاء معنا.

- هل دعوتم فيرجينيا حقاً؟

- قبل ذلك لم نفعل، والآن، ها هي تقول ذلك في الرسالة. يبدو أنها محرجة منا الآن. بكل حال سوف تأتي في الأسبوع القادم.

برغم ما قالته كوان، لا أظنني استطعت فهم العلاقة بين أفراد العائلة الصينية. وكل هذه التعقيدات والغموض فيمن منهم يرتبط بصلة قرابة مع من. ومن المسؤول؟ ومن الملام؟ وكل هذا الهراء عن الحرج. حمدت الله أن حياتي ليست معقدة بهذا الشكل.

تذكرت ذلك اليوم الذي هرعت راكضة فيه على السلم حتى دخلت غرفة النوم، كان سيمون يرتدي ملابسه حين فتحت النافذة وصرخت فيه: ها هي روايتك التافهة، ثم رميت بالقرص الذي يحوي روايته من النافذة. تشاجرنا لساعة من الزمن بعد ذلك. في النهاية قلت الكلمات التي بدت أكبر من أي مشكلة وأعظم من أي لعنة، قلت لسيمون: أريد الطلاق. فاجئني سيمون برده: حسناً، ليكن ما تريدين. ثم هبط السلم مسرعاً وصفق الباب خلفه. بعد خمس دقائق تقريباً بدأ الهاتف يرن. حاولت التظاهر بأني لا أملك أي عاطفة تجاهه، وتركت الهاتف يرن ثم رفعت السماعة بعد المرة الخامسة.

لكنه. كان صوت كوان. قالت بخجل: ليبي، هل اتصلت بك أمي، هل ستحضرين؟ الجميع صار هنا والطعام جاهز.

بدأت أتفوه ببعض الأعذار

قالت كوان: آه، سيمون مريض، لعله مرض من الطعام، حسناً إذن، اعتني به جيداً، إن سيمون أهم من عيد ميلادي.

حين قالت كوان ذلك، تذكرت أن سيمون لم يعد مهماً، وأنه ليس أهم من أي شيء آخر في حياتي. ولا حتى من كوان. لذا ذهبت لعيد ميلادها وحدي.

كانوا يحضرون أشرطة ذكريات العائلة بعد أن فرغنا من العشاء مع كوان وجورج، كأن كوان لمحتني قادمة إلى الغرفة فقالت: أوقفوا هذا الفيديو. ذلك أنها تعهدت بعدم ذكر سيمون.

* * *

كنت في البيت، أشعر بالوحدة، حاولت مشاهدة التلفاز، حاولت القراءة، بقيت أتطلع للساعة بين وقت وآخر. كان الوقت متأخراً لأكلم أحداً على الهاتف. إنها المرة الأولى منذ ستة أشهر والتي أشعر فيها أني وحيدة وأن حياتي ضحلة بهذا الشكل. نظرت لفيديو كوان في الحفلة. كان ممداً بقربي. قلت لنفسي: لم لا، رغم أني أعتقد دوماً بأن الفيديوهات العائلية مملة، لأنها تظل واقعية كما هي دونما تعديل. ترى أحياناً لحظات من حياتك لا تحب أن تراها من جديد. ترى الماضي وقد احتل حاضرك، فيما أنت تعرف ما الذي سوف يحصل مسبقاً.

بدأ الفيديو بالتركيز على أضواء وزينة الحفل، ثم تحركت آلة التصوير لتصور البوابة المزركشة في الوسط حيث بيت كوان وجورج في شارع بالبوا. وبحركة من آلة التصوير وبعض الضوء، انتقلت آلة التصوير للمشهد الذي يصور دخولنا، أعتقد أن الحفل كان في نهاية الشهر الأول من العام، لكن كوان كانت تحتفظ بزينة العيد حتى بعد انقضاءه، التقطت آلة التصوير أكاليل الزينة البلاستيكية على النوافذ. والسجاجيد الزرقاء والخضراء التي

كانت ممدودة من الخارج إلى الداخل. أخذت آلة التصوير تتجول في الداخل بين قشرة الجدار المصنوعة من خصب مزيف إضافة للأثاث الرخيص الذي كانوا قد اشتروه من أحد المخازن ضمن تنزيلات أيام السبت من وسط المدينة. ظهر شعر كوان المجدل في آلة التصوير وهي تصرخ: أهلا سيد شيرازي، تفضل بالدخول، ثم ظهرت أمي وصديقها السيد شيرازي في المشهد. كانت ترتدي بلوزاً من جلد الفهد يصل إلى ساقيها وسترة من المخمل الأسود فوقها مع خط ذهبي يقطعه من النصف. أما عدستا نظارتها فكانتا تميلان إلى اللون البنفسجي وينعكس لونهما على وجهها، بدت ثيابها على الموضة بل وكانت متقدمة عنها بكثير ومزركشة على طراز هندي ما. لقد التقت أمي بصديقها شيرام شيرازي في درس لرقصة السالسا، قالت أنها أحبته أكثر من صديقها السابق من جزر البولونيز. ذلك أن هذا أكثر رومانسية ويعرف كيف يمسك بيد سيدة وليس كذاك المتجهم، هكذا علقت أمي. وكما وصفته أمي، فإن السيد شيرازي لطيف كما أنه صالح تماماً للحب. مالت إلي يومها ثم قالت : إنه يفعل أشياء لا تستطيعون أنتم الشباب فعلها. وبالطبع، لم أسأل أمي ماذا تعني بما قالته.

ظهرت كوان في الصورة وهي تتأكد من أن جورج صور وصول أمي في المشهد بشكل مناسب، بعد ذلك، وصل المزيد من الناس.دارت آلة التصوير واقتربت منهم، ظهر ولدا كوان من زوجها، وأخوتي بصحبة زوجاتهم وأبنائهم الأربعة، رحبت كوان بهم جميعاً وهي تصرخ على كل ولد باسمه: مليسا، جينا، باتي، إريك. ثم انتقلت آلة التصوير لجورج وهو يلتقط لهم صورة بعد أن تجمعوا. تحولت آلة التصوير إلي، بدأت كوان تشكو فرحة: لماذا تأخرت؟ ثم شدتني من يدي واقتربنا من آلة التصوير، ظهر وجهانا وهما يغطيان الشاشة، بدوت متعبة ومحبطة، عيناي حمراوان،

كان واضحاً أني أريد الهروب، قالت كوان أمام آلة التصوير: هذه ليبي، أختي المفضلة، سألتني كوان: يا ترى من منا الأكبر؟ هيا خمني.

في مشاهد أخرى أمام آلة التصوير، بدت كوان كأنها تحت تأثير عقار مخدر، تتمايل على الجدران، وتقف قرب شجرة عيد الميلاد البلاستيكية، أخذت تشير للزينة وتتصرف مثل مضيفة كريمة في برنامج تلفزيوني، تحمل هداياها، تزنها بيدها لترى ثقلها، ثم تهز الصناديق، تشتم كل صندوق قبل أن تقرأ اسم الضيف الذي أهداها إياها، ثم تقول بصوت مفخم: لي، هذه أيضاً لي. تضحك بصوت مبحوح ثم تعاود: خمسون عاماً، هل تصدقون؟ بلغت الخمسين. كيف انقضت الأربعون وصرت في الخمسين!؟ تتقدم من آلة التصوير وتقول: سأظل في الأربعين، اتفقنا؟

تتنقل آلة التصوير من مشهد لآخر، ها هي أمي تجلس في حضن صديقها شيرازي، يصرخ احدهم مطالباً أمي وشيرازي بأن يقبلا بعضهما، يفعلان بكل سرور. أخواي يجلسان في الغرفة ويشاهدان التلفاز ويتناولان البيرة المثلجة، باربرا و تابي بنات خالتي يساعدن كوان في المطبخ فيما كوان تحمل صحون لحم الخنزير المقطع وتنادي: تعالوا وتذوقوا، هيا. في غرفة أخرى يتجمع الأطفال حول لعبة حاسوب. والآن يأتي المشهد عندما يتجمع كل أفراد العائلة حول العشاء الذي أعدته كوان ليتناول كل طعامه من على الطاولة التي تم زيادة مساحتها بإضافة طاولة لعب الورق وطاولة الماهجونج إليها.ركزت آلة التصوير علي وأنا آخذ قطعة خبز من كوان ثم أضعها في طبقي مع شوكة بلاستيكية. بدت مشاهد الحفلة عادية كأي حفلة عدا الحزن الذي تمكنت آلة التصوير من التقاطه من على وجهي. كنت أجامل بتعبير وجهي وكلامي، وبدا واضحاً أني حزينة ومتعبة كفاية لأرفض أي شيء بسيط تقدمه الحياة حتى في هذه الحفلة، كانت ابنة خالتي

تابي تتحدث معي فيما أنا محدقة بطبق الطعام. عندما أتوا بكعكة عيد ميلاد كوان، بدأ الجميع يغني لها أغنية عيد الميلاد، ودارت آلة التصوير في أنحاء البيت لتعثر علي جالسة وحدي على الأريكة أضرب الكرات الحديدية التي كانت موضوعة كزينة على طاولة كوان، كنت أضربها فتصدر ذلك الصوت الأبدي المزعج دون أن أشعر بشيء، بدوت في اللقطة مثل زومبي مشدوه.

بدأت كوان بعد ذلك تفتح هداياها وتتعجب، طقم تزلج من رفاقها في الصيدلية حيث تعمل، آلة صنع القهوة من أمي. قالت كوان: كيف عرفت أن آلة صنع القهوة الأولى انكسرت!، شكرا. ثم رداء أحمر من ابن زوجها الصغير تيدي، وبما أن الأحمر لونها المفضل فقد علقت كوان بأن الرداء جميل جدا . أما تيمي ابن زوجها الأكبر، فقد أهداها حاملة شموع فضية. وضعت كوان الشموع فيها ووضعتها على الطاولة حتى تنفخ الشموع في نهاية عيد ميلادها. كانت كوان ترفلُبالسعادة. أعلنت: سأفعل كما تفعل السيدة الأولى في البيت الأبيض وأنفخ الشموع في آخر الليل. ابنة أخت كوان باتي، أهدتها تمثالاً صلصالياً صغيراً لوحيد قرنٍ نائم. قالت كوان بفرح: أقسم أني لن أبيعه بعد أن تصيري نحاتة مشهورة، ولا حتى بمليون دولار. زوج كوان جورج، أهداها ثوب حمام مزركش بورود الأقحوان، رفعت كوان إصبعها في وجه جورج وقالت: أووه، إنه من ماركة جورجي لورانتيس، غال الثمن، لماذا أنفقت الكثير؟ كانت تنظر لجورج الذي ابتسم ابتسامة مليئة بالفخر.

بدأت كوان تفتح ما تبقى من هدايا، عثرت على مجفف ملابس، وحقيبة مكتوب عليها أحرف اسمها الأولى، سرعت مشاهد الفيديو وهي تفتح ما تبقى من هدايا، في النهاية، وصلت كوان لهديتي وقالت: نحتفظ بالأفضل دوماً في الأخير. لا بد أن تكون هدية مميزة من ليبي شقيقتي

الغالية. فضت كوان الحبل الرقيق، ثم أخرجت هديتها من العلبة، سقط الصندوق الكرتوني الصغير، رفعت كوان الصندوق العظمي الصغير بيدها، فتحته ببطء ثم نظرت للداخل، رفعت رأسها ثم وضعت يدها على خدها قائلة بفرح: جميل جدا، ومفيد، ثم قربت الصندوق من آلة التصوير وقالت: إنه طبق مميز لحفظ الحساء في الرحلات!! في الخلفية كان صوتي مسموعاً وأنا أقول: في الواقع، هذا ليس لحفظ الحساء، إنه مجرد صندوق صغير لحفظ مجوهراتك وما شابه.

نظرت كوان إلي وقالت: ليس للحساء؟ للمجوهرات إذن، رفعت كوان الصندوق من جديد ليراه جورج وقالت: هل سمعت يا زوجي، تقول ليبي أني أستحق بعض المجوهرات لهذا الصندوق. اشتري لي ماسة كبيرة لأضعها في صندوق الحساء هذا! توجهت آلة التصوير لجورج وهو يقول: لتقف الأختان أمام الموقد، هيا.

قاومت معتذرة بأن لدي الكثير من العمل ويجب أن أعود للبيت، شدتني كوان وهي تقول: هيا، تعالي أيتها المشاغبة، لا يجب أن تنشغلي في حفلة أختك الكبيرة. ابتسمت كوان ابتسامة عريضة لآلة التصوير وجذبتني إليها بقوة ثم قالت لي: أختي ليبي، الغالية، المقربة إلي أكثر من أي أحد. كنت على شفا البكاء، في ذلك المشهد، تماماً كما أنا الآن. وأنا أرقب حزني يتكرر في شريط الفيديو من جديد. لا أستطيع أن أنكر بعد الآن، أن قلبي تحطم.

10

مطبخ كوان

طلبت مني كوان أن أحضر في السادسة والنصف كالمعتاد، ولأن طعام العشاء لن يكون جاهزاً قبل الثامنة كالمعتاد أيضاً، فقد قلت لكوان على الهاتف أني سأتأخر إن لم يكن العشاء جاهزاً في السادسة والنصف. لكن كوان أكدت لي: في السادسة والنصف ولن يتأخر، فقط تعالي.

حضرت في الموعد، فتح جورج الباب محدقاً، لم يكن يرتدي نظاراته الطبية، جعلته خصلة شعره الساقطة على وجهه يبدو كأنه يقدم إعلانا لأحد تلك المنتجات التي تمنع خشونة الشعر. كان قد ترقى منذ فترة قريبة ليصير مدير مطعم في المنطقة الشرقية، كان اسم المطعم: طعام بأقل تكلفة[1]، وحين استلم عمله هناك، لم تستوعب كوان اسم المطعم كعادتها، وظلت تردد اسم المطعم هكذا: طعام بلا تكلفة.

---

(1) اسم المطعم، ظنت كوان بإنجليزيتها الضعيفة أن اسمه: مطعم بلا طعام foodless. food 4 less

وجدت كوان في المطبخ تقطع الفطر، لم يكن الأرز مسلوقاً بعد، أما السمك فلم تقم كوان بتنظيفه. سوف يتأخر العشاء لساعتين، رميت بحقيبتي على الطاولة بقوة، لكن كوان تجاهلت ردة فعلي الغاضبة، سحبت كرسياً وجلست، ثم بدأت تقطع الفطر إلى أنصاف دون أن تقوم بنزع رؤوسه حتى. قالت كوان بالصينية: اجلسي، لقد كنت أتحدث إلى شخص من عالم ين.

زفرت بعمق لتعرف كوان أني غير مرتاحة ولا جاهزة لحديثها ذاك.

قالت كوان: تعرفين لولو، من حياة سابقة، لقد تحدثت إليه، إنه يقول أنك وسيمون يجب أن تبقيا معاً. وأنك في حياة سابقة أحببت شخصاً قبل سيمون، لكن سيمون راهن عليك وآمن بك في حياتكما هذه بمجرد أن أحببته.

كدت أسقط من على كرسيي! لم أخبر كوان أو أي مخلوق عن السبب الحقيقي لانفصالي عن سيمون، قلت للجميع ببساطة أن كلاً منا يبحث عن نفسه بعيداً عن الآخر وكفى. لكن كوان تتحدث كأن كل مخلوقات هذا العالم، ميتة وحية، تعرف السبب الحقيقي.

قالت كوان بالإنجليزية هذه المرة: ليبي: إن لولو من عالم ين يقول بأن سيمون يخبرك الحقيقة. وأنك تعتقدين أن سيمون يحبك أقل من إلزا، لماذا؟ لا يوجد سبب لتفكري هكذا وتقارني حبه بينكما، ليس الحب قابلاً للمقارنة مثل النقود...

صار وجهي شاحباً، وأنا أسمع كوان تدافع عن سيمون. قلت لها: كوان، ما بك، من يسمعك سيظنك مجنونة، لماذا تتحدثين بجنون؟ لو أن هنالك أشباحاً حقاً، فلماذا لا أراهم، تفضلي هيا، أخبريني؟

بدأت كوان بتقطيع ذيول السمك وتزيل الزوائد التالفة دون أن تقوم بتقشيره. قالت بهدوء: ذات زمن كنت ترين تلك الأشباح، في الزمن التي كنت صغيرة فيه.

قلت لكوان: كنت أتظاهر بأن الأشباح تأتي من عالم الخيال، لا من عالم ين.

- لا تقولي أشباح، تلك كلمة عنصرية بالنسبة لهم، الشخص السيئ فقط، هو الذي نطلق عليه اسم شبح.

قلت: حقاً! نسيت أن الناس الميتين يحبون أن نناديهم بأدب كذلك. أخبريني إذن، كيف يبدو شكلهم؟ كم منهم حاضر معنا الليلة؟ ومن يجلس على هذا الكرسي أمامك؟ ماوتسي تونغ؟ رئيس الصين؟ أم الإمبراطورة؟

- لا أحد منهم هنا.

- هيا دعيهم يظهرون، أريد أن أراهم، أريد أن أعرف إن كانوا يحملون درجات عالية في عقد صفقات الزواج!

وضعت كوان الجرائد تحت الفرن حتى لا يتسرب شيء إلى الأرضية، ألقت السمك في الزيت الذي يغلي بصوت غى على المطبخ كله. قالت كوان بصوت غطا على صوت الفرن: أناس ين يأتون متى ما أحبوا هم. ولا يقولون متى سيأتون، يأتون بلا دعوة، لأنهم يعتبرون أنفسهم من أفراد العائلة المقربين. فجأة، يكونون هنا، قد يحضرون للعشاء مثلاً ويلفت انتباههم الطعام إن لم يكن مطهواً جيداً، سيقولون: يا لهذا السمك القاسي، كان يجب أن تبقيه في الفرن لدقيقة أو دقيقتين زيادة، وما بال مخلل اللفت هذا غير ناضج، يجب أن يصدر صوتاً حين تضعينه في فمك، تماماً مثل صوت خطواتك

حين تمشين على الثلج. ثم ما هذه الحساء الحلو، السكر فيه زائد، لا بد أنه يصلح طعاماً لأحد الأجانب.

استمرت كوان بوصف الأمر بسخافة، لم تكن تصف أفعال الأشباح بل كانت تتحدث عن زوجها جورج وأقربائه، كانت هذه بالضبط هي تصرفاتهم حين يكونون مدعوين للعشاء. كان هذا النوع من الحديث يصيبني بالملل ويجعلني أفكر في الضحك والصراخ في آن. كنت أكره الاستماع لنسخة كوان عن عالم ين على طريقة جلسات المطاعم.

وضعت كوان السمك المقلي في صينية وقالت: لا بد أن أناس ين مشغولون الآن. وهم يعملون بجد، يريدون أن يرتاحوا ويتعشوا، سيأتون الآن، ليس للحديث فقط، بل لأني طباخة ماهرة أيضاً.

ما إن قالت كوان ذلك حتى قبضت على كلمتها المتناقضة تلك وقلت: ما دمت تقولين أنك طباخة جيدة، فلم يجيئون وينتقدون طبخك مثلما قلت منذ قليل!؟

وجمت كوان، لم تستطع قول شيء وبدا أن الكلام علق في حلقها. بدا من الغباء أني طرحت هذا السؤال عليها.

قالت أخيراً: إنهم لا ينتقدون حقاً، تعلمين، إنهم يتحدثون هكذا بانفتاح وودية كما يتحدث الأصدقاء. إنهم أموات، إنهميتظاهرون بالأكل وغالباً ما يثنون على طعامي. ويقولون أنهم غير محظوظين لأنهم نادراً ما يتناولون طعاماً لذيذاً كهذا. لو أنهم تذوقوا شطيرة البصل التي أعدها، لماتوا سعداء! لكن وللأسف، إنهم ميتون أصلاً.

قلت بسخرية، يستطيعون أن يأخذوا شطيرتك معهم كوجبة سريعة.

صمتت كوان للحظة ثم ضحكت: هذه مزحة جميلة. ربتت على ذراعي: فتاة مشاغبة. بكل حال، يحب أناس ين زيارتي، يتحدثون عن حيوات سابقة ويحبون الجلوس على مأدبة عشاء فيها طعام كثير، من كل النكهات. ثم يقولون: هذه نكهة لذيذة، هذه لا. هذه تناولتها بسرعة، لم أستشعر نكهتها جيداً. لقد ضاعت لحظة من حياتي لأني لم أتذوقها، ضاعت تماماً.

وضعت كوان قطعة سمك في فمها وأخذت تنقلها بين فكيها وتمضغها حتى آخر مضغة لحم. كان أسلوبها يدهشني في تناول الطعام، كأنها تقلد مهرج سيرك، ثم تفتح فمها المملوء بالطعام وتصرح وهي تحمل طبق السمك: هل تحبين السمك المجفف؟، هذا نوع مميز، أرسلته فيرجينيا من فانكوفر، إن الرطل يباع بستة عشر دولاراً، يقولون إنه يجب أن يتم تناوله كل يوم لأنه مفيد. يمكن أن أوفر بعضاً منه لوجبة أخرى. رمت قطع السمك في طبق من الكرفس وقالت: لكن بالنسبة لي، لا يجب تأجيل شيء، لأن كل شيء يتغير مع الوقت، لطالما سألني أناس من عالم ين: أين ضاع أفضل قسم من حياتي؟ لماذا ينزلق أجمل جزء من حياتي مني مثلما تنزلق سمكة؟ ولما أوفر الأفضل حتى النهاية. ربما أن النهاية كانت موجودة منذ البداية، خذي يا ليبي، تذوقي السمك، هل هو مالح جداً؟ أم أنه غير مالح بما فيها لكفاية؟

قلت: إنه جيد.

تابعت كوان: إنهم يقولون لي: ما دمت حية، فإن ذاكرتك تستمر بالتشكل. بإمكانك تشكيل ذاكرة جيدة. ويجب أن تقومي بتعليمنا كيف نمتلك ذاكرة جيدة، حتى لا ننسى ما يجب ألا ننساه في حياتنا القادمة.

سألت كوان: يتذكرون ماذا بالضبط؟

قالت كوان بتباهي: أن يتذكروا لماذا يريدون أن يعودوا للحياة بالطبع. لقد ساعدت العديدين منهم من قبل.

- مثل آبي العزيز مثلاً؟

استرسلت كوان: نعم، مثل آبي العزيز، بدت كوان سعيدة بالمثال الذي ذكرته، أخذت ترسم أشكالهم بأصابعها وتقول: ساعدت أناس ين من الصين ومن أميركا أيضاً. ذلك الشرطي الشاب الذي زارني في بيتي بعد أن سرقت سيارتي، كان مبشراً في الصين في حياة سابقة، وكان يقول: آمين، آمين. أما الشابة التي كانت تعمل في البنك وتعتني بحسابي هناك. كانت قاطعة طريق صينية في حياتها السابقة، كانت تسرق الناس الطماعين فقط. كذلك سارج الذي صار عامل تنظيف، وكيربي الذي صار بوبا، كلبنا. كلهم مخلصون، في الحياة السابقة كانوا كلهم شخصاً واحداً ما، يمكن لك أن تتعرفي عليه.

تذمرت، كم أكره ألعاب كوان هذه، وكيف تحاول أن تقودني دوماً لأوهامها.

رددت كوان: خمني من؟

- لا أعرف. ثم رفعت يدي وقلت: ربما الآنسة بانر.

- لا، تخمينك خاطئ!

- إذن فهو الجنرال كاب.

كان لا بد أن أفكر بأن كلبي كان الجنرال كاب في حياة أخرى، فكرة مدهشة!

قالت كوان: الآن تعرفين لم اسم كلبنا الأول هو كابتن!

- أنا أطلقت عليه هذا الاسم.

لوحت كوان بإصبعها وقالت: حاولي أن تخفضي من رتبته هذه، غيري اسمه ولقنيه درساً!

ما هذا! أعلمه، هذا الكلب غبي، حتى إنه لم يتعلم كيف يجلس. إنه لا يعرف إلا أن يتوسل لأجل طعامه طوال الوقت. وبعد أن يأكل، يركض بعيداً.

قالت كوان: بل، يتلاشى بعيداً.

- ماذا تقصدين؟

- في الحقيقة لم أخبرك من قبل، كنت صغيرة، وكانت إنجليزيتي سيئة، كنت أقول أنه يركض بعيداً بدلاً من يتلاشى بعيداً. شعرت أن كوان تشير لموت الجنرال كاب. شعرت بلفحة حزن مفاجئة. كأنني أردت فرصة لعودة الماضي في حياة سابقة، كأنني أردت تغيير حقيقة معاملتي الغير لطيفة له، لو أنني أستطيع رؤيته مرة أخرى.

قالت كوان: لم يكن الجنرال مخلصاً في حياته السابقة، كان خائناً، ولذلك، فإنه يعود على هيئة كلب في كل مرة. هو اختار ذلك، هذا خيار جيد لأنه كان سيئاً جداً. أعرف ذلك لأن يبان، مترجمه ذاك، نصف الرجل، هو من أخبرني، وهنا كذلك أستطيع أن أراه... بكل حال انظري لهذا الفول الطازج، لقد اشتريته اليوم، هل ترين تلك الحبة المتعفنة منه، إنها مثل الإنسان المتعفن، ارميها بعيداً . سأحدثك عنه الآن يا ليبي.

* * *

الجنرال كاب كان متعفناً أيضاً، قلت لنفسي: نونومو، أنت تتظاهرين بأنه غير موجودٍ هنا. لقد تظاهرت بعدم وجود الجنرال. لشهرين كاملين، عاش الجنرال في بيت التاجر الشبح، وطوال ذلك الوقت، كانت الآنسة بانر تفتح باب غرفتها له كل ليلة. لشهرين كاملين، انقطعت الآنسة بانر عن الحديث معي، لم أعد صديقتها المقربة، صرت خادمتها. تقف الآنسة بانر وتشير إلى المناطق الحميمة في ثوبها الأبيض، المناطق التي رفضت أن أغسلها من قذارتها، لأن أصابع الجنرال كاب لمستها، ولمست جسدها هناك. في أيام الأحد، صارت الآنسة بانر تترجم للمصلين ما يقوله القس باستور كما هو، لم تعد تتلو علينا قصصها المسلية بدلاً من الصلاة المملة. أخذت الآنسة بانر تتغير بشكل كبير مع مرور الزمن.

أثناء وجبات الطعام، يجلس المبشرون والآنسة بانر والجنرال كاب على طاولة مخصصة للأجانب فقط.، وبمجرد أن يجلس القس باستور، يبدأ الجنرال كاب بالحديث للجميع بصوت عال، هو يتحدث، والكل مستمع وموافق بخشوع. ما أن يضع الجنرال ملعقته في فمه ويبدأ الأكل، يضع الجميع ملاعقهم في أفواههم ويأكلون. إن عاد الجنرال للحديث وأخفض ملعقته من جديد، يتوقف الجميع عن الأكل ويعودون للاستماع. لولو والخدم الآخرون وأنا، كنا نجلس على طاولة مخصصة للصينيين فقط. معنا مترجم الجنرال كاب، يبان جونسون، الذي لقبه الجنرال بنصف الرجل، لأن نصفه صيني والآخر أجنبي. كرهت يبان لأنه أخبرني في السابق عن أن الجنرال بطل بالنسبة للأمريكيين والصينيين. قرر الجنرال كاب أن نصفه الصيني يتفوق على نصفه الأجنبي، ولذلك جلس يبان على طاولتنا. أدركت لاحقاً أن كل ما يقوله يبان، لا يعدو كونه الكلام الذي يقوله له الجنرال كاب ليترجمه لنا. حين كان يجلس يبان على طاولتنا، كان يتحدث

بكلامه هو، يحدثنا بحرية وبتهذيب كما لو أننا أصدقائه. دون أن يتظاهر بأي شيء، يضحك ويمزح، كان طعامنا يعجبه، ولم يكن يتناول أكثر من حصته من الطعام.

مع مرور الزمن، تعلمت أيضاً أن نصف يان الصيني يطغى على نصفه الأجنبي، ولم أعد أنظر إليه على أنه غريب. أخبرنا يان أن أباه جونسون، كان صديقاً للجنرال كاب منذ طفولتهما، لعبا معاً، معاً دخلا المدرسة الحربية، ومعاً، تم طردهما منها. بعد ذلك، عمل أبوه في شركة أمريكية لتجارة الملابس، وسافر مع شركته إلى الصين، كان اسم الشركة نانكين سيلك. هناك، اشترى خادمة صغيرة السن وجعل منها محظية له. وقبل أن تضع المحظية مولودها منه، قبل ذلك بقليل فقط، قال أنه مضطر للعودة إلى أمريكا. تقبلت قدرها بصمت. وشعرت بأنها كانت محظية لشيطان أجنبي هجرها. في الصباح التالي حين استفاق، فوجئ بها وقد شنقت نفسها على الشجرة التي تظهر من نافذته. قطع الخدم الآخرون الحبل الذي تدلى جسدها منه، حلوا الحبل الذي كان يلتف حول عنقها سالباً منها حياتها. ولأنها قتلت نفسها، أوقف الجميع كل مظاهر الاحتفال. وضعوها في تابوت خشبي وأغلقوا عليها. في تلك الليلة، سمع أبوه جونسون صوت بكاء. نهض من فراشه وذهب إلى الغرفة التي وضعوا فيها التابوت. فتح التابوت، وهناك، رأى مولوداً، كان المولود ذكراً! ملقى بين ساقي المحظية الميتة. في عنق الطفل، أسفل ذقنه تماماً، تظهر علامة حمراء بسمك إصبع. يمتد على عنقه كنصف دائرة، تماماً كشكل الحبل الذي شنقت أمه نفسها فيه. حمل جونسون الطفل معه إلى أمريكا. وهناك، وضع الطفل في السيرك! وأخذ يخبرهم عن العلامة التي في عنقه، وعن أمه التي شنقت نفسها وعن المعجزة الغامضة التي ولد منها. حين كبر الطفل

وتضخمت عنقه، صارت العلامة أصغر. ولم يعد أحد يدفع المال لقاء التفرج على تلك المعجزة. عاد جونسون وحمل ابنه والنقود التي ربحها من السيرك وعاد إلى الصين. في ذلك الوقت، صار جونسون يتاجر بالأفيون، أخذ يتنقل بين مرفأ مدينة وآخر، محصلاً ثروة في كل مدينة. كان يقامر في كل مدينة، ويحظى بمحظية في كل منها. حيث يهجر كل واحدة منهن لأجل أخرى. لم يكن أحد يشكو بالطبع، سوى يبان الصغير، الذي فقد كثيراً من الأمهات المحظيات اللواتي كان والده يهجرهن. كان هذا ما علمه التحدث بلغات ولهجات الصينيين المختلفة، تحدث بلغة شانغهاي والماندرين والهاكا والفونكين، كلها. هذا ما تعلمه من أمهاته الكثيرات، أما الإنجليزية، فتعلمها من أبيه، جونسون.

في أحد الأيام، هرع جونسون إلى صديقه وشقيق روحه الجنرال كاب، الذي صار يعمل مرتزقاً، وجنرالاً في جيش البريطانيين أو المنشوريين أو الهاكا أو أي أحد يدفع. قال جونسون لكاب: عندي دينٌ كبير، أريد أن تقرضني النقود. وكدليل على أنه سوف يرد النقود، قال جونسون: سأعيرك ابني ذو الخمسة عشر عاماً، إنه يتقن لغات كثيرة، وسيساعدك في حروبك مع أي جيش تقوده! منذ ذلك اليوم، ولخمس عشرة سنة تالية، انتمى يبان للجنرال كاب. لأن والده لم يرد القرض أبداً.

سألت يبان ونحن على طاولة الطعام: لمن يقاتل الجنرال الآن، للبريطانيين، للمنشوريين، أم للهاكا؟

قال يبان أن الجنرال قاتل لصالحهم جميعاً. وحصل منهم جميعاً على النقود. إنه الآن يتخفى منهم. لقد صاروا أعداءه لأنه خانهم كلهم. سألت يبان إن كان الجنرال حقاً قد تزوج ابنة مصرفي صيني لأجل الذهب. قال

يبان بأنه لم يتزوجها لأجل الذهب فقط، بل فعل ذلك لأجل نساء المصرفي، اللواتي كان يحوم حولهن. المصرفي يبحث عنه أيضاً. قال يبان أن الجنرال كان محموماً بمروج صفراء من الذهب، لكنك تحصد الذهب في أحد المواسم، ومن ثم، فإن كل شيء يجف يتبخر، مثل الآن.

كنت سعيدة بما قاله يبان، لأني تأكدت أني محقة بحق الجنرال كاب، فيما كانت الآنسة بانر مخطئة. لكنني في المحصلة، كنت حزينة جداً، لأني لم أعد صديقتها المقربة، كيف لي أن أفرح، وأنا أشاهد هذا الرجل الرهيب وهو يلتهم قلبها.

سأل لولو يبان: كيف تعمل لصالح رجلٍ كهذا؟ لا يخلص لشيء، لا ينتمي لعائلة ولا لوطن!

- قال يبان: لقد ولدت لأم ميتة، لا أنتمي لأحد، نصفي أجنبي والآخر صيني، جعلني ذلك مختلفاً. لذا، فإنني أنتمي للجميع، وهذا يعني، أني لا أنتمي لأي أحد. لقد ولدت لأب لم أكن بالنسبة له نصف ابنٍ حتى، من عرقه الأمريكي. والآن أنتمي لرئيس يعاملني على أني مجرد سداد دين. قل لي إذن؟ لمن أنتمي، لأي بلد، لأي عائلة؟!

كنا نتطلع لوجهه وهو يجيب، ولا أظنني عرفت شخصاً ذكياً وحكيماً في حياتي مثله، إنه يستحق أن ينتمي لشيء ما أكثر من أي أحد.

لم نجبه بشيء. في تلك الليلة، تمددت على حصيرتي أفكر في أسئلة يبان. أي بلد، أي عائلة، لأي ناس ننتمي؟ أظنني أعرف إجابة السؤالين الأولين. إني أنتمي للصين، وقبيلتي هي الهاكا. لكن سؤاله الأخير ذكرني أني أشبهه، إني لا أنتمي إلا لنفسي.

قالت كوان: أترين يا ليبي، إنني في حياتي هذه الآن، أنتمي لناس كثر، إن لي عائلة، ولي أنتِ. آه، إنني مضطرة لأتوقف عن الحديث عن حياتي السابقة حين كنت نونومو. لأن لولو يقول كفى حديثاً، ولنتناول الط

11

تغيير الاسم

بالعودة إلى ما قالته كوان عن الأصوات التي كنت أسمعها في بيتي، كان كلامها صحيحاً تماماً. كانت صادرة عن شخص مشحون بالغضب، تتسلل أصواته وحركاته تحت الأرضية وعبر الجدران. كان ذلك جارنا في الطابق السفلي، بول داوسون، والذي تم القبض عليه بتهمة إجراء مكالمات مهووسة للنساء في محيط المنطقة التي نسكنها. كان الرجل أعمى، ووحيداً، مما جعلني أشعر بالشفقة عليه في البداية. تلاشى ذلك الشعور فيما بعد حينما عرفت طبيعة مكالماته تلك، كان الرجل ينتمي لطائفة متطرفة تؤمن بالتطهر وتقوم باختطاف النساء وتحويلهن لدمى حيث يضاجعهن رجال الطائفة جماعياً ثم ينتزعون أحشائهن وهن على قيد الحياة من قبل نساء أخريات!! حين كان يتصل بامرأة وتسخر من كلامه على الهاتف، فإنه يسمعها صوتاً مرعباً لامرأة تتعرض لجريمة دموية. ثم يقول: تلك المرأة ظنتني أمزح كذلك!

عندما فتش رجال الشرطة شقته، عثروا على معدات شاذة من أدوات كهربائية جنسية، وأشرطة تسجيل تكشف مكالماته ومن يتصل به

وجهازاً لتغيير الصوت وجهازاً يصدر مؤثرات صوتية. لكن جرائمه لم تقتصر على الهاتف، لقد قام بخداع جيراننا السابقين وأقنعهم أن البيت مهلهل ويصدر الأصوات، وإنه مصدر إزعاج ولا بد من ترميمه، قال إنه ينزعج أثناء تمارين تأمله الصباحية. استغل انتقالهم المؤقت في فترة ترميم البيت، قام بعمل حفر في الأرضية وزرع أجهزة تنصت وأجهزة مؤثرات صوتية. بعد كل ما عرفته، تحولت شفقتي إلى غضب، وتمنيت أن يتعفن في السجن. كنت مهووسة بوجود أشباح في البيت طوال الوقت. يجب أن أعترف أني كدت أجن بسبب تلك الفكرة. في النهاية، ارتحت لأني اكتشفت سبب الأصوات في الأخير. لقد كنت أعيش وحيدة مع خيالي المحفوف بالخوف من الخطر. كنت ألتقي بسيمون لأجل العمل فقط. قريباً سنصير مستقلين، وسوف يمتد طلاقنا ليشمل عملائنا في العمل كذلك. في المرة الأخيرة، جاء سيمون ليمرر لي ملصقاً جديداً لإعلان طبي عن علاج الأمراض الجلدية.

فجأة، زارتني كوان دون موعد مسبق. كنت أجري مكالمة مع المطبعة عندما حضرت، تركتها تدخل البيت وعدت إلى مكتبي. كانت تحمل معها طعام الونتنون المصنوع منزلياً، وضعت كوان الطعام في الثلاجة ثم أخذت تنتقد محتوياتها بصوت عالٍ: لماذا الخردل والمخلل؟ أين الخبز، أين اللحم؟ كيف تعيشين على هذا النحو؟ ثم ما هذا؟ بيرة، لماذا لا يوجد عندك حليب؟ بعد دقائق، دخلت كوان لمكتبي وفي يدها مجلة الطعام العالمية التي قامت بدعوتي مع سيمون للإقامة في قرية صينية وكتابة مواد عن عاداتها وطعامها. دخلت كوان وعلى وجهها ابتسامة عريضة. تذكرت رسالة الموافقة التي أرسلتها المجلة في اليوم السابق. شعرت أني ربحت الجائزة الكبرى لكنني في النهاية كنت مضطرة للإلقاء بالرسالة وإهمالها. كانت

مزحة ثقيلة من آلهة الحظ، مصادفة جميلة وحظ سيء معاً، بعد انفصالي عن سيمون، تجيء الرسالة لأمضي باقي النهار والليلة كلها وأنا أفكر كيف اختلف كل شيء وكيف فشلت خططي مع سيمون. تخيلت سيمون يفتح الرسالة ويقول: يا إلهي، جاءت الموافقة على الرحلة، متى سنذهب؟

كنت سأقول له حينها: لن نذهب، لقد غيرت رأيي. كنت سأقولها دون أن أشعر بأي ندم.

كان سيمون سيرد علي ويقول: ماذا تعنين، لم غيرت رأيك؟

- وسوف أرد حينها: كيف تجرؤُ على التفكير أننا سنكون معاً حتى.

ربما حينها، قد يقرر سيمون الذهاب لوحده، ويأخذ معه أي مصور آخر. هذه الفكرة جعلت دمي يغلي حقاً. حينها كنت سأقول له: لا، لن تذهب أنت، أنا هي التي سوف تذهب وتأخذ معها كاتباً آخر، واحداً أفضل. بقيت هكذا، أتخيل وأفكر منذ وصول الرسالة. أفكر في فصل الشتائم عن الأخلاقيات، حاولت فصل علاقتي بسيمون عن أخلاقيات المهنة، أقارن بين موهبته وموهبتي في العمل. أبقتني هذه الأفكار صاحية طوال الليل.

فجأة صاحت كوان فرحة وهي تلوح بالرسالة في يدها: هل ستذهبين مع سيمون إلى الصين؟ أريد الذهاب معكما، سوف أكون دليلكما هناك، أستطيع أن أترجم لكما وآخذكما إلى أماكن كثيرة، سوف أساعدكما على كتابة مادة مميزة، وادفعا لي كيفما تريدان. لطالما أردت العودة للصين بكل حال وزيارة عمتي وقريتي هناك.

- قاطعت كوان قائلة: أنا لن أذهب.

- ولم لا تذهبين؟

- أنت تعرفين.

- كيف لي أن أعرف؟

استدرت مواجهة كوان وقلت: ألا تتذكرين؟ أنا وسيمون سنحصل على الطلاق قريباً.

- صمتت كوان للحظة قبل أن تقول: ولم لا تذهبان كصديقين، كصديقين فقط ولا شيء غير ذلك؟

- كوان، اتركي الرسالة من يدك رجاء.

- نظرت كوان إلي بحزن، ثم قالت وهي تخرج من حجرة مكتبي، أنتما مثل شخصين يتضوران جوعاً، يتجادلان ويتجادلان، ثم يرميان الأرز بعيداً ويحتفظان بالخصام الذي لا يسمن ولا يغني. لم تفعلان هذا؟

بعد حين. عندما أريت الرسالة لسيمون، أصيب بالذهول. انحدرت الدموع من عينيه. لم أصدق ما رأيت، هل يبكي؟ إنني أعرفه منذ زمن طويل، لم أره مرة واحدة يبكي. لا حين كان يشاهد أفلاماً حزينة، ولا حتى حين أخبرني كيف ماتت إلزا. مسح سيمون الدموع من على خده، أما أنا، فتظاهرت بأني لم أنتبه. قال سيمون: يا إلهي، كل ما تمنيناه معاً، أتى أخيراً، نحن فقط الذين لم نحضر، لأننا سنفترق. صمتنا. كأن كلاً منا بدأ يتذكر حياته الزوجية مع الآخر في لحظات الصمت المطبق التي حلت بيننا. بعد بعض الوقت، استجمعت قوتي وقلت: أنت تعلم أن الأمور ساءت بيننا وانتهى الأمر. أعتقد أن الانفصال جيدٌ لنا، وسوف يمكننا من تجربة العيش كلاً على حدة. دون أن ندعي أن لنا أهدافاً مشتركة كما السابق.

شعرت أني قلت الواقع لسيمون، لكنني لم أكن حازمة وأنا أتكلم.

أومئ سيمون برأسه وقال: أتفق معك.

أردت أن أصرخ فيه: ماذا تعني بأنك موافق، وبكل بساطة. لأعوام طويلة معاً لم نتفق على شيء، والآن، توافق؟ لكنني التزمت الصمت. بل إنني هنأت نفسي لأني استطعت أن أصمت وأحتفظ بشعوري السيئ في داخلي. لم أرد أن يرى كم كنت مجروحة. خلال لحظات، تحول شعوري بالانتصار على سيمون إلى حزن جارف. كدليل قاطع على حبي الذي خسرته.

كل كلمة تحدثنا فيها معاً، كل تعبير، بدا غامضاً وجديداً. لم يعد يمكن لأحدنا أن يفهم الآخر من تعبير وجهه. تحدثنا سوياً تاركينِ مسافة بيننا. تظاهرنا أن كل تلك السنوات التي نمنا فيها معاً وعشنا فيها معاً بل ودخلنا الحمام فيها سوية، قد تلاشت. لم نعد نتحدث بلطف واختزال، كنا نستخدم الكلمات المبطنة للإشارة للأشياء فيما بيننا، كنا نستخدم كلماتنا الخاصة للتعبير عن أننا ننتمي لبعضنا البعض.

نظر سيمون لساعته وقال: يجب ان أذهب الآن، لدي موعد مع أحدهم في الساعة السابعة.

سألت نفسي: هل سيلتقي بامرأةٍ ما؟ قلت دون تفكير: أنا الأخرى، سأجهز نفسي لموعد مع رجل. لكن سيمون نظر لي دون أن يتحرك له جفن. خجلت من كذبتي المثيرة للشفقة، والتي لاحظها سيمون ببساطة. سرت معه حتى الباب. وفيما سيمون يهم بالخروج: حدق في الشقة وقال: لقد أزلت الثريا من على السقف أخيراً، يبدو المكان مختلفاً، يبدو أجمل وأكثر هدوءاً.

وبذكر الهدوء، أخبرت سيمون عن جارنا المجرم، بول داوسن، لم يكن من أحد سيقدر القبض عليه مثلي عدا سيمون.

- قال سيمون: داوسن؟ يا له من نذل، لم يفعل شيئاً كهذا؟

- قلت لسيمون: بسبب الوحدة، والغضب، ربما لديه رغبة في الانتقام من المجتمع أيضاً. قلت ذلك وشعرت أني أسخر من نفسي، لأني بت وحيدة وحزينة، شعرت بالسخرية وهي تخزني في قلبي.

بعد ذهاب سيمون. استلقيت في غرفة نومي وأخذت أحدق في سماء الليل من نافذتي. فكرت في السنوات السبع عشرة من زواجنا، كيف انتهت بكل بساطة. كأن حبنا كان حباً تقليدياً لاثنين نشآ معاً في حي واحدٍ ثم ظلا معاً. فكرت في حقيقة أن جسدينا وقلبينا وأفكارنا اتفقت كلها معاً ذات مرة وخدعتنا، لأنها جعلتنا نظن أننا مميزين في علاقتنا وحبنا. لا أستطيع خداع نفسي، إن الانفصال هو الحل الأفضل، لأنه سيحررني، ويخرجني من هذه الدائرة، لن أعود لأنتمي إلى شخص أو شيء.

بعد ذلك، أخذت أفكر في كوان، وكيف أبادل حبها لي بالإهمال. لم أقم بفعل شيء لأغير من طبيعة علاقتنا التي ظلت تتمثل بالعواطف الجياشة من قبلها والشعور بالذنب من جهتي. لم أكسر يوماً الحزن الذي أسببه لها، لم أدعها يوماً إلى الخروج للعشاء أو لحضور فيلم، فقط لوحدنا. كما تتمنى كوان. لم أتنازل يوماً وأعاملها بلطف. لطالما طلبت مني أن نذهب معاً لديزني لاند أو لرينو أو للصين. لطالما أبعدت اقتراحاتها تلك عني، كأنها ذبابات مزعجة. كنت أخبرها بأني أكره المغامرات، وأن الذهاب في رحلة إلى جنوب كاليفورنيا ليس على قائمتي في المدى القريب. لطالما أهملت فكرة أن كوان تريد بكل بساطة تمضية بعض الوقت معي فقط. لعلها الآن مجروحة مثلي؟ أشعر أني لست أفضل من أمي، التي لطالما أهملت الحب، لا أصدق أني غفلت عن قسوتي هذه.

قررت الاتصال بكوان. وقررت أن أدعوها لقضاء يوم معاً، بل ربما نقضي عطلة نهاية الأسبوع كلها سوية. سنذهب لبحيرة تاهو، سيكون ذلك لطيفاً، وستفرح كوان بشدة. لا أستطيع الانتظار لأسمع ما سوف تقوله. إنها لن تصدق الأمر.

حين اتصلت بكوان: لم تمنحني الفرصة لقول شيء. بدأت هي الحديث وقالت: ليبي ،تحدثت هذا المساء مع لولو، من عالم ين. إنه يوافقني على رأيي، يجب أن تذهبي بصحبتي وبصحبة سيمون إلى الصين. هذا العام هو عام الكلب، العام القادم هو عام الخنزير، يجب ألا تتأخري في الذهاب.كيف لا تذهبين؟ هذا هو القدر الذي انتظرته ليتحقق!

استمرت كوان بالحديث بعد أن شعرت بأن صمتي علامة رضاً على منطقها في محاولة إقناعي. قالت: نصفك صيني، ويجب أن تزوري الصين في يوم ما. ما رأيك؟ . إن لم نذهب الآن، ربما لن تتكرر هذه الفرصة مجدداً، لا ترتكبي خطئاً لن تتمكني من إصلاحه فيها بعد. ما رأيك، ماذا ستقررين؟

رغبت في أن تتوقف كوان، سئمت من تكرارها السؤال، قلت: سأفكر في ذلك حتماً.

- أه، عرفت أنك سوف تغيرين رأيك.

- اصبري، قلت أنني سأفكر في الأمر، لم أقل أني سوف أذهب.

- قاطعتني كوان: أنت وسيمون سوف تحبان الصين، أراهن على ذلك، ستحبانها مئة في المئة. خصوصاً قريتي تشانجميان، لن تصدقي كم هي جميلة، جبال وسماء وماء. كأنها الجنة على الأرض. لدي أشياء ما زلت أحتفظ فيها هناك وأود إعطاءك إياها. استمرت كوان لخمس دقائق أخرى

بتعداد محاسن قريتها قبل أن تقول: إن جرس البيت يقرع. سأتصل بك لاحقاً يا ليبي، اتفقنا؟

- قلت: حقاً! في الواقع أنا التي اتصلت فيك الآن.

ردت كوان: جرس البيت ما زال يقرع، جورج، أين أنت ؟ أخذت كوان تنادي على زوجها. ثم صرخت: فيرجينيا، فيرجي، أين أنت؟ استغربت حين سمعت اسمها، هل جاءت فيرجينيا بهذه السرعة من فانكوفر لتقيم معهم. قالت كوان في آلأخير: سأذهب لأفتح الباب، ابقي معي لدقيقة فقط. سمعت صوت كوان الخافت من بعيد، وهي ترحب بأحد ما. عادت إلى الهاتف وسألتني: الآن، قولي لي لم اتصلت بي؟

- قلت: أريد أن أسألك شيئاً. شعرت بالندم والقلق حتى قبل أن أقول لكوان عن فكرتي، تخيلتني عالقة معها لوحدنا في فندق على أطراف بحيرة تاهو. استدركت للحظة ثم قلت: أشعر أنك مشغولة؟

- قالت كوان: لا لست مشغولة، اطلبي ما تشائين، أنت تعرفين أن جوابي سوف يكون كما العادة: نعم.

- غيرت رأيي بسرعة ودون تفكير، قلت لكوان: حسناً، لا أعرف إن كنت مشغولة غداً في وقت الغداء. لأنني سأقوم ببعض الأمور قريباً من مكان عملك، ما رأيك؟ لكن لو كنت مشغولة فلا بأس، يمكن تأجيل ذلك لوقت آخر.

- قالت كوان بانتعاش واضح: دعوة للغداء! بدت سعيدة جداً فيما كنت ألعن نفسي لأني كنت بخيلة وتخليت عن فكرتي الأولى فقدمت لها هذه الهدية البسيطة. بعد ذلك، سمعت حشرجة على الهاتف، بدا أن كوان تركت السماعة وأخذت تنادي بصوت عالٍ: سيمون، سيمون، إن ليبي

تتصل بي لأرافقها على الغداء. سمعت سيمون وهو يرد عليها: تأكدي من أنها سوف تأخذك إلى مكان غالٍ.

- كوان، ماذا يفعل سيمون عندك؟

- لقد أتى للعشاء، لقد طلبت منك أن تأتي البارحة، لكنك قلت أنك مشغولة. لم يتأخر الوقت بعد، تعالي، يوجد طعام كافٍ.

نظرت لساعتي، كانت السابعة تماماً، إذن، هذا هو موعد سيمون! كدت أقفز من الفرح. قلت لكوان مستخدمة حجتي المعهودة: اعذريني، إني مشغولة الليلة.

- قالت كوان بشحوبها المعتاد: كالعادة إذن، مشغولة.

لكنني هذه الليلة، حرصت أن أكفر عن أسلوبي وأن لا يكون انشغالي كذبة كالمعتاد. كنت أجهز قائمة لأجل الأعمال التي لم أنجزها بعد. منها، تغيير اسمي! وهذا سوف يتطلب تغيير رخصة قيادتي، وبطاقاتي المصرفية، إضافة لبطاقة التصويت وحسابي البنكي. عنواني البريدي الذي تصلني منه المجلات. هذا عدا عن أنه يجب أن أخبر عملائي في العمل وأصدقائي. يا للهول! سوف أعود لاسم عائلتي: لاغوني يي.

اقترحت أمي أن أظل على اسم عائلة سيمون: بيشوب. قالت: لماذا يي؟لا يوجد أحد يحمل اسم هذه العائلة غيرنا، لا أحد لترتبطي فيه في هذه البلد. لذا، من يهتم؟ لم أرد أن أذكر أمي بأنها تعهدت لوالدي قبل موته باحترام اسم العائلة. ثم أني لاحظت أن اسم عائلتي لا يحدد أي هوية حقيقية لي. منذ كنت في الخامسة، حينما غيرت أمي اسمي الأخير إلى لاغوني. لم تقلق حينها ببقاء اسم كوان الأخير كما هو: لي. حين أتت كوان إلى أمريكا، قالت أمي أنه من التقليدي في الصين أن تحتفظ الفتاة باسم أمها

الأخير. فيما بعد، اعترفت أمي أن زوج أمنا بوب لم يقبل أن يتبنى كوان وهي لم تبلغ سن الرشد بعد. كما أنه أراد أن يتنصل من أي فعل قد تقدم عليه تلك الشيوعية الصغيرة كما قال!

بدأت أردد اسمي بصوت عال لعدة مرات، أوليفيا يي. بدا لي مثل اسم مخلوق فضائي، كأنني سأصير صينية بهذا الاسم، تماماً مثل كوان، لكن ذلك لم يزعجني حقاً. ربما أن كوان هي واحدة من الأسباب التي جعلتني لا أعرف من أريد أن أصبح حقاً. كانت نموذجاً فظاً بالنسبة للكثير من الشخصيات التي يمكن أن أفكر فيها.

اتصلت بأخي كيفن لأسأله رأيه في تغيير اسمي الأخير. لكن كيفن قال أن الاسم لا يعجبه. ثم قال: يي! كأنه الصوت الذي يصدره الأطفال في كل شيء، ييه، يوه ، أوو.

- قلت لكيفن: العالم تغير منذ كنا أطفالاً. ومن التفاهة أن نفكر بشكل عنصري في الأسماء.

- لكن ارتداء شارة تدل على أنك صينية، لن يمنحك نقاطاً إضافية. إنهم يقومون بطردهم من الصين، لم يعد هنالك من متسع لهم. قال كيفن ذلك وضحك. ثم عقب: من الأفضل أن تحتفظي باسم لاغوني. بعض الناس يظنون أنه اسممكسيكي، حتى أمي تظن ذلك.

قلت لكيفن: لكنني لا أجد اسم لاغوني مناسباً لي. لا أشعر أني أنتمي لسلالة لاغوني.

- لا أحد منا يشعر أنه ينتمي لعائلة لاغوني أيضاً.

- ماذا تعني بذلك؟

- حين كنت في إيطاليا منذ بضعة سنوات. حاولت البحث عن أحد من عائلة لاغوني هناك. واكتشفت أنه مجرد اسم مختلق تطلقه الراهبات على الأولاد اللقطاء. لو انتبهت، فالاسم يشبه إسم جزيرة لاغون. غريب ومعزول عن العالم مثلها، وكذلك هم الأيتام. يبدو أن جد زوج أمنا بوب كان لقيطاً. يبدو أننا ننتمي لحفنة من اللقطاء في إيطاليا.

قلت لكيفن: لماذا لم تقل لي هذا من قبل؟

- لقد أخبرت أمي، وأخبرت تومي كذلك. أظن أني لم أخبرك عن اسم لاغوني لأنك أخذت اسم عائلة زوجك بكل حال. بكل حال، لم يكن الموضوع مهماً بالنسبة لك ولبوب. في النهاية، أجد بوب الأب الوحيد الذي حظيت به. إني لا أتذكر شيئاً عن أبينا الحقيقي، هل تتذكرين أنت؟

في الواقع، أظنني أتذكر بعض التفاصيل. أتذكر كيف كان أبي يرفعني في حضنه ثم يرميني في الهواء. أتذكره وهو يكسر مخالب السلطعونات عند البحر. أرى مشهداً وهو يحملني على كتفيه ويمشي بي بين حشد ما من الناس. أليس هذا كله كافياً لأقوم ببعض الجميل لاسمه؟ ألم يحن الوقت حتى أشعر أني أنتمي لاسم شخصٍ ما؟

في العصر. ذهبت إلى الصيدلية التي تعمل فيها كوان. في البداية، ضيعنا عشرين دقيقة كاملة أخذت تعرفني فيها كوان على الصيدلاني، وعلى باقي زملاؤها، وعلى زبائنها المفضلين. اخترت مطعماً تايلندياً في جادة كاسترو. ثم اخترت طاولة قرب النافذة لأتمكن من مشاهدة الزحام في الشارع فيما كوان مستمرة في حديثها الذي كانت تقوده من جانب واحد. حاولت أن آخذ هذا اليوم بروح رياضية. اعتبرته اليوم الذي تستطيع كوان فيه الحديث عما تشاء: عن تدخيني الزائد، عن الصين، عن طلاقي من سيمون. كان هذا اليوم، هديتي لكوان.

ارتديت نظاراتي وتطلعت لقائمة الطعام. أخذت كوان تحدق في أنحاء المطعم، تنظر للملصقات المعلقة عن مدينة بانكوك، وللإعلانات البنفسجية والذهبية الموزعة على الجدران. صبت كوان الشاي ثم قالت: إذن، أنت غير مشغولة كثيراً اليوم؟

قلت: لا، فقط بعض الأمور الشخصية البسيطة.

- أي نوع من الأمور الشخصية؟

- الأمور المعتادة، تجديد رخصة الاصطفاف في مصف السيارات. تغيير اسمي. وهكذا.

فردت كوان منديلها في حضنها وسألت: ولماذا تغيرين اسمك؟

- بكل حال إنني مضطرة لفعل كل تلك الأمور السخيفة التي تزاحمت علي الآن. إني مضطرة للذهاب إلى دائرة الترخيص، وإلى البنك، وإلى الدائرة الحكومية... توقفت فجأة لأن كوان هزت رأسها بعنف وأخذت تعابير وجهها بالانكماش. قلت: كوان، هل أنت بخير؟

لكن كوان لم ترد، بل بدت لي كأنها أصيب بنوبة صرع. حاولت أن أقوم بحركة الإسعاف لمساعدتها لكنها أشارت لي بيدها أن أجلس. ها هي الآن تتكلم من جديد بعد أن شربت شايها وقالت: أووه يا ليبي، أعتذر لأنني مضطرة لأن أخبرك بشيء مهم: تغيير اسمك ل يي، ليس بالأمر الجيد. لا تفعلي ذلك. استبقت بقية حديثها وفكرت في أنها سوف تبدأ الآن في الحديث عن طلاقي مع سيمون. لكم كوان اقتربت مني كانها عميلة تفشي بسر خطير ثم قالت: يي، ليس ذلك هو الاسم الحقيقي لعائلة أبينا. اعتدلت في كرسيي وقلبي ينبض بشدة. قلت لكوان: ماذا تقولين؟!

في تلك اللحظة، قاطعنا النادل وقال أننا يجب أن نقوم بالطلب. أشارت كوان لإحدى الوجبات وسألت إن كانت تقدم طازجة، أجابها النادل على أنها تقدم طازجة، لكن كوان لم تطلب لأنها لا تقدم بالطريقة التي تفضلها. أشارت كوان لوجبة أخرى. ثم سألت النادل:

- هل تقدم طرية؟

قال النادل: نعم.

سألت كوان: أي منها أفضل إذن؟

- في الواقع: كل الوجبات هنا هي الأفضل.

نظرت إليه كوان بارتياب. وفي النهاية، طلبت نوعاً من النودلز.

بمجرد أن ذهب النادل سألت كوان: ماذا كنت تقولين؟

قالت كوان متذمرة: أحياناً تكون الوجبات طازجة، في أحيان أخرى لا، لأنهم قد يقدمون لك الوجبات التي تم طهوها منذ البارحة.

- لا، لا أتحدث عن الطعام يا كوان، إني أتحدث عما قلته بشأن أبينا، ماذا قلت بشان اسمه؟

رفعت كوان كتفيها، ثم اتخذت وضعية العميلة السرية من جديد وقالت: يي، ليس اسم عائلة أبينا الحقيقي. إني أخبرك بالحقيقة ياليبي. لا تمضي في الحياة باسم خطأ، ثم إننا لسنا مجبرين على جعل أسلاف لا ننتمي لهم سعداء، لأننا حملنا اسمهم بالخطأ.

قلت لكوان: ماذا تقولين، كيف يمكن لإسم يي، ألا يكون اسم عائلة أبينا؟

تطلعت كوان يميناً ويساراً، باتت تشبه رؤساء عصابات المخدرات هذه المرة، حين يعقدون صفقة ما. قالت: سأخبرك بشيء الآن، لكن عديني ألا تخبري أحداً يا ليبي؟

- أومأت برأسي رغم ترددي بوعدها، لكنني كنت مأخوذة بما تقول. بدأت كوان تتحدث بالصينية، بلغة طفولتنا التي كنا نتحدث فيها مع الأشباح.

قالت كوان: إني أقول الحقيقة يا ليبي، لقد أخذ والدنا اسم شخص آخر، لقد قام بسرقة قدرٍ آخر لرجل محظوظ. حدث ذلك في زمن الحرب، حين كان والدنا يدرس الفيزياء في جامعة جونكسي، في ليانفينج، قرب غيلين. لقد ولد أبونا لعائلة فقيرة. لكن والده أرسله منذ طفولته إلى مدرسة تبشيرية، لأنه لم يكن مضطراً لدفع تكاليف دراسته هناك، كل ما كان عليه فعله هو أن يحب المسيح. ولهذا، كانت لغته الإنجليزية جيدة. لا أتذكر أي شيء مما قلته إليك بالطبع، إني أخبرك ما قالته لي عمتي لي بين فقط. في ذلك الوقت، عشت مع أمي وأبي في غرفة صغيرة قرب جامعته في ليانفينج. في الصباح، كان أبي يذهب إلى دروسه في الجامعة. وفي العصر، يعمل في أحد المصانع، كان يقوم بتجميع قطع الراديو، حيث يدفع له المصنع بقدر ما يستطيع أن يعمله. لقد قالت عمتي أن أبي كان بارعاً باستخدام عقله أكثر من أصابعه. بكل حال، في الليل، كان يصرف النقود هو وزملاءه ليشتروا البنزين لأجل إبقاء المصباح الذين يتشاركون الدراسة على ضوءه مضاءً. أما في الليالي التي كان يكتمل فيها القمر، كانوا يمضون إلى الخارج ويدرسون تحت ضوء القمر حتى الفجر. لم يكونوا يحتاجون المصباح حينها. هذا ما كنت أفعله أيضاً حين كبرت وصرت أذهب للمدرسة. هل تعرفين؟ إن قمر الصين جميل جداً، ومفيد جداً، هكذا هو القمر هناك.

في إحدى الليالي وحين كان والدنا عائداً للبيت، خرج له رجل مخمور من أحد الأزقة وقطع عليه الطريق. كان الرجل يلوح بمعطف في يده. قال الرجل: لقد كان هذا المعطف لعائلتي منذ أجيال عديدة، لكن لا بد أن أبيعه الآن. انظر لوجهي يا فتى. إني مجرد رجل عادي ينتمي لعائلة عادية، مثلي مثل باقي الناس، ماذا سأفعل بمعطف فاخر كهذا. نظر أبي إلى المعطف، كان مصنوعاً من قماش فاخر، أما الخياطة فكانت عصرية ومميزة. يجب أن تعرفي يا ليبي أن ذلك حدث في عام 1948. حين كان الشيوعيون والوطنيون يتحاربون في كل أنحاء الصين. من كان ليحصل على معطف كهذا؟ ربما يكون ملك شخص مهم، ربما مسئولُ حكومي، أو رجل خطير من أولئك الذي يأخذون بإخافتهم للناس. لم يكن أبي غبياً ليصدق كلام الرجل. لقد عرف بأن الرجل سرق المعطف من شخص ما، وأن ذلك قد يكلفهما رأسيهما الآن لو قبض عليهما. لكن أبي أعجب بالمعطف وبرسم شبكة العنكبوت الحريري عليه، لم يرد تركه ليذهب. لقد لمس قماش العطف الجذاب وتسلل إلى نفسه شعور ما، شعور خطير، قاده لرغبة خطيرة، والرغبات الخطيرة تقود لأفكار أخطر.

صرخ أبي في الرجل المخمور: هذا المعطف مسروق، أعرف ذلك لأني أعرف صاحب المعطف، أخبرني بسرعة كيف سرقته، وإلا فإني سأستدعي رجال الشرطة. رمى الرجل المعطف من يده وركض هارباً. حين عاد أبي، أرى المعطف لأمي. أخبرتني أمي لاحقاً أنه ما إن ارتدى المعطف حتى أخذ يتخيل طاقة صاحب المعطف الأول وهي تتسرب إلى جسده. لقد عثر في أحد جيوب المعطف على نظارات ثخينة، ارتدى النظارات ورفع إحدى يديه متخيلاً أنه مئات الناس سينتبهونَ إليه بمجرد أن يرفع يده، ثم صفق بيديه متخيلاً أن الخدم سيهرعون لإحضار طعامه في الحال.

ربت على معدته كان الوجبة قد حضرت إليه بالفعل، كان خياله واسعاً. في تلك اللحظة لمس أبي شيئاً يابساً في بطن المعطف. اضطرت أمي لاستخدام مقصٍ لفك خياطة المعطف على طولها. لن تصدقي يا ليبي، ما عثرا عليه هناك، جعل رأسيهما تدوران مثلما تدور العاصفة، في بطانة المعطف، عثرا على حزمة من الأوراق. الأوراق الرسمية كانت معاملات هجرة إلى أمريكا! في الصفحة الأولى كان الاسم مكتوباً بوضوح: يي جن. وفي الإنجليزية أسفله: جاك يي.

تخيلي يا ليبي، في زمن الحرب الأهلية، أوراق كهذه تساوي ثروة، وتساوي حياة العديد من الرجال. عثر أبي أيضاً على أوراق أكاديمية مختومة وموقعة. وعلى شهادة تأمين صحي. وجواز سفر لطالب. كما عثر على رسالة تسجيل في جامعة لينكولن في سان فرانسيسكو ومصاريف سنة مدفوعة مقدماً. وجد في المغلف مئة دولار وتذكرة سفر باتجاه واحد على الخطوط الوطنية الأمريكية. حتى أن حزمة من أوراق الدراسة لاجتياز امتحان الهجرة كانت موجودة.

أتصدقين يا ليبي؟ كان ذلك عملاً قذراً بكل تأكيد، لأن النقود الصينية لم تكن تساوي شيئاً في تلك الأيام. لا بد أن ذلك الرجل: يي، اشترى تلك الأوراق بالكثير من الذهب وتقديم خدمات قذرة للآخرين. ربما أنه كان عميلاً حتى وأفشى أسرار الوطنيين. هل باع أسماء القادة في جيش التحرير ووشى بهم؟ ربما. لقد شعرت أمي بالخوف وطلبت من أبي أن يرمي المعطف في نهر لي. لكن أبي الذي اندلعت رغبة جنونية في عينيه مثل رغبة كلب يلهث. لم يقبل. قال: أستطيع تغيير قدري، لأصبح رجلاً غنياً. طلب أبي من أمي أن تأخذني وترحل إلى أختها في تشانجميان، قال لها أن تنتظر هناك. ووعد أنه بمجرد أن يصير في أمريكا، سوف يرسل في طلبها.

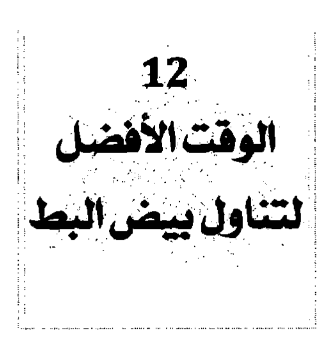
حدقت أمي في صورة الرجل الموجودة في جواز السفر، الرجل الذي سوف يصيره أبي قريباً. كان وجهه نحيلاً ومتجهماً. وبدا أنه يكبر أبي بعامين فقط. لم يكن وسيماً، ليس كأبي. أما شعره فقصير. ووجهه لئيم. يرتدي نظارته الثخينة تلك مغطياً عينيه الباردتين. قالت أمي: إنك تستطيع أن تعرف الرجل من عينيه، إن ذلك الرجل من النوع الذي يقول: ابتعد عن طريقي أيها الحشرة القذرة. في تلك الليلة، شاهدت أمي أبانا وهو يتحول إلى ذلك الرجل يي. ارتدى ملابسه، قص شعره. ثم ارتدى تلك النظارات، وقف وواجه أمي. حين تطلعت إلى عينيه، بدت عيناه باردتين، جعلتا أمي تشعر بأنه لم يعد يحمل أي مشاعر تجاهها. لأنه صار مثل ذلك الرجل يي. بدا أبي متعجرفاً ومعتداً بقوته. مستعجلاً للتخلص من ماضيه، وبدء حياة جديدة، بقدر جديد.

هكذا قام أبي بسرقة اسمه الذي تعرفينه. أما اسمه الحقيقي، فإني لم أتمكن من معرفته. كنت صغيرة جداً حينها. وكما تعلمين، أمي ماتت. أنت محظوظة لأنك لم تتعرضي لمأساة كهذه. في وقت لاحق، رفضت عمتي أن تخبرني باسم أبي الحقيقي، لأنه هجر أختها، كانت تلك طريقتها في الانتقام منه. حتى أمي لم تخبرني، ولا بعد موتها حتى. أتساءل عن اسمه الحقيقي. لعدة مرات حاولت استدعاء روحه من عالم ين لكن أناس ين الآخرين أخبروني أنه في مكان آخر، مكان ضبابي حيث يقبع الناس الذين يكذبون ويصدقون أن كذبهم هو الحقيقة. أليس هذا محزناً يا ليبي؟ لو أني أعرف اسمه الحقيقي، لاستدعيته، وأخبرته إياه. حينها يستطيع العودة إلى عالم ين. ليعتذر إلى أمي. ليخبرها أنه آسف جداً. ولتعيش روحه بسلام مع أسلافه الحقيقيين. لهذا السبب طلبت منك ألا تضيعي رحلة الصين يا ليبي. حين رأيت رسالة الدعوة في البارحة قلت لنفسي: أن ذلك قدرك الذي ينتظرك

ليحدث! ربما أن هنالك أناساً في تشانجميان ما زالوا يتذكرون اسمه.على الأقل عمتي تتذكره، وكذلك جدتي[1] التي اعتادت أن تقول: الرجل الذي أصبح يي. إنني متأكدة من ذلك. اسألي جدتي حين تذهبين إلى هناك. اسأليها عن اسم أبينا الحقيقي. آه يا ليبي، ما الذي أقوله الآن! أنت لن تعرفي كيف تسألينها حتى. إنها لا تتحدث لغة المندرين، ولم تذهب إلى مدرسة في حياتها لتتعلم لغة الناس، إنها عجوز طاعنة في السن تتحدث بلغة طاعنة في الزمن. تتحدث لغة تشانجميان القديمة، لا لغة الهاكا ولا المندرين. بل خليطاً منهما. فقط العجائز من القرية يتحدثون تلك اللغة، لا بد أن تكوني ذكية جداً لتعرفي كيف تطرحين أسئلة عن الماضي. وإلا فإن جدتي ستلاحقك كأنك بطة هاربة لتقطع عليك خطواتك. إني أعرف طبعها الحاد جيداً. لكن، لا تقلقي يا ليبي، لأني وعدت بأني سوف أذهب معك. إني لا أتخلى عن وعودي، سنذهب معاً، لنغير اسم أبي ونعرف اسمه الحقيقي. معاً نستطيع أن نعيده من ضياعه إلى عالم ين. وسيمون أيضاً! يجب أن يأتي معنا. بتلك الطريقة تستطيعين كتابة المقالة للمجلة. وتحصلي على بعض النقود. إننا نحتاجه كذلك، ليحمل حقائبنا! لأني سأحضر معي الكثير من الهدايا. لا أستطيع العودة للوطن بيدين فارغتين. تستطيع فيرجينيا الطبخ لأجل جورج، أطباقها ليست سيئة بكل حال. ثم أن جورج سيعتني بكلبنا. لا نحتاج أن ندفع لأحد. أجل. أظن وجودنا معاً نحن الثلاثة، أنت وسيمون وأنا، سيكون عملياً أكثر، وسيساعدك على تغيير اسمك. ما رأيك يا ليبي؟

---

(1) جدة كوان هي عمتها، تسمي عمتها الكبيرة بالجدة، ويسمونها أيضاً: الأم الكبيرة.



لا تستخدم كوان أفكارها مباشرة في النقاش. إنها تستخدم تركيبة من أسلوبها الصيني في التسلل إلى داخلك مثل ماء عذب، وأسلوباً أمريكياً في الإغراء وتبديل المواقف. قالت كوان:

- ليبي، في أي شهر سوف نذهب إلى الصين. ونرى قريتي؟

- قلت أني لن أذهب، ألا تتذكرين؟

- أجل، تذكرت. إذن في أي شهر تقترحين أن أذهب، ربما في سبتمبر، لكن سبتمبر حار. أما أكتوبر، فسيكون مليئاً بالسياح. أظن أن نوفمبر جيد، لأنه ليس حاراً جداً، ولا بارداً جداً.

- اذهبي متى شئت.

في اليوم التالي اتصلت كوان وقالت لي: إن جورج لا يمكنه الذهاب معي، لأنه لا يملك فترة عطلة كافية، هل تظنين أن فيرجينيا وأمي ستقبلان الذهاب معي؟

- قلت: بالتأكيد، لم لا.

بعد أسبوع. قالت كوان: ليبي، لقد اشتريت ثلاث تذاكر سفر بالفعل. فيرجينيا حصلت على عمل جديد للتو. أما أمنا، فقد عثرت على صديق جديد. لقد اعتذرتا عن الذهاب. حتى أن عميلة السفر اعتذرت وقالت أنها لا تملك التمويل الكافي. نظرت لي كوان نظرة مواربة وقالت: ماذا أفعل الآن؟

فكرت في أني لن أنجر للأسلوب الذي تحاول فيه كوان إقناعي بالذهاب.

قلت: سأحاول إيجاد شخص قد يريد الذهاب معك.

في ذلك المساء، اتصل سيمون بي. قال لي: لا أريد أن يكون انفصالنا سبباً في تفويتك رحلة الصين، خذي معك كاتباً آخر، ربما تشامسك أو كيلي، كلاهما بارعان في أدب الرحلات. سأتصل بهما لأجلك إن كنت ترغبين في الذهاب.

شعرت بالذهول، ظل سيمون يستحثني للذهاب مع كوان، قال أني سأستفيد منها ومن عودتها إلى موطنها كزاوية جيدة للقصة التي ستكتب. شعرت برأسي تدور وأنا أستمع لأسلوبه الذي تغير في الكلام وفي المعاني. قال سيمون: ربما نحظى بالفرصة لنصير صديقين. مثلما كنا حين التقينا للمرة الأولى.

طوال المحادثة، حاولت استعادة الأشياء التي جذبتنا إلى بعضنا كصديقين. وعن أفكارنا التي تلاقت بشكل فظيع وشغوف كلما تكلمنا أكثر في ذلك الحين. وبالكآبة التي شعرت بها حين خسرنا ما شاركناه معاً خلال كل تلك السنين: تلك الإثارة والدهشة في أن تكون في هذا العالم مع شخص ما ، في مكان ما، تكونان معاً في تلك اللحظة.

قلت بعد محادثة دامت لساعتين: سيمون، إنني أقدر هذا، سأفكر في أن نحاول أن نصير صديقين يوماً ما.

- قال سيمون: لم أتوقف عن كوني صديقك أبداً.

ما إن سمعت سيمون يقول هذا، حتى استسلمت أخيراً وقلت: ولم لا تذهب أنت إلى الصين أيضاً؟

* * *

في الطائرة. بدأت أفكر في مصائرنا. وذلك لأن كوان ما إن ختمت أوراقها في المطار حتى قالت: أنت وأنا وسيمون، هذا هو قدرنا، أن نجتمع في الأخير. أول ما خطر لي من القدر، هو قدر أميليا ايرهارت التي فقدت هي وطائرتها إلى الأبد. إن الجذر اللاتيني لكلمة قدر يعني الكارثة. ولن يساعدنا شيء لأن كوان اختارت أحد الخطوط الجوية الصينية الرخيصة، لتحصل على خصم. رغم أن الشركة عانت من ثلاث حوادث في الستة أشهر الأخيرة. رحلتان منها كانتا مثل رحلتنا، تذهب إلى غيلين. بعد أربع ساعات، توقفنا في هونغ كونغ.اتخذت ثقتي في شركة الطيران ضربة أخرى بسبب هبوطنا الصعب. رحب بنا طاقم المضيفين في المطار وهم يرتدون قلنسوات وثياباً قصيرة تشبه الرداء الإيرلندي الشعبي تماماً، كان نوعاً عجيباً من الموضة. جعلني ذلك أستفسر من إدارة الرحلة عن قدرتهم على التعامل مع حالات الاختطاف، أو تلف أي محرك في الطائرة، أو الهبوط الاضطراري. في النهاية، مثل سيمون وكوان، مشينا في الممر الضيق المؤدي إلى الطائرة. لم أرى سوانا نحن الثلاثة. تساءلت في نفسي: ألا يعني هذا شيئاً ما؟

مثل معظم الصينيين على متن الطائرة، كانت كوان تحمل عدة حقائب ممتلئة بالهدايا، ناهيك عن الحقيبة الكبيرة التي ذهبت بكل حال إلى مخزن الطائرة. أخذت أتخيل نشرات الأنباء في الغد وهي تتحدث عن انفجار وسقوط طائرة، بسبب تعطل نظام تبريد المحركات، وسيعثرون على أنابيب الطعام البلاستيكية وعلى بقايا نباتات الجنسنغ التي تناثرت من علبها. تماماً مثل ذلك الحادث المأساوي الذي حصل حين قتل الثري تويكسبيري الثالث في أثيرتون. لقد كان يجلس هو الآخر في الدرجة الأولى. بصحبة أربعمائة صيني كانوا عائدين ليرووا قصص نجاحهم إلى أجدادهم في الوطن.

حين رأيت مقاعدنا في جناح الطائرة، وجمت، كانت في الوسط، علقنا هناك بين أناس من كلا الجانبين. رأيت سيدة عجوزاً تجلس في آخر المقاعد وتحدق فينا بعبوس. عطست، وبعد ذلك، أخذت تصلي لإله ما حتى لا يشغل أحد المقاعد الثلاثة القريبة منها. ثم قالت بأنها مريضة وتحتاج للتمدد على تلك المقاعد. بعد قليل، أصبح عطسها أكثر عنفاً، لسوء حظها، ربما خرج إلهها إلى الغداء في الوقت الذي دعته فيه، لأننا جلسنا في تلك المقاعد.

حين وصلت المشروبات أخيراً. طلبت مزيج الجن والتونيك، لكن مضيفة الطيران لم تفهم ما قلت. قلت: مع قطعة ليمون من فضلك.

نادت المضيفة مسئولها الذي هز كتفيه باستهجان وحيرة. حاولت أن أطلب المشروب بالصينية. لكنهما ضحكا مني كأنني قلت مزحة ما.

أردت أن أصرخ فيهما، بالتأكيد يملكون المشروب ضمن قائمتهم السخيفة. لم أتعلم معنى كلمة مشروب بالصينية. ولم تكن كوان لتدعمني، حتى إنها بدت مسرورة بما حصل لي مع طاقم الطائرة من تشويش. في

النهاية طلبت مشروباً غازياً. بعد لحظة، جلس سيمون بجانبي وأخذ يلعب إحدى ألعاب محاكاة الطيران على حاسوبه المتنقل، وكان يهمهم ويتمتم كلما سقطت طائرته وتفجرت. في النهاية قال لي: الكابتن سيمون بيشوب يقول أن المشروبات كلها على حساب الكابتن. خلال الرحلة، بدت كوان ثملة من الفرح، ظلت طوال الوقت تربت على ذراعي وتبتسم ابتسامة عريضة. لأول مرة منذ ثلاثين عاماً ستزور كوان الأراضي الصينية،وستذهب لقريتها تشانجميان، القرية التي عاشت فيها حتى بلغت الثامنة عشرة من العمر. سوف ترى عمتها، المرأة التي تدعوها بجدتها أيضاً. كانت واحداً من أسباب مجيئها. والتي كانت تشدها دوماً من خديها، حتى تركت عليهما ندوباً حمراء صغيرة للأبد. سوف تلتقي أيضاً برفاق مدرستها القدامى، أو من نجا منهمبعد الثورة الثقافية في الصين، والتي بدأت قبل أن تغادر كوان. تطلعت كوان لإبهار أصدقائها بلغتها الإنجليزية، وبرخصة قيادتها، وصور قطتها وهي تتمدد على الأريكة الفاخرة التي اشترتها كوان بنصف السعر كما قالت. بنصف السعر فقط يا ليبي، لمجرد ثقب صغير في الأريكة، لا يمكن لأحد أن يلاحظه حتى.

تحدثت كوان عن أنها سوف تزور قبر أمها، لتتأكد من أنه مقصور ونظيف. ثم قالت أنها ستأخذني إلى الوادي الصغير الذي خبأت فيه ذات مرة صندوقها المليء بكنوز كوان في طفولتها. ولأني أختها الحبيبة، قررت كوان أن تريني مخبأ طفولتها كذلك. كان ذلك كهفاً صغيراً تحيطه الحجارة المصقولة، ويحوي مصطبة سحرية. لقد أعطتني تلك الرحلة عديداً من الأشياء التي قمت بها للمرة الأولى. كانت أول مرة أذهب فيها إلى الصين، وأول مرة سوف أقضي فيها أسبوعين كاملين مع كوان منذ كنت طفلة. ثم إنها المرة الأولى التي أسافر فيها بصحبة سيمون وينام كل منا في غرفة

مستقلة. ها أنا محصورة الآن بين كوان وسيمون، ولا أعرف كيف وافقت على المجيء. لأخوض هذا التعذيب الجسدي بالسفر بين المطارات لأكثر من أربع وعشرين ساعة مع أكثر شخصين سببا لي الخراب العاطفي وكانا مصدراً لحزني ومخاوفي. وفي النهاية، ها أنا أذهب معهما للتسرية عن قلبي! كنت واقعية بذهابي لأجل كتابة القصة والمقال للمجلة، ولأعرف اسم والدي الحقيقي. أما الذي جعلني أذهب فعلاً، هو خوفي من أن أندم فيما بعد. وأن أنظر للوراء وأقول: يا إلهي، ما الذي فعلته!؟ ربما أن كوان كانت محقة، القدر هو الذي جعلني أذهب، لأن القدر غير منطقي ولا يمكن مناقشته، كيف يمكن لنا أن نناقش هزة أرضية، أو عاصفة، أو حادثاً إرهابياً. القدر كان الاسم الآخر لكوان.

مضت الآن عشر ساعات في طريقنا إلى الصين. كان جسدي مرهقاً بفعل الرحلة، تغير التوقيت علي. كان سيمون غافياً، كوان كانت مستيقظة، أما أنا، فلم يغمض لي جفن.

تثاءبت كوان، وبدا أنها غير مرتاحة على مخدتها. قالت : ليبي: بماذا تفكرين؟

- بالعمل، لا شيء آخر.

قبل الرحلة، كنت قد حددت مسار الرحلة وجدول المهام. أخذت المصاعب التي قد تواجهنا ضمن الاحتمالات، حددت خارطة للطريق. ذيلت ضمن المهام زيارات للمحال الصغيرة ومراكز التسوق، إضافة للمطاعم والأفران، لأخذ عينات منها وللتعرف على أنواع الطعام لأجل المقالة. ذيلت أيضا ملاحظات لزيارة حدائق زراعة الخضار والفواكه. وزيارة محال البهارات الصينية. أمضيت عدة ليالٍ وأنا أحسب في تكاليف الرحلة

والمساعدة التي يمكن أن نحصل عليها. شكلت الرحلة إلى تشانجميان مشكلة كذلك، إذ إنها تحتاج إلى أربع ساعات للوصول إليها انطلاقاً من غيلين حسبما قالت كوان. لم يستطع مسئول الرحلة إيجاد تشانجميان على الخارطة أصلاً. وتركنا لنحجز غرفتين في غيلين، مقابل ستين دولاراً في الليلة. كان يمكن أن نقيم في أماكن أرخص وأقرب. لكن ذلك لن يكون ممكناً قبل أن نصل إلى هناك ونبحث عن تلك الأماكن بنفسنا.

قالت كوان: ليبي، في تشانجميان، ربما، لن يكون هنالك شيء فخم.

قالت كوان أن الأطباق هناك بسيطة، تشبه تماماً تلك التي تعدها كوان. كما إنها ليست مرتفعة الثمن مثل الأطباق التي تقدمها المطاعم. طمأنت كوان أنني لا أهتم بالتقاط صور لأطباق فاخرة فقط. قلت: بكل حال، لا أتوقع الشامبانيا والكافيار هناك.

سألت ليبي: كافيار، ما هو هذا؟

- بيض سمك.

بدت كوان مندهشة،: بيض سلطعون، الكافيار أيضاً بيض، بيض روبيان. كلها لها بيض، لكنني أعرف بيض البط. المخزن لألف عام. ليس ألف عام بالضبط. ربما لعامين أو ثلاث على الأكثر. لكنني أستطيع العثور على بيض بط مخزن لأكثر من هذه المدة. لقد خبأته في مكان ما، سأعطيك إياه.

بدا ذلك لطيفاً لأجل المقال. قلت: حقاً، هل خبأتها منذ طفولتك؟

- أجل، منذ كنت في العشرين من العمر

- منذ العشرين! لكنك كنت في أمريكا في تلك السن.

ضحكت كوان بخبث. ثم مالت عن مقعدها وقالت: ليست سن العشرين التي بلغتها في هذه الحياة، بل في حياة أخرى. بيض البط، جيد جداً. لم تحبه الآنسة بانر كثيراً. لكن حين حلت المجاعة، اضطررنا لأكل أي شيء، الجراد، صراصير الليل، وحتى الفئران. حينئذٍ، فضلت الآنسة بانر نكهة بيض البط المعتقة لألف عام، على أي شيء آخر... حين كنا في تشانجميان. سأريك يا أين أخفينا ذلك البيض. بدت كوان سعيدة جداً وهي تسرح في خيالاتها. ولأول مرة، أشعر أن هذا لا يزعجني. بدا البحث عن بيض البط الذي أخفته كوان في الصين منذ زمن آخر فكرة ساحرة، لعله يظهر حقاً. نظرت إلى ساعتي. لم تتبقى سوى اثنتي عشرة ساعة حتى نصل إلى غيلين.

كانت كوان تهمهم بالصينية: أمي، يادين، يا دين...

لا يمكن أن أقول أن كوان كانت معنا الآن. كانت قد أسلمت مخيلتها إلى ماضيها الذي عاشته في الصين.

* * *

بيض البط. لقد أحببته كثيراً إلى درجة أنه جعل مني سارقة. كنت أسرقه كل يوم قبل الإفطار. كل يوم عدا يوم الأحد. لم أكن سارقة فظيعة مثل الجنرال كاب، كنت آخذ كفايتي فقط، كمية لا يمكن لأحد أن يفتقدها، ربما بيضة أو اثنتين. لم يكن المبشرون يحبون بيض البط أصلاً، كانوا يفضلون عليه بيض الدجاج. لم يعرفوا كم هو غالٍ وثمين. كان شيئاً فاخراً، خاصة لو اشتريته بثمن مرتفع من جينتيان. لو أنهم عرفوا ذلك، لكانوا سيأكلونه طوال الوقت. وسيكون ذلك مؤسفاً بالنسبة لي. لتصنع

بيضة عمرها ألف عام يجب عليك أن تبدأ بالبيض الطازج. عدا ذلك فيجب أن.. لا يجب شيء، لأنني كنت أحصل دوماً على بيضٍ طازج. كنت أضع البيض الطازج في جرة مليئة بالحامض والملح. كنت أوفر بعض الحامض من غسيل الملابس، أما الملح، فكان شيئاً آخر، لم يكن رخيصاً مثل هذه الأيام. لكن الأجانب، كانوا يملكون الكثير منه لحسن الحظ. كانوا يحبون المذاق المالح للطعام، كل شيء يريدونه مالحاً، كأنه مغسول بماء البحر. حين كانوا يجلسون لتناول الطعام، يستمرون في القول:مرر لي الملح رجاء. أحب الأشياء المالحة، لكن ليس كل شيء. كانوا يستمرون بتمرير الملح طوال وقت الطعام.

كنت أسرق الملح من الطباخة التي تعد الطعام. اسمها إيرمي. كانت الأخت الثانية في ترتيب أخواتها الكثيرات. كانت تنتمي لعائلة كلها من البنات. وهبها أهلها للمبشرين لأنهم لم يتمكنوا من جمع ثمن المهر لتزويجها. أنا وإيرمي كنا نقوم بعمل سري بيننا. كنت أعطيها بيضة مقابل الملح. كان هذا في الأسبوع الأول. في الأسبوع التالي طلبت بيضتين مقابل نفس الكمية من الملح، كانت تعرف كيف تعقد الصفقات لصالحها.

في إحدى المرات، شاهدني طبيب البعثة، السيد ليتل، شاهدني وأنا آخذ الملح من إيرمي. وحين عدت ومشيت في الممر، رأيته، وقف وأشار إلى قبضة الملح التي كانت في يدي. فكرت بسرعة وأجبت: هذا الملح من أجل تنظيف البقع. لم أكن اكذب. كنت أحتاج الملح لتنظيف قشر البيض. وجم الطبيب ليتل. ولم يفهم ما قلته بالصينية. لم أعرف ما أفعل. قمت برمي قبضة الملح الثمينة كلها في دلو الماء البارد. ثم بدأت بتحريكه وقلت: هل ترى؟ ثم قمت بحمل قطعة من ثياب الآنسة ماوس الداخلية. وضعت القطعة المبللة بدم الدورة الشهرية في الماء. وأخذت أفركها. فوجئ الطبيب

ليتل. شعر بالحرج. احمر وجهه أكثر من تلك البقع. وانصرف على عجل. أما أنا، ففوجئت بأن ما قلته كان حقيقياً. لقد محا الملح بقع الدم تماماً. يا لها من معجزة من المسيح! من الآن فصاعداً، سيساعدني هذا الملح كثيراً أثناء الغسيل. سأحتاج قبضتين من الملح، واحدة للبقع، وأخرى للبيض.

كنت أضع الحامض مع البيض والملح في جرار فخارية صغيرة. كنت أشتريها من بائع متجول يربض في الزقاق القريب من بيت الإرسالية. كان البائع بأذن واحدة، وكان اسمه زينج. كنت أضع بيضة في كل جرة. لكن الجرار كانت تسرب الزيت دوماً، لأن ذلك البائع كان يتعمد أن يبيعني الجرار المشروخة حتى أعود إليه. لقد ظننت الرجل أخرقاً، أو شغوفاً ببيض البط. لكنني عرفت فيما بعد أنه فكر في أذنه الواحدة، وعيني الواحدة. ورآها مقارنة عادلة تسمح له بالزواج مني، لم يقل أنه يريد الزواج، لكن ذلك كان واضحاً من خلال الكلمات التي كان يقولها لي. في المرة الأخيرة، أعطاني جرة ممتازة تماماً. وحين أشرت إليه ليجربها، حمل حجراً وضرب به الجرة التي كانت سليمة تماماً. بكل حال، هكذا كنت أحصل على الجرار، وعلى بعض المغازلة.

بعد عدة أسابيع، يجعل الملح والحامض البيض يتخلل، ليميل لونه إلى الأخضر. فيما يصير صفار البيض أسود اللون. أعرف هذا لأني كنت أتناول واحدة من البيضات لأتأكد من أنه نضج وصار جاهزاً لدفنه في التراب. لم أكن أحتاج لسرقة التراب بالطبع. فهو يغطي حديقة البيت، أما الأحجار التي كنت أحيط حفرة البيض فيها، فكانت تسقط أصلا من الجدار المتصدع.بعد أن أغطي البيض بالطين الذي يكون رطباً، كنت ألف البيض بالورق الذي كنت أنتزعه من نشرة الإرسالية تلك (الأخبار الجيدة). كنت أترك البيض يتعرض للحرارة في الفرن الشمسي الذي

أصنعه من الحجارة. كنت أغطي شروخ البيض بمادة دبقة آخذها من نبتة صمغية. وأترك شروخاً حتى تستطيع أشعة الشمس التسلل إلى قلب البيض، أما الديدان، فلن تقترب منها أبداً. لأنها ستعلق. بعد أن يتصلب الطين على البيض، أضعه في الجرار من جديد. ثم أدفنها في الزاوية الشمالية من حديقة البيت. هكذا، وقبل انتهاء حياتي هذه، يصير عندي عشرة صفوف من الجرار المدفونة، التي ستدوم طويلاً في مكانها ذاك. إني متأكدة أننا لن نأكلها جميعها. لقد وفرت منها الكثير.

بيض البط مهم، لأن البيضة قد تتحول إلى بطة، كانت البطة تطعم عشرين شخصاً في جبل الشوك. كان نادراً أن نتناول البط، كلما أكلت بيضة، كنت أتخيل عشرين شخصاً جائعاً في جبل الشوك. كيف يمكن أن أشعر بالشبع إذن؟ لذا، أتناول بيضة وأوفر الباقي. كنت مقتصدة لا طماعة. كذلك كنت أعطي بيضة لإيرمي، وأخرى إلى لولو بالطبع. كان لولو يأخذ البيض مني ويوفره هو الآخر. يخبأه أسفل فراشه قرب بوابة البيت ويقول أنه بذلك يستطيع أن يحلم بالوقت المناسب لتذوق طعمها اللذيذ. كنت أحلم مثله. لكننا لم نعرف أبداً أن ذلك الوقت المناسب، سوف يكون الوقت الأسوأ.

في أيام الأحد. كان المبشرون يتناولون إفطاراً كبيراً كمؤونة تعينهم على أداء الصلوات. يأكلون بيض الدجاج وكميات كبيرة من لحم الخنزير المملح إضافة إلى البطيخ والماء البارد. يتناولون الوجبات الساخنة والباردة معاً. وهذا يسبب الضرر. أتحدث عن ذلك الصباح الذي تناول فيه الجنرال كاب الكثير من الطعام ثم وقف فجأة ونظرة بشعة في وجهه ليعلن لنا أنه لن يحضر الصلوات في هذا اليوم لأنه يعاني من حموضة في معدته. هذا ما ترجمه لنا يبان. وهكذا ذهبنا لملاقاة المسيح في ذلك الصباح وتلاوة

الصلوات، لاحظت وأنا أجلس على مصطبتي كيف كانت الآنسة بانر تستمر بهزِ قدمها، بدت متلهفة وفرحة. ما إن انتهت الصلاة، حتى حملت الآنسة بانر صندوقها الموسيقي وهرعت إلى غرفتها. خلال وجبة العصر، التي تتشكل من بقايا طعام الصباح. لم يحضر الجنرال كاب إلى غرفة الطعام، لم تحضر الآنسة بانر كذلك. نظر المبشرون إلى مقعديهما الفارغين ولم يعلقوا بشيء. بعد تناول الطعام، ذهب الجميع إلى غرفهم لأخذ قيلولة العصر. تمددت على حصيرتي وتناهى إلى سمعي تلك الأغنية التي تخرج من صندوق موسيقى الآنسة بانر. صرت أكره تلك الأغنية كثيراً. سمعت باب الآنسة بانر وهو يفتح ويغلق. وضعت يدي على أذني، لكن عقلي ظل يتخيل الآنسة بانر وهي تلمس معدة الجنرال كاب المصابة بالحموضة. في النهاية. توقفت الأغنية. استفقت بعد زمن على صوت الحوذي وهو يصيح في الممر: العربة، أين الثور؟ أين البغل؟ لقد اختفوا. خرجنا جميعاً من غرفنا. ركضت إيرمي من المطبخ لتبلغنا عن فقدان فخذ من لحم الخنزير وكيس أرز كبير. شعر المبشرون بالتشويش. كانوا يصرخون منادين الآنسة بانر لتأتي وتترجم لهم ما كنا نقوله بالصينية. لكن بابها ظل مغلقاً. أخذ يبان يترجم لهم ما قاله الحوذي وما قالته الطباخة. هرع المبشرون إلى غرفهم مسرعين. خرجت الآنسة ماوس بعد قليل وهي تضرب على وجهها بعد أن اكتشفت فقدانها للصندوق الذي كانت تحتفظ فيه بشعر حبيبها الميت. لم يستطع الطبيب ليتل العثور على حقيبته كذلك. أما الراهب باستور والسيدة آمين، فقد فقدت هي مشطها الفضي فيما فقد هو صليبه الذهبي الصغير. اكتشفا أيضاً سرقة كل نقود الإرسالية التي كانت تكفي لستة أشهر قادمة. من سيفعل شيئاً كهذا؟وقف الأجانب متجمدين مثل التماثيل من الصدمة، لم يتفوهوا بكلمة. ربما كانوا يتساءلون لماذا فعل الله بهم هذا في اليوم الذي يصلون فيه

إليه. مر بعض الوقت ولولو يدق باب غرفة الجنرال كاب بعنف. وحين اقتحم الباب في آخر الأمر. لم يعثر له على أثر. هذا ما حدث أيضاً مع الآنسة بانر التي اختفت هي الأخرى. بدأ الجميع يتكلمون دفعة واحدة، أعتقد أن المبشرين يحاولون الاتفاق على ما يمكنهم فعله. لكن كيف سيبحثون عن هذين اللصين. لقد فقدوا البغل والثور والعربة. ثم أين سيبحثون؟ إلى أين توجه الجنرال كاب والآنسة بانر. جنوباً لآمان؟ أو شرقاً على ضفة النهر باتجاه المعسكر، ربما توجها لمقاطعة جويزهو؟ أين سيذهب الناس المتمردون عادة؟ إن أقرب مخفر للتبليغ عن جرائم كبرى كهذه يقبع في جينتيان التي تبعد عن تشانجميان مسيرة ساعات عديدة. هل سيقولون لمدير المخفر أنهم سرقوا من قبل أبناء جنسهم نفسهم؟ كان مدير المخفر سينقلب عن كرسيه من الضحك!

في تلك الأمسية. جلست أتفرج على الخفافيش وهي تطارد الجنادب. كانت ساحة البيت خالية. حاولت أن أخرج الآنسة بانر من تفكيري. قلت لنفسي: نونومو، لماذا تضيعين أفكارك عليها. إنها المرأة التي فضلت الجنرال الخائن على صديقة مخلصة. تذكري يا نونومو ومنذ الآن، أنه لا يمكن الثقة في الأجانب أبداً. في وقت لاحق، تمددت في غرفتي. حاولت ألا أسمح للآنسة بانر أن تأتي في تفكيري، ولا أن تحظى بغضبي ولا حزني. تسرب شيء ما بكل حال. وشعرت لاحقاً بألم في معدتي ونار تلتهم صدري. أما حلقي فكان جافاً.

في الصباح التالي، وكان اليوم الأول من الأسبوع. وهو موعد غسيل الملابس، فيما كان المبشرون يجتمعون مع بعضهم في الكنيسة. بدأت أدخل الغرف وأجمع الملابس القذرة. أهملت غرفة الآنسة بانر في البداية، لكنني ما إن تجاوزتها حتى عدت إليها من جديد، فتحت الباب. ويا

للدهشة، كان صندوق الموسيقى في مكانه. لعلها ظنته ثقيلاً لتحمله معها، تلك المهملة. رأيت ملابسها القذرة مازالت في دلو الغسيل. في خزانتها المفتوحة، كان رداء يوم الأحد والحذاء الخاص بها قد اختفيا. اختفت قفازاتها كذلك، وقبعتها الأفضل بين قبعاتها و سلسلة العنق البرتقالية التي كانت تحمل حلية لامرأة معقوفة الجسد. أما جواربها التي كان أحد زوجيها مثقوباً، فقد تركتها في مكانها.

خطرت لي فكرة سيئة، لكنني طبقتها بشكل جيد حين لففت صندوق الموسيقى بالرداء القذر وألقيته في سلة الغسيل. خرجت للمر، واجتزت المطبخ. خرجت من البيت وعبرت من خلال الجدار الشمالي، حفرت قرب جرار البيض الذي كنت أخفيه. في الحفرة الجديدة، دفنت صندوق الموسيقى، ودفنت معه كل ذكرياتي عن الآنسةْ بانر. أخذت أنظف المكان حول قبر الموسيقى ذاك. حتى تناهى إلى مسامعي صوت خفيض ينادي: وارين، وارين. اندفعت تجاه الصوت، دست الحشائش الجافة في طريقي. كنت متأكدة أنه صوت الآنسة بانر. تجاوزت الشجيرات الصغيرة. كان ذلك شبح الآنسة بانر. عرفته من شعرها. أو ظننت ذلك. كان شعرها مهملاً على الدوام، ينساب إلى وسطها. خفت بشدة وسقطت بين الشجيرات. سمعت صوت الضجة وأخذت تردد: وارين، وارين. شعرت بها تركض في ممرات الحديقة بجنون. صرت أركض هاربة بسرعة. لكنني فجأة، رأيت حذائها الذي كانت ترتديه أيام الأحد، أمامي. نظرت جيداً، انتبهت أن ذلك، لم يكن شبحاً أبداً. لأنها كانت تقف أمامي ولسعات البعوض واضحة على وجهها، وعلى عنقها ويديها. ربما أن هنالك بعوضاً يلسع الأشباح كذلك، لا أظن، لكن ربما. بكل حال كانت تحمل حقيبة جلدية كبيرة، كأنها في طريقها إلى الهروب. قالت بصوت متوسل: الجنرال، الجنرال كاب، هل عاد لأجلي؟

هكذا إذن!؟ عرفت أخيراً ما حصل. لقد كانت مختبئة بين شجيرات الحديقة طوال يوم كامل. كانت تترقب كل صوت مهما كان خافتاً. هززت رأسي شاعرة بالسعادة والحزن لها في آن. رأيت النظرة الشاحبة في وجهها. انهارت على الأرض وبدأت تضحك وتبكي. حدقت في لسعات البعوض على عنقها ووجهها. كانت أمضت كل الليل تتعرض للسعات وهي تنتظر. شعرت بالأسف. لكنني كنت غاضبة منها.

سألتها: أخبريني، إلى أين كنت ذاهبة؟

قالت الآنسة بانر: ادعى أننا سنذهب إلى المعسكر، لكنه ربما كذب بشأن ذلك أيضاً.

بدا صوتها فارغاً، مثل جرس تقرعه مطولاً دون أن يصدر أي صوت. سألت: هل تعلمين أنه سرق الطعام والنقود وأشياء ثمينة؟

أومأت برأسها أنها تعرف.

سألت من جديد: وبرغم أنك تعرفين، هل كنت ستذهبين معه بكل حال؟

أخذت تبكي وتصرخ بكلمات إنجليزية لم أفهم معناها. بدا أنها تلوم نفسها بشدة. أو ربما تتأسف لأنها لم تذهب مع ذلك الجنرال المرعب.

سألتني: آنسة نونومو، ماذا أفعل الآن؟

- لم تحترمي رأيي فيما سبق، لماذا تسألينني الآن؟

- سيعتقد الآخرون أنني فاشلة.

- أضفت: ولصة أيضاً.

صمتت بانر لمدة. ثم قالت: ربما يجب أن أشنق نفسي يا آنسة نونومو. ما رأيك؟ قالت ذلك وأخذت تضحك بجنون. ثم حملت بيدها حجرا كبيراً ووضعته في يدي.

آنسة نونومو، أرجوك ساعديني واسحقي رأسي بهذا الحجر. هيا. سيكون هذا عزاءي على فعلتي الشنعاء. أخبري المبشرين أن كاب المجرم هو من قتلني. أخذت تتدحرج في القذارة. وتبكي، اقتليني، أرجوك اقتليني. أتمنى الموت بأي طريقة.

قلت: هل تريدينني أن أصير مجرمة يا آنسة بانر؟

أجابت: لو كنت صديقة مخلصة حقاً كما كنت تقولين، اقتليني.

صديقة مخلصة! شعرت بالكلمة كصفعة على وجهي. قلت لنفسي: الآن تطلب أن أكون صديقة مخلصة!؟ آنسة نونومو، اقتليني! أظنها تريد أن أواسيها، لا أن أقتلها. أرادت أن أخبرها أن المبشرين لن يغضبوا منها، وأنهم سيتفهمون أنها خدعت من قبل رجل سيء.

حاولت أن أختار كلماتي بعناية: قلت: آنسة بانر، لا تكوني حمقاء أكثر من هذا. أنت لا تريدينني أن أحطم رأسك، أنت تتظاهرين بهذا فقط.

- أجل، أريدك أن تقتليني، أريد أن أموت. قالت ذلك ثم ضربت قبضتها في الأرض.

ربما كان يجب أن أحاول تنحيتها عن هذه الفكرة لمرة أو اثنتين بعد. وأناقشها حتى توافقني. ربما بمزيد من الرفض. قلت: سوف يكرهك الجميع، وربما يطردونك، هذه هي الحقيقة. وحينها، لا أعرف أين ستذهبين.

حدقت بي وقالت: يطردونني! وشعرت أن الفكرة قد سيطرت عليها أخيراً.

- دعيني أفكر للحظة، ثم قلت بصوت حازم: لقد قررت أن أكون صديقتك المخلصة. بدت عيناها كبقعتين سوداوين يسبح فيهما الارتباك.

- تعالي يا آنسة بانر، قفي وضعي ظهرك على هذه الشجرة. هيا.

ظلت جامدة في مكانها إلى أن قمت بجرها من يدها: تعالي، إني أحاول مساعدتك. أسندتها إلى الشجرة، ثم وضعت حاشية ثوبها في فمي،قبضته بأسناني وشددته. مزقت ثوبها.

صرخت بي: ماذا تفعلين؟

- ما يتوجب علي فعله. ربما ستموتين في كل حال. مزقت ثوبها إلى ثلاث قطع، ثم ربطت يديها النحيلتين بواحدة من المزق. بدت مرتبكة جداً الآن وصارت تقول: آنسة نونومو، دعيني أشرح فقط. حاولت أن تتكلم، لكنني في تلك اللحظة ربطت فمها بقطعة أخرى من القماش. قلت: والآن، حتى لو حاولت الصراخ، فإن أحداً لن يسمعك. أخذت تهمهم بينما قمت بتغطية عينيها. قلت لها: الآن لن تري شيئاً من الأشياء المرعبة التي سوف أفعلها بك. بدأت تضرب بقدميها محاولة الخلاص. لكنني حذرتها: إن قاومت يا آنسة بانر، قد أخطأ حينها، وأسحق عينك أو أنفك. وسأضطر حينها لتكرار الأمر!

حاولت الصراخ بصوتها المكتوم. هزت رأسها وظهرها بكل ما تستطيع.

- هل أنت جاهزة يا آنسة بانر؟ ظلت تقاوم مصدرة تلك الأصوات، ظلت تهز رأسها، حتى أن الشجرة اهتزت، وبدأت الأوراق تتساقط كأنه

فصل الخريف. الوداع. قلتها، ولمست رأسها بقبضتي. وأظنني بمجرد أن فعلت ذلك. أغمي عليها.

ما فعلته كان لئيماً، لكنه لم يكن مرعباً. قمت بكذبة لطيفة. هرعت إلى الشجيرات، انتزعت شوكة من هناك وجرحت فيها إصبعي. ثم لوثت حاجبها وأنفها بالدم. هرعت بعدها إلى المبشرين. الذين استسلموا للكذبة سريعاً وأخذوا يطرون على الآنسة بانر: يا للمسكينة، لقد حاولت منع الجنرال كاب من سرقة البغل. يا لشجاعتها. لقد تعرضت للضرب ثم تركت لتموت. اعتذر الطبيب ليتل لأنه لا يملك أي دواء ليعالج فيه جروح وجهها. قالت الآنسة ماوس أنه من المحزن أن الآنسة بانر فقدت صندوق موسيقاها. قامت السيدة آمين بتحضير حساء المرضى لها.

بعد أن بقيت معها لوحدنا في غرفتها. قالت الآنسة بانر: شكراً لك يا نونومو. إني لا أستحقك كصديقتي المخلصة. ما زلت أتذكر كلماتها تلك، لأني كنت فخورة بنفسي. قالت: من الآن فصاعداً، سوف أؤمن بك. في تلك اللحظة، دخل يبان إلى الغرفة دون أن يقرع الباب. رمى حقيبة جلدية على الأرض. صدمت الآنسة بانر. كانت تلك حقيبة ملابسها التي أعدتها للهروب. والآن، هاهو سرها قد انكشف. لقد ذهب كل لؤمي ولطفي بلا فائدة. قال يبان: لقد عثرت على هذه الحقيبة في الحديقة. إنني متأكد أنها تعود إليك. إنها تحوي قبعتك. وبعض القفازات. سلسلة عنق كذلك. وصبغة نسائية. حدق يبان والآنسة بانر في بعضهما لمدة طويلة. قال يبان في النهاية: إنه من حسن حظك، أن الجنرال نسي أن يأخذ هذه الحقيبة معه! هكذا. فهمت الآنسة بانر أن يبان يريد أن يحافظ أيضاً على سرها البائس.

قضيت ذلك الأسبوع وأنا أعمل، وخلال ذلك، كنت أفكر، لماذا أنقذ يبان الآنسة بانر من الخزي؟ لم تكن صديقته أبداً. ليس مثلي. تذكرت

حين أنقذت الآنسة بانر يوم سقطت في النهر. عندما تنقذ حياة إنسان ما، فإنه يصير جزءاً منك. لكن لماذا يبان؟ تذكرت في النهاية أنني ويبان وحيدان، ربما يتوق هو الآخر إلى أحد ينتمي إليه. فيما بعد، صار يبان والآنسة بانر يمضيان وقتاً طويلاً معاً، يتحدثان معاً بالإنجليزية. حين سألت الآنسة بانر عما يتكلمان فيه. قالت: لا شيء مهم. نتحدث عن حياتنا هنا وحياتنا في أمريكا فقط. وكيف اختلفت. نتحدث عن الأشياء السيئة والأشياء الحسنة بين هنا وهناك. شعرت بالغيرة، لأنني لم أتحدث مع الآنسة بانر مطلقاً عن تلك الأشياء الغير مهمة.

سألت الآنسة بانر: ما هي الأشياء الجيدة؟

وجمت وهي تفكر. أظنها كانت تبحث في عقلها عن الأشياء التي أحبتها في الصين.

قالت الآنسة بانر: أولاً، الصينيون أكثر تهذيباً. فكرت قليلاً ثم أضافت: ثم إنهم أقل طمعاً.

انتظرتها لتكمل، توقعت أن تقول أن الصين أجمل كذلك. ربما نكون قد اتفقنا هكذا على الأشياء الأفضل. الناس هنا أكثر لطفاً بالفعل. سألت الآنسة بانر: هل من شيء أفضل في أمريكا؟

فكرت ثم قالت: نعم، راحة، ونظافة أكثر. كل شيء نظيف، المدارس والشوارع، الأزقة، البيوت والأسرة. الحلويات. كذلك الأعياد والاحتفالات، أجمل. الاستعراضات العسكرية والرحلات الصيفية حيث يمكنك الجلوس على العشب والتقاط زهرة لتضعيها على قبعتك. قراءة الكتب، الذهاب في جولة على القارب. كتابة الرسائل للأصدقاء... ظلت تتحدث حتى شعرت بنفسي صغيرة وقذرة. غبية وفقيرة. لم يعجبني وضعي هذا.

لأول مرة أشعر أنني غير معجبة بحالي. شعرت بالحسد من الأشياء التي ذكرتها عن أمريكا. بالطبع يمكن لها أن تخبر يبان عن كل رغباتها وأشياءها المفضلة في وطنها، فهو ينتمي إلى هناك أيضاً. بينما أنا لا.

سألتها: آنسة بانر: هل تشعرين بشيء تجاه يبان؟

- نعم، ربما أملك شعوراً تجاهه، لكن كصديق فقط. ولا أظنه صديقاً أفضل منك. لا، إنني لا أشعر تجاهه مثلما تشعر امرأة تجاه رجل! في النهاية، هو صيني. ليس صينياً تماماً. بل نصف صيني. ما أريد قوله...، حسناً في بلدنا أمريكا. ليس مسموحاً لامرأة أن تخوض علاقة رومانسية مع رجل كهذا.

ابتسمت مرتاحة، حين سمعت ما قالته الآنسة بانر.

ثم، ودونما سبب. بدأت الآنسة بانر تنتقد يبان. أخذت تقول: إنه جدي بشكل فظيع. لا يملك حس الفكاهة. ومتشائم بخصوص المستقبل. لأن الصين كلها تعاني من المشاكل، وقريباً، لن تسلم تشانجميان. حتى حين حاولت تشجيعه بشأن المستقبل، ومزحت معه. لم يتبسم حتى. ظلت الآنسة بانر تنتقده طوال فترة المساء. ظلت تعدد أخطاءه الصغيرة، والأساليب التي فكرت فيها لتجعله يفكر في أخطاءه تلك. لقد شكت منه كثيراً، مما جعلني أتأكد أنها أعجبت به أكثر مما صرحت، ليس مجرد صديق فقط.

في الأسبوع التالي، رأيت الآنسة بانر تجلس بصحبة يبان في الساحة، رأيت كيف كان يضحك بفرح بعد أن علمته الآنسة بانر كيف يضحك. ورأيت كيف يلاطفها كأنها حبيبته. لقد عرفت بأن شيئاً ما ينمو في قلب الآنسة بانر. لكنني أحتاج لأن أسألها الكثير من الأسئلة حتى أعرف ما هو هذا الشيء.

سأخبرك بشيء يا ليبي، الذي كان بين الآنسة بانر وبيان. كان حباً عظيماً، وشامخاً. مثل السماء. لقد أخبرتني بهذا في الأخير. لقد عاشت أنواعاً مختلفة من الحب، لكن لم يكن أيٌ منها كهذا. فمع أمها وأخوتها. كان حباً حزيناً. تركها محطمة ومندهشة، تتساءل عن ما تلقته من هذا الحب، وما لم تتلقاه. وأحبت أباها. الذي تركها واختفى. وهي لا تعرف إن كان يحبها. قالت الآنسة بانر: لم أشعر بمثل هذا الحب مع أحبائي السابقين كذلك. لقد كان حبهم أنانياً فقط، لم يعطوني إلا بالقدر الذي أخذوا مني فيه. لكن مع يبان، أشعر بالاحتواء. فهو يحبني كما أحبه وبعمق وحرية. لا نتوقع شيئاً عدا الحب. أشعر أني نجمة سقطت لتجد مكانها أخيراً قرب نجمة أخرى، في مكان ستظلان تشعان فيه معاً إلى الأبد. سعدت لأجل الآنسة بانر، كانت ترفل بالسعادة، ولم أفهم كل كلماتها، تساءلت إن كانت حاسة الحب التي تمتلكها أتت لكونها أمريكية. الحاسة التي تكسبها الأهمية وتجعلها تسعى لتكون النهايات في علاقاتها كما تحب هي. جعلني هذا أظن أني مختلفة عنها. لعل الحب مثل المرض، معظم هؤلاء الأجانب مرض بشدة بسبب الحرارة والبرودة.لكن صحة الآنسة بانر تحسنت، وكانت عيناها تشعان ببريق الفرح. وبدا أنها نست كل الماضي. بدت خرقاء كذلك. لا تريد أن تتأخر عن يبان بأي شيء. حتى صوتها، صار أعلى وأكثر نعومة كصوت الأطفال. وفي الليل كانت تصرخ. ظننتها تتألم لأنها أصيبت بحمى الملاريا. لكن في الصباح، كانت تبدو بصحة ممتازة.

لا تضحكي مني يا ليبي، لم أكن قد رأيت علاقة حب بين اثنين من قبل. لم يكن الراهب باستور والآنسة آمين يفعلون ذلك. لم يتصرف الشباب والفتيات في قريتي مثل هذه التصرفات. ليس أمام الناس على الأقل. يعتبر هذا من العار لدينا. أن تقومي بالاهتمام بحبيبك أكثر من باقي

أفراد العائلة. الأحياء والأموات منهم. اعتقدت أن حب الآنسة بانر هو واحد من تلك الكماليات الأمريكية. التي لا يمكن للصينيين الحصول على مثلها. في كل مرة كانا يجلسان معاً ويتحدثان لساعات، ورأساهما يحتكان ببعضهما كأنهما زهرتان نبتتا تحت شمس واحدة. كنت أنتبه ليبان، رغم كلامه بالإنجليزية، إلا أنني كنت ألاحظ كيف كان يبدأ بفكرة ما ثم ينهيها، ثم يحدق في الآنسة بانر منتظراً أن تقول تلك الكلمات التي لم يقلها في فكرته. ثم يصبح صوتهما خفيضاً ولطيفاً، يلمسان أيدي بعضهما البعض. لينقلا حرارة قلبيهما إلى بعضهما. كانا ينظران إلى العامل الذي يدور في الساحة، إلى الشجرة، ثم إلى أوراقها، وإلى اليرقة التي أخذت تتفتح عن فراشة صغيرة، بحذر، تضيف إلى العالم، مخلوقاً جديداً، وعالماً جديداً. يشبه ذلك الحب الذي تعيشه الآنسة بانر، الحب الجيد الذي ترعاه بحذر، وتحاول أن تحميه من أي جرح في هذا العالم.

بالنظر إليهما، عرفت لأول مرة ما معنى الرومانسية. كنت قد حصلت أنا الأخرى على مغازلة صغيرة. من زينج، بائع جرار الفخار. صاحب الأذن الواحدة. رغم أذنه الواحدة تلك، إلا أنه كان لطيفاً، لم يكن سيئاً. لكن ولأقل شيئاً إليك: ما مقدار الرومانسية التي سوف تحصلين عليها من الحديث عن الجرار وبيض البط؟ على أي حال، أتى زينج إلي ذات يوم يحمل جرة جديدة. قدمها إلي، لكنني قلت له: لا مزيد من الجرار، لأني لا أملك البيض، ولا حتى واحدة لأعطيك إياها.

- قال زينج: خذيها بأي حال. سوف تعطينني بيضاً في الأسبوع القادم.

- حتى في الأسبوع القادم، لن أتمكن من إعطاءك أي بيض. لقد سرق ذلك الجنرال الأمريكي المزيف نقود المبشرين. لا نملك إلا قليلاً من

الطعام وبالكاد يكفينا حتى يصل قارب المؤن الجديد من المعسكر حاملاً معه النقود.

ذهب زينج في حال سبيله. لكنه عاد في الأسبوع التالي وجلب معه تلك الجرة من جديد. لكنها كانت مليئة بالأرز هذه المرة. ومليئة بمشاعر زينج! هل هذا هو الحب؟ أهو قبضة أرز في جرة؟ ولا داع لأن أعوضه بإعطائه البيض. أخذت الجرة دون أن أشكر زينج. ودون ان أقول له أن هذا لطيف، أو أنني سوف أرد له جميله ذات يوم. انتظرت حتى هم بالرحيل، وقلت: زينج، أيها المهذب، لماذا تظل ملابسك قذرةً دائماً؟ انظر لكل تلك القذارة حول كوعيك. في الغد، اجلب لي ملابسك إلى هنا. سوف أغسلها لأجلك. إن كنت تريد مغازلتي، فعلى الأقل، ليكن مظهرك نظيفاً إذن.

هل ترين يا ليبي، كانت عندي رومانسيتي أنا الأخرى.

* * *

عندما حل فصل الشتاء، كانت إيرمي لم تزل تلعن الجنرال كاب لسرقته فخذ لحم الخنزير. وذلك لأن اللحم المخزن نفذ إلى آخره. وكذلك الطازج. كله نفذ. كانت قد بدأت بقتل الخنازير واحداً تلو الآخر، ثم قضت على الدجاج كله، ثم البط. وفي كل أسبوع، كان الطبيب ليتل والراهب باستورويبان. يمشون لساعات حتى يصلوا إلى جينتيان ليروا إن كان قارب المؤن قد وصل أم لا. ثم يعودون متعبين وعلى وجوههم النظرة الفارغة نفسها. في أحد الأيام، عادوا. وكانتالدماء تسيل من وجوههم! هرعت النساء، ونادت السيدة آمين الجميع. بينما كانت النساء يعالجن الجروح، بدأ القس باستور يشرح لنا ما حدث فيما يبان يترجم.

قال القس: لقد قالوا إننا شياطين، وأننا أعداء الصين. لقد هاجمونا.

صرخت السيدات: من، من قال هذا؟

- التايبيون، لقد ثاروا. لن أدعوهم بأتباع الله من الآن فصاعداً. لقد تصرفوا كالمجانين. لقد رموني بالحجارة وحاولوا قتلي لأني قلت لهم أننا أصدقاء.

قلنا جميعاً: لماذا، لماذا فعلوا ذلك؟

بسبب أعينهم! أخذ القس باستور يهذي بأشياء عديدة ثم انهار على ركبتيه وأخذ يصلي. تطلعنا إلى يبان الذي كان يهز رأسه موافقاً على كلام القس. فيما القس أخذ يضرب قبضتيه في الهواء ثم عاد للصلاة من جديد. أشار إلى الجميع، ثم بدأ بالعويل. بدأت الآنسة ماوس بالبكاء وهي تمسح وجه الطبيب ليتل من الدماء، حتى لم يبق منها شيء على وجهه. أشار إلى السيدة آمين، وبدأ يتمتم بكلمات لم نفهمها. وقفت السيدة آمين، ثم ابتعدت. صمت الجميع أخيراً. وبقينا أنا ولولو مثل أطرشين، لم نفهم كلمة واحدة مما قاله. في الليل، ذهبت مع لولو إلى حديقة البيت، بحثنا حتى عثرنا على الآنسة بانر ويبان، كانا جالسين في الكوخ الصغير على رأس التل. وكانت تضع رأسها على كتفه، ويمسكان بيدي بعضهما البعض. لم يقبل لولو أن يصعد، قال إنه يخاف من شبح التاجر. ظللت أصدر أصواتاً خفيفة حتى انتبها. ما أن رأيانا حتى ترك كل منهما يد الآخر. هبطا إلينا. ثم نقل إلينا يبان كل الأخبار. ونحن نجلس تحت ضوء القمر، الذي استحال إلى هلال أحمر.

كان يبان قد تحدث إلى أحد الصيادين، سأله عن القوارب، وإن كان شيء منها قد حضر أم لا. قال الصياد: لا قوارب، ليس اليوم، ولا قريباً.

ربما لن تأتي أبداً. القوارب البريطانية منعت من الإبحار في الأنهار. ممنوع أن تأتي، أو تذهب. البارحة حارب الأجانب لأجل الله، اليوم يحاربون لأجل المنشوريين. ربما ستتفتت الصين إلى قطع صغيرة في الغد، وسوف يلتقط الأجانب القطع كلها، سوف يستولون على الصين. ثم يبيعونها مع أفيونها. قال يبان أن القتال يمتد من سوزهو حتى مقر المقاطعة. المنشوريون والأجانب يهاجمون كل بقعة يحكمها الملك العظيم. عشرات الآلاف من التايبيين قتلوا. قتلوا الرضع والأطفال أيضاً. وفي بعض الأمكنة، يمكن لأي أحد أن يرى جثث التايبيين المتعفنة. في المدن الأخرى التي اجتاحوها منذ فترة، ترى الهياكل العظمية للرجال وهي متناثرة هنا وهناك. قريباً، سوف يصل المنشوريون إلى جينتيان.

أخذنا نفكر فيما قاله يبان. قال يبان من جديد: حين ترجمت للقس باستور ما قاله الصياد، خر على الأرض وبدأ في الصلاة، تماماً مثلما فعل أمامكم. بعد ذلك، بدأ أتباع الله يرموننا بالحجارة، ركضنا أنا والطبيب ليتل لكن الراهب ظل في مكانه، نادينا عليه، لقد أصابت الحجارة في صدره وقدمه ومقدمة رأسه، اندفع دمه على الأرض. في تلك اللحظة، فقد القس إيمانه وأخذ يصرخ: لماذا خنتني يا إلهي، لماذا أرسلت لي جنرالاً مزيفاً؟ لماذا تركته يسرق كل آمالنا؟

توقف يبان عن الكلام بعد أن قالت له الآنسة بانر شيئاً ما بالإنجليزية وهز رأسه موافقاً. أكملت الآنسة بانر: اليوم، حين رأيتم الراهب وهو يصرخ على ركبتيه. كان يتفوه بذات الأفكار السيئة تلك، إنه لم يفقد إيمانه فحسب، بل عقله كذلك، لقد بدأ يصرخ ويقول أنه يكره الصين، ويكره عيون الصينيين الضيقة، ويكره قلوبهم الضيقة. قال أنهم لا يملكون أرواحاً حتى ينقذها من الشيطان! وقال: اقتلوا الصينيين، اقتلوهم جميعاً، واتركوني

أعيش. ثم أشار للمبشرين أيضاً وصرخ: خذوه، خذوها، خذوهم كلهم، لكن، اتركوني أعيش.

بعد ذلك اليوم، تغير كل شيء، تماماً مثلما راح بيض البط إلى غير رجعة، فإن عقل القس باستور راح. صار يقضي وقته في الصراخ، يبكي ويشكو. ويتصرف بسذاجة. لكن السيدة آمين كانت صبورة عليه، كانت توبخه في بعض الأحيان، وتحاول التسرية عنه في أحيان أخرى. قال لولو أنها تركت القس يتصرف معها بحماقة في تلك الليلة. كما يفعل الرجل مع زوجته. كذلك تسلل الطبيب ليتل إلى الآنسة ماوس حتى تداوي له جراحه، رغم أنه لم يبق شيء لتداويه. كان يزورها في وقت متأخر من الليل، تماماً مثلما فعل يبان. في الوقت الذي من المفترض أن يكون الجميع فيه نائمين. فتح يبان باب الغرفة، سمعت وقع خطوات في الممر، ثم سمعته يهمس، وسمعت الآنسة بانر تتمتم. كنت مندهشة لما يفعلانه بعد أن أعدت للآنسة بانر صندوق موسيقاها منذ وقت قريب فقط. قلت لها: اعرفي إن كان الجنرال كاب قد نسي أن يأخذ شيئاً آخر عدا الصندوق. تجاوزت الآنسة بانر مصيبتها مع الجنرال بسرعة.

بعد فترة من الزمن، بدأ الخدم بالمغادرة واحداً تلو الآخر. بدأ الطقس يتغير، وصار الهواء شديد البرودة فاختفى البعوض، لم يبق من الصينيين في بيت التاجر الشبح، بيت الإرسالية، سوى أنا ولولو. لم أحسب يبان لأني أراه نصف أمريكي أكثر منه نصف صيني. ظل يبان لأجل الآنسة بانر، وظللت أنا ولولو لأجل ثروتي من بيض البط، التي كانت مدفونة في حديقة بيت التاجر الشبح. بالإضافة إلى ذلك، لو أنني غادرت مع لولو، فلا أظن أن أي واحداً من هؤلاء المبشرين الأجانب، سوف يعرف كيف يعيش في هذا المكان. صرت أبحث مع لولو عن الطعام كل يوم، نبحث

خلف الأشجار بين النباتات حيث تنام صراصير الليل، وفي الليل، ننتظر الحشرات والفئران في المطبخ وهي تعثر على فتات الطعام الذي لم نكن نستطيع نحن العثور عليه.تسلقنا الجبال وبحثنا عن الشاي البري وعن الخيزران. كنا نتصيد في بعض الأحيان طيراً ما، أي طير يكون كبيراً في السن أو غبياً كفاية حتى لا يهرب مسرعاً منا. في الربيع، كنا ننتزع رؤوس النباتات التي تفتحت وصارت تغطي الحقول، نبحث عن الضفادع والفئران البرية ودود الأرض. كنا نضطر لحشر الخفافيش في مساحات مغلقة ونتركها تدور وتدور في المكان حتى تسقط في الأخير من القلق والتعب. كنت أقلي كل ما نلتقطه في الزيت الذي كنت أحصل عليه من زينج، صرت أتحدث مع زينج أكثر، ولم يعد حديثنا مقصوراً على البيض والجرار. كان الحديث بيننا مضحكاً. تماماً مثل المرة الأولى التي قدمت فيها للآنسة بانر هذه الأنواع من الطعام. لقد قربت الآنسة بانر أنفها واشتمت الطعام في الطبق، ثم سألتني: ماذا يحتوي؟ قلت لها: فأر. نظرت إليه بتقزز، ثم وقفت وغادرت الغرفة. حين طلب المبشرون أن يعرفوا نوع الطعام . ترجم لهم يبان بالإنجليزية، ورأيتهم يأكلون بعد ذلك بشهية كبيرة. سألت يبان، فقال لي أنه أخبرهم أن الأطباق تحوي الأرانب. بعد ذلك، ومتى ما سألوا عن نوع الطعام الذي كنت أطبخه أنا ولولو، كان يبان يقول لهم: أرنب، أو نوع آخر من الأرانب. فيما بعد، لم يعودوا يهتمون إن كنا نقول الحقيقة أم لا.

لم نكن نأكل الطعام بشكل جيد بالطبع، إن إطعام ثمانية أشخاص وجبتين أو ثلاث وجبات في اليوم، يحتاج إلى الكثير من الطعام والأرانب كما كنا ندعي. حتى الآنسة آمين السمينة، صارت نحيفة. قال زينج أن القتال يزداد سوءاً. ويقينا نأمل أن يهزم أي طرف الطرف الآخر، لعل الحرب تنتهي وتتحسن الحال، وحده الراهب باستور ظل يلعب مثل طفل، بعد أن فقد عقله.

بدأت الأمور تسوء أكثر فأكثر. قررت أنا ولولو في أحد الأيام أن الوقت حان لنتناول بيض البط. تناقشنا عن الكمية التي يجب أن يتناولها كل شخص منا. قررنا أن البيض سيجعل الأمور تبدو أفضل. تساءلنا عن الوقت الأفضل لتقديمه إليهم، في الصباح، أم في الليل، حسم لولو الأمر بقوله أن الصباح هو الوقت الأفضل، لأن الإنسان قد يحلم ليلاً بتناول بيض البط، فماذا لو أفاق ووجد أن حلمه تحقق. بهذا الرأي المفرح، بدأت أنا ولولو نقدم لكل شخص من الثمانية بيضة على الإفطار كل يوم. وقال لولو ان هذا كفيل بأن يجعلنا نشعر أننا أحياء. أعجبت الآنسة بانر بالبيض الأخضر المخلل، وبطعمه الدسم المالح. قالت إنه أفضل بكثير من تلك الأرانب. احسبي معي ياليبي، ثماني بيضات لثمانية أشخاص، كل يوم، ولمدة شهر. أوه، هذه 240 بيضة، لقد قمت بتخليل الكثير من البيض، تخيلي لو أنني بعت هذه الكمية كلها في سان فرانسيسكو. سأحصل على ثروة. في الواقع، صنعت كمية أكبر من هذه. وبحلول منتصف الصيف، في نهاية حياتي تلك. كنت أحتفظ بجرتين باقيتين، قبل اليوم الذي متنا فيه. كنت اضحك أنا والآنسة بانر ونقول أننا يجب أن نتناول المزيد من البيض. لكن كيف للشخص أن يعرف أنه سوف يموت بعد ذلك. لو كان يعرف، لحاول تغيير ذلك ربما؟ كنا سنندم لأننا لم نكسر المزيد من البيض ونأكله. لأن ذلك حمانا من الموت ومن الجوع. بكل حال يا ليبي، لا أشعر بأي ندم الآن، في حياتي هذه. كما أني سعيدة لأنني لم آكل كل البيض، هكذا أستطيع أن أريك شيئاً مميزاً. قريباً سوف نحفر ونتذوق البيض الذي تبقى.

13

ما تتمناه الفتيات

في أول صباح لي في الصين، استيقظت في غرفة مظلمة في الفندق بغيلين، وظل شبح ما يقف فوق رأسي، حدقت في العيون التي كانت تحدق بي في الظلام حاملة نظرة قاتل، ما كدت أصرخ حتى قالت كوان بالصينية: انت تنامين على جانبك. وهذا السبب الذي يجعلك تتحركين غير مرتاحة في السرير. يجب أن تنامي على ظهرك من الآن فصاعداً، وأن تؤدي بعض التمارين الرياضية التي تساعدك على التخلص من الشخير. وقفت في الضوء ووضعت يديها على خصرها ثم بدأت تحرك خصرها يميناً ويساراً. مثل معلمي الرياضة في فترة الستينات. تساءلت كم ظلت تحدق في وأنا نائمة في السرير. وكم من الزمن ظلت واقفة منتظرة أن استيقظ لتغدق علي بنصائح لم أطلبها منها، تطلعت إلى سريرها الذي كان مرتباً منذ بعض الوقت. تطلعت إلى ساعتي وقلت متذمرة: كوان، إنها الخامسة صباحاً فقط.

قالت كوان: هكذا هي الصين، لقد استيقظ الجميع الآن، عداك أنتِ.

- حسناً لن أنام طويلاً بعد الآن.

لم نكن قد قضينا ثماني ساعات في الصين بعد حتى بدأت كوان تتحكم في حياتي. لقد كنا في منطقتها، يجب أن تخضع لقوانينها، ونتحدث لغتها. كانت كوان في جنتها، في الصين. سحبت كوان أغطية السرير عني ضاحكة وقالت: هيا، انهضي بسرعة يا ليبي، إني متلهفة لرؤية قريتي، أريد مفاجأة الجميع، أريد أن أرى الدهشة على وجه جدتي وهي تسقط على الأرض من المفاجأة وتقول: كيف عدت بعد أن طردتك؟ فتحت كوان النافذة، تسربت الأصوات من الخارج، اللغط المختلط بأصوات تشبه صوت آلة الباشينكو الموسيقية. كنا قد بقينا في شيراتون غيلين المطل على نهر لي. رأيت من النافذة الباعة الجوالين وآخرين يركبون الدراجات ويقرعون أجراس دراجاتهم محيين بعضهم. رأيتهم ينقلون حمولة دراجاتهم من الحبوب والبضائع. وينقلون البطيخ واللفت إلى السوق. كانت الجادة ممتلئة بهم. وبالعمال وأطفال المدارس. العالم كله يتقاطع ويصدر الأصوات في الخارج. ضحك وصراخ. كأنهم في منتصف اليوم لا في الصباح الباكر. كان أحد راكبي الدراجات يعلق أربعة رؤوس خنازير في مقدمة دراجته تاركاً الحبل يتدلى، فيما أفواهها مفتوحة تتشدق منها ابتسامة الموت. أشارت كوان للشارع وركزت إصبعها على الأكشاك ذات الأضواء الخافتة هناك، قالت كوان: نستطيع شراء فطورنا من هناك. إن طعامهم رخيص وجيد. أفضل من دفع تسع دولارات لأجل الطعام في الفندق. الذي لن يقدم أكثر من الكعك المحلى وعصير البرتقال، أو اللحم المقدد في أفضل حال. من يريد طعاماً كهذا؟

تذكرت التحذير المذكور في كتاب دليل رحلتنا عن الابتعاد عن تناول الأطعمة التي تحضر في الشوارع. قلت لكوان محاولة تبرير عدم رغبتي: تسعة دولارات، ليست بمبلغ مهم.

- لا تستطيعين التفكير بهذه الطريقة بعد الآن. أنت في الصين، والتسع دولارات تلك، هي راتب شخص لأسبوع كامل.

- أجل، لكن الطعام الرخيص قد يسبب التسمم.

أشارت كوان للشارع : انظري لكل هؤلاء الناس في الشارع، هل ترين واحداً منهم يعاني التسمم من الطعام؟ إن كنت تريدين التقاط الصور للطعام الصيني. فيجب أن تتذوقي الطعام الحقيقي. ويجب على النكهة أن تعلق في حلقك. ثم تهبط إلى معدتك. هناك في المعدة، يمكن اكتشاف مشاعرك الحقيقية تجاه الطعام. وحينها، وبمجرد أن تلتقطي الصور، ستظهر تلك المشاعر فيها. وسيراها الآخرون بمجرد النظر إلى الصور.

فكرت في أن كوان محقة، ثم من أنا حتى أتكبر على حمل بعض الطفيليات في أمعائي؟ ارتديت ملابس دافئة وخرجت إلى الممر ثم توجهت وقرعت باب غرفة سيمون. فتح الباب بسرعة، وكان مرتدياً ملابسه وجاهزاً تماماً. نظر لي وقال: لم أستطع النوم . بعد خمس دقائق، كنا نمشي نحن الثلاثة في الشارع، مررنا بالعشرات من الأكشاك. بعضها كان مزوداً بأفران الغاز الصغيرة. وبعضها بآلات شواء كهربية صغيرة. يتجمهر الناس أمام الأكشاك ويتناولون النودلز والحساء. كان جسدي مشحوناً بكل تعب وإثارة الرحلة. اختارت كوان محلاً يقوم بطهي ما يبدو أنه كعك مغطى بالطحين، كان البائع يرميه في الزيت المقلي. قالت كوان بالصينية: أعطني ثلاث قطع. سحب البائع القطع بأصابعه التي بدت أطرافها وسخة. صرخت أنا وسيمون ونحن نلتقط حصصنا مجبرين كأننا نقوم بتقليب قطع الكعك الحارة بأيدينا في سيرك.

فتحت كوان محفظة فكتها وسألت: كم؟

- قال البائع: ستة يوانات.

كان المبلغ يزيد عن الدولار بقليل. وسخ ورخيص. لكن بحسب تقدير كوان، كان ذلك نوعاً من الابتزاز، إذ أشارت بيدها إلى زبون آخر وقالت للبائع: لقد أعطيته القطعة مقابل خمسة عشر فين فقط.

قال البائع: بالطبع، هو عامل محلي، أما أنتم، فسياح.

- ماذا تقول؟ أنا محلية أيضاً.

- أنت؟ نظر إلى كوان بسخرية. ثم أردف: من أين إذاً؟

- تشانجميان.

نظر البائع إلى كوان بشك ثم سأل: حقاً، ومن تعرفين هناك؟

ذكرت كوان بعض الأسماء.

ضرب البائع على فخذه وقال: وو زين مين؟ أنت تعرفينه إذن؟

- بالطبع، حين كنا أطفالاً. عشنا معاً في نفس الحي. كيف حاله الآن؟ لم أره منذ ثلاثين سنة.

لقد تزوجت ابنته من ابني.

غير معقول!

ضحك البائع وقال: أجل، حصل هذا منذ سنتين. لقد عارضت زوجتي وأمي الزواج. فقط لأن الفتاة من تشانجميان، ما زالتا تؤمنان أنها ملعونة، لكنني لم أعد أؤمن بالخرافات منذ زمن. لقد صار عندهما أطفال الآن. لقد حظيا بطفلة في الربيع الماضي، لا أهتم كونها بنت.

قالت كوان: لا أصدق أن وو مين صار جداً، كيف حاله الآن؟

لقد فقد زوجته، كان هذا من عشرين سنة. حين أرسلا إلى السجن بسبب وقوفهما مع الثورة المضادة. لقد حطموا يديه هناك. لكنهم لم يحطموا عقله. فيما بعد، تزوج من امرأة أخرى. يانج فانج.

- هذا مستحيل، لقد كانت الأخت الصغرى لزميل لنا في المدرسة. لا أصدق، ما زلت أراها في مخيلتي طفلة صغيرة حساسة.

- ليس بعد الآن، لقد صار لها جلد سميك، وقوي مثل جلد ثور. بحيث يصعب أذيتها، دعيني أخبرك بما تغير.

ظلت كوان تثرثر مع البائع، أما أنا وسيمون فقد تلهينا بالتهام كعكتينا اللتين كان البخار يتصاعد منهما في برد الصباح. كان مذاقها مثل خبز البيتزا وشطيرة البصل الأخضر بالبيض. بعد أن أنهينا وجبتنا، وجدنا كوان والبائع وقد صارا يتحدثان مثل صديقين قديمين. وعدته بإرسال التحية إلى الأهل والأصدقاء في تشانجميان، أما هو فنصحها بسائق جيد ليأخذنا إلى هناك بسعر معقول.

قالت كوان: حسناً يا أخي الكبير، بكم أدين إذن؟

- ست يوانات.

- ما زالت ست يوانات! سأعطيك اثنين فقط، هذا كاف

- اجعليها ثلاثة إذن.

وافقت كوان، ثم دفعت. وغادرنا.

حين ابتعدنا بما فيه الكفاية. همست لسيمون: لقد قال ذلك الرجل أن تشانجميان ملعونة. لكن كوان سمعتني فقالت: هذه مجرد قصة. عمرها آلاف السنين. فقط الأغبياء ما زالوا يؤمنون أن تشانجميان مكان سيء للعيش.

ترجمت لسيمون ما قالته كوان ثم سألتها: أي نوع من الحظ أن تعيش فيها؟

- لا تريدين أن تعرفي. كنت سأصر عليها أن تخبرني لولا أن سيمون أشار لي إلى محل مفتوح قد يكون فرصتي الأولى لالتقاط أول صورة للمجلة. كانت سلال البرتقال والفول المجفف، ونباتات المريمية وغيرها موضوعة أمام المحل. حملت آلة التصوير وبدأت ألتقط الصور فيما انشغل سيمون بتسجيل الملاحظات. دخان رائحة طعام الإفطار كان يختلط بضباب الصباح. قال سيمون: أوليفيا، هل تستطيعين التقاط صورة في هذا الاتجاه، أريد أن تظهر السلاحف في الصورة، سيكون ذلك عظيماً. أخذت نفساً عميقاً وملأت رئتاي بالهواء الذي لا بد أن أسلافي تنفسوه ذات يوم. ولأننا وصلنا في الليل، لم تتح لنا قبل الآن مشاهدة طبيعة مدينة غيلين، كانت تقوم على مرتفعات حجرية. ومحاطة بالكهوف. وحسب ما هو مكتوب ومصور في دليل رحلتنا، كانت غيلين تستحق فعلا الاسم الذي يطلقونه عليها في الصين، كانوا يسمونها: أجمل مدن الكوكب. أدرت آلة التصوير وبدأت بالتقاط صور تظهر الحياة في المجتمع الشيوعي. لم يكن مهماً في أي اتجاه نمشي. فعلى امتداد الشوارع، كان الناس يجرون مرتدين ملابس بنكهة غربية ويمارسون الرياضة. وتماماً مثل تلك المناظر التي يمكن مشاهدتها في سان فرانسيسكو بعد 49 عاماً من الانتصار على الأزمة الاقتصادية، كنا نرى فوضى السوق المفتوحة أينما نظرنا. كانت مقايضة المجوهرات منتشرة، فيما يظهر باعة بطاقات اليانصيب هنا وهناك. عدا عن كوبونات السوق السوداء، وأسواق الثياب المستعملة والساعات والحقائب المدموغة بشعارات كثيرة ومختلفة. التذكارات التي تباع للسياح، مثل الأزرار التي تحمل صورة الزعيم ماو. صور لراهب الشاولين لوهان على لوحات من

خشب الجوز. تماثيل بلاستيكية لبوذا بعدة أشكال. بدا كأن الصينيين يبيعوننا ثقافتهم وعاداتهم، من خلال عناصر تكرر الطريقة الرأسمالية السيئة للتسويق، كانت نماذج مسروقة من الرأسمالية في طرق البيع. معظمها بضائع سهلة التلف، تباع بأسعار السوق المسيطرة التي تقدم بضائع لا يحتاج المرء معظمها. اقترب سيمون ومشى قربي. قال: كل شيء مدهش هنا، ومحبط في ذات الوقت، لكنني سعيد لكوني هنا. تعجبت، لو كان سيمون سيقول أنه سعيد لكونه موجوداً معي ايضاً. ظللنا نرى المرتفعات الجميلة التي تغطيها الغيوم حول المدينة. كانت الجبال المحيطة بالمدينة تشبه أسنان قرش ضخم مما قبل التاريخ. وكان هذا واضحاً في كل صورة موجودة للمدينة في تقويم التاريخ أو لوحة فنية. لكنها كانت مغطاة بتلك الصخور العتيقة التي كانت موجودة على ارتفاعات عالية، بزخارفها العظيمة التي غطتها القذارة بسبب التلوث الصناعي. رأيت لوحات معلقة كبيرة ومضيئة بالأحمر لشخصيات مطلية بالذهب. وحولها كانت تتناثر مبانٍ أقل ارتفاعاً تنتمي للحقبة الماضية. كانت مطلية بذلكاللون الأخضر البروليتاري.رأيت حطام البيوت القديمة من فترة الحرب تحيط بها أكوام النفايات من هنا وهناك. كانت المدينة تترك إحساساً بأنها امرأة مشوهة الوجه، قذرة الأسنان، تعاني من مرض عضال في مراحله الأخيرة، لكنها تضع أحمر شفاه لتبدو جميلة. همس سيمون وهو يتفرج على أحد الأطفال: انظري لهذا الولد.

كانوا يعتبرون غيلين أجمل مدن الصين! لا أطيق الانتظار لأرى تشانجميان، التي يقولون أنها ملعونة. انتبهنا لكوان التي قالت: كل شيء اختلف. لم يعد كما كان من قبل، بدا صوتها ممزوجاً بالحنين، لربما أنها حزينة لما صارت عليه غيلين خلال ثلاثين عاماً. لكن كوان قالت فيما بعد بصوت حماسي: يوجد كثير من النشاط، كل شيء صار أفضل! ابتعدنا أكثر حتى

وصلنا إلى منطقة أخرى بدت مشجعة جداً لنلتقط المزيد من الصور، دخلنا سوق الطيور. شاهدنا مئات الأقفاص المزينة وهي تتدلى من جذوع الأشجار أمام المحال. تغريد الحساسين يعلو في الهواء. ألوان الطيور الزاهية فاتنة ومتنوعة، أشكالها مختلفة، ذيولها ملونة. وعلى الأرض، كانوا يضعون أقفاص الطيور الكبيرة الحجم. معظمها نسور وصقور، تتطلع من أقفاصها بمناقيرها ومخالبها المتحفزة. رأينا أنواعاً من الطيور الداجنة، بط ودجاج، تباع لأجل الشواء. التقطت صورة لها وفي الخلفية طيور أخرى تباع لأجل المتعة والجمال فقط. رأيت في هذا التناقض فكرة جميلة لأجل المقالات في المجلة.

التقطت شريطاً كاملاً من الصور في سوق الطيور. كنت مشغولة بالتفرج حينما التفت إلى رجل يهمس ويشير لي من بعيد. شعرت بالقلق حين فكرت في أنه قد يكون من الشرطة السرية، ربما من الممنوع التقاط الصور في هذا المكان. ناداني الرجل لأتبعه وبقيت أفكر في المبلغ الكافي الذي يمكن أن أدفعه إليه كرشوة. الرجل لم يسألني عن شيء. ما إن وصلت إليه حتى اندفع باحترام أسفل طاولة محله واخرج لي قفصاً يحوي بومة بيضاء بريش بني خفيف. قال الرجل بالإنجليزية: ما رأيك؟ نظرت للبومة المكتنزة التي تشبه قطاً سيامياً بأجنحة. حين فتحت عينيها الذهبيتين. شعرت بأني أحببتها مباشرة.

ناديت سيمون وكوان. قلت: تفرجا على هذه.

قال الرجل: بمئة دولار فقط، رخيصة جداً.

هز سيمون رأسه، بدا مظهره غريباً وهو يقول بإنجليزية مكسرة: لكننا لا نستطيع حملها إلى الطائرة ببساطة، سوف يعترض المسافرون، وسوف يطلب المطار منا ضريبة كبيرة لأجل أن نأخذها معنا.

سأل الرجل بفظاظة: كم؟ إني أعرض عليك سعر الصباح، وهو أفضل سعر.

قالت كوان للرجل بالصينية، لا نستطيع أخذها معنا ضمن الحمولة، لا يمكن أن نحملها معنا إلى أمريكا، مهما كان سعرها رخيصاً.

قال الرجل متعجباً: ومن تحدث عن أخذها معكم! اشتروها، ثم خذوها اليوم إلى ذلك المطعم القريب، عند الناصية، وهناك سوف يطهونها لكم على العشاء. كان الرجل يتحدثبصينية سريعة.

استدرت وقلت لسيمون: يا إلهي! إنه يبيع هذه البومة كطعام. يا له من عمل مقزز، أخبره أنه أحمق

قال سيمون: أخبريه أنت، أنا لا أعرف الصينية.

ظن الرجل أني مجرد سائحة تطلب من زوجها أن يشتري لها الأشياء. حاول استمالتي أكثر وقال: أنت محظوظة، أنا أملك واحدة أيضاً. وهذا النسر الذي يشبه قطة، قال الرجل مشيراً للبومة، نادر جداً، لقد احتجت إلى ثلاثة أسابيع حتى أقبضعليها.

قلت لسيمون: لا أصدق هذا، سيجعلني هذا الرجل أمرض بتباهيه هذا.

قالت كوان للرجل: لا، إنها ليست نادرة، فقط يصعب الإمساك بها. ثم إني سمعت أنها من الأنواع العادية من البوم.

- قال الرجل: إن أردت الصراحة، هي ليست نادرة مثل حيوان البانجولين، وليست لاذعة الطعم مثله، لكنك إذا تناولت هذه البومة، فستمنحك القوة والطموح بالتأكيد. وهي جيدة لتحسين النظر. واحد من

زبائني، كان أعمى تقريباً، وبعد أن تناول لحم هذه البومة، استطاع أن يرى زوجته بعد عشرين عاماً من العمى. عاد الرجل إلي وشتمني قائلاً أن زوجته بشعة بحيث أن القرد يخاف منها. اللعنة على أمك لأنك جعلتني آكل هذه البومة!

ضحكت كوان بشدة وقالت وهي تسحب من محفظتها ورقة من فئة المئة يوان: أجل، لقد سمعت قصصاً كهذه عن البومة.

قلت لكوان بعصبية: ماذا تفعلين: نحن لن نأكل هذه البومة!

لوح الرجل بورقة المال أمامنا وقال بحزم: لا أقبل إلا نقودا أمريكية، أريد مئة دولار فقط.

أخرجت كوان عشرة دولارات من محفظتها، قلت لها أن تتوقف لكن الرجل عاد ليقول: لا أقبل إلا بمئة.

هزت كوان رأسها، وأخذت تسير مبتعدة، صاح الرجل عليها وقال أنه يوافق على خمسين فقط. عادت كوان ومدت له المئة يوان والعشرة دولارات وقالت: هذا هو عرضي الأخير.

تمتم سيمون: إنها مجنونة.

تنهد الرجل بحسرة، بدا أنه تنازل. ذهب لرفع القفص من مكانه وهو يتمتم: عمل كثير ومال قليل. يا للعار. انظروا ليدي، ثلاثة أسابيع من التسلق وقطع الغابات حتى استطعت القبض على هذه البومة.

ونحن نغادر، شددت ذراع كوان التي تحمل القفص وقلت بعصبية: لن أجعلك تأكلين هذه البومة مهما كلفني الأمر، ابتعدت كوان بالقفص عني وقالت: اهدأي، سوف تخيفينها. ثم ابتسمت لي ابتسامتها الجنونية

تلك وصمتت. مشينا قرب سور حجري على ضفة النهر. هناك، وضعت كوان القفص على قمة السور وأخذت تموء مازحة مع البومة ثم قالت لها: هل تريدين الذهاب معي إلى تشانجميان؟ هناك حيث سنتسلق الجبل معاً، ثم أري أختي الصغيرة كيف ستحلقين في السماء. فرحت لما قالته كوان، لماذا أفكر بسوء عن تصرفاتها، وبتسرع. قلت لسيمون عن خطأي وعن كرم كوان فيما قالته الآن. منعتني كوان من الاعتذار لها وابتسمت.

قال سيمون أنه سوف يعود إلى سوق الطيور ليسجل ملاحظات عن أنواع الطيور النادرة الأخرى التي يبيعونها كطعام: هل ستأتين معي؟

حركت رأسي رافضة، مكتفية بهذه البومة وأنا أشعر بالراحة لأن كوان أنقذتها.

قال سيمون: سوف أعود، خلال عشرة دقائق أو ربع ساعة.

مشى سيمون من أمامنا بخطواته الواسعة، لاحظت هيئته الأمريكية بوضوح أكبر لأننا كنا في بيئة مختلفة. ظل سيمون يمشي ويتحرك بأسلوبه دون أن يتأثر بحشود الناس من حوله. أشارت كوان إلى الجبل الكبير المطل على غيلين وقالت: هل ترين ذاك الجبل؟ بالقرب من قريتي جبل أعلى منه، قمته حادة أكثر كذلك، نسميه بجبل الفتاة التي تمنت. لقد هربت فتاة عبدة ذات يوم. وصعدت إلى قمة ذلك الجبل ثم قفزت، لأجل حبيبها الذي كان طائر عنقاء. لقد استحالت الفتاة إلى عنقاء وعاشت معه إلى الأبد في غابات الصنوبر البيضاء. هذه مجرد خرافة بالطبع كما أظن.

استغربت من أن كوان شرحت لي أنها مجرد خرافة، ليست عادتها.

قالت كوان: معظم الفتيات في قريتنا يصدقن هذه القصة. ليس لأنهن غبيات، بل لأنهن يحلمن بحياة أجمل وأفضل. لقد كنا نتصور أننا لو

صعدنا إلى قمة ذلك الجبل وتمنينا أمنية، فإنها سوف تتحقق. لذا كنا نحوك أقفاصاً من القش بأيدينا، ونضع فيها صغار الطيور، وبمجرد أن تصير قادرة على الطيران، نصعد إلى قمة الجبل، ونطلقها. حينها سوف تطير تلك الطيور إلى حيق يقيم طائرا العنقاء، لتخبرهما بأمنياتنا. أخذت كوان نفساً وقالت: تعتقد جدتي أن الفتاة تلك كانت مجنونة، وأنها تسلقت القمة وقفزت محاولة الطيران، لكنها سقطت وارتطمت بالأرض بشدة فصارت صخرة. تقول جدتي أن ذلك ه والسبب لوجود صخور كثيرة أسفل القمة، تمثل كل الفتيات اللواتي قفزن لأنهن حملن آمالاً مجنونة مثل تلك الفتاة. ضحكت لأن كوان كانت تحدق في بوجوم كأنني جدتها. تابعت كوان: لا يمكن لشيء أن يوقف الشابات الصغيرات عن التمني. يجب على كل إنسان أن يحلم. حتى يحصل على الأمل. أن نتوقف عن الأحلام، هذا يشبه أن نقول أننا لا نستطيع تغيير أقدارنا، أليس كذلك؟

قلت لكوان: أجل.

- خمني إذن ما أتمناه الآن.

- لا أعرف، ماذا تتمنين؟

- قالت كوان: هيا حاولي.

- زوج جميل؟

- لا.

- سيارة إذاً؟ أو جائزة اليانصيب الكبرى.

هزت كوان رأسها نافية ثم ربتت على ذراعي وقالت: لا لم تعرفي أبداً. سأخبرك: لقد قمت بتربية ثلاثة طيور، لا واحداً، لأحصل على ثلاث

أمنيات. قلت في نفسي: لو تحققت هذه الأمنيات، فستكون حياتي كاملة، بل ربما أموت من شدة الفرح. أمنيتي الأولى كانت أن أحصل على أخت لأحبها من كل قلبي. كانت هذه أعظم أمنياتي. أمنيتي الثانية كانت أن أعود مع أختي تلك إلى الصين. بدأ صوت كوان يتهدج وهي تقول لي أمنيتها الثالثة: أمنيتي الأخيرة هي أن أعود مع أختي لترانا جدتي ومن ثم تندم لأنها طردتني ذات يوم.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تريني كوان فيها ردة فعل تجاه إنسان عاملها بطريقة سيئة. تابعت كوان: لقد قمت بفتح القفص حينها وتركت الطيور الثلاثة لتحلق. رفعت كوان يديها مقلدة الطيور ثم تابعت: لكن أحدهم لم يحلق وبدا أن جناحاه غير سويان. كان يدور في نصف دوائر قافزاً محاولاً التحليق. قبل أن يسقط مثل حجر إلى الأرض. كما ترين، فقد تحققت أمنيتان من أمنياتي إلى الآن. لكن جدتي لن تتأسف لي أبداً حين ترانا. حملت كوان قفص البومة وقالت: لكن هذه البومة الجميلة تستطيع أن تحلق وتحمل معها أمنيتي الجديدة. كل حزني القديم سوف يطير بعيداً معها.

عاد سيمون إلينا وصرح إلي بدهشة: أوليفيا، لن تصدقي الأشياء التي يعتبرها الناس هنا مجرد طعام.

عدنا إلى الفندق فيما بعد، كنا نبحث عن سيارة لتحمل سائحين وبومة، إلى تشانجميان.

14
أهلاً: ومع السلامة

بحلول الساعة التاسعة، حصلنا على خدمة السائق. كان شاباً أنيقاً ويعرف كيف يتصرف بتمدن ولطف. قال مرحباً بنا: خدمتنا، نظيفة، سريعة، ورخيصة. ثم قال كلمة ما عن سيمون. سألنا سيمون عما قاله الشاب، قال سيمون: إنه يقول أنه يستطيع تحدث الإنجليزية.

ذكرني هذا الشاب، بالصبيانمن هونغ كونغ، الذين كنت أراهم يقفزون في برك السباحة في سان فرانسيسكو. نفس الشعر العطر الذي تفوح منه رائحة جميلة، ونفس الإصبع المطلي بعناية في يده، تماماً مثل الفتيات. لكن تلك كانت علامة على أنه لا يؤدي عملاً صعباً، وعلى أنه راض عن حياته. ابتسم لنا، فبانت أسنانه الصفراء من أثر التدخين. قال بلهجة إنجليزية ثقيلة: يمكنكم مناداتي روكي. تماماً مثل نجم الفيلم الشهير. حمل صورة الممثل سيلفستر ستالوني التي سحبها من قاموس في يده. وضعنا حقيبة مليئة بالهدايا والحامل الإضافي لآلة التصوير في صندوق السيارة. من المفترض أن يعيدنا إلى الفندق الليلة، ما لم تصر جدة كوان على بقاءناعندها، هذا شائع عند الصينيين. ولذا، أخذت معي عدسة للتصوير الليلي. فتح

روكي الباب لنا بتباه.ركبنا سيارة السيدان السوداء. كانت منالنوع القديم الذي يفتقر إلى أحزمة الأمان ومخدات الحماية من الحوادث. قلت بسخرية: يا ترى، هل يظن اليابانيون الذين صنعوا هذه السيارة أن حياة الصينيين لا تستحق أي حماية!؟

على سيمون على كلامي هذا قائلاً: ربما أن جميع سائقي الصين محترفون، أو أنها لا تملك محامي تعويضات، هذا ما استنتجه سيمون. وبمعرفته أننا أمريكيون، اعتقد روكي أننا نحب الموسيقى الصاخبة، ووضع شريطاً صاخباً في آلة التسجيل. كان الشريط هدية من أحد زبائنه الأمريكيين الممتازين كما قال. جلست كوان في المقدمة. جلس سيمون مع قفص البومة وبقيت وحدي في الخلف. هكذا، بدأت رحلتنا إلى تشانجميان،على أنغام أغنية سريعة لأريثا فرانكلين. كان روكي يعرف كيف يختار العبارات المناسبة ليتعامل مع السياح ويبقيهم على اتصال بما يرونه حولهم. كان يشرح لنا عن المدينة طالما كنا نتجول في شوارع غيلين المكتظة. كان يتحدث مثل شخص يلقي الدروس على نفسه: أين تذهبون؟ هيا تفضلوا، لننطلق الآن. هذا مكان بعيد، لكننا لن نضيع... كان يعلم نفسه الإنجليزية من خلال التحدث إلى نفسه! قال لنا أنه يتمنى أن يتحقق حلمه ذات يوم ويذهب إلى أمريكا.

قال بالصينية: فكرتي هي أن أصبح نجماً سينمائياً. وخصوصاً في أدوار الفنون القتالية. تدربت لسنتين على فن التاي تشي. لا أتوقع نجاحاً كبيراً منذ البداية. ربما أضطر حين وصولي لأمريكا أن أعمل كسائق سيارة أجرة في البداية. سأعمل بجد، وسأتحمل المتاعب، لا أحد يتقن تحمل المتاعب مثل الصينيين. سأحتمل كل ما لا يستطيع الأمريكيون احتماله، ألا تعتقدين أن هذا صحيح يا أختي؟ نظرت كوان لروكي وفكرت، أظنها

تذكرت أحد أقربائها الذي كان مهندس كيمياء هاجر إلى أمريكا. وها هو هناك، يعمل في غسل الأطباق لأنه ظل خائفاً متحدث الإنجليزية بلكنته الغريبة حتى لا يظنه الناس غبياً!

في تلك اللحظة كادت السيارة أن تنحرف وتضرب طالبتين صغيرتين كانتا تمشيان ويداهما متشابكتان، شعر سيمون بالرعب وجحظت عيناه، أما أنا فصرخت: يا للهول! بكل حال، لم يحدث شيء، تابع روكي الكلام عن أحلامه بمرح كأن شيئاً لم يكن: سمعت أنه يمكنك تحصيل خمس دولارات في الساعة من العمل في أمريكا. إن حصلت على عمل كهذا، فسأعمل لعشر ساعات في اليوم. كل يوم في السنة. وسأحصل على خمسين دولاراً في اليوم! إني لا أجمع هذا المبلغ طوال شهر كامل هنا. حتى مع البقشيش. نظر روكي إلينا من مرآة السيارة ليرى إن كنا قد انتبهنا لجملته الأخيرة. تذكرت أن كتاب دليلنا عن الصين قال أن البقشيش يعتبر مهيناً عند الصينيين. لا بد أن ذلك الدليل انتهت صلاحيته.

تابع روكي: سوف أوفر المال حين أعيش في أمريكا، لن أنفق إلا القليل على احتياجاتي الأساسية وعلى سجائري، ربما أذهب للسينما من حين إلى آخر. وبالطبع سأشتري سيارة أجرة لأعمل عليها. خلال خمس سنوات، سأوفر مئة ألف دولار، هذا مبلغ كبير، يعادل نصف مليون يوان هنا، وربما أكثر لو أني بدلت الدولارات من السوق السوداء. حتى لو لم أصبح نجم سينما. عملي في السنوات الخمس سيكفي لأعود إلى الصين وأعيش كرجل غني. كان يبتسم ابتسامة أمل وهو يتحدث إلينا، ترجمت لسيمون ما قاله روكي.

سأل سيمون مباشرة: ماذا عن الضريبة؟ هنالك ضريبة على البنزين وتأمين السيارة والمعدات.

قلت لسيمون: ولا تنس ضريبة الدخل. رد سيمون: هذا عدا ما سوف يدفعه على تذاكر الاصطفاف في الأماكن العامة، وهذه سوف يدفعها مجبراً. أخبريه أن معظم الناس في أمريكا يهلكون لأجل خمسين دولاراً صافية في اليوم.

هممت بترجمة ما قاله سيمون لروكي، لكنني تذكرت لحظتها ما قالته كوان عن الفتاة وأمنيتها، لا يمكن أن تمنع الناس من أن يتمنوا حياة أفضل.

قلت لسيمون: ربما لن يحصل هذا المال كله فعلاً، لكن، لماذا نحبط أحلامه بتحذيراتنا هذه التي لن يحتاجها؟ عاد روكي ونظر إلينا من مرآته، ورفع يده لنا مبتسماً، ومرة أخرى، تشبث سيمون بالمقعد، وصرخت أنا حين كدنا نضرب امرأة على دراجة هوائية وطفلها معها. في اللحظة الأخيرة انحرفت المرأة الشابة بدراجتها وابتعدت عن طريقنا. ضحك روكي وقال: لقد ارتعبت! ثم أخذ يشرح لنا بالصينية عن أنه لا يجب أن نقلق. استدارت كوان وأخذت تترجم لسيمون. قالت كوان: يقول أن السائق لو أصاب أي شخص أو دهسه، فإنه على خطأ، بغض النظر عن أي شيء أو تصرف أهوج من ذلك الشخص.

قال لي سيمون: هل من المفترض أن يجعلني كلام كوان مرتاحاً!؟ هل أخطأت في ترجمة شيء ما؟

قلت لكوان أن ما قاله روكي غير منطقي. الشخص الميت ميت، بغض النظر عمن دهسه أو عمن ارتكب الخطأ. في تلك اللحظة اندفع روكي بالسيارة خارجاً من أزمة السير. قالت كوان: هذه هي طريقة التفكير الأمريكية. رفعت البومة رأسها ونظرت إلي كأنها تقول: أيتها الغريبة، هذه

الصين، تفكيرك الغريب لا ينفع هنا. تابعت كوان كلامها: نحن دائماً مسؤولون عن الآخرين. دون أن نسأل لماذا. أنت تتسرعين في أحكامك، وهذا خطأي، لأنك اختي الصغيرة ويجب أن أشرح لك، هل تفهمينني الآن؟

علق سيمون: نعم، لا تكثري من الأسئلة، إنك تفزعين البومة.

تجاوزنا المدينة وبدأت السيارة تسير في الضواحي، على جانب الطريق محلات تبيع أثاث القش الهندي وقبعات القش، حين دخلنا الضواحي، شاهدت على جانبي الطريق عدداً كبيرا من المطاعم تمتد على الجهتين، بعضها كان في طور البناء، وبعضها الآخر كان يحتاج لبعض التشطيبات، كانت مبانيها الصغيرة كلها مطلية بذات الجير الأبيض، متشابهة، لا اختلاف بينها ولا ميزة، كأنها صممت جميعاً على يد فنان أو مهندس بناء واحد، يا لضعف الخيال! كثيرة وشبه فارغة، يقف معظم النُدل في الخارج يتسكعون، أراهن أنها تقدم ذات الوجبات كذلك، لا شيء سوى شراب البرتقال والصودا وحساء النودلز. ربما يتصيد الندل السيارة وهي تقترب، زبائن محتملون، يا لها من فرصة. أظن أن عقولهم ضمرت بسبب الفراغ، ولم يعد واحد منهم يفكر خارج إطار الصدفة المطلقة التي تقود زبوناً إليهم، وتعني لهم الكثير في حياتهم. إنها تشبه التقاط بطاقة رابحة في البينجو بين حين وآخر، ولا شيء أكثر. نظرت إلى سيمون الذي كان يتطلع حوله ويسجل الملاحظات باهتمام، هل انتبه إلى الجو المحبط هو الآخر؟

سألته: ماذا تكتب؟

- أكتب أني أرى ملايينا من الخدم، لا شيء آخر.

بعد أن تجاوزنا المطاعم، مررنا بأكشاك باعة يغطيها القش. وما إن تجاوزناها، حتى ظهر باعة متجولون آخرون، يوقفون عرباتهم على جانب

الطريق، كانوا دون أي غطاء يقيهم الطقس والرطوبة، يصيحون بأعلى صوتهم ويشيرون لبضاعتهم من البرتقال الهندي. وزجاجات المرق الحار المصنوعة منزلياً. لقد عدنا إلى الوراء حقاً، إلى ما قبل الصورة الصناعية وثورة التسويق التجاري.

دخلنا قرية تقع في منتصف الطريق، رأيت من النافذة مجموعة من الرجال والنساء، يزيدون عن العشرة، يرتدون جميعهم ملابس بيضاء متشابهة، يقفون قرب مقاعد خشبية وصناديق خشبية فيها أدوات ما. ويرفعون لافتات مكتوبة بخط اليد. سألت كوان أن تترجم لي ما كتبوه عليها بالصينية. قالت كوان: مكتوب أنهم خبراء في قص الشعر، كما أنهم يعالجون مسامير القدم والدمامل. مكتوب أيضاً أنهم ينظفون صمغ الأذنين، وينظفون أذنيك الاثنتين، بسعر واحدة.

بدأ سيمون يسجل مزيداً من الملاحظات وهو يقول: ما شعورك حين ترين عشرة أشخاص يقفون ويعرضون عليك تنظيف أذنك؟ وما من زبون واحد موجود أصلاً! هذا هو العبث بعينه.

تذكرت نقاشاً قديما بيني وبين سيمون، حيث ادعيت أنه لا يمكنك مقارنة أسباب سعادتك بأسباب عدم سعادة الآخرين، لكن سيمون اختلف معي حينها. ربما يكون كلانا على خطأ. حين رأيت هؤلاء الناس يلوحون لنا، شعرت أنني محظوظة لأنني لا أحتاج لتنظيف أذني. حتى أنني شعرت بالخوف، شعرت أنهم جماعة من الصيادين، لم يختلف هؤلاء الرجال عن صيادين ينتظرون أحداً ليتوقف ويختار واحداً منهم، أو واحدة. لكزت سيمون فانتبه لي، قلت: أتعجب إن كان لديهم أمل في زبون أو شيء؟

رد سيمون: أملهم فارغ وواسع مثل هذه السماء، مادامت لم تمطر بعد وتضطرهم للهروب.

تخيلت آلافا من طيور الإيكاروس الصينية في السماء، تحلق بأجنحتها الشمعية. لا يمكن أن توقف أحداً عن الأمل. لا يمكن لأحد أن يتوقف عن الأحلام، طالما ينظر للسماء. يريد الإنسان دائماً أن يحلق عالياً، بقدر ما يستطيع. ابتعدنا بالمسافة عن القرى والباعة والقرويين الذين كانوا يعرضون خدماتهم. غفت كوان وأخذ رأسها يميل للأسفل، كان شخيرها يرتفع حين يجتاز روكي مطباً على الطريق. في النهاية أصدرت كوان زفرة طويلة وبدا أنها تغفو بكل طمأنينة فيما روكي يزيد من سرعة السيارة أكثر فأكثر متجاوزاً المركبات البطيئة وهو يعبث بيده بأزرار الراديو. ضممت ركبتاي إلى بعضهما فيما كانت البومة ترف بجناحيها منزعجة كلما تجاوز روكي مسرعاً. أخذت نفساً عميقاً وتطلعت إلى وجه سيمون المتوتر، لكنه ما إن رآني أنظر إليه حتى ابتسم وقال: ربما يجب أن نخبره أن يبطئ من سرعته؟ قلت لأشد من أزر سيمون متجنبة النقاش معه ومع السائق في أي شيء: لا تقلق، نحن بخير على هذه الحال.

صارت السيارة بمحاذاة مركبة كبيرة مملوءة بالجنود، كانوا يرتدون زيهم العسكري الأخضر. لوحوا لنا فأطلق روكي زامور سيارته محيياً إياهم. ثم انحرف بحدة متجاوزاً مركبتهم. وما إن تجاوزها إلى اليسار حتى فوجئ بحافلة في وسط الطريق، كانت قريبة جداً، أطلقت الحافلة زامورها بشدة، أما أنا فأغمضت عيني من الخوف وشعرت بسيمون يمسك بيدي. حين فتحت عيناي، كان روكي قد انحرف سريعاً إلى اليسار ونجونا. قلت: هذا يكفي، سأقول له الآن أن يخفف من سرعته.

قال سيمون، لكن يا أوليفيا، قد يكون هذا فظاً.

- أتفضل الموت على أن تخبر السائق بفظاظة أن يخفف من سرعته!

- سلوكه هكذا، إنه لا يكترث، هذه طبيعتهم هنا.

- وهل الانتحار الجماعي هذا في القيادة، يجعل الأمور بخير!؟ أي منطق هو هذا؟

- لم نر أي حادث حتى الآن.

قلت بغضب كأن الكلمات انفجرت من فمي: لماذا تفضل ألا تقول أي شيء دائماً؟ قل لي: هل ستستوعب الفكرة بعد أن نتعرض لحادث مثلاً؟

توقفت السيارة فجأة بعد أن داس روكي على الفرامل دون سابق إنذار، استيقظت كوان مرتبكة فيما رفرفت البومة بارتباك هي الأخرى. ظننت أن روكي فهم شيئاً من حديثنا، لكن الذي أوقفنا كان أزمة تسد الطريق بشكل غير متوقع، تطلع روكي من النافذة وأخذ يلعن شيئا ما ويقرع زامور السيارة بظهر يده. لم يوقفنا سوى حادث مروع كان يسد الطريق. رأيت الزجاج المتناثر وأجزاء من السيارة إضافة لأغراض شخصية تطايرت على الطريق. شممت رائحة البنزين والمطاط المحروق التي كانت تنتشر في الهواء. كنت أريد أن أقول لسيمون: هل ترى؟ لكن سيارتنا كانت تمر قريبة جداً من المركبة التي كانت مقلوبة على ظهرها، أبوابها محطمة، بدت مثل حشرة مسحوقة. كانت قمرة الركاب مطموسة بالكامل، لا أظن أن هناك أملاً بأن أحداً سوف ينجو. أحد الإطارات كان مرمياً في حقل الخضراوات القريب. مررنا بعدها بالحافلة التي اصطدمت بالسيارة، كانت حافلة نقل عام. ملونة بالأبيض والأحمر. نافذتها الأمامية محطمة فيما مقدمتها التي طويت ملطخة بالدم بشكل فظيع. مقعد السائق

فارغ. تلك علامة سيئة، أدوات زراعية تناثرت هنا وهناك. بدا لي أن قطع الحافلة المحطمة هنا وهناك تشبه عرضاً لمعدات صناعية بائسة. على مقربة من الحافلة شاهدت عدداً من الناس، كانوا جرحى، بعضهم يتألم، والآخرون في حالة صدمة. كان بعضهم ممدداً على الأرض، بدوا في غيبوبة، أو ربما كانوا قد ماتوا وانتهى الأمر.

صاح سيمون: ما هذا؟ لا أصدق أنه لم تأت سيارة إسعاف واحدة إلى الآن، ولا حتى طبيب.

قلت لروكي بالصينية: أوقف السيارة الآن. يجب أن نساعدهم.

شعرت أنني تسرعت، ماذا يمكن أن أفعل لهم، إنني بالكاد أستطيع النظر إليهم، فكيف لي أن ألمسهم أو أساعدهم؟

تطلعت كوان إلى الحقل المجاور وقالت فجأة: يا إلهي، هناك الكثير من أناس ين.

أناس ين؟ ربما تعني كوان أن هنالك ناساً ميتين في الحقل. بدأت البومة تنعب بجنون، وشعرت بيداي باردتين كالثلج. ظل روكي يقود السيارة مبتعداً عن المكان. صارت تلك المأساة خلفنا. قال بالصينية: لا فائدة من توقفنا هناك. لا نملك أي أدوية أو أربطة للجروح، إضافة لهذا، لا فائدة من التدخل، لأنكم غرباء. لا تقلقوا، بكل حال، سوف يأتي رجال الشرطة قريباً. فهمت أنه قام بإهمال طلبي له بالتوقف. قال روكي بصوت عميق: أنتم أميريكيون، وليس مقدراً لكم أن تشاهدوا مآسي الآخرين. أنتم تشفقون علينا فقط، في نهاية الأمر، سوف تعودون إلى وطنكم وحياتكم المريحة وتنسون كل ما رأيتموه. بالنسبة لنا، نحن معتادون على كوارث كهذه. لدينا عدد كبير من السكان، هذه هي حياتنا. تشبه حافلة

مكتظة بالركاب، الكل يحاول حشر نفسه فيها. لا هواء كاف لتتنفسه، ولا مساحة متاحة للشفقة.

قال سيمون: لماذا لم نتوقف؟

قلت لسيمون: لا تطرح الأسئلة، هل تتذكر؟ هذا ما قلته لي منذ قليل.

شعرت بشيء من السعادة بيني وبين نفسي، لأن أحلام روكي حول أمريكا بدت شحيحة الآن وغير حقيقية. أردت أن أقول لروكي عن المهاجرين غير الشرعيين، من الصينيين الذين تغشهم عصابات التهريب. ثم يتعرضون للإهانة باقتيادهم إلى السجن حتى يتم ترحيلهم إلى الصين من جديد. سأخبره عن العدد الكبير للمشردين في أمريكا. وعن نسبة الجريمة المرتفعة. وعن العدد الكبير من خريجي الجامعات الذين يقفون في الطوابير الطويلة للعاطلين عن العمل. من يظن نفسه ليعتقد أن فرصه بالنجاح أفضل من فرصهم؟ كيف يظن أننا لا نعرف شيئاً عن البؤس والمعاناة؟! أردت حمل قاموسه للغة الإنجليزية وحشوه في فمه ليسكت.

بعد قليل، شعرت بالغثيان من النمط الذي أفكر فيه. كانت مشاعري تتقلب. لا بد أن روكي محق، لا نستطيع مساعدة ضحايا الحادث بشيء. إنني لا أستطيع مساعدة أحد، ولا نفسي حتى. طلبت منه تخفيف السرعة فقط، أردت التقيؤ، مددت رأسي خارج السيارة فأمسك سيمون بظهري وأخذ يخفف عني: ستكونين بخير. شعرت بالمغص بمجرد أن لمسني!

حين عدنا للطريق السريع مجدداً، نصحت كوان روكي أن يبطأ من سرعة السيارة، ووافقها هو في الحال.

سألني سيمون: ماذا قالت له؟

قلت لسيمون: مجرد منطق صيني غريب، لقد قالت له، إن متنا بسبب سرعتك في القيادة، فلن تجد أحداً ليدفع أجرتك، كما إنك ستكون مديناً لنا طوال حياتك القادمة بعد أن تموت!

* * *

بعد مرور ثلاث ساعات، اقتربنا من تشانجميان. بدأت كوان تشير إلى اللافتات على الطريق: هنا، لقد اقتربنا. كانت تتحدث بمرح وتتمايل مثل طفلة. قالت كوان: أترون هذين الجبلين المطلين على القرية، اسمهما الزوجة التي تنتظر عودة زوجها. الجبل راسخ هناك، مثلها. عادت كوان وأضافت: لكنني لا أرى الشجرة التي كانت على القمة منذ زمن بعيد، أين الشجرة؟ هناك خلف ذلك البيت كانت تقبع شجرة عمرها آلاف الأعوام. ظلت كوان تتبع المشاهد المطلة على قريتها. أشارت من جديد إلى حقل فارغ وقالت: هنا، كان سوق كبير، لقد اختفى الآن! صار المكان مجرد حقل واسع. اقتربنا أكثر، وأشارت كوان إلى جبل آخر عالٍ: هذا هو جبل الفتاة التي تمنت أمنية، لقد تسلقت إلى قمته ذات يوم. ضحكت كوان، لكنها بدت مشتتة حين لاحظت أن الجبل صار أصغر، قالت: هل تقلص؟ أم حفره المطر؟ لعل قمته هبطت من كثرة الفتيات اللواتي ركضن إليها ليتمنين أمانيهن. يبدو أنني صرت أمريكية الآن، ربما هذا ما جعلني أرى الجبل بعيون مختلفة. كل شيء يبدو صغيراً وبائساً، لا شيء جيد كما كان من قبل. طلبت كوان من روكي فجأة أن يستدير ويدخل في طريق محاذية، كانت قذرة وعتيقة. أربكتنا الاستدارة المفاجئة، أنا وسيمون، والبومة التي عادت تصفق بجناحيها. خضنا الطريق المملوءة بالحفر. تجاوزنا بعض الحقول

التي كانت مغطاة بضباب خفيف وطين أحمر. وصلنا في النهاية إلى تل محاط بالأشجار. ظلت كوان تكرر: أخيراً، إني أرى تشانجميان، لقد مرت سنوات طويلة. كانت القرية تمتد بين جبلين شاهقين، مغطيان بلون العشب الأخضر. تظهر من البعيد شقوقهما الصخرية الواسعة بلونها الزمردي. من البعيد، تمكنا من رؤية البيوت القائمة على تلك الأرض المائلة بين الجبلين. صغيرة، مطلية بالجير الأبيض، سقوفها مغطاة بآجرٍ يتخذ هيئة جلد التنين الصيني التقليدي، تحيطها حقول خضراء ممشطة تتخللها مستنقعات مائية مفصولة عن بعضها بأسوار وخنادق صغيرة. هبطنا من السيارة، بدت لي تشانجميان كقرية صخرية رفضت أن تفتتها الحضارة. لم أرى أي أثر لعلب وأسلاك الكهرباء على أسطح المنازل مثل القرى الأخرى التي مررنا فيها، ولم تكن الأراضي الممتدة أمامنا مملوءة بالقمامة والخردة مثل القرى الأخرى. كانت الأزقة نظيفة جداً كذلك، لا سجائر ولا أكياس فارغة على الأرض. الممرات الحجرية النظيفة تتقاطع في أرض القرية. ثم تمتد حتى تصل إلى بداية الجبلين وتصعد معهما، إلى أن تضيق وتختفي عن النظر. وعلى مبعدة من الجبلين كانت تقف قمة أخرى، لونها غامق، ويلوح فيما وراءها ظلان لقمتين أخريين. نظرت أنا وسيمون لبعضنا البعض، كان منظراً شاسعاً جداً.

شدني سيمون من يدي وقال: هل تصدقين هذا!؟

وتذكرت المرات العديدة التي فعل فيها سيمون هذا وقال نفس الجملة. مرة حين وقفنا وسط المدينة في حفل الزواج، وفي اليوم الذي انتقلنا فيه إلى شقتنا الجديدة. قلت في نفسي: مشهد سعيد كهذا لا بد أن يقودني إلى ذكرى حزينة، بمجرد وجود سيمون فيه. تناولت آلة التصوير من الحقيبة، ركزت عيني على العدسة، كأننا عثرنا على أرض ضبابية غامضة، نصفها موجود في الذاكرة، ونصفها الآخر مجرد وهم. هل نحن في وسط أرض

النيرفانا الصينية، جنة السعادة المطلقة؟ بدت تشانجميان مجموعة من مشاهد فاتنة صغيرة، اقتطعت بعناية من صور كتاب للرحلات، إنها عالم ساحر يمتد في الماضي. حيث يمكن للزوار أن يعودوا إلى زمنٍ ماضٍ. إنها تمنحك ذاك الشعور بالجمال المطلق، الذي يمكن للزوار أن يشعروا به، لكن لا يمكن لهم أن يروه. لا بد أن هنالك خطئاً ما، بقيت أحذر نفسي، لا بد أن الواقع موجود في مكان ما هنا، ربما خلف ذاك المنعطف هناك، نعثر على الواقعية، على شيء حقيقي. ربما توجد خلفه سوقٌ تبيع الوجبات السريعة، أو ساحة للخردة والإطارات القديمة. أو لافتات تقول بأن المكان مساحة خيالية أوجدت لأجل السياح:اشتري التذاكر، وادخل لترى الصين التي في أحلامك. لا تجعل الحضارة تفسدك، تعمق في الماضي.

تحدثت إلى سيمون بهمس، خفت أن ينقشع كل هذا السحر والجمال من حولي إن أنا رفعت صوتي، قلت: أشعر أنني رأيت هذا المكان من قبل.

رد سيمون: نعم، أنا أشعر بذلك أيضاً، المكان يوحي بالكمال، كأنه مقتطع من برنامج وثائقي أو دعاية ما. ضحك سيمون.

حدقت في الجبل، وبدأت أدرك لماذا أعرف المكان، هذا المكان كان محور قصص كوان لي في طفولتي. المكان الذي كان يتراءى لي في أحلامي. ها هي القناطر تمتد أمامي، وتعلو من حولها أشجار القرفة الصينية، ومن بعيد، لاحت التلال التي تقود إلى جبل الشوك. أشعر أن الغشاء الذي كان يفصل حياتي إلى نصفين، قد زال الآن، في هذا المكان، كانت لي حياة أخرى. وها قد انقشع عنها الضباب.

من اللاشيء، سمعنا ضجيجاً، أصوات صراخ وضحك. رأينا مجموعة من أطفال المدارس يعبرون السياج، يتسابقون تجاهنا، بدوا مرحبين

بقدومنا، لكن ما إن اقتربنا منهم، حتى ركضوا عائدين إلى مبنى مدرستهم الذي ظهر أمامنا أخيراً. مرت لحظة إلى أن عادوا واقتربوا منا، يصرخون ويضحكون مثل سرب من الطيور، لكن هذه المرة، كانوا يمشون خلف أستاذهم المبتسم. اقتربوا منا ووقفوا بانتظام. وخلال لحظة، بدؤوا يهتفون معاً بالإنجليزية: أ ب ت، واحد إثنان ثلاثة. كيف حالكم، أهلا ومع السلامة! قلت لنفسي: هل أخبر أحد هؤلاء الأطفال أن زواراً أمريكيين قادمون؟ ثم من طلب منهم أصلاً أن يتدربوا للقائنا؟ لوح لنا الأطفال، رفعنا أيدينا ورددنا التحية فيما هم يكررون: أهلا ومع السلامة، أهلا ومع السلامة. تركناهم وأكملنا طريقنا متجاوزين المدرسة.

التقينا برجلين يقودان دراجتيهما الهوائيتين في الشارع، توقف الرجلان وحدقا فينا. تجاوزنا نظراتهما وتابعنا طريقنا، كانت كوان تلهث من شدة اللهفة. حين تجاوزنا المنعطف الأخير، وجدنا أنفسنا أمام بوابة كبيرة مزخرفة، يقف أمامها مجموعة من الأشخاص، ابتسموا، فركضت كوان إليهم مثل البرق. بدأت كوان تسلم عليهم يداً بيد، وواحداً تلو الآخر، سلمت على امرأة بدينة وصفعتها على مؤخرتها. لحقت أنا وسيمون بكوان، ووقفنا نتفرج على ثرثرة أصدقاء لم يلتقوا منذ زمن بعيد:

قالت كوان لصديقتها: لقد كبرت وصرت بدينة، بدينة جداً

ردت البدينة: انظري إلى شعرك إذن، لقد أتلفته، كان طويلاً، هل خربت شعرك عن قصد؟!

- لا، هذه هي الموضة الشائعة، هل بقيت في الريف للأبد ولم تستطيعي التعرف على الموضة الحديثة؟

قالت البدينة: انظروا إليها، لم تزل خوافة كما كانت، أراهن على ذلك.

- أنت التي كنت خوافة... توقفت كوان عن الكلام فجأة حين وقع بصرها على الجدار الحجري المحيط بالبيت، ربما هو أجمل منظر عرفته كوان في حياتها. لكنها كانت تفكر في جدتها في تلك اللحظة، عبرت البوابة ونادت: جدتي، يا جدتي. كيف حدث هذا؟ قال أحد الرجال الواقفين: لقد كانت متلهفة لرؤيتك، لقد نهضت هذا الصباح وركبت الحافلة إلى غيلين حتى تلتقي بك، انظري حولك، ها أنت هنا الآن. أما هي، فهناك! وسيصيبها الجنون الآن. ضحك الجميع على كلام الرجل، عدا كوان. اقتربت من الجدار وظلت تكرر بشحوب: جدتي، جدتي. خاف الجميع وتراجعوا إلى الوراء. كانوا يتهامسون قلقين.

قالت كوان: الآن عرفت.

همس سيمون: لماذا تبكي كوان؟

كانت الدموع تنحدر من على خديها وهي تقول: يجب أن تصدقيني، ليس هذا ما تمنيته، كيف تموتين في الوقت الذي عدت فيه إلى الوطن؟ وضعت بعض النساء أيديهن على أفواههن، كانت كوان تتحدث بألم.

اقتربت من كوان: ماذا تقولين، هل تعنين أنها ماتت حقاً؟

ظل سيمون يسأل: لماذا الجميع خائفون؟

قلت لسيمون: لست متأكدة من السبب.

حاولت سؤال كوان من جديد، لكنها لم تكن تسمعني، ظلت تتطلع إلى الجدار، تبكي وتبتسم، ثم تبكي وتبتسم.

قالت كوان: نعم، إني أدرك هذا، أدركه في قلبي، ولطالما عرفت هذا، طوال الوقت!

في المساء، أقام القرويون وأصدقاء كوان، حفل استقبال صغيرٍ لها في القاعة العامة للقرية. انتقل الخبر في تشانجميان كلها، وقال الجميع أن كوان شاهدت شبح جدتها، رغم أن كوان لم تقل شيئاً بعد. كما لم يأت أي دليل بعد على وفاة جدتها التي ذهبت لتراها في غيلين. لم يكن هناك أي داع لإلغاء الحفلة بعد أن استغرق التحضير لها عدة أيام من جلب الطعام ودعوة الجميع. خلال الحفل، لم تتباهى كوان بسيارتها، ولا بلغتها الإنجليزية أو أريكتها الفاخرة، لم تقل شيئاً مما كانت تريد قوله لأصدقائها، ظلت تستمع بهدوء لأصدقائها وهم يتحدثون، وأخذت تستعيد ذكريات طفولتها معهم. وتتذكر الأحداث المهمة التي مروا فيها خلال حياتهم. تحدثوا عن ميلاد التوأمين، وعن رحلتهم الأولى من القرية إلى المدينة الكبيرة. وعن المرة التي جاء فيها مجموعة من الطلاب المثقفين لتعليم أهل القرية بأمر من الثورة الثقافية التي اكتسحت الصين. قالت إحدى النساء معلقة وهي تشرح بيديها اللتين كانتا ترتجفان من الغضب: لقد ظن أولئك الطلاب أنهم أذكى منا، أرادوا منا أن ترفع كمية محصول الأرز إلى ثلاثة أضعاف بدلاً من اثنين. أعطونا بذوراً محسنة لنزرع الأرز. وأعطونا سماً ليقتل دودة الأرز. لكن السم بدلاً عن ذلك، قتل الضفادع التي كانت تأكل الديدان في مستنقعات الأرز، والبط الذي كان يأكل الضفادع الصغيرة مات بعد أن أكل الضفادع المسمومة، وفي النهاية، انتصرت الديدان، وماتت محاصيل الأرز! قال أحد الرجال الجالسين: لهذا قلنا لهم أن زراعة ثلاث محاصيل لن يغير شيئاً، ألم يكن من الأفضل لو بقينا نزرع محصولين فقط؟

قالت المرأة من جديد: لكنهم لم يميتوا محاصيل الأرز فقط، لقد حاولوا أن يسرعوا من تكاثر البغال هه. لقد سخرنا منهم، ظلوا لعامين كاملين يحاولون ذلك في كل أسبوع وكنا نسألهم محاولين ألا نضحك: هل

من جديد أيها السادة؟ كانوا يهزون رؤوسهم بوجوم ويقولون: لا، ليس بعد، سنرى ما سيحصل قريباً. كنا نشجعهم ساخرين: أجل حاولوا أن تجعلوها تلد، حاولوا بجد أن تكون أسرع وأكثر.

كنا نضحك على ما قالته المرأة حين دخل بعض الأطفال إلى القاعة بسرعة وقالوا أن مسئولاً ما، قدم من غيلين بسيارة فاخرة. مضى وقت قليل حتى دخل الرجل إلى القاعة وهب معظم الناس واقفين. كان يحمل بطاقة تعريف في يده كما يبدو، لأنه سأل بتهذيب إن كانت صاحبة البطاقة والمدعوة لي بن، تنتمي لهذه القرية. نظر معظم الناس إلى كوان بتوتر. وقفت كوان واتجهت ببطء نحو الرجل ثم أخذت البطاقة وتطلعت إليها. أومأت كوان برأسها. فأعلن الرجل أن صاحبة البطاقة توفيت اليوم.

سألني سيمون: لماذا علا صوت الناس، ماذا قال الرجل؟

قلت له: لقد أعلن بأن الجدة ماتت. لقد قتلت في حادث الحافلة الذي شاهدناه ونحن في طريقنا إلى هنا هذا الصباح! احتضنا كوان، كل بدوره، قال سيمون: أنا أسف لأجلك، لأنك لم تتمكني من رؤيتها مجدداً، ولأننا لم نتمكن من مقابلتها. نظرت كوان إلى سيمون وابتسامة حزينة تكسو وجهها.

تطوعت كوان للقيام بالمعاملات وجلب جثة الجدة إلى غيلين. وهكذا، سوف نعود ثلاثتنا إلى غيلين من جديد.

ما إن رآنا روكي حتى أطفأ سيجارته وأغلق جهاز الراديو. لا بد أنه سمع الأخبار هو الآخر، نظر إلى كوان وقال: إنني آسف يا أختي الكبيرة، إني ألوم نفسي لأنني رفضت أن أتوقف عند الحادث هذا الصباح... قاطعته كوان: لا أحد ملام. وبكل حال، لا ينفع الندم المتأخر في شيء. حين فتح

روكي باب السيارة، كانت البومة لم تزل في قفصها. حملت كوان القفص، وجهت كلامها إلى البومة قائلة: لا داع لتسلق الجبل الآن، انتهى كل شيء. وضعت كوان القفص على الأرض، فتحت بابه ووقفت. أطلت البومة برأسها، حركت رأسها في كل اتجاه، ثم حلقت بجناحيها عالياً، واتجهت صوب القمة الشاهقة لجبل الشوك. ظلت كوان تتبع البومة بعينيها حتى اختفت. قالت كوان: لا مزيد من الندم، ثم ركبت في السيارة.

تحرك روكي بالسيارة، سألت كوان: حين مررنا بالحادث هذا الصباح، هل رأيت جدتك ؟ هل هذا ما جعلك تعرفين أنها ماتت؟

قالت كوان: بالطبع لا، ماذا تقولين؟ لم أعرف بموتها قبل أن أرى شبح ين الخاص بها عند جدار البيت.

سألت كوان: إذن، ما الذي قلت لها أنك تعرفينه حينها؟

بدت كوان مشتتة وقالت: ماذا، ما الذي عرفته؟

- لقد قلت لها أنك عرفته بقلبك، وأنه حقيقي. ألم تكوني تتحدثين عن الحادث؟

- نعم، الآن تذكرت، لكنني لم أكن أتكلم عن الحادث، بل كنت أقول لها أن ما قالته كان صحيحاً.

سألت: وما الذي قالته؟

تطلعت كوان من النافذة، بدت الصدمة واضحة على وجهها. قالت كوان أنها كانت مخطئة بشأن قصتها عن جبل الأمنيات، وذلك لأن كل أمنيات كوان الثلاث تحققت، فقد كانت جدتها متأسفة جداً لأنها أبعدتها عن القرية ذات يوم، لكنها لم تخبر كوان بذلك أبداً. قالت كوان: لم أترك جدتي بحثاً عن حياة أفضل، لم أفعل ذلك أبداً.

قلت لكوان محاولة مواساتها: على الأقل ما زلت تستطيعين رؤيتها وهي في عالم ين.

ظلت تتطلع من النافذة، قالت: أجل أستطيع، لكن هذا لا يشبه وجودها الحقيقي. لا نستطيع صنع ذكريات تجمعنا معاً بعد الآن. ولا نستطيع تغيير ماضينا معاً، ليس قبل حياتنا التالية. زفرت بقوة وسكتت. كأنها تركت كل الكلمات التي لم تستطع قولها لتخرج. ما إن استقامت السيارة في الطريق وهي تخرج من تشانجميان، حتى ركض الصغار على مقربة منها ليحيوننا، عادوا يكررون عبارتهم التي بدت غريبة لحظة دخولنا القرية: مرحباً ومع السلامة! كم صارت واضحة الآن، وصحيحة!

15

اليوم السابع

لم تبك كوان، لكن شعورها بالحزن كان واضحاً. بمجرد أن اقترحنا النوم في غرفة فندق بدلاً منالمبيت في الخارج، وافقت كوان دون تردد. قبل سيمون كوان على خدها، كان يشعر بالأسى لأجلها. ثم غادر وتركنا في غرفتنا. طلبنا اللازانيا على العشاء. وكانت مملوءة بالخضار على الطريقة الصينية، يكلف الطبق الواحد اثني عشر دولاراً. كانت طعامي المفضل، لكن كوان ظلت تتطلع إلى طبقها بوجه فارغ، وظلت صامتة، مثل هدوء يسبق العاصفة. أملت أن تشعرني وجبتي ببعض الراحة. أردت مواساة كوان والاهتمام فيها أكثر. كنت أفكر بما يتوجب علي قوله، هل يمكنني أن أقول أن الجدة كانت سيدة عظيمة، وأننا سوف نفتقدها حتماً. سيكون ذلك نفاقاً، لا أنا ولا سيمون عرفناها من قبل، كما أن قصص كوان كانت غامضة عنها بعض الشيء، رغم أنها كانت تصورها على أنها عمتها وجدتها الأعز. أليست هي التي تسببت بتلك الندوب الصغيرة في وجه كوان. وها هي كوان حزينة عليها الآن. لماذا نحب الأمهات حتى لو تصرفن بحماقة تجاه أمومتهن؟ لعلنا ولدنا بقلوب فارغة، تنتظر أي نوع من الحب حتى

يترك أثره فيها. حتى لو كان مزيفاً. ماذا لو أن أمي ماتت؟ هل سوف أحزن مثل كوان. شعرت بالخوف لكوني أفكر بهذه الطريقة. لكنني حين أستعيد طفولتي، لا أتذكر سوى لحظات نادرة من الفرح، نادرة تماماً مثل حبات توت بري أسود، تختبئ بعمق في قلب غابة. وحين أحاول الوصول إليها، أعلق بين الأشواك. أظل عالقة هناك مثل ملكة النحل، التي سعت إلى رغبتها فعلقت بين لسعات الذكور النهمين. ربما يجب أن أخرج من وادي الذكريات هذا وأتخيل أميوقد صارت مهتمة ومحبة اليوم. لعلها تقول: سامحيني يا أوليفيا، لقد كنت أماً مريعة، لكنني أحبك كثيراً الآن، ولن ألومك إن لم تسامحيني. سوف أندهش لو قالت لي هذا الكلام حقاً.

قالت كوان فجأة: اللازانيا.

سألتها: ماذا؟

- جدتي تسأل: ماذا نأكل الآن. تقول أنها نادمة لأنها لم تحصل على فرصة لتذوق طعامي الأمريكي.

- لكن اللازانيا وجبة إيطالية.

قالت كوان: أعرف، لكن اصمتي الآن، لأنها لو عرفت، فستندم أيضاً لأنها لم ترى إيطاليا. وستبدأ بالندم على كل شيء أيضاً وأيضاً.

اقتربت من كوان وبدأت أتحدث بالإنجليزية، همست لكوان: لا بد أن جدتك لا تفهم الإنجليزية.

قالت كوان: فقط لهجة تشانجميان، كما أنها كانت تتحدث بالتخاطر. لكن بعد أن صارت في عالم ين، صارت تتخاطر بشكل أفضل، وربما تعلمت كيف تفهم بعض الإنجليزية أيضاً. ظلت كوان تتحدث.

وشعرت أنا بالراحة لكونها لم تستمر في مرارتها وصمتها. لم أكن أعرف كيف أواسيها حقاً.

قالت كوان: بعد أن يذهب الناس إلى عالم ين، يتحدثون معاً بالتخاطر، وذلك أسرع وأدق، حديث من القلب إلى القلب، ولا يترك أي سوء فهم كما تفعل الكلمات.

- وكيف يكون الحديث من القلب إلى القلب؟

لقد أخبرتك من قبل.

- هل فعلت حقاً؟

- عدة مرات، لقد أخبرتك، لا تستخدم فمك ولسانك في الكلام. فقط اصمتي، واستخدمي حواسك السرية المئة.

قلت: أجل، الآن تذكرت. كنت قد تحدثت مع كوان قبلاً عن تلك الحواس. والتي ترتبط بغرائز فطرية تكون موجودة حتى قبل أن يبدأ دماغ الإنسان باستيعاب اللغةوالوظائف الأخرى الأكثر تعقيداً. قبل أن يصبح قادراً على التلاعب، وتصنع الأعذار والكذب ويغير من طبيعته. أما حواس كوان السرية، فارتجاف الجسد، الرائحة، الشعور بالحرارة والتوتر وهما يندفعان ويصلان من العروق حتى الوجه، هي أدوات كوان، وأدوات حواسها. كما أظن.

قلت لكوان: هل تشبه هذه الحواس أن يقف شعر أحدهم من الخوف؟

- بل ربما تعني أن شخصاً تحبينه، خائف الآن.

قلت: كيف؟

قالت كوان: الحاسة السرية تكون مشتركة بين شخصين دوماً. إنها مثل سر تعرفينه وتحتفظين فيه لنفسك فقط. أن يقف شعر جسدك من الخوف، تكونين قد التقطت إحساس الشخص الآخر.

- اعتقدت أن تلك الحواس سرية لأنني فهمت أن الناس يفقدون قدرتهم على اكتشافها. أو التعامل معها.

قالت كوان: بالطبع، إنهم يظلون ناسين ذلك، حتى يموتون.

- إذن هي لغة للأشباح فقط؟

- بل هي لغة الحب. لغة فيها كل أنواع الحب، ليس العشاق فقط، بل كل شيء، مثل حب الأم لطفلها، والعمة لابنة أختها. والصديق للصديق، بل وحتى محبة الغريب، لغريب آخر.

- الغريب، كيف لنا أن نحب شخصاً غريباً عنا؟

- حين قابلتِ سيمون لأول مرة، كان غريباً بالنسبة إليكِ. أليس كذلك؟ وحين قابلتني للمرة الأولى، كنت غريبة بالنسبة إليك.

هذا حصل معي أيضاً، في حياتي السابقة، حين قابلت جورجي للمرة الأولى سألت نفسي: من أين تعرفين هذا الرجل يا كوان؟ وتذكرت أن جورجي كان حبيبي في حياتي السابقة.

- كوان، هل تقصدين يبان.

- لا، بل أقصد زينج.

شعرت بالدهشة. تابعت كوان: أجل زينج، الرجل الذي كان يبيعني جرار الزيت.

- أجل، تذكرت الآن.

عادت كوان لتتحدث مع شبح جدتها: انتظري، إنني أخبر ليبي عن زوجي. وبدا أن كوان نسيتني وانشغلت بجدتها.

أجل، أنت تعرفينه يا جدتي. لكن ليس في هذه الحياة، في الحياة الماضية. عندما كنت أنت إيرمي. وكنت أعطيك بيض البط لتأكليه. كنت أنت تعطينني الملح بدلاً عنه.

غرزت شوكتي في طبق اللازانيا وتركت كوان تتحدث بفرح مع شبح جدتها. لقد ألهتها ذكرياتها عن حياتها السابقة، وأبعدتها عن حزنها. بدأت كوان تتذكر.

* * *

في المرة الأخيرة التي التقيت فيها بزينج، قبل أن يصير اسمه جورجي، كانت هي المرة الأخيرة، وذلك قبل أن أموت بيوم واحد فقط!

أحضر لي زينج معه كيساً من الشعير الجاف، وبعض الأخبار السيئة.

حين أعطيت زينج ملابسه النظيفة، لم يعطني أياً من ثيابه المتسخة لأغسلها له. كنت واقفة قرب دِلاء الماء الحار أغسل الملابس.

قال زينج: لا داع لتقلقي بعد الآن بشأن الملابس، سواء كانت متسخة أو نظيفة. صمت زينج قليلاً وظل ينظر تجاه الجبال، ظننت أن مغازلته لي انتهت، بدا زينج حزيناً.

قال لي فجأة: الملك العظيم مات.

كان هذا أشبه بسماع صوت البرق في سماء زرقاء صافية!

قلت لزينج: ما تقوله مستحيل، كيف يموت الملك العظيم؟ إنه خالد للأبد!

- لم يعد كذلك بعد الآن.

- سألت: من قتله إذن؟

قال زينج: لا أحد، هو من قتل نفسه بيده، هذا ما يقوله الناس.

طريقة موته أسوأ من خبر موته ذاته، لم يكن الملك العظيم يسمح بالانتحار، وها هو الآن يقتل نفسه. إنه يعترف إذن بأنه ليس الأخ الأصغر للمسيح. لقد جلب العار لقبائل الهاكا بانتحاره هذا. نظرت لوجه زينج الكئيب، لا بد أنه يشعر بما أشعر فيه تماماً، هو أيضاً ينتمي للهاكا. بدأت أرفع الغسيل النظيف من الدِلاء. قلت لنفسي: على الأقل، سوف تنتهي الحرب الآن، وستعود القوارب إلى النهر من جديد. وما إن فكرت في هذا، حتى أتى زينج بالخبر الثالث: وهو الأسوأ من بين كل ما سمعته حتى الآن. قال زينج: الأنهار مملوءة بكل الأحوال، لكن ليس بالقوارب، بل بالدم.

صمت زينج من جديد، يقول الكلمات ببخل، كأنه يبتزني، كأنه يعطيني حفنة من الأرز حبة تلو حبة. حثثته على الكلام، لا بد أن يتكلم، شيئاً فشيئاً.

قال: قبل عشر سنين، أرسل الملك العظيم حملته الملعونة إلى الشواطئ، ومات الملايين، حتى طفا الدم على وجه الأنهار. والآن، ها هي الحملة ترتد، من المنشوريين هذه المرة. في كل المدن الساحلية والموانئ، يذبحون أتباع الله. إنهم يتقدمون إلى المدن الداخلية الآن، يحرقون البيوت، ويحفرون

المقابر. إنهم يدمرون الجنة والأرض، في ذات الوقت! إنهم يقتلون الجميع، لا أحد ينجو، ولا حتى الأطفال. تخيلت أنني في الشهر القادم، لن أسمع سوى عويل الأطفال عندما يدخل الغزاة البلدة.

قلت لزينج هامسة: الشهر القادم؟

- لا، لقد وصل الرسول بهذه الأخبار منذ فترة قليلة، كان يسابق الموت إلى هنا.

- إذن متى سوف يصلون؟ خلال أسبوع، أم أسبوعين؟

- غداً سوف يصل الجنود إلى جينتيان، سوف يدمرونها، وبعدها بيوم، سوف يدخلون تشانجميان.

شعرت بأحاسيسي كلها وهي تختلط، وتدور مثل حجر الطاحونة في رأسي. تخيلت الجنود في الشارع قبل مجيئهم، تخيلت سيوفهم المغطاة بالدم. طلب مني زينج الزواج. لم يقل الكلمة حرفياً، لكنه في تلك اللحظة عرض علي أن أذهب معه إلى الجبال، قال: سأذهب الليلة إلى الجبال لأختبئ في الكهوف هناك، ما رأيك، هل تأتين معي؟

ربما يشعر أي أحد أن زينج فظ، لكنه كان يريد إنقاذ حياتي، ألا يشبه هذا الذهاب إلى الكنيسة يوم العرس بزي أبيض لأقول: موافقة. ربما لو أني بحال غير هذه الحال، لقلت لزينج: هيا بنا، لنذهب في الحال. لكنني كنت أفكر بما سوف يحصل للآنسة بانر، لم أكن أفكر في الهرب والزواج. ماذا سوف يحصل ليبان وبقية المبشرين هنا؟ أظنني كنت أفكر بغرابة، ومن هذا الذي يهتم بما سوف يحصل لأصحاب البشرة البيضاء هؤلاء. أولئك الذين لم يفهموا طبيعتنا ولا أفكارنا، ولا يحملون أي مشاعر للأرض والسماء مثل

مشاعرنا. لكن ربما يمكنني القول أن هدفهم كان صادقاً. وربما أن لهم أهدافاً أخرى غير جيدة. بكل حال، لقد بذلوا جهدهم. ولأنني أدرك هذا، أظن أن هنالك ولو شيء واحد مشترك بيني وبينهم، فكيف أتركهم؟

عاد زينج وسألني: هل ستأتين معي أم لا؟

قلت: أعطني بعض الوقت لأفكر. عقلي لا يعمل مثلك، بسرعة.

قال زينج: وما الذي بقي حتى تفكري فيه؟ هو سؤال فقط: هل تريدين أن تعيشي، أم تريدين الموت؟ لا يحتاج هذا السؤال إلى تفكير كثير. التفكير لن يفيدك، أمامك خياران فقط، لا تشوشي عقلك بتفكير بلا طائل.

تركني زينج بعد ذلك وذهب نحو الفتحة في قلب الجدار الحجري الكبير، قرر تركي لبعض الوقت، وهناك، توسد رأسه بيديه، واتخذ لنفسه قيلولة صغيرة.

رميت الملابس في الطاحونة الصغيرة، بدأت أدورها بيدي وأعصر الملابس من الماء. إن زينج محق، لقد ارتبكت. إنه رجل جيد. ولا أظنني سأحصل على فرصة مع رجل جيد لما تبقى من حياتي، خاصة لو أنني مت بعد فترة قصيرة من الغزو. لكنني لو ذهبت معه الآن. فإنني لن أستطيع الإجابة على أي سؤال عن نفسي بعد اليوم، سوف لن أعود إلى ما كنت عليه مطلقاً. هل سأظل صديقة مخلصة بعدها؟ إن اختبأت في الجبال من الخوف. سأموت ذات يوم، لو بقيت هنا ومت ميتة سريعة، أفضل من أن يلتهمني الخوف وأموت ببطء. ثم ماذا عن الآنسة بانر وعن المبشرين ؟ لقد سلبني زينج كل هذه الأسئلة، وفرض علي سؤالاً واحداً فقط، ربما هكذا تجري الأمور بين الرجل والمرأة.

ظلت الأفكار تأخذني جيئة وذهاباً. حياة جديدة مع زينج؟ أم ولائي القديم لأصدقائي؟ يشبه الموت مطاردة دجاجة، أنا الدجاجة التي سوف يطاردها الموت حتى يقبضها ذات يوم. ربما تبقت لي دقيقة واحدة الآن، لأقرر ما سوف أفعل، ومن سوف أتبع. نظرت إلى زينج النائم، عيناه مغمضتان، إنه ليس ذكياً، لكنه لطيف. وصادق دوماً. قررت إنهاء علاقتنا تلك، كما بدأت تماماً. قررت أن أكون ذكية وأجعل الأمر يبدو أنه هو من تسبب في إنهاء كل شيء.

ناديته ففتح عينيه. ثم نهض.

بدأت أعلق الملابس على حبل الغسيل وأنا أقول: لماذا يجب أن نهرب؟ نحن لسنا من التايبيين أصلاً.

وضع زينج يديه على ركبتيه وقال: استمعي إلى صديقك. بدا زينج صبوراً بما فيه الكفاية ليحتملني. تابع يقول: إن المنشوريين يسعون وراء أتباع الله والمبشرين أينما كانوا، انظري حولك، أنت تعيشين في بيت حولوه إلى كنيسة. وهذا لوحده يكفي حتى يتحقق موتك.

كنت أعرف تماماً ما يقوله زينج، لكنني لم أتوقف عن النقاش.

ماذا تقول يا زينج! هؤلاء لا يعبدون ملكنا العظيم، لقد سمعتهم دوماً يقولون أن المسيح ليس له أخ أصغر من الصين.

وثب زينج على قدميه ونظر إلي بتذمر، كأنه يرى فتاة في غاية الغباء. قال: قولي هذا لجندي منشوري، سوف تكون رأسك قد طارت وسقطت على الأرض قبل أن تتفوهي بكلمة حتى. لا تضيعي الوقت في الثرثرة. إني راحل الليلة، هل ستأتين معي أم لا؟

أكملت كلامي التافه: لم لا ننتظر قليلاً بعد؟ لنرى ما سوف يحصل فعلاً. ربما لا تكون الأمور سيئة كما تظن أنت. ربما سيقتل المنشوريون بعض الناس هنا وهناك فقط. القليل فقط. ولا أظنهم سوف يزعجون المبشرين، إن معهم معاهدة أمان موقعة. ربما يكون هذا المكان أكثر أمناً إذن، ما رأيك لو تأتي أنت وتقيم هنا معنا، لدينا متسع.

رد زينج: أقيم معكم؟! ربما يجب أن أنتزع لساني من حلقي الآن، وبدا أن دماغ زينج قد صارت تغلي، وأن عقله قد تبخر من الغضب. وقال كمية لا بأس فيها من الكلمات الغير مهذبة، والتي حرص أن تصل إلى مسامعي. تحدث إلى نفسه وشتم: بلهاء بعين واحدة، لا بد أن هذا ما يمنعها عن رؤية الصواب من الخطأ.

صحت في زينج: انظر من ينتقدني، الرجل الأصم الذي لو دخلت ذبابة وعاشت في أذنه فإنه لن يسمع أو ينتبه، وربما يصاب بحمى الجراد، رفعت يدي وصفرت بفمي أمام زينج مماحكة إياه. أنت تظن أن سحب الكارثة باتت قريبة، وتخاف دون أي سبب.

صرخ زينج بدوره: دون سبب! ما الذي حدث لعقلك؟ هل عشت في سماء المبشرين المقدسة بما فيه الكفاية حتى تظني أنك لن تموتي وستظلين خالدة؟ وقف زينج في مواجهتي، صمت للحظة ثم قال: هراء. واستدار، ثم ابتعد مباشرة. شعرت بأن قلبي تحطم. سمعت كلامه فيما خطواته تتسارع مبتعدة عني: فتاة مجنونة، خسرت عقلها، ولا بد أن تخسر رأسها قريباً.

تابعت تعليق الغسيل. لكن أصابعي ظلت ترتجف، بفضل ما تركه زينج من شعور سيء في داخلي. لقد انطلى عليه كل شيء ببساطة. انحدرت دمعة من عيني. مسحت الدمعة بسرعة، لن أقبل أن أشفق على نفسي الآن،

البكاء مجرد ترف للضعفاء. أخذت أغني إحدى أغاني جبل الشوك القديمة، لم أكن أتذكر اسمها، لكنني أخذت أغني بعمق، كان صوتي عالياً وحزيناً.

سمعت الصوت من خلفي: لا مزيد من النقاش والشجار.

حين استدرت ونظرت خلفي، كان زينج واقفاً.

قال زينج: نستطيع أخذ أصدقاءك معنا إلى الجبال أيضاً.

أومأت برأسي وقلت: قد نستطيع أخذهم معنا حقاً!

وهو يبتعد من جديد، كان زينج يغني الأغنية التي يغنيها الشباب في الرد على أغنيات الفتيات في جبل الشوك خلال موسم الزواج. كانت أغنيته ترادف أغنيتي تماماً. فكرت في أنه لو حظي بالفرصة، فسيكون زوجاً صالحاً حقاً. حتى أن صوته جميل أيضاً.

توقف زينج وناداني : نونومو؟

- نعم.

- قبل مغيب الشمس بساعتين، تذكري جيداً، سوف أحضر حينها، وليكن الجميع جاهزون في ساحة الكنيسة، هل سمعتني جيداً؟ .

- صرخت: فهمت.

مشى بضع خطوات مبتعداً أكثر ثم عاد وصرخ: نونومو، لا تغسلي المزيد من الملابس، إن الذي سوف يقرر البقاء هنا وارتداءها، لن يرتديها إلا وهو جثة هامدة!

هل ترين يا أوليفيا؟ منذ الآن يخاف. ومع ذلك فإنه يتخذ القرارات نيابة عني، وهذا يعني أننا كنا مثل زوجين حقاً، كانت هذه طريقته ليقول لي: أقبل الزواج بك.

بعد أن غادر زينج. ذهبت للحديقة وتسلقت التل الذي يحمل الكوخ على ظهره، ومن هناك، من حيث مات التاجر الشبح، نظرت لسقوف البيوت، وللطريق التي تمتد بين البيوت حتى تقود إلى الجبال. لو أنك جئتِ إلى تشانجميان للمرة الأولى في حياتك، سترينها جميلة وهادئة، مسالمة جداً، سوف تقولين: هنا سوف أقضي شهر العسل. لكن هذا الصمت والسكون، كان يعني أن شعور الخطر تلاشى مؤقتا، وأن الكارثة باتت على الطريق. كان الهواء ثقيلاً ورطباً. من الصعب أن نتنفسه. نظرت للغيوم وللطيور. كان السماء تستحيل إلى ألوان برتقالية وحمراء. وكأن لون الدم وصل حتى إلى حدود السماوات. شعرت بشيء يتحرك على جلدي، وحين نظرت، رأيت واحدة من حشرات الشياطين الخمس، أم أربعة وأربعين المثيرة للاشمئزاز، أبعدتها بورقة شجر عن يدي، ثم دستها بقدمي، ورغم أنها ماتت، بقيت أدوسها حتى سويت في الأرض. لكنني رغم ذلك، لم أتخلص من الشعور بأن شيئاً ما يسري في جلدي.

بعد لحظات، سمعت لولو يقرع جرس العشاء. عدت إلى وعيي لحظتها. على الطاولة، اتخذت مقعداً بجانب الآنسة بانر، لم يعد الأجانب والصينيون يجلسون منفصلين بعد الآن، ليس بعد أن صرت أشارك الجميع بيض البط خاصتي. كالعادة، تلت السيدة آمين صلاة الطعام، وقام لولو بوضع طبق الجراد الكبير مدعياً أنه لحم أرانب. أردت الانتظار حتى ننتهي من طعامنا، لكنني لم أصبر، اندفعت الكلمات لوحدها من فمي وقلت: كيف لي أن أتناول الطعام فيما جميعنا سوف نموت غداً!

بعد ان أنهت الآنسة بانر ترجمة كلامي للجميع، صمتوا للحظات. ترك القس باستور كرسيه وأخذ يصلي لله بفرح رجل مجنون! قامت السيدة آمين بشده من ذراعه وأعادته ليجلس على الطاولة. ثم أخذت تتحدث.

ترجمت بانر لي: لا يستطيع أن يذهب، أنت ترين حاله. كما أنه لم يزل محموماً. سوف يثير انتباه أي أحد، وسيجلب الخطر على الجميع. سوف أبقى معه هنا، لا أظن أن المنشوريين سوف يؤذوننا، لأننا من الأجانب.

فكرت: هل هذه شجاعة؟ أم غباء؟ ربما أنها محقة بأن المنشوريين لن يقتلوا الأجانب. كيف لها أن تتأكد من ذلك؟

قالت الآنسة ماوس: أين يقع ذلك الكهف؟ هل تعرفين كيف سنعثر عليه؟ أخشى أننا قد نضل الطريق. ثم من هو ذلك الرجل زينج؟ ولماذا يجب أن نثق فيه؟ ولم تتوقف عن التذمر والقلق: الأمر غامض وغريب، يجب أن نبقى في مكاننا. المنشوريون لن يقتلونا، ليس هذا مسموحاً لهم. معنا تصريح من الملكة...

قام الطبيب ليتل بقياس ضغط الآنسة ماوس. وترجمت لي بانر: إنه يقول أنها مصابة بتسارع نبضات القلب أصلاً، إنها تقلق كثيراً. إن رحلة كهذه ربما تقتلها... يقول أن القس والآنسة ماوس يحتاجان إلى علاجه لهما، وأنه لن يذهب أيضاً، سوف يظل معهما. بدأت الآنسة ماوس تبكي والطبيب يمسك بيدها. كانت بانر تترجم ما أراه بوضوح أمامي، لقد كانت بانر مأخوذة إلى هذا الحد، وربما أبعد.

تحدث لولو أيضاً: لن أبقى هنا، بملامحي هذه، بأنفي الكبير ووجهي الأصفر، سوف يصطادونني بسهولة. في الجبال توجد آلاف الكهوف، وآلاف الفرص للنجاة.

ظلت الآنسة بانر تحدق في يبان، الخوف الكبير يلوح في عينيها. أعرف أنها تفكر في ملامح الرجل الذي تحبه، يبدو صينياً أكثر منه أجنبي. وحين أتذكر ذلك، أتذكر أن وجه يبان يشبه وجه سيمون يا ليبي. وجهه

متقلب، أحياناً يبدو صينياً، وأحياناً أخرى أجنبياً. ومن ثم، يظل وجهه مختلط. لكن في تلك الليلة، بدا لها يبان صينياً فقط. عرفت ذلك لأنها استدارت إلي وقالت: في أي وقت سوف يحضر زينج الليلة؟

لم نكن نملك ساعات يد في ذلك الحين. فقلت لها: قبيل اختفاء الشمس، قبيل صعود القمر إلى سماء الليل. وهذا يعني أن الساعة كانت العاشرة تقريباً. ذهبت الآنسة بانر إلى غرفتها في الحال. وحين عادت إلينا، كانت ترتدي أفضل ما تملك من ملابس. رداؤها لأيام الآحاد، بياقته المشقوقة، سلسلتها ذات الحلية البرتقالية التي تحمل شكل امرأة. دبابيس الشعر و قفازات جلدية. وضعت على رأسها قبعة عريضة مكسوة بطبقة تشبه جلد السلحفاة. لهذا أحببت كثيراًالصندوق الذي إياه يوم عيد ميلادي يا أوليفيا، إنه يشبه قبعتها كثيراً. لقد فضلت الآنسة بانر أن تموت وهي ترتدي الملابس التي تحبها. أما أنا، فلم أهتم بملابسي. حتى لو ظننت أن تلك الليلة بدت لي مثل شهر عسل مقترح بالهروب مع زينج. لم تزل بقية ملابسي رطبة ومعلقة على حبل الغسيل في الحديقة. ليس عندي ملابس أفضل من التي أرتديها بكل حال.

غربت الشمس. وارتفع القمر، ثم توسط السماء. انتابنا القلق ونحن ننتظر قدوم زينج في الساحة المظلمة. في الحقيقة، لم نكن بحاجة لانتظاره، لأنني أعرف جيداً الطريق التي تقود إلى الجبال. ربما مثل ما يعرف هو، بل وأفضل. لكنني لم أخبر أحداً بذلك.

في النهاية، سمعنا قرعاً قوياً على البوابة. ها هو زينج إذاً. اندفع لولو إلى الباب فيما القرع مستمر. قال لولو بصوت عالٍ: لقد جعلتنا ننتظر، ياللك من أحمق، الآن عليك أن تنتظر مثلنا، لن أفتح الباب قبل أن أتبول أولاً!

لكن ما إن فتح لولو إحدى دفتي البوابة، حتى وثب جنديان منشوريان إلى الداخل شاهرين سيفيهما!! صرخت الآنسة ماوس، لكن الطبيب وضع يده على فمها سريعاً. أما أنا، فكنت أصرخ في جوفي، ماذا حل بزينج؟ أين ذهب زوجي المستقبلي؟

مرت لحظة إلى أن عبر أحدهم البوابة، بدا واضحاً أن هذا هو قائد هذين الجنديين، شعره قصير، ولا يرتدي أي قبعة، لكن عصاه ووقفته، جعلتنا نعرف من هو، إنه الخائن اللص، الجنرال كاب. كان يبحث في الظلام عن الآنسة بانر. لعله كان آسفاً على ما فعله. لعل أتباع الله لحقوا به وهزموه بقبضاتهم. أشار بيده للآنسة بانر صارخاً: نيللي. صرخ مجدداً لكنها لم تتحرك من مكانها.

بعد ذلك، اندفع يبان واختفى خلف أشجار الحديقة. كل شيء سيء على وشك الحدوث. كان يتجه إلى الجنرال والغضب يدفعه للجنون. لكن الآنسة بانر اندفعت فجأة وسبقت يبان، ألقت نفسها في حضن الجنرال وقالت: وارن، عزيزي. أخذ القس باستور يضحك، أما لولو فصاح: هذه العاهرة لن تستطيع الصبر حتى تضاجع هذا الكلب! ارتفع السيف فجأة ثم هوى. ثم مرة أخرى، قبل أن يفكر أحدنا بإيقافه حتى. سقطت رأس لولو بقربي. ما زال لسانه خارج فمه، كان يريد أن يصرخ. نظرت إلى رأس لولو منتظرة أن يطلق لعناته المعتادة. لماذا لم يتكلم؟ من خلفي، سمعت صوت المبشرين وهم يصرخون ويتذمرون. ندت صرخة مني ثم سقطت على الأرض. حاولت شد رأس لولو إلى جسده من جديد، لكن شيئاً لم ينفع. مرت لحظة حتى نهضت، وحدقت في الجنرال كاب، كانت نظرة قاتل أو مقتول. تقدمت خطوة واحدة تجاهه فقط. ثم خانتني قدماي. كأنهما صارتا لحماً بلا عظم. اشتدت حلكة الليل، والهواء الثقيل يكاد يخنق المكان،

كأن الأرض ارتفعت من مكانها وارتطمت بوجهي. حين فتحت عيني، وضعت يداي على عنقي، أردت التأكد من أن رأسي لم تزل في مكانها. شعرت بألم الضربة التي تلقيتها على عنقي، لا بد أن أحدهم قام بضربي، أو أنه أغمي علي. لولو قتل وانتهى الأمر، لكن التربة لم تزل ملوثة بدمائه. بعد لحظات، سمعت صراخاً في الجانب الآخر من بيت الكنيسة، ارتعبت وركضت، اختبأت خلف شجرة في الحديقة. من مكاني، رأيت من النوافذ والأبواب المفتوحة لغرفة الطعام ما كان يحصل، من أين حصل المبشرون على البنزين ليضيئوا الغرفة؟ على الطاولة التي يفترض أن يجلس عليها الصينيون لتناول الطعام، جلس الجنديان المنشوريان ومعهما يبان. على طاولة الأجانب، عظمة فخذ كبيرة مغطاة باللحم. ومن أين أتوا بالطعام؟ كان الجنرال يحمل مسدسين في كل يد، يصوب أحدهما على القس، بدا لي أن الجنرال ضغط على الزناد، لكن دون أن تخرج الطلقات. ضحك القس وبدأ بتقطيع اللحم عن الفخذ الكبيرة بيديه.

بعد بعض الوقت، قام الجنرال بمناداة الجنديين. وبعد قليل، رأيتهما يندفعان إلى الساحة بسيفيهما، مشيا حتى خرجا من البوابة، ثم رأيت الجنرال يقف ثم ينحني ويتحدث مع المبشرين، بدا وكأنه يشكرهم على حسن ضيافتهم. بعد ذلك، مد الجنرال يده للآنسة بانر، وأمسك يدها بلطف ثم استدارا ومشيا في الممر تجاه غرفتها كأنهما الإمبراطور والإمبراطورة. بعد لحظات فقط، سمعت الصوت البشع لصندوق الموسيقى.

عدت ونظرت إلى غرفة الطعام. اختفى الضحك من الغرفة بمجرد خروج الجنرال، الآنسة ماوس تضع رأسها بين كفيها والطبيب ليتل يواسيها من جديد. لم يكن من أحد مبتسم عدا القس باستور، ظل يبتسم وهو يتفحص الفخذ المليئة باللحم، أما يبان، فقد اختفى. بدأت الأفكار

تطرق مخيلتي من كل اتجاه، لا عجب في أنهم يسمون الأجانب بالشياطين البيض! إنهملا يملكون أي أخلاق. ولا يمكن الثقة فيهم. حين قالوا: أدر لأخيك خدك الآخر[1]، لا بد أنهم كانوا يقصدون أنهم يملكون وجهين، أحدهما مخادع والآخر مذنب، كم كنت غبية حين ظننت أنهم يمكن أن يكونوا أصدقائي. ثم أين زينج حتى الآن؟ لا أعرف كيف قرر أن يخاطر بحياته لأجل هؤلاء؟

بعد فترة، انفتح الباب وخرجت الآنسة بانر وهي تحمل قنديلاً في يدها. ردت على كاب بصوت فرح ثم أغلقت الباب وهبطت إلى الساحة، بصوت خافت أخذت تنادي علي: نونومو، أين أنت؟ اخرجي الآن، سوف أغضب، اخرجي.

من تظنني حتى تناديني هكذا! لست خادمتها. كانت تدور باحثة عني في الساحة فيما يدي تبحث عن حجر، لن أتردد في قتلها هذه المرة، لكن كل الذي عثرت عليه، كان مجرد حصاة صغيرة. أمسكت بسلاحي الصغير واتجهت نحوها.

رددت عليها: ها أنا، استدارت حتى واجهتني، رفعت القنديل أمامها لكنها لم تكن قد تمكنت من رؤيتي بعد، حين وقعت عيناها علي قلت: أنت قبيحة، تعرفين اسمك الآن. في تلك اللحظة، فتح أحد الجنديين الباب. سأل بانر: هل من شيء؟ توقعت أن تطلب منه بانر أن يضرب رأسي بسيفه. لكنها أجابت بصوت هادئ: لا شيء، إني أنادي على خادمتي فقط. قال الجندي: هل أبحث عنها؟ ردت بانر: لا، لقد عثرت عليها

(1) المقصود هنا هو عبارة الإنجيل: إن صفعك أخوك الإنسان على خدك، فأدر له خدك الآخر.

أخيراً. هل تراها، وأشارت بيدها إلى الظلام، إلى النقطة المعاكسة لمكان وجودي تماماً. قالت بسرعة: هيا أسرعي واذهبي الآن، هيا واحضري لي مفتاح صندوق الموسيقى خاصتي.

ما الذي تقوله؟ لم أكن في تلك الزاوية أصلاً. لكن الجندي تراجع وأغلق الباب خلفه. ركضت بانر إلي بسرعة، وحين وقفت في مواجهتي ورفعت قنديلها، كان الرعب بادياً علي وجهها، سألتني: أما زلت صديقتي المخلصة؟ كان صوتها خافتاً وحزيناً. تحمل مفتاح صندوق الموسيقى في يدها، وقبل أن أفكر فيما كانت تريده قالت: أنت ويان ستغادران الليلة، دعيه يحتقرني ويفكر بأني خنته، عدا ذلك فإنه لن يرحل. عديني بذلك. أمسكت بيدي وكررت: عديني. أومأت برأسي موافقة. شاهدت بانر الحصاة في كفي. أخذتها مني، ووضعت المفتاح في راحتي بدلاً عنها. ثم صرخت بصوت عال ليسمعها الجنود: ماذا، هل نسيت المفتاح في الكوخ؟ يا للإهمال، خذي هذا القنديل واذهبي للحديقة، لا تعودي قبل أن تعثري على المفتاح.

كنت سعيدة لأنها قامت بحمايتي، همست لها: سوف تأتين معنا، الآن.

قالت بانر: أجل، حتى يقتلنا جميعاً وفي الحال. سأنتظر حتى يرحل، ثم سوف نعثر على بعضنا من جديد. تركت يدي ومشت في الظلام عائدة إلى الغرفة.

وجدت يان في الحديقة، كان قد دفن جثة لولو

قمت بتغطية التربة بأوراق الشجر، قال يان: أنت مخلوقة طيبة.

قلت: هكذا لن يعثر الجنود على القبر.

حين انتهيت، قال يبان: كان لولو يحمي البوابة، ويبقيها مغلقة عن كل شيء، لكنه لم يفلح في إغلاق فمه أبداً.

وافقت على كلام يبان، ثم تذكرت وعدي لبانر فقلت بصوت غاضب: إن الآنسة بانر هي المسئولة عن موته. لقد رمت نفسها بين ذراعي ذلك الخائن. ظل يبان يستمع إلي ويحدق في يديه الملوثتين بالتراب. لكزت يبان من ذراعه وقلت: يجب أن ترحل، أهرب، لماذا تموت لأجل خطايا هؤلاء الأجانب. لا أحد منهم جيد.

قال يبان: أنتِ مخطئة، الآنسة بانر تتظاهر بأنها تحب الجنرال، حتى تنقذنا جميعاً. لقد رأيت كيف يعرفها الجنرال جيداً، وكيف اضطررت للكذب.

قلت ليبان ساخرة: اعذرني، لكنني سأخبرك بالحقيقة، لقد قالت لي الآنسة بانر أنها تتمنى أن يعود الجنرال لأجلها في أي وقت. بالطبع كانت مغرمة بك، لكن هذا لا يعادل نصف غرامها بالجنرال كاب. هل تعرف لماذا تحبه أكثر منك؟

لأنك نصف أجنبي. هكذا هم الأمريكيون. إنها تحب كاب لأنه من نفس طينتها وبلدها. لن تستطيع بسهولة أن تغير طبيعتها الملوثة.

ضم يبان قبضتيه، وبدا وجهه حزيناً. بل حزيناً جداً. كان هذا جيداً، لن أضطر للكذب عليه أكثر بشأن الآنسة بانر. وافق يبان على أن نرحل.

قبل رحيلنا، ذهبت إلى الزاوية الشمالية من الحديقة، حفرت وأخرجت جرة تحوي بيضتين، لم يكن هنالك وقت للحفر أكثر وإخراج المزيد. قلت: سوف نذهب للجبال، حيث يوجد مئة كهف يمكن أن نختبئ فيها، إنني أعرف الطريق جيداً. أطفأت القنديل وأعطيته إلى يبان. انتظرنا قليلاً، ثم تسللنا من الباب المؤدي إلى الزقاق الخلفي. لم نمش

داخل القرية، تسللنا من بين الأشجار، بمحاذاة الطريق التي تؤدي إلى الجبل. حين وصلنا، وبدأنا طريقنا نحو أول مرتفع، بدأ قلبي يخفق بشدة. خفت أن يرانا الجنود، يبان أسرع مني لأنه رجل، بدأت أتسلق بسرعة، كنت معتادة على وعورة الجبال التي ولدت فيها، عندي رجلان جبليتان. حين وصلت إلى الممر المؤدي إلى قمة الجبل، انتظرت يبان حتى يصل. من بعيد، بدا بيت التاجر الشبح مظلماً. تخيلت الآنسة بانر تحدق في الظلام. وتتساءل إذا ما كان يبان بخير. تذكرت زينج، يا ترى، هل رأى الجنرال كاب ورجاله فهرب إلى الجبال لوحده. في تلك اللحظة، سمعت صوتاً من الخلف يناديني: نونومو؟

نعم، قلت واستدرت. رأيت ظلاً يخرج من الأخدود في نهاية القناة التي تؤدي إلى قمة الجبل. قلت بسعادة: زينج، ها أنت إذن. لقد كنت قلقة على كل قطعة منك. لقد انتظرناك، لكن الجنود حضروا فجأة. قاطعني قائلاً: هيا بنا ولا تضيعي الوقت بالحديث، هيا تعالي معي، من هذا الطريق.

لم يزل جباناً، لم يمنحني الوقت لأقول له أنه كنزي الوحيد، وها قد عثرت عليه مجدداً. مشينا معاً، حاولت أن أريه كم أنا سعيدة بلقائه، قلت: حين لم تحضر، ظننت أنك غيرت رأيك. بل وربما أخذت معك امرأة أخرى، بعيني اثنتين. كنت أمشي متخفية في الأخدود، أما زينج، فكان قربي يمشي متلمساً خطواته قرب الجدار الضخم، ويشير لي بين حين وآخر أن أتبعه. قال زينج: لا تقتربي أبداً من حافة الوادي، ظلي في الطريق الممهدة. طلبت من زينج أن ينتظر قليلاً، لأن شخصاً آخر سوف يجيء معنا. توقف زينج عن المشي، ثم سمعت زوجي الجديد يقول: نونومو، سأتوقف لأجلك، لكن إن قتلني الجنود الليلة، فسأتوقف هنا للأبد.

قلت لزينج: ما هذا! لا تمزح بهذه الطريقة. لقد قتل الجنود لولو الليلة. لم أر مشهداً مرعباً مثل مقتله من قبل. بعد لحظات، ظهر يبان.

قال زينج: مع من تتكلمين الآن؟

- هل ترى؟ ها هو وصل أخيراً. زينج لم أعد أراك، أين أنت، الظلام حالك، لوح لي فقط، انتظر ولا تذهب.

- ما زلت مكاني، وسأنتظرك هنا إلى الأبد. سمعته يهمسها في أذني هذه المرة، لم يكن يمزح، أدركت أنه مات حقاً. كان شبح زينج يحدثني من عالم ين!

وصل يبان إلي أخيراً وقال بصوت لاهث: ماذا هناك؟ أين هو ؟

وضعت يدي على فمي حتى لا أصرخ: إني مخطئة، ما رأيته كان مجرد ظل. كنت أبكي، ولولا الظلام، لشاهد يبان دموعي. ليس هنالك فرق لو مت الآن أو لاحقاً. لكنني قطعت وعداً للآنسة بانر. كنت سأعود لبيت التاجر الشبح، لكن يبان معي الآن. ينتظر أن أقوده إلى بر الأمان.

قلت: هيا بنا، إلى قمة الجبل. مشيت مع يبان بين الصخور والشجيرات. بدأ يتحدث معي، بدا أنه يشبهني، صار يتحدث معي عن الناس الذين فقدهم وعن مدى حزنه لذلك. وأنه قد يلتقي الآنسة بانر من جديد ذات يوم، أما أنا فلم يكن لي من أمل مع زينج. لكنني سمعت شبح زينج يقول: نونومو، كيف تقررين المستقبل؟ ماذا عن الحياة التالية، ربما نتزوج في حياة أخرى؟سمعت كلمة زواج، هل قال زواج!؟ بعد أن مات فقط، كدت أسقط عن حافة الجبل إلى الوادي.

أضاف شبح زينج: لن أذهب قبل أن أقودك إلى كهف تحتمون فيه. استخدمي عيناي في هذا الظلام.

خلال لحظة، تمكنت من الرؤية بعيني المعطوبة، وأمامي، رأيت بقعة نور تنتقل وسط ظلام الليل. قلت ليبان: هيا اتبعني فوراً. وركضت مثل جندي في الظلام.

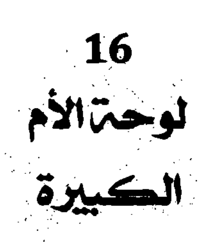
بعد ساعات قليلة، وصلنا، دفعت أغصان الشجيرات الكثيفة بيدي، وصعد يبان أولاً، نظر إلي وقال: الأرض ليست عميقة، الكهف لا يمتد سوى لبضع خطوات إلى الداخل، بالكاد يتسع حتى يمر شخص واحد. كدت أشتم زينج في خيالي، كيف يقودنا إلى كهف ضحل ومكشوف كهذا. لكن يبان عاد وقال أن هنالك صخرتان تسدان المدخل وتجعلانه غير مكشوف، يمكننا العبور من خلالهما. صعدت حتى صرت بجانب يبان. وبدا أن الأرض تنحدر عميقاً إلى داخل الكهف. أشعلت القنديل، قلت ليبان: اتبعني إلى الأسفل بحذر الآن، هذا هو الكهف المنشود. بدت الطريق للأسفل طويلة ومتشعبة، في الكهف أكثر من فتحة في أكثر من اتجاه، شبح زينج ظل مصراً أن كل الفتحات توقد للأسفل. قال: اختاري دوما الفتحة التي تكون صخورها رطبة، اتبعي الماء دوماً. في الفتحات الضيقة، الواسعة لن تقودك لشيء، امضي قدر ما تستطيعين، حتى يصير الهواء منعشاً.

ظللنا نعبر من فتحة إلى أخرى، وننعطف من زاوية إلى أخرى، حتى رأينا ضوءاً! يشبه نوراً سماوياً. حين اقتربنا، في وسط الكهف، كانت بحيرة صغيرة تحتل المكان. الكهف الذي كان ضيقاً، يتسع في جوفه لألف إنسان ربما! بدا المكان حول البحيرة مثل قاعة فسيحة ومضيئة. لم يكن مثل ضوء شمعة أو قنديل، أظنه ضوء القمر يتسلل من فتحة ما. لكن يبان اعتقد أن حمماً بركانية ربما تشع في الأسفل تحت الماء! عدت وقلت أنها ربما تكون أشباح البحيرة ذات العيون المشعة، أو أن نجماً ما سقط ذات يومٍ وسقط ما تبقى منه في هذه البحيرة لينطفئ على مهل.

سمعت شبح زينج يقول: الآن لن تضيعي، تستطيعين إكمال الطريق لوحدك. سوف أرحل الآن.

لكنني سمعت صوت يبان يرد!: لن أتحرك من هنا.

انتظرت شبح زينج ليعود ويكلمني. لكن، لا شيء، لم أسمع شيئاً. ولا حتى مع السلامة يا حبيبة قلبي، أو، إلى اللقاء في حياة أخرى. هذه هي مشكلة أناس ين. لا يلتزمون بشيء، يأتون متى ما يشاؤون ويذهبون متى يشاؤون، بعد موتي، لن يسلم زينج من نقاش طويل معي بهذا الشأن. وحينها سوف أخبره بما قلته لك الآن، آه يا جدتي، بموتك، أشعر أني ضائعة الآن.



16
لوحة الأم الكبيرة

بقيت أستمع إلى كوان التي ظلت تتحدث عن الأم الكبيرة (الجدة) حتى احمرت عيناي من النعاس، فيما ارتاحت كوان أخيراً.

في الصباح، ركبنا مع روكي في سيارة كبيرة، وفي المقعد الخلفي، تمدد الجسد المكفن للجدة. طوال الطريق، وعند كل تقاطع أو منعطف، تصاب السيارة بالعطب ثم تتوقف، فيهبط روكي، يكشف غطاء المحرك ويبدأ بفحص قطعها المعدنية محاولاً إصلاح العطل. وحين كان يشعر بالعجز، والانزعاج من أبواق السائقين الذين يقفون خلف السيارة منتظرين يبدأ بشتيمتها: اللعنة على كل قطعة فيك أيتها الدودة الهرمة. هذه اللعنة، كانت تجعل السيارة تعمل بطريقة أو بأخرى. كانت البرودة شديدة، والسيارة من الداخل مثل صندوق ثلج. لكن روكي لم يقم بتشغيل التدفئة بسبب الجثة.نظرت من النافذة، كان الضباب يرتفع من السواقي المحفورة على جانب الطريق حيث ينساب الماء. يمتد الضباب حتى يغطي القمم البعيدة للجبال. لم يكن المشهد ينبئ بيوم جيد على الإطلاق.

جلست كوان في الخلف قرب جثة جدتها، وظلت تثرثر معها كأنهما مجرد فتاتين في طريقهما إلى المدرسة. جلست في المقدمة، وجلس سيمون

خلفي يتحدث مع روكي محاولاً الاندماج مع أفكار الطبقة الكادحة. بقيت قلقة، أراقب طريقة روكي في قيادة السيارة. حين خرجنا منالفندق في الصباح، ووضعنا أغراضنا في السيارة قلت لسيمون: الحمدلله لأن هذه ستكون الرحلة الأخيرة مع روكي.

نظرت كوان إلي باستنكار وقالت: لا تقولي أنها الرحلة الأخيرة، هذا نذير شؤم.

سواء كان ذلك نذير شؤم أو لا، على الأقل سنتوقف عن التنقل جيئة وذهاباً إلى تشانجميان. سوف نظل في القرية مدة أسبوعين، وسنسكن في بيت الجدة، الذي قالت كوان أنها دعتنا لنبقى فيه، حتى قبل موتها. ظل صوت كوان وهي تتحدث للجدة الميتة يعلو على صوت السيارة الخربة. هل ترين يا جدتي، هذه السترة، تبدو من الصوف، لكنها ليست كذلك، إنها من قماش بلاستيكي تصنعه الآلات. بالطبع، قالت كوان كلمة حياكة بشكل خاطئ، سوف تظل كوان للأبد تتحدث بطريقتها الخاصة بالإنجليزية. أخذت تشرح لجدتها أنها لم تعد تعاني مع الغسيل في كاليفورنيا: هناك، لا يمكن لك تعليق الغسيل على شرفتك أو في حديقتك، هذا ممنوع، تقوم الآلات بغسيل وتجفيف كل شيء، لو فعلت ذلك، سوف يقوم الجيران بالاتصال برجال الشرطة، من العار أن تعلقي الغسيل. لا توجد حرية في أمريكا كما تظنين، هنالك أشياء ممنوعة، لن تصدقيها، رغم أن هنالك بعض القوانين الجيدة، لكنك لا تستطيعين التدخين في مكان عام، ما عاد السجن، ولا تستطيعين رمي قشر البرتقال في الشارع. من الممنوع أن يتبول طفلك في زقاق إن اضطر لذلك. لكن القوانين تزداد سخافة حين يكون ممنوعاً الكلام في المسرح أو تناول وجبة دسمة فيه!..

زاد روكي من سرعة السيارة، وعدت لأقلق أكثر، ليس بشأن كلام كوان وعقليتها الغريبة فقط، بل كذلك خوفاً من أن يرتفع جسد الجدة ويرتطم بالسقف بسبب إهمال روكي.

تابعت كوان لجدتها: لا يمكنك جعل أطفالك يعملون كذلك. هذه هي الحقيقة، هل تتذكرين حين كنت تجعلينني أجمع الحطب؟ أنا أتذكر جيداً، كان علي أن أبحث في كل المكان خلال الشتاء. أمشي في كل اتجاه، تتجمد أصابعي من البرد. ثم تقومين أنت ببيع حزم الحطب إلى البيوت الأخرى وتقبضين المال وتحتفظين فيه لك وحدك. لا، أنا لا ألومك. في ذلك الزمن، كان على الجميع أن يعملوا بجد. لكن لو أننا كنا هنا في أمريكا، لوضعوك في السجن لمعاملتك إياي بهذه الطريقة. أجل، وربما لأنك كنت تصفعينني بين حين وآخر وتقرصين خدي بأظافرك. هل تتذكرين ذلك؟ انظري للندبتين على وجهي، لا تزولان، مثل عضة فأر. ثم إنني تذكرت الآن أنني لم أرم كعكتي الأرز للخنازير، ولم أفعل هذا؟ لا داع للكذب عليك الآن، تماماً مثلما أخبرتك في ذلك الحين، لقد سرقت خالتي الثالثة (وو) الكعك، رأيتها تقطع الكعكة المكسوة بصبغة خضراء، كانت تتناول قطعة صغير في كل مرة، تستطيعين سؤالها عن ذلك، لأنها ولا بد، ماتت منذ زمن. اسأليها لماذا كذبت وادعت أنني رميتهما بعيداً.

ظلت كوان صامتة بعد ذلك، امتد صمتها لما يقارب عشر دقائق، وظننت أنها تتعامل مثلما يفعل الصينيون، لا بد أنها منحت جدتها ونفسها بعض الوقت للتفكير. حين خرجت كوان عن صمتها قالت لي: ليبي، لقد سألتني الجدة إن كنت تستطيعين التقاط صورة لها؟ لقد قالت أنها لم تحظَ بصورة واحدة جيدة خلال حياتها. وقبل أن أفكر بالرد حتى، تابعت كوان نقل حديث شبح جدتها: تقول أن مساء اليوم هو الوقت الأفضل لالتقاط

صورة لها، بعد أن ألبسها حذاءها وأفضل ما لديها من ملابس. ابتسمت كوان وهي تنظر لجسد جدتها المكفن ثم أضافت: إن جدتي عاجزة عن شكرك، وسعيدة لأننا نملك مصورة شهيرة في العائلة.

- لكنني لست مشهورة.

- لا تناقشي كلام الجدة، بالنسبة لها، أنت مشهورة، وهذا هو المهم.

مال سيمون بجسده عن مقعده ثم قفز بخفة حتى صار بجانبي. مال إلي وقال هامساً: لن تلتقطي صورة لجثة، لن تفعلي، أليس كذلك؟

- ماذا سوف أقول، هل علي أن أعتذر ببساطة؟ لأنني لا أصور الأموات.

- لكن يمكن أن أدلك على أحد يفعل ذلك!!

قال سيمون: ربما لن تكون صورة جميلة جداً لميتة.

- طلبت من سيمون أن يتوقف عن المزاح: أنت تعرف جيداً أن هذه أمنية كوان وليست أمنية جدتها، لا داع لقول أشياء لا داع لقولها. انتبه إلى أننا في الصين، وقد حدثت لنا كل الأشياء الغريبة هنا، مع أننا في اليوم الثاني فقط من رحلتنا إلى الصين.

حين وصلنا لتشانجميان، قامت أربع نساء كبيرات في السن بخطف الحقائب، وحين اعترضنا، ضحكن وسخرن قائلات أن أي واحدة منهن أقوى من ثلاثتنا مجتمعين. اتخذنا طريقنا بخفة في متاهة من الشوارع الحجرية والأزقة الضيقة حتى وصلنا إلى بيت الجدة. بيوت القرية متشابهة، مجموعة من الأكواخ الحجرية المغطاة بالطوب الحجري المطلي. فتحت كوان البوابة الخشبية فيما اجتزت مع سيمون العتبة إلى الداخل. في وسط الساحة

المفتوحة على السماء، عجوز ضئيلة الجسم تصب الماء من خرطوم في يدها إلى دلو كبير. نظرت إلينا بدهشة في البداية، ثم فغرت فمها فجأة حين رأت كوان، ندت صرخة عن فمها فيما كانت عيناها تدوران في المكان وهي تغمضهما وتفتحهما مثل ضفدعة تراقب الذباب. رحبتا ببعضهما على الطريقة الصينية، احتضنتا بعضهما وربتت كل واحدة على خصر الأخرى.بعد ذلك، اتجهت المرأة إلى الموقد المطفئ في طرف الساحة عند الجدار، نظرت لكوان بوجه مكفهر وحزين. بدا أنها تعتذر لأنها لم تجهز المنزل جيداً لاستقبالنا، لم تشعل النار أو تحضر الطعام، لقد أرادت أن يكون كل شيء جاهز لاستقبالنا.

قالت كوان: هذه دو ليلي، صديقة العائلة منذ زمن طويل. وقالت كوان لي ولسيمون كيف أن دو ليلي ذهبت البارحة إلى الجبال وقطفت الفطر لأجلها لكنها حين عادت وجدت كوان وقد غادرت من جديد. خفضت دو ليلي رأسها وتغضن وجهها ببعض الأسى وكأنها كانت تفهم ما تقوله كوان بالإنجليزية وتشعر بالحرج لفوات موعدها الأول مع كوان.

قالت كوان: لقد عشنا معاً منذ وقت طويل، إنها تتحدث لغة المندرين. واستدارت كوان إلى دو ليلي ثم قالت: أختي ليبي تتحدث لغة المندرين، لكن بلكنة غريبة بعض الشيء، تتحدث بلكنة أمريكية. كلماتها وأفكارها تعود للماضي دوماً، سوف ترين بنفسك. أما هذا الواقف أمامك، هو زوجها سيمون، إنه مثل الأطرش والأخرس، لا يعرف سوى الإنجليزية. وبالطبع، هما نصف صينيين.

قالت دو ليلي متعجبة مرة أخرى: آه، نصف صينيين فقط، وكيف يتحدثان إلى بعضهما البعض إذن؟

- باللغة الأمريكية بالطبع.

تعجبت دو ليلي ونظرت بشكل مشمئز من جديد، كأنها تنتظر أن يتقشر نصفي الصيني عن وجهي في الحال وتتغير ملامحي.

هل تفهمين ولو القليل من لغتنا؟ سألتني دو ليلي ببطء بلغة المندرين. أومأت برأسي على أنني أفهمها. فقالت بسرعة هذه المرة: أنت نحيفة جداً، لماذا أنت نحيفة هكذا؟ ظننت أن الناس في أمريكا يأكلون كثيراً. هل أنت مريضة؟ وجهت كلامها إلى كوان بعد ذلك وقالت: كوان، لماذا لا تطعمين أختك الصغيرة ؟!

دافعت كوان عن نفسها قائلة: لقد حاولت كثيراً، لكن جميع الفتيات الأمريكيات يردن أن يصرن نحيفات. بعد ذلك، علقت دو ليلي على سيمون: إنه يبدو مثل نجوم السينما، ووقفت دو ليلي على أطراف أصابعها حتى ترى سيمون الطويل بشكل أفضل! حدق سيمون فيها وقال لي: ترجمي لي ما قالته رجاء؟

قلت: إنها تظن أنك ستكون زوجاً مناسباً لابنتها، قلت ذلك ونظرت إلى كوان محاولة إبقاء وجهي جدياً. فتح سيمون عينيه مستغرباً. كانت تلك هي اللعبة التي لطالما تسليت معه فيها في أيام زواجنا، أعطيه ترجمة زائفة، فيرد هو، إلى أن يخطأ أحدنا وتنكشف الكذبة. أمسكت دو ليلي بيد سيمون وقالت: تعال معي للداخل، سأريك شيئاً. تبعناهما أنا وكوان، قلت لسيمون: يجب عليها أن تتفحص أسنانك أولاً. هذا أحد شروط الخطبة. كنا نقف في غرفة لا تقل مساحتها عن اثني عشر قدما مربعاً، تلك الغرفة الوسطى كما قالت دو ليلي. كانت الغرفة مظلمة وبالكاد مفروشة، فيها مصطبتان عاليتان وطاولة خشبية في الوسط، إضافة لبعض الجرار

والسلال. السقف متقشر، ومن دعائمه تتدلى حبال معلق عليها اللحم والفلفل المجففان. لا يوجد مصدر إضاءة. الأرضية من الطين المخلوط بالاسمنت. أشارت دو ليلي إلى مسندة الصلاة التي كانت مسنودة إلى الحائط وطلبت م نسيمون أن يقف عندها بالضبط.

إنها تريد أن ترى إذا ما كانت الآلهة ستوافق عليك في البداية، قلت ذلك لسيمون وغمزت كوان التي كانت ستهم بالكلام. فوق الطاولة، لوحة مثبتة بالمسامير بإطار وردي وفي المنتصف صورة ماو مع شريط اصفر قرب جبهته. وعلى يسار اللوحة، صورة مشققة بإطار مذهب للمسيح، ويداه مرتفعتان تجاه هالة من الضوء. بجانب الصورتين، تقبع الصورة التي أرادت دو ليلي من سيمون أن يراها، كانتا تقويماً مزيناً بصورة معتقة لبروس لي، كبطل ومحارب قديم. كانت الصورة مكسوة بلون أخضر. قالت دو ليلي: هل ترى نجم السينما؟ أظنك تشبهه. شعر كثيف، عينان متحديتان. وفم قوي، تمام مثلك، إنه جميل جداً.

حدقت في صورة بروس لي ثم نظرت إلى سيمون الذي كان ينتظر أن أترجمه له ما قالته دو ليلي. قلت لسيمون: إنها تقول أنك تشبه أكثر المجرمين المطلوبين للعدالة على قائمة الصين. لتنسى أمر الزواج، سوف تحصل هي على ألف يوان في حال قامت بتسليمك.

نظر سيمون إلى الصورة ثم إلى نفسه وقال: أنا؟ ثم حرك رأسه نافياً ودافع عن نفسه بلهجة انجليزية بسيطة: أنا الشخص الخطأ، أنا أمريكي، شخص لطيف، أما ذلك الرجل في الصورة فسيء. إنه شخص آخر غيري.

لم أستطع الحفاظ على خدعتي لسيمون فضحكت أخيراً. أما سيمون فأعلن بفرح: لقد فزت أنا. لم تستطيعي الصمود أكثر. ترجمت كوان مزاحنا

إلى دو ليلي. بقينا أنا وسيمون نبتسم لبعضنا لبضع لحظات، لم تمر لحظة لطيفة وحميمة كهذه بيننا منذ زمن طويل. لا أتذكر في أي وقت من زواجنا انجرفنا معاً إلى السخرية المقيتة بدلاً عن الحب.

قلت: في الحقيقة، ما قالته دو ليلي هو أنك جميل مثل بطل الأفلام هذا.

ضم سيمون يديه إلى بعضهما وانحنى شاكراً دو ليلي. انحنت دو ليلي بالمقابل وبدت سعيدة لأنه فهم مجاملتها أخيراً. قلت لسيمون: هل تعرف أنك تبدو أجمل تحت الضوء، تبدو مختلفاً لسبب ما.

قال سيمون مندهشاً: كيف؟ أخبريني. نظر إلي وعيناه ترقصان جذلاً.

شعرت أنني خرقاء، قلت: لا أعرف تماماً. همهمت واحمر وجهي من الحرارة. ربما تبدو صينياً أو شيئاً كهذا. قلت هذا واستدرت عن سيمون، حاولت التظاهر بأنني مهتمة بلوحة ماو.

قال سيمون: حسناً، تعرفين ماذا يقولون عن المتزوجين، إنهم يفقدون إعجابهم ببعضهم البعض مع تقدم الزمن.

بقيت أحدق في لوحة ماو، متعجبة فيما يفكر فيه سيمون فعلاً، قلت لسيمون: انظر، لوحة ماو موضوعة قرب لوحة المسيح! أليس هذا ممنوعاً في الصين؟

قال سيمون: ربما أن دو ليلي لا تعرف هذا، ربما تظن أن المسيح مجرد نجم سينما آخر، يبيع المصابيح الضوئية. كدت أسأل دو ليلي عن لوحة المسيح تلك لولا أن كوان استدارت فجأة وطلبت مني المجيء لأرى معها الأشخاص الذين دخلوا من الخارج. قالت كوان: هيا، تعالوا. بدأت كوان تستعجلنا لنقوم ببعض العمل ونساعد في نقل الأغراض.

هيا يا ليبي، هيا سيمون، أسرعا، وساعدا العمات. لكن العجائز المرنات دفعننا جانباً وجذبن الحقائب الثقيلة ثم دفعنها ووضعنها في الداخل بغضب. قيعان الحقائب كلها مغطاة بالتراب. قالت لي كوان: افتحي حقيبتك. وقبل أن أفكر حتى بالشكوى، فتحت كوان الحقيبة، لا بد أنها تبحث عن النقود لتقدم البقشيش. لكنها عثرت على علبة سجائري، فأعطت النساء كل العلبة. قمن بتمريرها بينهن، ثم وضعت إحداهن العلبة في جيبها، وها هن ينفثن دخان سجائرهن، خرجن من البيت وقد خلفن سحابة من الدخان وراءهن. سحبت كوان الحقيبة الكبيرة إلى غرفة مظلمة تقع في جهة اليمين. أشارت للغرفة وقالت: سوف ننام هنا. وطلبت مني أن ألحق بها. توقعت أنها سوف تكون غرفة شيوعية متجهمة ومتقشفة. لكن حين فتحت كوان الغرفة وسمحت لشعاع الشمس بالعبور، رأيت سرير زواج عتيقاً ومزخرفاً بشكل فاتن. كان السرير مطوقاً بناموسية رمادية شبه ممزقة. بدا السرير قطعة أثرية نادرة. يشبه كثيرا ذلكالسرير الذي تمنيت شراءه من شارع الاتحاد في كاليفورنيا. بدا مصنوعاً من ذات نوعية الأثاث التي تمتلكها كوان في بيتها. غطاء السرير مشدود بقوة فوق السرير. المخدات وكل شيء مطوي ومرتب بشكل تام. تمتمت: من أين أحضرت الجدة كل هذا؟

قال سيمون: بل من أين أتت خزانة الملابس الرخامية هذه، مرر سيمون أصابعه على الخزانة وقال: انظري لزخرفتها. مرآتها الفضية تعكس الأشياء بجمال كبير. لقد اعتقدت أنهم تخلصوا من كل هذا الأثاث الإمبريالي في عهد الثورة.

لوحت كوان بيدها بحركة عدم اهتمام: هذه الأشياء، إنها مصدر فخر، لقد تناقلتها عائلتنا لعدة أجيال. خلال الثورة الثقافية، أخفتها جدتي تحت كمية كبيرة من القش. وفي الظلام، هكذا استطاعت إنقاذها.

قلت لكوان: ومن أين حصلت العائلة على هذه الأشياء أصلاً؟

قالت كوان: الأصل يعود إلى سيدة من المبشرين، أعطت جدة أمنا هذه الأشياء مقابل خدمة كبيرة قدمتها لها.

قلت: وما هي هذه الخدمة التي تدين لها بها؟

- هذه قصة طويلة، آه، لقد حدثت منذ مئة عام تقريباً.

قاطعنا سيمون قائلاً: لعلنا نتحدث في هذا لاحقاً، هل أستطيع أن أرتاح الآن في غرفة النوم الثانية.

تطلعت كوان حولها ساخرة.

قال سيمون بخجل: حسناً يبدو أنه لا توجد غرفة نوم ثانية.

قالت كوان: الغرفة الأخرى تعود إلى دو ليلي، وليس فيها سوى سرير واحد صغير.

قال سيمون: إذن، أين يجب أن أنام؟ هل توجد أغطية إضافية، أو حتى أريكة. أشارت كوان بعدم اكتراث إلى وجود السرير. نظر سيمون إلي مبتسماً وهز كتفيه بأسلوب من يعتذر، وبدا واضحاً أن سيمون لم يكن جدياً أبداً.

قلت لكوان: بالكاد يتسع هذا السرير لشخصين، يمكن لنا الاثنتان أن ننام فيه. لكن يجب أن نجد سريراً آخر لأجل سيمون.

- ومن أين ستحصلين على سرير؟ قالت كوان هذا وحدقت في السقف فيما يداها منعقدتان على صدرها. كأن الأسرة قد توجد في الهواء الآن!

خفت من الفكرة وقلت: لا بد على واحد منا أن يعثر على شيء لينام عليه.

ترجمت كوان هذا الكلام إلى دو ليلي: التي عقدت يديها على صدرها بدورها وصمتت.

قالت كوان: أترين؟ لا شيء.

قال سيمون: لابأس، يمكنني النوم على الأرض.

ترجمت كوان إلى دو ليلي ما قاله سيمون بشكل صارم كأنها تتظاهر بالإنكار.

قالت كوان: هل تستطيع النوم مع الحشرات، والعناكب التي تلدغ؟! والفئران الكبيرة. توجد فئران كثيرة هنا. قد تقضم إصبعك. ثم صكت كوان أسنانها بحركة مريعة وقالت: لا، الحل الوحيد، هو أن ننام ثلاثتنا على هذا السرير، بكل حال سننام هنا لأسبوعين فقط.

قلت: هذا ليس حلاً.

بدت دو ليلي مهتمة بالأمر فهمست بشيء لكوان. عادت كوان وهمست لها وصارتا تتطلعان إلي وإلى سيمون كل بدوره. في النهاية شدتنا كوان من ذراعينا ودفعتنا جانباً كأننا شخصان كانا يتصارعان. قالت بلغة المندرين: اسمعاني أيها الأرعنين، لا نملك ما يكفي من الرخاء لأجل سخافتكما الأمريكية. استمعا إلى عمتكما دو ليلي، وفي الصباح، سوف تكونان دافئين وسعيدين كما كنتما معتادين.

قلت لها: أنت لا تفهمين الموضوع إذن.

لوحت دو ليلي بيدها، لم تقبل أياً من أعذاري الأمريكية،

زفر سيمون، وبدا واضحاً أنه مستاء: سوف أخرج وأقوم بجولة صغيرة ريثما تقررن ماذا سوف نفعل. بالنسبة لي، لست مهتماً، سواء نمت

بينكن الثلاث أو بين الفئران، القرار يعود إليكن. بدا ضيق سيمون من اعتراضي على النوم بقربه واضحاً، لكن هذا ليس ذنبي. خرج سيمون ولحقته دو ليلي موبخة إياه بالصينية: إن كانت عندك مشكلة، يجب أن تحلها، أنت الزوج، يجب أن تتحدث، ويجب عليها هي أن تستمع لما تقوله، فقط كن صادقاً واعتذر لها إن أخطأت. من غير المعقول أن لا ينام الرجل مع زوجته، هذا غير طبيعي.

سمعت كلام دو ليلي، ورغبت بالصراخ.

حدقت في كوان وقلت: أنت من خططت لكل هذا، أليس كذلك؟

قالت كوان منزعجة: لم أخطط لشيء، كل ما في الأمر، أننا في الصين، وهكذا هي الأمور هنا.

مرت لحظات من الصمت، اعتذرت بعدها بأنني أريد الذهاب لدورة المياه.

قالت كوان: في الخلف، إلى اليسار، توجد سقيفة صغيرة مغطاة من الأمام بحزم من الحطب هناك..

- تقصدين أنه لا توجد دورة مياه في البيت.

- كل ما أقوله، لا تتظاهري ولا تتصرفي بتذمر، هذه هي الصين.

* * *

تناولنا غداء بسيطاً من حبوب الأرز والصويا. وأصرت كوان أن تبقي لنا على ما تبقى من طعام لنأخذه معنا، بعد الغداء. توجهت كوان إلى القاعة العامة للقرية حتى تحضر لجنازة الجدة، أما انا وسيمون فقد افترقنا

كل واحد في اتجاه لنستكشف القرية. اخترت جهة قادتني إلى طريق حجري قادني إلى حقول واسعة ورطبة، رأيت مجموعة من البط وهو يمشي في صف منظم وباتجاه خط الأفق، لعل البط الصيني منظم أكثر من ذلك الأمريكي!؟ ربما أن صوتها مختلف أيضاً! التقطت مجموعة من الصور. سوف تجعلني الصور أتذكر فيما بعد، كل ما أفكر فيه الآن. حين عدت إلى البيت، قالت دو ليلي : الجدة تنتظر لتلتقطي صورتها، منذ أكثر من نصف ساعة. شدتني دو ليلي من يدي.

في الممر أشارت دو ليلي إلى الزاوية وقالت: هل ترين هذا المكان؟ هنا كنت ألعب مع كوان ونحن صغيرتان، كنا نتراشق بقشور الأرز. تخيلت دو ليلي نسخة مصغرة عن كوان في طفولتهما وبقيت أتطلع لتلك الزاوية الفارغة.

قالت دو ليلي: أحياناً كنا نصطاد أفراخ الضفادع، نستعمل مناديل الرأس كفخاخ، نقلبها ونتظاهر أنها مليئة بالوحل. بدت دو ليلي مثل طفلة. أضافت: كبار قريتنا يقولون أن على المرأة المتزوجة أن تبتلع فراخ الضفادع، ذلك جيد لتتحكم بالنسل والولادة.

التحكم بالنسل!

تابعت: لم أكن أعرف ما معنى هذا، لكن أختك قالت أنه يجب علينا أن نكون شيوعيين جيدين ونستمع إلى قادتنا، لقد ابتلعت تلك المخلوقات السوداء الصغيرة كما طلبت كوان.

قلت: لم تفعلي!؟

- بل فعلت، كيف يمكن لي أن أرفض، وكوان أكبر مني بشهرين.

- أكبر! قلت مستنكرة، كيف يمكن لكوان أن تكون أكبر من دو ليلي؟!

دو ليلي تبدو عتيقة وعجوزاً. كأن عمرها مئة عام. يداها قاسيتان، وجهها مليء بالتجاعيد عدا عن أنها فقدت نصف أسنانها، لا بد أن هذا ما يسببه عدم استخدام مادة مطرية بعد قضاء يوم طويل في العمل في حقول الأرز.

وضعت دو ليلي يدها على فمها وقالت: لقد ابتلعت الكثير من تلك الضفادع، حتى بت أسمع صوت نقيقها في حلقي، وحركتها تسبح في معدتي الآن. شعرت بها تنزلق إلى عروقي بعد حين. وتتجول في كل جسدي. ذهبت إلى طبيب في المدينة، سألني: أيتها الرفيقة دو ليلي، هل أكلت أفراخ الضفادع؟

يوجد التهاب في دمك! ضحكت دول ليلي للحظة ثم بدت كئيبة: أتساءل أحياناً إن كان هذا هو السبب الذي جعل أحداً لا يقبل الزواج مني. أعتقد أن هذا هو السبب. لقد عرف الجميع أنني ابتلعت أفراخ الضفادع ولن أنجب طفلاً.

نظرت إلى عيون دو ليلي الجميلة، وإلى جلدها الذي لوحته الشمس، وفكرت في الحياة الغير عادلة التي حظيت بها.

ربتت دو ليلي على يدي وقالت: لا تقلقي، إنني لا ألوم أختك. لقد شعرت بالسعادة في عدة مواقف لأنني لم أتزوج. لقد تجنبت المشاكل، وهموم العناية بالرجل، لقد سمعت أن نصف عقل الرجل موجود بين ساقيه، يا للهول! ووضعت دو ليلي يديها بين ساقيها ومشت مترنحة في سخرية. وقفت من جديد وقالت: أعتقد أنني كنت سأصبح أماً جيدة، أماً يقظة وصارمة بشأن الأخلاق.

قلت: وفي بعض الأحيان يسبب الأطفال عدة مشاكل.

وافقتني دو ليلي قائلة: أجل، يجلبون خيبة الأمل في بعض الأحيان.

تمشي دو ليلي بهدوء، على عكس كوان، من الواضح أنها حساسة أكثر. بدا أنها لا تتعامل مع عالم ين مثل كوان، أو على الأقل لم تتحدث عنه حتى الآن، و لكن، لعلها تتحدث عنه في أي لحظة.

سألت دو ليلي: هل ترين الأشباح؟

- هل تقصدين مثل كوان، لا، أنا لا أملك عيني ين.

- وهل من أحد آخر يرى الأشباح هنا في تشانجميان؟

هزت دو ليلي رأسها وقالت: لا، فقط أختك كوان.

- حين تحدثت كوان عن أشباحها، هل صدقها أحد؟

أشاحت دو ليلي بوجهها بعيدا عني وبدت غير مرتاحة. حاولت حث دو ليلي لتتحدث بأريحية، قلت: بالنسبة إلي، لا أؤمن بالأشباح، أؤمن أن الناس يرون فقط ما يأملون فيه بقلوبهم. الأشباح تأتي من الخيال والتراث. بماذا تؤمنين أنت؟

قالت دون أن تنظر إلي، وما المهم فيما أؤمن فيه؟ خفضت دو ليلي جسدها ومسحت طرف حذاءها الذي لوثه الوحل. قالت: في الحقيقة، يبدو الأمر أننا طوال السنين الماضية، ظل الآخرون يخبروننا بمايجب أن نؤمن به. الله وأتباعه، ماوتسي تونغ. وباقي القادة الأبطال الميتين. بالنسبة إلي، أؤمن بما هو عملي. والذي يسبب أقل قدر من المشاكل، معظم الناس هنا على هذه الشاكلة.

أردت جعل دو ليلي تتكلم أكثر فقلت: إذن أنت لا تؤمنين بشبح الجدة التي رأته كوان في تشانجميان.

وضعت يدها على ذراعي وقالت: الجدة كانت صديقتي، وكذلك أختك. ولا يمكن لي أن أدمر هذه الصداقة. ربما أن شبح الجدة هنا، وربما لا. ما المهم؟ هل تفهمينني؟

ظللنا نمشي، فكرت: هل استحوذت طريقة تفكير الصينيين على عقلي؟ ها هي دو ليلي تعاملني بخبث ولو قليلاً. ربما صرت أشبه أولئك الطلاب الذي جاؤوا إلى تشانجميان في الثورة الثقافية، حالوا جعل البغال تتناسل، معتقدين أنهم أذكياء في كل شيء، واثقين من كل شيء، وانتهى بهم الأمر ليكونوا سخرية الجميع.

وصلنا إلى بوابة القاعة العامة فيما المطر يهطل بقوة ضارباً الأرض، وضارباً عظام صدري أيضاً. اندفعنا مسرعتين إلى داخل الساحة، عبرنا الباب الداخلي الذي قادنا إلى غرفة شديدة البرودة، هواؤها راكد وقديم. حتى أنها بدت ضبابية وشعرت كأنها مبنية من بقايا عظام جمعت منذ مئات السنين. طقس غيلين الخريفي المعتدل، ولى مبكراً كما يبدو، أرتدي بعض الملابس تحت رداءي الخفيف، لكن أسناني تصطك من البرد، أصابعي ترتجف. كيف لي أن ألتقط أي صورة هذا المساء؟!

عشرات الناس متواجدون في القاعة، كانوا يعلقون ستائر بيضاء على الجدران ويوزعون الشموع في المكان لأجل الجنازة. علت أصواتهم على صوت المطر، وصداها كان يتردد في القاعة الكبيرة. رأيت كوان تقف أمام الكفن، ما إن وصلت إليها، حتى شعرت بالاشمئزاز من فكرة التقاط الصورة. لا بد أنالعجوز الميتة تحمل نظرة بيضاء شديدة البرودة. نظرت إلى

كوان إلى الكفن، أراحني أن وجهها كان مغطى بورقة كبيرة، قلت لكوان بكل احترام: لا بد أن الحادث تسبب في تشوه وجهها.

قالت كوان باستغراب: أتعنين تلك الورقة؟ بالطبع لا، هذه مجرد عادة.

سألت كوان: لماذا؟

همت كوان بالحديث لكنها رفعت رأسها للأعلى في البداية، حتى ظننت أن إجابتها سوف تهبط من السماء إلى أذنها حتى تجيبني. قالت كوان: في حال تحركت الورقة، فهذا يعني أن الشخص لم يزل يتنفس. وهذا يعني أن الوقت لم يزل مبكراً لدفن جسده. لكن الجدة، ماتت بالتأكيد.

قالت كوان هذا ولم تمنحني الوقت لأكون جاهزة، سارعت ورفعت الغطاء.

لم تبد الجدة مرعبة حقاً. حاجباها جعل وجهها يبدو قلقاً، فيما التوى فمها فيما يشبه تكشيرة أبدية. كنت أظن أن عضلات الإنسان ترتخي بمجرد موته، مما يعلهم يبدون هادئين وممتنين.

قلت لكوان بالصينية، فمها، الطريقة التي ينحني فيها، يبدو أن لحظة موتها كانت مؤلمة جداً. انحنت كوان ودو ليلي معاً وحدقتا في وجه الجدة. قالت دو ليلي: ربما يكون هذا صحيحاً، لكنها الآن تملك ذات التعبير حين كانت على قيد الحياة، هذا الالتواء في فمها، لطالما كان موجوداً.

قالت كوان: نعم، حتى قبل أن أغادر الصين، كانت هكذا. قلقة وغير راضية في نفس الوقت.

قلت: لعلها كانت ثقيل الوزن؟

قالت كوان: لا، أنت تظنين هذا لأنها ترتدي سبع طبقات من الملابس، هكذا نقوم بتحضيرها إلى رحلتها للعالم التالي. خمس منها ترتديها في جزءها السفلي. لاحظت أن كوان اختارت سترة تزلج وألبستها لها فوق جميع الملابس. وكان لونها بنفسجياً وعليها بعض الرسوم والتفاصيل ذات النمط الغربي. تذكرت انه كان أحد الهدايا التي اشترتها من متجر ماكاي قبل سفرنا. أرادت أن تفاجئ جدتها فيه. كانت علامة السعر بارزة، تثبت أن السترة ليست من صنع اليد.

قلت: السترة جميلة، أتمنى ارتدائها حتى.

قالت كوان لفخر: أجل، وعملية أيضاً، لأنها مضادة للمياه.

- هل تقصدين أنها تمطر في العالم الآخر.

- بالطبع لا، الجو هنالك ثابت، ليس حاراً ولا بارداً.

- إذن لماذا قلت أن السترة مضادة للمياه؟

حدقت كوان بي وكانت نظرتها فارغة: لأنه...

ضممت أصابعي ونفخت في يدي من البرد ثم قلت: ما دام الطقس معتدلاً في العالم الآخر، لماذا تحتاج هذه السترة وسبع طبقات من الملابس يا كوان؟

كررت كوان السؤال للجدة الميتة، تحدثت بالصينية وأومأت برأسها كأنها تتحدث على الهاتف. نعم ، أجل، ظلت كوان تكرر هاتين الكلمتين.

ترجمت كوان لأذني المتحفزتين: تقول الجدة أن أشباح عالم ين ومعتقداتها ظلت ممنوعة من قبل الحكومة لفترة طويلة، ولهذا فقد نسيت الكثير ونسيت ما معنى أن ترتدي كل هذه الملابس.

- والآن، هل سمحت الحكومة بالإيمان بأشباح ين؟

- لا، إنهم فقط لم يعودوا يفرضون الغرامة عليهم لأنهم يجعلون الناس يعودون إلى العالم من جديد. المهم أن الفكرة صحيحة، يجب ارتداء خمس أو سبع قطع من الملابس، بل وقطعتان إضافيتان في الجزء العلوي بالتحديد. تعتقد الجدة أن هذا مرتبط بعدد أيام الأسبوع. طبقة من الملابس لكل يوم. في الماضي، كان الناس ينعون أقاربهم لسبعة أسابيع، لو ضربنا سبعاً بسبع، ستكون تلك 49 يوماً، اليوم صرنا سيئين مثل الأجانب، ويكفينا العزاء لبضعة أيام فقط.

- ولكن لماذا خمس طبقات على جزءها السفلي فقط؟

ضحكت دو ليلي وقالت: هذا يعني أن هنالك يومين سوف تتجول الجدة فيهما في العالم الآخر بمؤخرة عارية. قالت دو ليلي هذا وغرقت في ضحكة كبيرة مع كوان حتى أن الناس في القاعة انتبهوا وأخذوا يحدقون فيهما.

قالت كوان محاولة أن تكتم قهقهتها: توقفي كفى.

سوف تلعننا الجدة. إنها تقول أنها لم تمت منذ مدة طويلة حتى يحق لنا أن نمزح بشأنها. حين استعادت كوان تركيزها قالت: الجدة كانت تفضل الرقم خمسة، كانت تعتقد ان العناصر الأساسية للأرض خمسة، النكهات الأطيب خمسة، وكذلك الألوان. والحواس، والمشاعر.

توقفت كوان وتحدثت إلى جثة الجدة: لا توجد خمس عواطف، بل أكثر بكثير، وبدأت كوان تعد على أصابعها: الحب، الخوف، الكره، الرغبة، الغضب... ثم حاولت إضافة عاطفة سادسة: ما هي؟ أجل أجل، الحزن. كيف لي أن أنسى يا جدتي؟ إنني بالطبع حزينة الآن لأنك غادرت هذا

العالم، كيف يمكنك سؤالي عن هذا؟ لقد بكيت الليلة الماضية. ليس استعراضاً فقط، لقد رأيتني أبكي. كان حزني حقيقياً، لا مزيفاً، لماذا لا تصدقين إلا الأشياء السيئة عني دائماً؟

قالت دو ليلي: لا تعودا للشجار من جديد، أنت ميتة الآن! نظرت دو ليلي إلي وغمزت بعينها.

قالت كوان لجثة الجدة: لا، لن أنسى الديك الراقص، ولا الدجاجة ولا البطة. إنني أعرف أصلاً.

إنها تريد أن يتم ربط ديك إلى كفنها!

سألت كوان: لماذا؟

قالت كوان لجثة الجدة: ليبي تريد أن تعرف. قالت كوان بعد دقيقة: هي لا تتذكر لماذا بالضبط، لكنها تفترض أن شبحها سوف بتقمص الديك ويذهب بعيداً.

قلت: وهل تصدقين هذا؟

بالكاد ابتسمت كوان وهي تقول: بالطبع لا. حتى الجدة لا تصدق ذلك، هذه مجرد خرافة!

قلت: ما دامت لا تصدق، لماذا تريد ذلك إذن؟

- لأنه تقليد فقط. وأيضاً لتخويف الأطفال ، حتى يصيروا مؤمنين، حتى أنتم في أمريكا تفعلون ذلك!

- لا، لا نفعل.

نظرت كوان نظرة الأخت الكبيرة العارفة وقالت: ألا تتذكرين؟ لقد أخبرتني حين جئت لأول مرة إلى أمريكا أن أرانب الفصح تخفي البيض ثم يذهب الموتى للبحث عنها في الكهوف.

- كررت: لا، لما أفعل.

- بل فعلت، وقلت أنه لو لم أستمع إليك، فسيأتي سانتا كلوز عبر المدخنة ويضعني في حقيبة. ثم سوف يحملني إلى مكان بارد جداً، أكثر حتى من الثلاجة.

دافعت رافضة ما قالته كوان، لكنني استعدت في ذاكرتي الخدعة التي ماريتها على كوان يوم عيد الميلاد. قلت: ربما أسأت فهم ما قلته لك في ذلك الحين.

وضعت كوان يدها على فمها وقالت: أنا أختك الكبرى، هل تظنين أني لن أفهم ما تقصدينه من كلامك، بكل حال، لا تهتمي الآن. لا داع للمزيد من الثرثرة، لقد حان وقت التقاط الصورة للجدة. حاولت صرف نظري عن كوني سألتقط صورة لميتة، قرأت مؤشر الإضاءة، وبدون شك، لم يكن من موضع لحامل آلة التصوير إلا قرب الإضاءة البسيطة التي تمدني فيها الشموع الموضوع على طاولة الصلاة. الضوء المتبقي يأتي من جهة اليسار، من النوافذ المتسخة. لا توجد مصابيح معلقة في السقف، ولا مقابس للكهرباء على الجدران. لا أستطيع بهذا الشكل استخدام إضاءة آلة التصوير لأتحكم بكمية الضوء التي أريد، قد يجعل هذا الجدة تبدو في الصورة مثل غولة. بكل حال، أفضل مصدر ضوء طبيعي، يكون مزيجاً من النور والظلام، أحتاج لثانية أثبت فيها العدسة على الدرجة الثامنة، ومن ثم أركز على نصف وجه الجدة سيظهر نصف وجهها الذي ينيره الضوء،

والجزء الآخر سوف يكون شاحباً. أخرجت حامل آلة التصوير، فحصت الألوان. قلت في نفسي: لا تتحركي أيتها الجدة! بدوت مثل مجنونة تتحدث لامرأة ميتة، كأنها تستطيع سماعي أصلاً. لماذا أجعل فكرة التقاط صورة لامرأة ميتة تبدو صعبة بهذا الشكل؟ لن أستخدم الصورة ضمن مقالات المجلة. لكن، في النهاية، كل شيء مهم، يجب أن أكون دقيقة في التقاط الصور، كل لقطة يجب أن تكون مميزة، ربما أن هذا مجرد خرافة أيضاً، وضعها المصورون المحترفون، حتى يظل المرء يشعر بفشل أبدي.

توقفت عن التفكير في أي شيء حين تحلق الناس حولي، منتظرين أن ألتقط الصور للجدة. لا بد أن معظمهم تعرض للابتزاز، من قبل السياح وآلات تصويرهم. كانوا يطلبون مبالغ جيدة لأجل التقاط صور لهم.

طالبت الناس حولي بالهدوء، لقد اقتربوا كثيراً. ثبت طرف ورقة التصوير على صدري لأسرع عملية تخزين الصورة. صمت القرويون المحيطون بي. كان الصوت سيفسد الصورة! سحبت غطاء العدسة ونظرت منها للمشهد، بدت الإضاءة حادة بالنسبة إلى ذوقي. لكنني كنت قد التقطت الصورة في النهاية. حين تطلع أحدهم إليها قال: كم هي حقيقية!

قال آخر: إنها جيدة جدا. كأن الجدة على وشك الاستيقاظ والذهاب للحظيرة كي تطعم خنازيرها.

قال آخر مازحاً: نعم، وحين تستفيق، سوف تقول: لماذا يتحلق كل هؤلاء الناس حول سريري؟

تقدمت دو ليلي وقالت: التقطي لي صورة الآن، وحركت خصلة من شعرها المجعد بذراعها لتسقط على وجهها، ثم حاولت تعديل سترتها المتجعدة، بدت وهي ثابتة هكذا تنظر للأعلى، مثل جندي أو حارس. ما إن

التقطت الصورة، حتى انتزعتها دو ليلي وراحت تركض بفرح مجنون! قالت: المرة الأخيرة التي رأيت صورة لي فيها، كانت منذ سنوات طويلة. كنت شابة حينها. حين قلت لها بأن كل شيء على ما يراماالآن، ابتسمت وانتزعت غطاء ورقة التصوير الخارجي بلهفة. بدت ممتنة لمعجزة التصوير. شعرت بالفخر لأن الصورة أعجبتها، أعطت الصورة لكوان بحذر. قالت كوان: مظهرك لطيف. لقد أخبرتك أن أختي الصغيرة محترفة. مررت الصورة على الآخرين ليروها، عادوا ليرددوا عبارات الاستحسان: جميلة، لطيفة، حقيقية. عادت الصورة لحضن دو ليلي التي قالت بصوت خفيض: لا تبدو جيدة حقاً، لم أدرك أني عجوز إلى هذه الدرجة. بل وبشعة، هل أبدو غبية أيضاً؟

ضحكوا، ظنوا أن دو ليلي تمزح. لكنني وكوان أدركنا صدمتها بصورتها. بدت مثل شخص تعرض للخيانة. أنا التي صورتها فجرحتها وخنتها! ألم تر نفسها في المرآة مؤخراً؟ تبدو الانعكاسات مختلفة باختلاف الزاوية التي ننظر منها للوجه. صورة آلة التصوير، ليست سوى انعكاسٍ للفضة على خلفية سوداء. مجرد مواد كيميائية، يمكن التقاط الصورة وحذف ما هو غير مناسب فيها، لكن لا يمكن التحكم بالذكريات ومشاعر القلب عند دو ليلي. زالت فرحة دو ليلي بالصورة، وأردت أن أخفف عنها، أردت أن أقول لها أنني لست مصورة محترفة، وأن آلة التصوير خاصتي لا تلتقط الميزات الجميلة كلها. أردت اللحاق بها لكن كوان أمسكت يدي. قالت: سوف أتحدث إليها أنا، لاحقاً. ولم يمنحنا الناس أي فرصة بعد ذلك، التفوا حولنا طالبين مني التقاط صور لهم، وكل واحدٍ يريد أن يكون الأول. عدا عمن يريد أن يتصور مع حفيده!

قالت كوان متذمرة: أختي لا تعمل لتلتقط الصور بالمجان.

بالطبع، أصر الناس: فقط، ولو صورة واحدة.

ضمت كوان قبضتها وصرخت: هدوء! لقد أخبرتني الجدة أن على الجميع أن يبتعدوا في الحال. خفضت كوان من صوتها قليلاً ثم تابعت: الجدة تقول أنها تريد بعض الراحة والهدوء قبل أن تذهب في رحلتها إلى العالم الآخر. عدا ذلك، فقد تغضب ويصيبها الجنون، حينها، لن تغادر تشانجميان. تقبل رفاق الجدة هذا الإعلان بصعوبة، لكنهم غادروا جميعاً، والشكوى ظاهرة في عيونهم.

ما إن غادروا حتى شكرت كوان: هل قال شبح الجدة هذا الكلام حقاً؟

نظرت إلي كوان بطرف عينها ثم غمزت وضحكت. ضحكنا معاً. من الجيد أنها فكرت بحل سريع.

قالت كوان: في الحقيقة، الجدة طلبت أن تلتقطي لها مزيداً من الصور، من زوايا مختلفة. تقول أن الصورة التي التقطتها لها تجعلها تبدو عجوزاً مثل دو ليلي.

رددت: هذا لؤم.

- ماذا تقصدين؟

- أن تقول الجدة أن دو ليلي تبدو أكبر منها!

- لكنها أكبر حقاً، بخمس أو ست سنين على الأقل.

- بل إنها أصغر منك.

هزت كوان رأسها: كيف تظنين هذا!؟

- هي أخبرتني.

بدت كوان وكأنها تبحث عن الإجابة في وجه الجدة الميت.

قالت كوان: أعلم، وبما أن دو ليلي قالت هذا، فيجب أن نخبرها بالحقيقة إذن يا جدتي.

شدتني كوان من يدي لنتمشى قليلاً. درنا قليلاً في القاعة، عدنا إلى الجثة المسجاة على الطاولة، قالت كوان: سأخبرك بسر يا ليبي، سرٌّ احتفظت فيه مثل حجر في معدتي. قبل خمسين عاماً تقريباً، أثناء الحرب الأهلية، تبنت دو ليلي طفلة وجدتها على الطريق. بعد فترة، ماتت الطفلة. وجن جنون دو ليلي من الحزن. فصدقت أن الطفلة ابنتها، من لحمها ودمها. أتذكر هذا لأن تلك الطفلة كانت صديقتي، ولو أنها ظلت على قيد الحياة، لكانت اليوم أصغر مني بشهرين تقريباً. إن دو ليلي تبلغ الثامنة والسبعين من العمر الآن...

توقفت كوان عن الحديث إلي فجأة، وعادت لتتحدث إلى شبح جدتها: لا، هذا كثير، لا أستطيع إخبارها إياه.

حدقت في كوان، وفي وجه الجدة الميتة، تذكرت كلام دو ليلي: من على أن أصدق؟ كل الاحتمالات يمكن أن تدور في رأسي الآن. كأنني في حلم تتفسخ فيه الحقيقة لتذوب بين الجمل هنا وهناك، ربما تكون دو ليلي أصغر من كوان، وربما أن شبح الجدة هنا في مكان ما. وربما أنها في الثامنة والسبعين أو لا. ولو أن هذه الأشياء صحيحة، أو خاطئة، عالم ين أو يانج. ما المهم؟ قلت لنفسي: يجب أن أكون واقعية، الضفادع أكلت السم، والبط أكل الضفادع، فعاثت الديدان فساداً في الأرز، ومع ذلك، أرادوا ضعف المحصول كل عام، لم يسأل أحد كيف استطاعوا جنيها !؟ .

17

العام الذي لم يأت فيه الطوفان

أنا أطرح الأسئلة العميقة، أحاول البحث عن إجابة عميقة، بحجم الوجود، ربما لأنني لست صينية مثل كوان، وبالنسبة لي لا يتشابه ين ويانج، لا يمكنني الإيمان بأن قصتين متناقضتين تشكل كل واحدة منهما الحقيقة المطلقة. ولهذا، حين عدنا أنا وكوان إلى بيت الجدة، سألتها مباشرة: كيف ماتت ابنة دو ليلي؟

قالت كوان: تلك قصة حزينة جداً، ربما لا تودين سماعها.

ظلت كوان صامتة، لكنني كنت أعرف أنها تتوق لأن أسألها من جديد.

قلت لأكسر صمتها: أخبريني كل شيء.

- ولن تخافي أبداً؟

هززت رأسي موافقة وأنا أفكر: وكيف لي أن أعرف أصلاً إن لم أشعر بالخوف حقاً!؟.ما إن بدأت كوان الحديث، حتى بدأ جسدي يرتعش، ولم أكن أشعر بالبرد أبداً!

قالت كوان: كان اسمها بونكيك. كنا في سن الخامسة حينما غرقت. كانت بطولي تقريباً، عينانا متشابهتان، هادئة، على عكسي أنا التي كنت ثرثارة، هذا ما كانت عمتي (الجدة) تشكو منه، وهو أنني أتحدث كثيراً. كانت تحذرني دوماً: إن تفوهت بكلمة أخرى، سوف أرسلك بعيداً، لم أقطع وعداً لأمك بالاحتفاظ بك أصلاً. في ذلك الوقت، كنت نحيفة جداً، وكانوا يلقبونني بانكيك (الفطيرة المقلية)، القطعة الهزيلة منها، هكذا كانت تقول الجدة. أما بونكيك، فكانت سمينة، يداها ورجلاها منتفختان مثل كعكة، كانت دو يون هي من عثرت عليها في الطريق. كان ذلك اسم دو ليلي فيما مضى، الجدة أطلقت على الفتاة الصغيرة اسم بونكيك ليلي. لأنها حين وصلت إلى القرية لأول مرة، لم تكن تصدر سوى صوتٍ واحد: ليلي، ليلي، ليلي! صوت يشبه صوت الطائر المصفر، هذا هو الصوت الوحيد الذي يصدر عن فمها الصغير. بدت مثل طائر ينقر الثمار، يبحث عن الأفضل فيها والألذ، طائر صغير سمين يراقب العالم، بعيونه السوداء المدورة، باحثاً عن الخطر. شعرت أن أحداً لا يستطيع فهمها عداي، لأنها لم تتكلم أبداً، لكن في الليل، حين تهب الريح، ويتراقص نور المصباح الذي تهزه الريح وهو معلق في السقف، كانت تتكلم، لكن بيديها، يداها تعلوان وتهبطان مع الظلال، تتحركان يميناً ويساراً، تشرعهما وتحلق فيهما مثل طائر بين الغيوم. كانت الجدة تنظر إليها وتقول: كم هذا غريب، غريب جداً. أما دو يون، فكانت تضحك وهي تشاهدها تلعب هكذا كالبلهاء. لكنني وحدي فهمت ما تحكيه تلك الطفلة بيديها، اللتين لم تكونا من هذا العالم! كما تعلمين، كنت طفلة مثلها، وقريبة من حياتي السابقة، لم أكبر كثيراً في هذه الحياة بعد. وتذكرت أن روحي غادرت حياتي السابقة بعد أن تقمصت جسد طائر.

في القرية، كان الجميع يبتسم ويضايق دو يون بمجرد رؤيتها: هذه الطفلة، ابنتك، إنها غريبة الأطوار، أليس كذلك؟ حين يبتعدون عنها، كانوا يقولون كلاماً رديئاً. وبالطبع، كان الكلام يتناهى إلى مسامعنا في نهاية الأمر. هذه الفتاة مجنونة، أو أن عائلتها الأصلية كانت تدللها، عائلة راقية، لا بد لدو يون أن تضربها حتى تتأدب، لتضربها ثلاث مرات في اليوم على الأقل. هذا ما قاله جارنا يو.

إنها ممسوسة، لقد سقطت جثة طيار ياباني من السماء، وتلبست جسدها. لهذا لا تتكلم، لأنها لا تعرف الصينية. إنها فقط تحرك يديها وتلوح فيهما مثل طائرة تنتحر فتسقط. أضاف جارنا: إنها غبية، ورأسها كبيرة ومتغضنة، مثل يقطينة. أما دو يون، فاعتقدت أن الطفلة لا تتكلم، وأنه لا بأس في ذلك، فالأم تستطيع أن تتكلم عنها، وتعرف ماذا تريد الطفلة أن تأكل، وكيف تفكر أو تشعر. قالت دو يون أن حركات يد بونكيك في الظلال، هي دليل قاطع على أنها تأشر بيديها فقط مثل سيدات الأسرة الحاكمة في وقت مضى، قالت الجدة حين سمعت ما قالته دو يون: إذن، سوف تقوم الثورة بقطع يديها هاتين ذات يوم، من الأفضل أن تكتفي بوضع يدها على فتحة أنفها وتتعلم كيف تعطس لتخرج المخاط بدلاً عن حركاتها هذه!

شيء واحد جعل دو يون حزينة على بونكيك، وهو الضفادع، لم تكن بونكيك تحب ضفادع الربيع. الضفادع الخضراء الصغيرة بحجم قبضة بونكيك، والتي يمكن سماع نقيقها عند الغسق وهي تقف عند بوابات عالم الأشباح. كانت دو يون والجدة تجلبان الشِباك والعَلق وتكمنان في المستنقعات. تبحثان عن الضفادع التي تحبس أنفاسها وتصمت محاولة الاختباء. لكن وفي وقت الربيع، لن تستطيع الضفادع الصمت أكثر، سوف تخرج عن صمتها أخيراً وتنق بصوت أعلى من ذي قبل حتى تسمعها الإناث في موسم التزاوج.

كانت دون يون تمزح فتقول: من سيحب مخلوقاً كهذا الضفدع. وكان رد الجدة حاضراً دوماً: أنا استطيع ذلك، بمجرد أن يتم طبخها، تصير محبوبة. كم من السهل القبض على هذه المخلوقات المحمومة بالحب. كانت الجدة و دو ين تجمعان الضفادع في الصناديق. تبدو مشعة وملساء تحت ضوء القمر. في الصباح، تقف الجدة مع يون على حافة الطريق وتصرخان: ضفادع! ضفادع طازجة. والعشرة بيوان. نجلس أنا وبونكيك فوق الصناديق، نسند وجوهنا بأيدينا ونحدق. لا نفعل شيئاً سوى التمتع بأشعة الشمس. وندفئ أعضائنا.

لم يكن مهماً إن كان العمل جيداً. ففي كل حال سوف توفر الجدة ودو يون بعض الضفادع لوجبة المساء. في الظهر، نعود مجهدين إلى البيت. بسبع صناديق فارغة. وآخر نصف ملآن. في الساحة، تشعل الجدة النار، فيما تجيء دو يون بما تبقى من ضفادع، أما بونكيك، فما أن ترى الضفدع، حتى تندفع وتختبئ خلف ظهري. كنت أشعر بصدرها يعلو ويهبط وهي تتنفس بسرعة. تماماً مثل ذلك الضفدع الذي يتلوى في يد دو يون وحلقه تنتفخ ثم تنكمش.

ثم تقول دو يون: انتبها إلي جيداً أيتها الصغيرتان: هذه أفضل طريقة لطبخ ضفدع.

كانت تقلب الضفدع على مؤخرته في يدها، ثم، وبسرعة، تغرز مقصاً حاداً فيها... ثم تقلبه من جيد، تمرر إصبعها على مسار المقص وتضغط مرة واحدة فتسقط أحشاؤه، تسقط بقايا الذباب والحشرات الملونة مع أمعائه. تنزع دو يون جلده كاملاً، من أول الشق عند أنفه وحتى مؤخرته، فيبدو الضفدع مثل محارب تم سحقه تماماً، تقوم بتقطيعه بعد ذلك، ثم ترمي الرأس بعيداً.

تستمر دو يون بتحضير الضفادع، فيما بونكيك تعض قبضتها بأسنانها طوال الوقت، تحاول منع صرخة، وتبدو قبضتها مثل كيس رمل يمنع تدفق الماء على ضفة النهر، تمنعها قبضتها من التقيؤ. حين كانت دو يون تنظر لوجه بونكيك المغموم، تقول بصوت الأم الناعم: لا تقلقي يا صغيرتي، قليلاً بعد، وستطعمك أمك!

أنا فقط من عرفت الكلمات التي كانت ستقولها بونكيك من فمها الذي لم يستطع الصراخ، استطعت أن أرى ما رأته ذات يوم، حتى أن ذكرياتها تسربت إلي، وصارت ذكرياتي. سلخ الجلد بهذه الطريقة! هكذا مات أبوها وأمها. لقد رأت ذلك من مكانها، حيث خبأها أبوها على شجرة عالية. على الشجرة، كان عش الطائر المصفر، الذي ظل يحذر الطفلة بتغريده، لتبتعد عن عشه. لكن بونكيك ظلت صامتة، لم تتحدث أو تهمس حتى. لأنها وعدت أمها أن تظل صامتة. ولهذا، لم تتكلم حتى اليوم.

بعد حوالي الربع ساعة، كان اثنا عشر ضفدعاً يطوفون في قدر من الزيت. تقومدو يون بإخراج الأقدام التي نضجت بيدها، وفي الأخرى تستمر بتحريك الزيت في القدر، تطهو دو يون الضفادع بجدارة. لكن معدة بونكيك لم تتقبل هذا، تشاهدنا تحت ضوء المصباح، ونحن نلتهم الضفادع بجشع وشره، تنشغل أسناننا في البحث عن مزق اللحم بين العظام، جلدها هوالألذ، ناعم وله نكهة شهية، بعد ذلك، تأتي عظامها الصغيرة المقلية جيداً، كنت أفضلها كثيراً. خاصة عظام الفخذ والقدم.

تنظر دو يون إلى طفلتها وتقول: لا تلعبي الآن يا غاليتي، هيا تعالي وتناولي الطعام. لكن بونكيك لا تجيء، تظل تحرك يديها وترفعها لتحلق مثل عصفور. حزنت دو يون لأن طفلتها لم تأكل الطبق الشهي الذي

حضرته الأم. كان وجه دو يون يفيض بالحب لتلك الطفلة التي وجدوها متروكة على الطريق. لا بد أن بونكيك حاولت أن تحب دو يون بما تبقى من قلبها الذي تمزق. كانت تتبع خطوات دو يون أينما ذهبت في القرية، ترفع يدها حتى تمسك دو يون بها. لكن في تلك الليالي التي كانت تحضر فيها دو يون صناديق الضفادع، كانت بونكيك تركض إلى الزاوية من الخوف والضيق، ثم تبدأ بإطلاق صوتها المعهود: ليلي، ليلي.

هكذا أتذكر بونكيك، كنا صديقتين جيدتين، عشنا في ذات البيت ونمنا في نفس السرير. تماماً مثل أختين. لكن دون أن نتكلم. لكننا استطعنا معرفة مشاعر بعضنا، واستطعنا أن نلمس الحزن، ليس حزننا وحدنا، بل حزن كل هذا العالم. فأنا وهي فقدت كل واحدة منا عائلتها. السنة التي عثرت فيها دو يون على بونكيك في الطريق، كانت سنة شاذة، لم يأت فيها الطوفان. وكنا قبل ذلك معتادين على أن تفيض الأنهار في أول الربيع، وتقتحم كل شيء، وتنظف الأرض من الحشرات والفئران، حتى من القمامة وجذوع الأشجار الميتة، لكنها لم تمطر بما فيه الكفاية في تلك السنة. بالكاد كفى المطر المحاصيل والضفادع. وكان كافياً ليقول الناس: كم نحن محظوظون هذه السنة، لا بد أن الطفلة التي عثرت عليها دو يون جلبت لنا الحظ.

في العام التالي، لم يسقط المطر، تساقط في كل القرى المحيطة كالمعتاد، إلا في قريتنا. مطر خفيف أو ثقيل، لمدة طويلة أو قصيرة، زار جميع القرى عدا قريتنا، وهكذا، لم ينبت محصول الربيع، ولن يكون هنالك حصاد. لم يبق ماء لطبخ الأرز حتى. ولا قشر لنطعم الخنازير. لم ينبت الأرز الذي أحرقته الحرارة، أما الضفادع، فطفت على وجه المستنقعات التي جفت، وبدت الضفادع متيبسة مثل الأغصان. صعدت الحشرات من الأرض التي تشققت من العطش، ولوحت بذيولها للسماء. انكمشت أجساد البط،

وقمنا بأكله قبل أن يموت. لفنا الجوع بالسراب، كنا نرى حبات البطاطا من البعيد، حين ننظر إلى قمة الجبل. وحينها عاد الناس وقالوا: لا بد أن بونكيك الطفلة المجنونة، هي السبب!

في يوم حار من تلك الأيام، كنت جالسة مع بونكيك على حافة خندق تصريف المياه الذي يحيط بكل البيت ويمتد بعيداً في الخارج حيث كنا نجلس، نتخيل قارباً وماء. سوف يأتيانن ويأخذاننا لأرض الملكات السحرية. سمعنا السماء تزمجر، حدث هذا فجأة. اندفع المطر بقوة هائلة، وتساقط بشدة، بحجم حبات أرز كبيرة بل وأكبر. شعرت بالسعادة والخوف في ذات الوقت. ازدادت قوة البرق والرعد. صرخت: لقد ذهب قاربنا دوننا، وضحكت بونكيك. لأول مرة في حياتي، سمعتها تضحك. رأيتها فرحة، وترفع يديها إلى السماء تريد أن تطال البرق.

ظل المطر يضرب الأرض بقوة. سقط على الجبال أيضاً، ملأ الشقوق والسواقي والأنهار. مطر كثير وسريع. القارب الذي تخيلناه لم يأت، الجذع الذي كنا نجلس عليه عند حافة الخندق، دفعته المياه، ودفعت بنا معه، شدنا الماء من أيدينا إلى الأسفل، وعمنا البلل من أخمص قدمينا حتى أنوفنا. وبسرعة، غمرتنا المياه ودفعت بنا بعيداً إلى أحد المستنقعات في الحقول.

فيما بعد، سمعت همساً، وعرفت ما الذي حدث. بعد أن انتشلتنا الجدة ودو يون من المياه، كنا موحلتين ومغطاتين بالأعشاب التي خنقتنا ومنعتنا عن التنفس، لقد ضربتا في الوحل بجنون حتى أخرجتانا من هناك. أفواهنا مغلقة بالقذارة والوحل. بدا جسدي النحيل وكأنه تحطم إلى قطع من الألم. أما هي فبدا جسدها السمين سليماً. أخذتانا وألبستانا ملابس الوداع، ثم ذهبن بنا إلى المذبح، قامتا بغسل أمعاء خنزيرين، وحطمتا

كرسيين لا تحتاجانهما لأجل الحطب، جهزتا كل شيء للجنازة،ثم وضعننا في أكفاننا، وجلست دو يون والجدة تبكيان في انتظار أن ينتهي المطر، بقينا في الأكفان ليومين، ظل يهطل المطر فيهما. فيما هما تنتظران أن يتوقف ليتم دفننا، في أرض صخرية لا يمكن أن ينبت فيها شيء حتى. في صباح اليوم الثالث، هبت ريح عاتية، ودفعت بالغيوم بعيداً عن سماء القرية. أشرقت الشمس من جديد، وفتحت دو يون والجدة غطاء الأكفان لتلقيا نظرة أخيرة علينا.

شعرت بأصابع تلمس خدودي، وحين استفقت، رأيت ابتسامة الصدمة والفرح على وجه دو يون التي لمست وجهي. صرخت دو يون: حية، إنها حية، أمسكت بيدي ووضعتهما على وجهها. نظرت الجدة إلي، أخفضت رأسها وحدقت بي لتتأكد. كنت مشوشة، وكأن رأسي مغلفة بضباب الصباح.

أريد أن أنهض، كان هذا أول ما قلته، فزعت الجدة، وتركت دو يون ذراعي مبتعدة. سمعتهما تصرخان: كيف يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن أن يحصل!

نهضت، وقفت عل قدمي ثم قلت: جدتي، ما الذي يحصل؟ بدأتا تصرخان بشكل مرعب. وكاد رأسي ينفجر من الخوف. هرعت الجدة وفتحت الكفن الآخر، حينها، رأيت جسدي المحطم، ورأسي التي سحقها الطوفان! وبعد ذلك، لم أر شيئاً، حتى حل المساء. حين استيقظت بالفعل، كنت ممددة على السرير الذي كنت أشارك فيه بونكيك. كانت الجدة بصحبة دو يون في الغرفة عند الباب. قلت متثائبة: لقد انتابني كابوس. قالت الجدة: انظري، ها هي تتكلم. نزعت عني غطاء السرير ونهضتفصرخت الجدة: ها هي تتحرك.

حين وقفت، شكوت بأنني جائعة، وأني أريد أن أتبول. ابتعدت الجدة ودو يون عن الباب، صرخت الجدة: اخرجي الآن، وإلا ضربتك بأغصان الخوخ!

قلت: نحن لا نزرع أشجار الخوخ أصلاً يا جدتي. وضعت جدتي يدها على فمها من هول المفاجأة! في ذلك الوقت، لم أكن أعرف أن الأشباح يجب أن تخاف من أغصان الخوخ. فيما بعد، وحين سألت أشباح ين، سخروا من الأمر وضحكوا، الخوف من أغصان الخوخ؟ مجرد خرافة.

بكل حال، شعرت أن مثانتي سوف تنفجر، كنت متلهفة لإفراغها، وبالكاد أمسك نفسي. قلت بتهذيب أكثر هذه المرة: جدتي أريد الذهاب لحظيرة الخنازير. بالطبع، خلف الحظيرة توجد حفرة، فيها قطعة خشب من كل جهة، بحيث يمكنك موازنة نفسك والجلوس، حيث يمكن أن تفرغي ما في معدتك أو مثانتك. كان هذا قبل نظام الصرف الصحي وقبل أن يتم ضم قريتنا إلى نظام التدوير. بعد ذلك لم يعد من الممكن ترك جسدك وعقلك ودمك ليخرجا كل ما يريدونه. صار من الواجب إعادة تدوير ووهب الغائط اللعين حتى، تماماً مثلما تفعل دائرة الضرائب في أمريكا، تستغل أي شيء!

لم توافق الجدة على ذهابي، بل إنها تقدمت إلي، ثم صفعتني على وجهي. وكانت هذه خرافة أخرى، إن صفع الأشباح سوف يجعلها تختفي. لم أختفِ بالطبع، لكنني بللت بنطالي، انساب السائل الحار بين قدمي، ثم بلل السائل الداكن الأرضية. كنت متأكدة أنها صفعتني متعمدة، قالت الجدة: انظري، لقد تبولت.

قالت دو يون: لكن هذا مستحيل، الأشباح لا تتبول.

قالت الجدة: تطلعي بعينيك جيداً أيتها الغبية! إنها تتبول.

- إذن، أهي شبح أم لا؟

وظلتا تتناقشان: عن لون السائل، عن رائحته الكريهة وكميته. في النهاية قررتا أن تعرضا علي قليلاً من الطعام كرشوة، إن كنت شبحاً، فسوف أتناوله وأرحل. وإن كنت مجرد طفلة صغيرة نجت من الموت، فإنني سوف أتناوله وأتوقف عن الشكوى ثم أنام. الذي حصل بعد أن تناولت كرة الأرز المتعفنة تلك، هو أنني غرقت في النوم، وحلمت من جديد بكل ما حصل. حين أفقت في الصباح قلت لجدتي أني ما زلت أعاني من الكوابيس. قالت الجدة: إذن، فأنت ما زلت نائمة، انهضي الآن وتعالي معي، سوف آخذك لشخص يستطيع إيقاظك من حلمك الطويل هذا.

مشينا إلى قرية تبعد ستة أميال عن تشانجميان وتدعى: عودة البط.

في تلك القرية كانت تعيش امرأة عمياء، اسمها العمة الثالثة، لم تكن عمة أحد في الواقع، كان ذلك مجرد اسم آخر يطلقه الناس على من تتكلم مع الأشباح. في شبابها، كانت مشهورة في كل أنحاء الريف بأنها تكلم الأشباح. حين كانت في منتصف عمرها، قدِمَ المبشرون المسيحيون وأعفوها من مهنتها هذه وصارت تتحدث للشبح المقدس فقط (المسيح). حين تقدمت في السن. قام الناس من جيش التقدميين بإعادة تعيينها، فتخلت عن الحديث مع الشبح المقدس وعادت تكلم الأشباح. حين كبرت كثيراً في السن، لم تعد تتذكر من أعفاها ومن أعاد تعيينها. كبرت في السن أكثر، بحيث نست كل ما قيل وكل ما حدث.

حين دخلنا إلى غرفتها، كانت تجلس على مقعد خشبي يتوسط الغرفة. دفعتني جدتي تجاهها فيما سألت دو يون بصوت خفيض: نريد أن

نعرف ما مشكلة هذه الفتاة؟ أخذت العمة الثالثة يدي بين يديها الخشنتين. كانت عيناها زرقاوان مثل السماء وغيومها. ساد الصمت في الغرفة، ولم يكن هنالك سوى صوت تنفسي. في النهاية، قالت العمة: هنالك شبح يسكن هذه الفتاة. الجدة ودو يون اندهشتا وأخذتا تلهثان بقوة، أما أنا، فصرت أركل وأرفس محاولة تخليص نفسي من الشيطان.

صرخت دو يون: ماذا سوف نفعل؟

قالت العمة الثالثة: لا شيء، الفتاة التي سكنت هذا الجسد من قبل، لا تريد العودة. والفتاة التي تسكنه الآن، لا تستطيع المغادرة قبل أن تعثر على الفتاة الأخرى. قالت العمة ذلك في اللحظة التي أبصرت فيها شبح بونكيك من النافذة وهي تتطلع إلي، أشرت إليها وصرخت: انظروا، ها هي. رأيتها وهي تشير إلي بدورها، من فمها المتغضن قالت وكررت نفس الكلمات التي قلتها. انتبهت أخيراً إلى أني أرى انعكاسي في مرآة النافذة، لا أكثر. طوال طريق العودة إلى البيت، ظلت الجدة تتهامس مع دو يون، وتقولان أشياء ربما لا يفترض بفتاة صغيرة أن تسمعها.

قالت الجدة: ربما يجب أن نحرقها ونسويها بالأرض، حتى نعيدها إلى حيث تنتمي.

قالت دو يون متوسلة: لا. ربما ستعود، لا بد أنها غاضبة الآن فقط. لأنها صارت شبحاً. ربما أنها غاضبة لدرجة أنها ترغب في أخذنا معها.

- لا، لن نأخذ معنا شبحاً إلى المنزل. يا لها من مصيبة. ربما تحل بنا اللعنة جميعاً.

- ولكن: حين يسمع الناس صوت هذه الطفلة، وحين يسمعون الطفلات الأخريات...

مع الوقت، وصلنا لتشانجميان. وكانت الجدة ودو يون قد قررتا أن تتظاهرا بأن شيئاً لم يحصل لي. هذا ما يجب أن يفهمه الناس، لا شيء، مثله مثل أي موقف في الحياة. ما كان خطئاً صار صواباً الآن، وما كان صواباً فيما مضى، غادر إلى غير رجعة. لذا، إن قال أحد ما: يا للهول، هذه الفتاة شبح. فإن الجدة سوف تجيبه في الحال: يا رفيق، أنت مخطئ، الرجعيون فقط هم من يؤمنون بالأشباح.

في جنازة بونكيك، حدقت في جسدي المكفن. صرخت على نفسي وعلى صديقتي. المعزون في الجنازة كانوا محتارين بشأن من التي ماتت منا، بكوا وذكروا اسمي، لكن الجدة قامت بالتصحيح لهم. ونادت اسم بونكيك. وفي تلك اللحظة، بدأت دو يون بالعويل.

في سنوات لاحقة، أخفت كل من سمع صوتي القادم من فمي المتغضن، لم يتحدث إلي أحد. لم يلمسني أحد، لم يلعب معي أحد، كانوا يكتفون بمشاهدتي فقط، وأنا أتناول الطعام، أو أمشي في الطريق، ويشاهدونني وأنا أبكي أيضاً. في إحدى الليالي، استيقظت لأجد دو يون تجلس على حافة سريري، وتنوح بصوت خافت: بونكيك، يا غاليتي، عودي إلى أمك. تركت يداي في الحال، وقربتهما من الشموع المضاءة قرب السرير، حين أمسكت بيديها من جديد، نفضتهما بقوة، كم هذا محبط وحزين، طائر بجناحين محطمين.

أظن أن كل شيء بدأ مع دو يون حين آمنت أن تلك الطفلة بونكيك هي ابنتها حقاً، وكأن الحزن، حجر صغير في قلبها، لا هي تستطيع البكاء حتى يذوب، ولا هي قادرة على التخلص منه أو تجاهله، العديد من الناس في قريتنا ابتلعوا حجارة كهذه، ويعرفون هذا الحزن، تظاهروا بأنني لست

شبحاً. وظلوا يتظاهرون بأنني طفلة سمينة، وأن بونكيك هي الطفلة النحيفة، وأن شيئاً لم يحصل بل إنه لا شيء مهم، حتى بعد أن أطلقت دو يون على نفسها اسم : دو ليلي.

بمرور الوقت، عاد المطر للهطول، وفاضت الأرض بفيضاناتها، جاء الطوفان، وجاء معه قادة جدد، طلبوا منا التخلص من عاداتنا القديمة وأفكارنا القديمة، وأن نبني بدلاً عنها حياة وأفكاراً جديدة. نمت المحاصيل، وعادت الضفادع للنقيق، توالت المواسم، وتوالت الأيام، يوم عادي تلو الآخر، حتى تغير كل شيء، ثم عاد إلى ما كان عليه من جديد.

ذات يوم، سألت امرأة غريبة عن القرية جدتي: لماذا تسمون هذه الطفلة السمينة بونكيك؟

نظرت جدتي إلي محاولة أن تتذكر. قالت: كانت نحيفة ذات زمن، لأنها لم تكن اقبل أن تأكل الضفادع، الآن، لا تستطيع التوقف عن أكلهم.

كما ترين يا ليبي، لا أحد يريد أن يتذكر، ومع الوقت نسوا فعلاً. لقد نسوا حتى أن هنالك سنة جاءت دون أن يجيء الطوفان. ونسوا أن دو ليلي كانت تسمى دو يون. نسوا الطفلة الصغيرة التي غرقت. ظلت الجدة تضربني كالعادة. لكنني صرت أملك جسداً سميناً ولم تعد ضرباتها تأثر بي كما السابق.

أنظري لهذه الأصابع وإلى تلك اليدين، أحياناً أصدق بأنهما كانتا في الأصل لي، وأفكر في الجسد الذي امتلكته مرة. ربما يكون كل ذلك حلماً جعل حياتي في اليقظة مشوشة. لكنني أتذكر حلماً آخر، في هذا الحلم ذهبت إلى عالم ين، ورأيت أشياء كثيرة. رأيت أسراباً من العصافير. بعضها يأتي، والآخر يغادر. كانت بونكيك هناك، تحلق مع والديها. رأيت هناك كل

الضفادع التي أكلتها، وكانت تغني. جلدها المسلوخ عاد ليغطي جسدها من جديد. أعرف أني كنت ميتة حينها وأني أتحرق لمقابلة أمي هناك. لكنني قبل أن ألتقيها، رأيت شخصاً يركض تجاهي، وكان الغضب والقلق يملأ وجهه.

يجب أن تعودي، سمعت صرختها. خلال سبع سنوات، سوف أولد من جديد. لقد رتبنا كل شيء، ووعدتني أن تنتظري. ألا تتذكرين؟ وظلت تهزني من كتفي، حتى تذكرت. وهكذا، عدت إلى عالم البشر. حاولت العودة إلى جسدي. دفعت وقاومت، لكنه جسدي كان قد تمزق. جثتي المسكينة الذاوية. في النهاية، توقف المطر عن الهطول وأشرقت الشمس. دو يون والجدة فتحتا غطاء الكفن. أسرعي، ماذا بإمكاني أن أفعل؟

أخبريني يا ليبي، هل فعلت الخطأ؟ لم املك أي خيار، لم تكن من طريقة أخرى حتى أحتفظ بوعدي إليك.

18

دجاجات الربيع

سألتني كوان: هل تتذكرين الآن؟

نظرت إليها، كنت مشغولة بخديها المكتنزين، وفمها السمين المتغضن، بدت مثل رسم ثلاثي الأبعاد. خلف وجهها المضيء يكمن رسم آخر لوجه الفتاة التي غرقت.

قلت: لا، لا أتذكر.

أخذت أفكر فيما إذا كان يفترض أن تكون هذه المرأة أختي فعلاً. هل يمكن حتى لشخص خرف أن يصدق بأنها كوان؟ لعل جسد كوان غرق حين كانت طفلة؟ ربما يأخذ بالحسبان تلك الصورة التي أراها إيانا والدنا للطفلة النحيلة، والتي تختلف عن كوان السمينة التي قابلناها في المطار. ولعل هذا يفسر عدم وجود شبه بيني أنا وأبي وأخوتي مع كوان.

ربما أن أمنيتي في طفولتي تحققت، وأن كوان الحقيقية ماتت وأن القرية أرسلت لنا فتاة أخرى. لعلنا لا نستطيع التفريق بين الإنسان والشبح! من يظن أن هذه الفتاة مجرد شبح. كيف لا يمكن لكوان أن تكون

أختي؟ ربما أن تلك الصدمة في طفولتها جعلتها تظن أنها تعيش في جسد لفتاة أخرى. حتى لو أننا غير مرتبطتين جينياً، هل يمنع هذا كونها أختي؟ بالطبع، لم أستطع للآن أن أعرف أي جزء هو الحقيقي من قصتها.

تبتسم كوان لي، تربت على يدي وتشير بإصبعها للعصافير التي حلقت من أمامنا، لو أنها تقول أن تلك العصافير مجرد فيلة، لبدا جنونها مقنعاً. من يستطيع إخباري الحقيقة؟ دو ليلي؟ إنها ليست واقعية أكثر من كوان. الجدة ماتت، لا يوجد أحداً اكبر سناً في تشانجميان لأسأله، وحتى لو كان يتحدث لغة المندرين، فكيف لي أن أسأله؟ أخبرني هل كوان أختي الحقيقية!؟ هل هي شبح، أم أنها مجنونة لا أكثر؟ لم يكن لدي الوقت لأقرر أي شيء، ها أنا أعبر مع كوان بوابة بيت الجدة.

حين دخلنا إلى الغرفة الوسطى، وجدنا سيمون ودو ليلي جالسين يتحدثان بلغة الإشارة ويمثلان بيديهما حتى يتفاهما، كان سيمون يتظاهر أنه داخل سيارة، ثم قال: أخرجت رأسي من النافذة وصرخت في السائق الآخر: هيا حرك مؤخرتك من هنا. وقلد سيمون صوت بوق السيارة بشكل مميز ثم تظاهر بأنه انحرف لليسار.

حاولت دو ليلي محاكاته بصوتها وبلهجة تشانجميان المميزة: هذا لا شيء، وتظاهرت بأنها تمشي وعلى ظهرها حقائب ثقيلة مملوءة بالبضائع، طالبناها بأن تنتبه بأن ذراعاها الرخوتان تمتدان مثل قطعتي عجين. نظرت إلى سيمون وقفزت فجأة حتى صارت تقف عند قدميهن تظاهرت بإفراغ حمولتها ببطء وبدت مصل سيارة كبيرة تفرغ حمولتها عن ظهرها وهي تقلب ظهرها ببطء. أو مثل أفعى تفتح فمها ببطء ثم تنفخ سمها في وجه حشد من الناس. لا أعلم، لكن بكل حال، بدا كانها تمثل تطاير الأعضاء

هنا وهناك في الهواء. في نهاية تمثيليتها الصغيرة. مشت باتجاه السائق وصفعته على وجهه والذي كان متمثلاً بالصندوق القابع خلف سيمون. صفقت كوان بعد انتهاء كل شيء. وانا صفقت كذلك. بدا أن سيمون مستاء من تمثيلية دو ليلي، ولم يعجبه تعبيرها عن السيارة التي تندفع مسرعة مثل أفعى. لم تكن سريعة كأفعى، بل إن صوتها أيضاً كان يعلو مثل بقرة بطيئة. تمشي ببطء وخطواتها ثقيلة. ربما إنها كانت تمشي برأسها بين السحب وتعرضت لحادث هناك، لا يبدو الأمر مفهوماً. لكن سيمون اعترف في الأخير: أنت تربحين تمثيليتك أفضل، وسائقك أسوأ من سائقي بكثير. لولا فارق العمر بين سيمون ودو ليلي، لبديا مجرد عاشقين طازجين يعبثان. يمزحان ويبذلان الأعذار حتى يلمس كل منهما الآخر. شعرت بشيء يعتمل في قلبي، لا أظنها الغيرة بالطبع. ه من المستحيل أن يظن أحد أن هذين الاثنين.. بكل حال، سواء كانت قصة كوان عن موت ابنة دو ليلي صحيحة أم لا. فإن دو ليلي كبيرة بالسن وليست صغيرة. انتهت تمثيليتهما الآن. خرجت دو ليلي مع كوان إلى الساحة ليرين ماذا يمكن أن يتم تحضيره لأجل العشاء. حين صارتا بعيدتين بحيث لا يمكن أن تسمعاني، سحبت سيمون إلى جهة سألته:

ما هذا؟ ما الذي جلب موضوع التمثيل والحديث هذا، وكل شيء؟

قال سيمون: حاولت فقط إخبارها عن رحلتنا البارحة مع روكي، وعن الحادث.

بدا هذا منطقياً، أعدت على مسامع سيمون القصة التي قالتها لي كوان، ثم سألته: ما رأيك؟

قال سيمون: أولاً، لا تبدو دو ليلي مجنونة بالنسبة لي. ليس أكثر من كوان بالطبع. ثانياً: هذه ذات القصص التي سمعتها طوال حياتك.

قلت: ولكن هذه القصة مختلفة، ألا ترى ذلك؟ لعل كوان ليست أختي حقاً.

وجم سيمون: وكيف لها ألا تكون أختك؟ حتى لو أن دمكما مختلف، سوف تظل أختك.

- أجل، ولكن هذا يعني أن هناك فتاة أخرى، وهي أختي كذلك.

- ولو أن هذا كان صحيحاً، هل سوف نتنكر لكوان؟

- بالطبع لا، الأمر فقط... أنني أريد أن أعرف ما حصل حقاً.

هز سيمون كتفيه وقال: لماذا؟ وأي فرق سوف تحدثه الحقيقة؟ كل ما أعرفه هو ما أراه، بالنسبة لي، دو ليلي سيدة لطيفة، وكوان هي كوان، أما القرية، فتبدو جميلة، أشعر بالسعادة لأنني هنا الآن.

إذن، ماذا عن دو ليلي، هل صدقتها حين قالت أنها في الخمسين؟ أم تصدق كوان التي قالت أن...

قاطعني سيمون: ربما أنك لم تفهمي الأمر، ربما حتى لم تفهمي ما قالته دو ليلي بالضبط، أن قلتها بنفسك، لغتك الصينية ليست قوية.

شعرت بالانزعاج، كنت قد قلت للتو بأنني لا أستطيع التحدث مع كوان بطلاقة حين نتحدث الصينية.

قال سيمون: ربما أن دو ليلي استخدمت تعبيراً ما، ربما قالت شابة، مثل دجاجة الربيع! ربما أنك فهمت لهجتها خطأً، قال سيمون ذلك بلهجة رجولية واثقة.

- هي لم تقل أنها كانت دجاجة.

وبدا أن إيماني بما كنت اسمعه منها قد بدأ يتحطم: قال سيمون: أترين؟ ها أنت أخذت ما قلته لك حرفياً، لم أقصد ذلك، بل قصدت...

قاطعته قائلة: لماذا تحاول دوماً أن تثبت أنك محق؟

قال سيمون: ما هذا؟ ظننت أننا نتحدث لا أكثر، لا أحاول إثبات شيء...

سمعت صوت كوان من الساحة تنادي: ليبي، سيمون، تعالا بسرعة، لقد بدأنا نطهو الطعام. هل تريدين التقاط صورة؟

ما زلت غاضبة، لكنني ذهبت بسرعة لغرفة الجدة لأحضر آلة التصوير. ها هو سرير الزوجية العتيق هذا قابع في مكانه، قل لنفسي: إياك أن تفكري فيه حتى. نظرت إلى الخارج من النافذة، ثم نظرت إلى ساعتي، إنه وقت الغروب، النصف ساعة الذهبية، إن كان هنالك وقت ومكان يجعلانني مغرمة بالتصوير، فهما هنا الآن. لكنني هنا في الصين، أكاد لا أتحكم في شيء. كل شيء غير منطقي ولا متوقع. جنوني بالكامل. حملت آلتي الليسيا، وضعت عشرة شرائط للأفلام في جيبي. وخرجت.

في الساحة، وضعت شريطاً في آلة التصوير. بعد المطر الغزير الذي هطل، صار لون السماء أزرق شاحباً. وملوناً بغيوم بيضاء تسبح قرب القمم البعيدة. تنفست بعمق وشممت رائحة دخان الحطب الذي يتصاعد من هنا ومن منازل تشانجميان الأخرى. ومع رائحة الدخان، حملت الريح معها رائحة روث الحيوانات. نظرت في العدسة لعناصر الصورة التي سوف ألتقطها وبدا الجدار الحجري كخلفية مثالية. أفضل تلك المسحة البرتقالية للغروب ونسيج الضوء القوي من الخلف. بدا مشهد الشجرة الواقفة في الوسط فقيراً، رغم أوراقها الكثيفة التي تكاد تنفي أنها عجوز.

زريبة الخنازير قبعت في المقدمة. بدا لي جميلاً أن ظلال الأغصان تتسلق الجهة اليمنى من جدران الساحة. منظر بسيط وموحي، مثل ساحة للأطفال في مسرحية لعيد الميلاد، لكن بدلاً عن وجود المسيح وماري ويوسف في المسرحية، كان هنالك ثلاث خنازير ينقبون في الطين. وست دجاجات، واحدة بلا قدم، والأخرى منقارها مكسور، حركت العدسة، مرة لأوسع محيط المشهد ومرة لأضيقه. في زاوية المشهد رأيت دلواً ساقطاً، يندثر منه أرز مائل للون الرمادي. بدا نتناً وهو محاط بالذباب. في مستنقع صغير من الماء. حركت العدسة وملت مركزة إياها على الحفرة التي يندلق فيها الأرز، هذه المخلوقات الرمادية التي تكسوه، لم تكن سوى الديدان. بدا التقاط مظاهر الحياة في تشانجميان صعب المنال، ويجب ربما أن أعيد تركيب نظرتي من خلال العدسة لالتقاط اللحظة المناسبة. وأن آمل أن أستطيع التقاط لحظة عفوية تأتي من تلقاء نفسها، كنت أستمر بتخيل مجلة أنيقة متخصصة بالمواضيع الريفية في العالم الثالث. كنت أريد جعل القراء يخوضون الرحلة بحق من خلال الصور، كنت أعرف عملي تماماً. وأعرف ماذا يريد الناس، لكن هذا لم يكن مرضياً، أن تكون الصورة جاهزة، وفق معايير ما مسبقة، تجعلني في أمان، وفي فراغ. لم أرد التقاط صور معتادة لمجرد المجاملة. ربما أنها لن تحظى بقيمة ومهتمين، هذه هي الفكرة، ربما تعطي الواقعية المفرطة الناس انطباعاً خاطئا، بأن هذه هي الصين كما في خلفية المشهد، غير متوقعة، غير صحية وفقيرة. كرهت نفسي لأنني بدوت أمريكية بما فيه الكفاية لأطلق هذه الأحكام. لماذا أحاول دوماً العبث بالعالم الحقيقي؟ ولأجل من؟ لتذهب المجلة إلى الجحيم. هي والانطباعات السيئة والجيدة. فحصت نسبة الضوء، وزر الالتقاط. سوف أبذل جهدي لالتقاط اللحظة المثالية، بمجرد أن أشعر بحدوثها، ها هي دو ليلي الآن تجثم، وتقترب من

المضخة اليدوية لتملأ الماء في قدر كبير. درت حولها بآلة التصوير. ركزت في المشهد، وبدأت ألتقط الصور. قفزت دو ليلي من مكانها وحاولت اتخاذ وضعية مناسبة للتصوير ثم عدلت من تجاعيد سترتها الخضراء. لم يكن هذا عفوياً. قلت: تحركي، لا تقفي أمامي مستعدة، أهملي وجودي وافعلي ما تشائين. وافقت دو ليلي ومضت تمشي في الساحة مجتهدة أن تتناسى أن آلة التصوير تتبعها. اختارت مقعداً وجلست قرب السلال التي تتدلى من الشجرة، أبدت دهشتها وهي تنظر للفأس المكسوة بالطين أمامها، تظاهرت وكأنها تكتشف كنزاً وطنياً ما. بالكاد استطعت العد حتى الرقم ثلاثة بالصينية ثم التقطت لها بعض الصور في وضعيتها تلك وشكرتها قائلة: كان هذا جيداً جداً. أرضيتها بتلك الصور بكل حال.

قالت وهي تبدو مشوشة: لم أتخذ وضعية مناسبة. سألتني بصوت طفولي، كانت تنتظر أن ترى ضوء آلة التصوير من جديد، وأن تسمع صوت زر الالتقاط. ومن ثم الصور التي سوف تخرج من آلة التصوير، قررت أن أكذب. قلت: لم اكن ألتقط الصور حقاً، كان هذا مجرد تمرين فقط.

ضحكت بارتياح، ثم تركتني ومشت تجاه حظيرة الخنازير. وبمجرد أن فتحت بوابتها، زمجرت الخنازير واندفعت نحوها، أحاطت بها منتظرة ما سوف تلقيه من طعام، وكذلك فعل الدجاج، قالت دو ليلي: الدجاجة السمينة لطيفة المظهر، بدا أنها ترشحها لإحدى الصور، فيما تسللت أنا حول الساحة مثل لص،حاولت الحفاظ على كوني غير مرئية ريثما أحصل على التركيبة المناسبة لموضوع الصورة ولإضاءة مرضية. عاينت خلفية المشهد، بدأت الشمس تختفي أكثر وترسل شعاعاً شحيحاً يكسو السقف الخشبي والأغصان. تسلل شيء من شعاعها إلى وجه دو ليلي اللطيف. وبقليل من الموهبة، شعرت بإحساسي أن شيئاً تغير، وشعرت بطاقة ما

تندفع من شيء مجهول. ألتقط الصور الآن بين نفسٍ وآخر. تجعلني آلة التصوير هذه أرى المشهد طوال الوقت، بعكس آلات يصبح المشهد في عدساتها أسوداً بمجرد أن أضغط زر التصوير. حركة يد دو ليلي وهي تختطف واحدة من الدجاجات. وتفرق باقي الدجاجات، عادت الخنازير وتجمعت مع بعضها كأنها فرقة عسكرية. التقطت بضعة صور لسيمون وهو يكتب ملاحظاته المحتملة. بدا لي هذا مثل الأيام الخوالي، حين كنت أعمل مع سيمون بنسق متزامن . لم يختلف شيء سوى أنه الآن لا يعمل بطريقته المعتادة، تعكس عيناه جمالاً واضحاً. يحدق إلي ويبتسم. عدت بآلة التصوير إلى دو ليلي التي اقتربت من مضخة الماء اليدوية، هناك قبضت على الدجاجة جيداً، غسلتها بالماء ثم قربتها من قدر وضعته على المصطبة، أمسكت بعنق الدجاجة في يد، وفي اليد الأخرى أمسكت السكين، تساءلت في نفسي إن كانت ستقطع عنق الدجاجة بهذه الطريقة. في العدسة، رأيتها تقطع رقبة الدجاجة بهدوء، وخلال لحظة، اندفع خيط رفيع من الدم. شعرت بالذعر مثل الدجاجة تماما. قامت بقلب عنقها للأسفل، وتركت الدم ينساب في القدر. سمعت صوت الخنازير وهي تصرخ. حقاً كانت تصرخ مثل بشر مرعوبين. تذكرت أن شخصاً ما أخبرني ذات مرة بأن الخنازير قد تصيبها الحمى من شدة الرعب وتموت حين يتم اقتيادها إلى الذبح. غنها ذكية كفاية لتعرف ما الذي ينتظرها. أتساءل الآن إن كانت تشعر بالأسى لأجل الدجاجة المذبوحة. هل هذا دليل على الذكاء أم على وجود الروح وقدرتها على الإحساس؟ وبالرغم من كل الصور التي التقطتها خلال عمليات جراحية للقلب أو لنقل الكلى، شعرت بقشعريرة. لكنني بقيت ألتقط الصور، ولاحظت أن سيمون توقف عن كتابة الملاحظات.

بعد أن امتلأ القدر بالدم إلى نصفه تقريباً. تركت دو ليلي الدجاجة تسقط على الأرض. كانت تقرقر وتتعثر، مرت دقائق قليلة موجعة وهي

تتخبط. في النهاية، همدت، بعينين مذهولتين. وقلت في نفسي: لو أن دو ليلي تؤمن حقاً أنها هي بونكيك، فغنها حتماً قد فقدت شفقتها على الطيور إذن.

اقترب مني سيمون قائلاً: هذا فعل بربري! لا أعرف كيف استطعت التقاط الصور طوال الوقت.

أغضبني كلامه: توقف عن كونك أخلاقياً جداً. وهل تظن أن ذبح الدجاج في أمريكا أكثر رحمة مثلاً. على الأقل يبدو الدجاج هكذا غير مليء بالسموم، ربما يكون هذا مجرد طقس أو عادة.

- طقس مؤخرتي. الطقس يقتل الحيوان بسرعة ولا يتركه ليعاني هكذا. تابع سيمون بغضب: ثم يترك الدم لينساب بعد موت الحيوان. ثم يلقى بعيداً.

قلت: لكنني ما زلت مقتنعة أنها فعلت ذلك لأسباب صحية ربما. استدرت لأواجه دو ليلي، سألتها بالصينية: ما هذا؟

حركت دو ليلي رأسها وضحكت ثم قالت: بعد أن تنزف بما فيه الكفاية، أقطع رأسها كله في الحال، لكن هذه المرة، تركتها لترقص قليلاً!

قلت: لماذا؟ قالت: لأجلك! لأجل أن تلتقطي الصور! ستكون هكذا مثيرة أكثر. ألا توافقينني؟ قالت دو ليلي كلامها بسعادة. اتسعت عيناها وهي تحدق بي منتظرة أن أقوم بشكرها. وزورت ابتسامة لأجلها!

قال سيمون: إذن؟

- أنت محق، ليس طقساً ما.

لم أحتمل نظرة الرضا والاعتداد التي بدت على وجهه فقلت: ليس مثل الطقس اليهودي، إنه من الشعائر الصينية القديمة، نوع من التطهر الروحي لأجل الدجاجة.

عدت وركزت بصري على المشهد. قامت دو ليلي بتغطيس الدجاجة في وعاء ماء يغلي. ثم بدأت تغسلها بيديها وكأنها تقوم بغسل قطعة ملابس. حملت في أصابعها قطعتين كالخرق، بدا أنهما من الصوف الصخري. بدا كأنها تداعب الدجاجة الميتة، لكن مع كل حركة من يديها، كان ريش الدجاجة يتساقط. حتى انتهت الدجاجة من حمامها، رشيقة ووردية اللون. تبعت أنا وسيمون دو ليلي وهي تحمل جثة الدجاجة، مشيتا خلفها من الساحة إلى المطبخ، اضطررنا لإحناء قامتينا حتى لا نصطدم بالسقف الواطئ. من إحدى الزوايا المظلمة، سحبت كوان حزمة من الحطب ثم رمتها في لهيب النار لتغذي الموقد الحجري. بدت النار كبيرة كفاية، يمكن طهو ذكر خنزير كبير فيها، تطلعت كوان مبتسمة إلي وقالت: تصلح لتكون صورة جيدة، أليس كذلك؟

كيف لي أن أفكر بأن كوان ليست أختي؟ برغم كل تلك القصص الغريبة، قلت لنفسي: إنها تمتلك ذكريات مجنونة فقط.

أفرغت كوان أمعاء الدجاجة بضربة واحدة، ثم قامت بتقطيعها كلها، غطست القطع بالمرق، ثم رشت عليها حفنة من الخضار، قالت لسيمون بالإنجليزية: هذه طازجة.

سألها سيمون: هل ذهبت للسوق اليوم؟

ردت كوان: عن أي سوق تتحدث؟ لا سوق، من هنا، من ساحة البيت الخلفية، اذهب والتقط بعضاً من النباتات بنفسك. قام سيمون بتسجيل ما قالته كوان. أحضرت دو ليلي الوعاء الذي صفت فيه دم الدجاجة، بدا متخثراً، وأحمراً مثل حلوى الفراولة. سكبت دو ليلي الدم في أوعية صغيرة، ووضعت بعضاً منه في الوعاء الحار، راقبت البخار الأحمر

وهو يصعد، وتذكرت ساحرات ماكبث، ووجوههن تظهر من خلف النار، وتبدو كأنها تتحرك من خلف بخار المرجل.

قال سيمون: كيف تجري الأمور؟

قلت ملقية الكلام بطريقة مسرحية: إلى مشكلة ساحرة ومرعبة، كأنه مجرد حساء أحمر قادم من الجحيم.

قال سيمون: هذا ما كنت أفكر فيه للتو. لكن سيمون مال إلى وعاء الحساء الكبير واشتم رائحته ثم تابع: يبدو خليطاً عظيماً!

قلت: لكن لا تنسَ، سوف نأكل من هذا الخليط العظيم. حين خمدت النار قليلاً في الموقد، أعدت آلة التصوير إلى علبتها. أشعر بالجوع، إن لم أتناول من تلك الدجاجة ومن حساءها الممزوج بالدم إذن، ماذا سوف آكل؟ لا يوجد لحم وجبن في الثلاجة، بل إنه لا توجد ثلاجة أصلاً. وإن أردت تذوق اللحم، فلا داع لذبح خنزير كامل الآن. بكل حال، لم تمنحني كوان فرصة لأفكر بطعام بديل، ها هي تنحني الآن و تحرك بالمقابض حطب الموقد الكبير، ثم تعلن فجأة: كلي، الآن.

في الساحة، أوقدت دو ليلي النار، ثم وضعت القدر فوقها، ووضعت الملاعق وكؤوس الشاي والأطباق قربها، جلسنا حول المائدة المرتجلة تلك، مدت لنا دو ليلي الملاعق وهي تقول: هيا كلوا . نظرت في طبق طعامي باحثة عن أي شيء يشبه ذلك اللحم المغلف الذي كنت أشتريه من السوق. قبل أن أعثر على أي أصر لذلك، حملت دو ليلي قدم الدجاجة من القدر، وألقتها داخل طبقي. حاولت الرفض قائلة: لا، خذيها أنت. سوف آكل بطريقتي.

ردت دو ليلي: لا تكوني مهذبة زيادة، تناولي الطعام قبل أن يبرد.

ابتسم سيمون بتكلف حين حملت قدم الدجاجة ووضعتها في طبقها. قلت له مبتسمة: كلها أنت. ثم اخترت بعد ذلك قطعة من فخذ الدجاجة. تناول سيمون قضمة من قدم الدجاجة، بدا رصيناً ومنهمكاً في الطعام، بعد لحظة، أومئ برأسه لدو ليلي وقال: لذيذ، جيد فعلاً، ثم أضاف: طريقة تحضيرها للطعام مميزة، سوف أعطيها جائزة الطهي لو أمكن.

قلت: لطف منك أن تقول ذلك.

رد سيمون: قلت ذلك لأنه لذيذ حقاً، وليس من باب التهذيب فقط.

أخذت قضمة من الفخذ بدوري وبدأت امضغها. تذوقتها جيداً، ولم يكن هنالك أي مذاق سيء للدم. اللحم شهي جداً. أكلت القطعة كلها ثم ارتشفت بعض الحساء الذي كان نظيفاً ودسماً. تناولت جناحاً من القدر، من الواضح أن دجاج البيت الصيني ألذ من الدجاج الأمريكي. هل تأتي نكهتها اللذيذة مما تأكله، أم أنه الدم الذي وضع في الحساء؟

قال سيمون: كم قطعة تناولت؟

- ستة.

- إذن سوف أسميها، قطع دجاج الربيع الست.

- لكننا في الخريف الآن.

قال سيمون: أسميتها على شرف دو ليلي، والتي لا تربي دجاج الربيع كما قلت أنت. نظر إلي سيمون وهو يرتجف قليلاً ملتمساً موافقتي على الاسم. بدا مثل كوازيمودو في أحدب نوتردام، يتضرع بلطف: رجاء يا سيدتي، لا تضربيني.

رسمت علامة الصليب فوق رأسه ممازحة وقلت: حسناً، لقد عفوت عنك أيها المغفل.

حملت دو ليلي عبوة تحوي سائلاً بلا لون وقالت: حين انتهت الثورة الثقافية، اشتريت زجاجة النبيذ هذه. لكنني، وخلال العشرين سنة التي مضت، لم أجد ولا سبباً واحداً للاحتفال، أما الآن، فأمامي ثلاث أسباب. قربت الزجاجة من كأسي وصبت فيها النبيذ، وشعرت كأنها تفرغ مثانتها أخيراً وترتاح من عبء طال. لعد أن ملأت لنا كؤوسنا، رفعت كأسها إلى فمها وشربت بصوت مزعج، ظلت تدفع النبيذ إلى فمها حتى فرغت الكأس إلى آخرها.

قالت كوان بالإنجليزية: أترين؟ يجب أن تستمري برفع كوبك إلى فمك، ولا تتوقفي حتى يفرغ كله، ثم قلدت دو ليلي بحركة صاخبة وضربت كأسها على الطاولة بصخب متحفزة لجولة أخرى من المشروب.

قلت في نفسي: إن كانت كوان، أميرة الامتناع عن المسكرات، قد شربت بهذا القدر، فالمشروب غير قوي إذن. قرعت كاسي بكأس سيمون، ثم تجرعنا المشروب مباشرة. لهثنا من حرارة المشروب وبدونا متجهمين مثل رعاة بقر يجلسون في مشرب. ابتهجت دو ليلي وكوان حتى أنهما ضربتا ركبتيهما بعضهما ببعض وأشارتا إلى كأسينا اللذين ما زالا نصف ممتلئين.

قال سيمون منزعجاً: ما هذا، كأن لوزتاي احترقتا.

قالت كوان: جيد، ثم قرعت كأسها بكأسه قبل أن يفكر بالرفض حتى.

- طعمه مقزز.

- مقزز ولذيذ، تلمظت كوان وبدا أنها مأخوذة بنكهة المشروب رغم ما قاله سيمون.

بعد ثلاث جولات من المشروب استمرت لعشرين دقيقة، بدا ذهني صافياً، أما قدماي فقد نعستا وصارتا تترنحان وتطالبان بالنوم. وقفت وساقاي ترتجفان، أتمايل حيث تميلان، ولم يكن سيمون أفضل حالاً مني.

قال سيمون: طعمه قذر، لكنني لا أنكر أنني أشعر بالعظمة الآن.

ترجمت كوان لدو ليلي مدعية أنه قال أن نكهة المشروب جيدة.

قال سيمون: بأي حال، ماذا تسمون هذا المشروب؟ ربما يجب أن نأخذ شيئاً منه معنا إلى أمريكا.

قالت كوان: هذا المشروب. ثم توقفت وأشارت للزجاجة بكل احترام وفخر: نطلق عليه اسم نبيذ الفأر المخلل، أو شيئاً من هذا القبيل، إنه مشروب مشهور هنا في غيلين، طعمه جيد كما إنه مفيد للصحة. يستغرق وقتاً طويلاً لصناعته، ربما من عشرة إلى عشرين سنة. أشارت كوان لدو ليلي كي ترينا زجاجة النبيذ، والتي كانت حين أحضرتها دو ليلي شبه فارغة طبعاً، أشرت دو ليلي بإصبعها إلى الملصق الأحمر والأبيض، ثم مررت الزجاجة إلى سيمون وإلي.

سأل سيمون: ما هذا الذي يقبع في قعر الزجاجة؟

قالت كوان: فأر، لهذا نسميه الفأر المخلل.

نظرنا جيداً ورأينا مخلوقاً رمادياً صغيراً بذيل.

في مكان ما من عقلي، أردت التقيؤ. لكن، حين نظرت أنا وسيمون إلى بعضنا، انفجرنا في ضحك عنيف، ولم نستطع التوقف حتى أننا كدنا نختنق ونحن نمسك بطوننا بأيدينا.

قال سيمون لاهثاً: لماذا تضحكين؟

- لا بد أننا مخموران بسبب هذا.

- لا أشعر أني مخمور. بل أشعر أني سعيد لأنني أحيا.

قلت: وأنا كذلك، انظر إلى تلك النجوم، ألا تبدو أكبر وأوضح؟ لا تشع أكثر من المعتاد، لكنها تبدو أكبر. أشعر أني أنكمش، وان كل شيء آخر يغدو أكبر.

قالت كوان: أنت ترين العالم الآن مثل ذلك الفأر الصغير!

أشار سيمون إلى ظلال القمم الضخمة الشامخة من خلف الجدار في البعيد: وهذه القمم، تبدو ضخمة جداً. حدقنا صامتين في الجبال. لكزتني كوان قائلة: الآن، ربما ترين التنين. تنين يمتد من كلا الاتجاهين، هل ترينه؟

ملت وكدت أسقط، أسندتني كوان من جديد وقالت: ركزي بعينيك، انظري بقوة وتخلصي من عقلك الأمريكي، فكري كأنك صينية، كأن عقلك مجرد كتلة من الأحلام. التنين ذو الرأسين، جزء منه ذكر، والآخر أنثى.

فتحت عيني، وكأنني أقف الآن على أرض الماضي، فيما يبدو المستقبل مثل حلم بعيد. قلت: القمتان تصعدان وتهبطان، أرى شكلاً يتراءى في الهواء.

قالت كوان: أجل، هذا هو هيكلهما، أليس كذلك؟ وما ترينه في مقدمة القمتين هناك، ليس سوى رأسيهما، يفصله خط رفيع يقود للوادي الذي يفصل بين وجهيهما.

ربتت كوان على يدي كأنني طالبتها التي فهمت كل ما قالته لي في درس الجغرافيا، تابعت كوان: يظن بعض الناس، أن القرية تقبع عند فم

التنين. يا له من حظ سيء، لا يوجد أي تناغم أو راحة في ذلك، لكن بالنسبة لي، فإن هذا يعتمد على نوع التنين نفسه، هذا التنين مخلص جداً برأيي، وجيد، يطلق تنهدات...

سالت كوان ماذا تسمونها بالإنجليزية؟

قلت: نعم، تنهدات عذبة.

قال كوان: اجل، ثم ترجمت لدو ليلي ما قلناه أنا وكوان لبعضنا. رسمت دو ليلي ابتسامة كبيرة على وجهها وبدأت تقول شيئاً ما بلغة أهل تشانجميان ثم أخذت تهدر وتقلد ما تعتقد أنه صوت تنين بصوت جهور. ثم ردت عليها كوان بلحن قريب.

قالت لنا كوان: ربما لم تفهما ما قلنا، حسنا، سوف أخبركما بقصة حب التنين، سيمون، ليبي. اجلسا، لقد طلبت مني دو ليلي أن أسرد القصة. وبدونا مثل طفلين يجلسان حول النار في مخيم صيفي. حتى أن دو ليلي اتكأت هي الأخرى على المقعد واستعدت لتستمع.

بدأت كوان: هذه القصة. وما كان من دو ليلي إلا أن ابتسمت، وكأنها تفهم الإنجليزية! تابعت كوان: في الماضي، عاش تنينان أسودان، كانا زوجاً وزوجة، عاشا في الأرض خلف تشانجميان. وفي كل فصل ربيع، كانا ينهضان، ويرتفعان عن الأرض كجبلين، كانا يشبهان البشر، إلا أن جلدهما كان أسوداً فقط، ومعاً، كانا يحفران خندقاً عظيماً حول تشانجميان، وبهذا، فإن الماء الهابط من الجبال، يتجمع فيه. ولهذا السبب، لم يكن المطر يأتي. بكل حال، كان هذا لأجل أن ترتوي النباتات جميعها. ليبي، ماذا تسمون هذا بالإنجليزية؟

قلت: الري.

وكالعادة، فهمتني كوان بإنجليزيتها الضعيفة خطئاً.

كررت ورائي: أجل الغضب.

قلت: لا، الري.

أجل أجل، الري إذن، فعلا ذلك حول القرية كلها، لذا، فقد أحب الجميع هذين التنينين. وفي كل عام كان الناس يقيمون عيداً للاحتفال فيهما. لكن، وفي يوم ما، غضب إله المطر، وكاد يصاب بالجنون لانخفاض منسوب المياه، لقد أخذ أحدهم من ماء النهر دون أن يطلب منه الإذن.

اللعنة، قال سيمون مقاطعاً وقد ضرب إصبعيه مع بعضهما كأنه عثر على العقدة: إنها حقوق الماء، لطالما تعلق كل شيء بحقوق مصادر المياه!

تابعت كوان: نعم، ولذا، نشب قتال في كل مكان، وفي النهاية، قام إله المطر بتعيين أناس متوحشين من قبيلة أخرى، ليسوا من قريتنا، بل من مكان بعيد، ربما من بلدك هاواي. ثم لكزت سيمون وقالت: إنني امزح فقط. ليس من هاواي، لكنهم أتوا من مكان لا أعرفه.بكل حال، استخدموا السهام، لقتل التنين وزوجته، تناثر لحمهما في كل مكان، ولكن قبل أن يموتا، هربا إلى باطن الأرض من جديد، وهناك، استحالا إلى تنين من جديد. هل ترون، القمتان صارتا ستة قمم الآن، وأينما أصابت السهام جسديهما، تشكلت الكهوف في مكان الإصابات. لكن الآلاف من هذه الكهوف، تقود كلها إلى اتجاه واحد، إلى قلب واحد، متحد. واليوم، حين يسقط المطر، ويطفو على الجبال، ثم يندفع من فتحات الكهوف، يبدو مثل الدموع. ثم يستمر في الهبوط إلى الأسفل، حتى يصل إلى القاع، ثم يحصل الطوفان، إن هذا، يتكرر في كل عام.

قال سيمون: لم أفهم، إن كان هنالك طوفان كل عام، فماذا عنيت بالري الجيد!؟

قالت كوان: ليس طوفاناً عظيماً ومفسداً، إنه طوفان صغير فقط، يكفينا ليغسل وينظف هذه الأرض. خلال حياتي، لم اشهد سوى طوفاناً واحداً سيئاً، ظل يتدفق لزمن طويل، من حسن الحظ أنه لم يتكرر.

تذكرت أن كوان لم تعش في تشانجميان سوى ل 18 عاماً، لكنني لم أرغب بإفساد قصتها، ولا بتشويه هذا الوقت الجميل لنا معاً. سألتها:

- وماذا عن إله المطر؟

- قالت كوان: آه، إله النهر ذاك، لم يبق له أثر لقد طوح الطوفان به وبنهره للأبد.

صفق سيمون وصفر، فيما بدت دو ليلي وقد نالت جرعة زائدة من السهر، إنها النهاية السعيدة إذن، التي فرح لها سيمون. نهضت دو ليلي وتمطت، ثم بدأت بجمع بقايا وجبتنا من الدجاج، حاولت أن أنهض لمساعدتها، لكنها دفعتني بيديها لأظل جالسة في مكاني.

عدت وسألت كوان: من أخبرك بالقصة إذن؟

دفعت كوان بمزيد من الحطب إلى النار ثم قالت: هذه قصة يعرفها كل أهل تشانجميان، منذ خمسة آلاف سنة. كل أم تغنيها لطفلها الصغير، إنها تسمى بأغنية التنين المزدوج.

قلت: وكيف تعرفين بأن عمرها خمسة آلاف سنة، هل هي مدونة في أي مكان؟

قالت كوان: أعرف، لأخبرك بسر عن التنين المزدوج. في الوادي الصغير الممتد خلف وادي تشانجميان، يوجد كهف صغير، يقودك إلى كهف آخر، كبير بحيث لا يمكن أن تصدقي حجمه، في جوف ذلك الكهف، توجد بحيرة شاسعة تكفي لتقومي فيها بجولة على القارب! الماء هناك جميل، لم تري مثله مطلقاً، إنه لامع، لونه خليط من الأحمر والذهبي. ماؤها عميق، وحتى لو نسيت إحضار المصابيح، ستظلين ترين تشانجميان العتيقة قرب البحيرة...

عاد سيمون إلينا مقاطعاً: القرية العتيقة، قرب البحيرة، أتعنين قرية حقيقية؟

أردت إخبار سيمون بأن هذه واحدة من قصص كوان المعتادة لكنني لم أنجح بلفت انتباهه، وبدت كوان فرحة بافتتانه بما سمعه منها فتابعت: أجل، أجل، قرية عتيقة، ولا أعرف منذ متى وجدت، لكن البيوت الحجرية لم تزل على حالها. لكن دون سقوف فقط مداخلها الحجرية قائمة، تقودك للداخل، أبعد فأبعد.

بدا سيمون مشوشاً، سأل كوان: هل ذهبت لذلك الكهف ورأيت تلك القرية؟

مضت كوان في قصتها: بالطبع، وفي داخل البيوت، أشياء عديدة، مقاعد حجرية، طاولات وصناديق بأيدٍ من حجر. عليها نقوش للتنين في الأعلى. التنين المزدوج، القصة التي أخبرتكما فيها عن التنين، عمرها من عمر تلك القرية. ربما ليس لخمسة آلاف عام، ربما أقدم، ربما لعشرة آلاف عام، لا أحد يعلم عمر القصة بالضبط!

شعرت بوخزٍ في ظهري، ولا أعلم إن كان هذا بسبب شعوري بسذاجة القصة، أو أن كوان تتحدث عن كهف آخر. سألتها: كم من الناس كانوا في تلك القرية؟

قالت كوان: العدد، لا أعرف بالضبط، البيوت صغيرة جدا، لا يستطيع الناس العيش فيها مع بعضهم.

قلت: لا، لا أقصد هذا، هل يذهب الناس إلى هناك حتى اليوم؟

ردت كوان: لا أظن، المكان مخيف حقاً.

سألت: لماذا؟

- لا تريدين أن تعرفي حقاً

- تحدثي يا كوان.

- حسناً، لكن إن خفت، فلن أتحمل المسؤولية.

اتكئ سيمون على مضخة المياه اليدوية وقال: تابعي قصتك.

أخذت كوان نفساً عميقاً وقالت: بعض الناس يقولون أنك إذا دخلت أحد هذه الكهوف، أو أي كهف في الوادي، فإنك لن تعودي أبداً. ترددت كوان للحظة قبل أن تكمل ثم أضافت: يمكنك العودة في حال واحدة فقط، إن صرت شبحاً. تطلعت كوان لترى رد فعلنا، كنت مبتسمة فيما سيمون ثابت في مكانه كحجر.

قلت محاولة جذب انتباه سيمون من جديد: لقد فهمت الفكرة، هذه لعنة تشانجميان التي ذكرها الرجل لنا البارحة.

قال سيمون بسرعة: يا للهول، لو أن هذا صحيح.

ابتسمت كوان وقالت: هل تعتقد أنه صحيح، هل أنا شبح إذاً؟

ضحك سيمون، أنت شبح، بالطبع لا، أعني الكهف نفسه، ماذا لو أن قصته صحيحة؟

ردت كوان: بالطبع صحيحة، لقد قلت لك، لقد رأيته بنفسي.

قال سيمون: إنني أسأل فقط لأنني قرأت شيئاً في مكان ما... أظنه. نعم الآن تذكرت، في أحد كتاب دليل السياحة، عن كهف من العصر الحجري، أوليفيا، هل قرأت هذا أيضاً؟

هززت رأسي، وفكرت: هل سوف أظل آخذ قصة كوان عن يبان ونونومو بشكل جدي، تبدو القصة الآن مثيرة للشك. قلت: هل تظن أنه الكهف ذاته؟

قال سيمون: لا، ذاكالكهف يقع في مكان ما قريباً من غيلين، وهو مكان يزوره الكثير من السياح. لكن الكتاب يقول أن الجبال القريبة من هنا تحوي الكثير من الكهوف التي لم يراها آلاف الناس من قبل.

قلت: والكهف الذي تتحدث عنه كوان إذن؟

قال سيمون: هذا عظيم، ثم استدار ليواجه كوان: هل تظنين أنه لا أحد غيرك دخل ذلك الكهف من قبل؟

وجمت كوان قليلاً ثم أجابت: لا، لم أقل ذلك، عديد من الناس كانوا هناك ذات يوم.

بدت الخيبة على سيمون: حسناً، هذا جيد.

أضافت كوان: لكنهم جميعاً موتى الآن.

عادت الدهشة إلى وجه سيمون الذي رفع يده مقاطعاً كوان من جديد وقال: ما تقولينه لنا الآن إذن، أنه لم يبق أحد على قيد الحياة ممن يعرفون الكهف. عداك أنتِ؟ وظل سيمون ينتظر موافقة كوان على ما قاله.

في النهاية قالت كوان: لا، أهل تشانجميان يعرفون القصة كذلك، إنهم فقط لا يعرفون مكان الكهف.

دار سيمون حولنا معيداً هذا الاكتشاف: إذا، الناس يعرفونه، لكنهم لا يعرفون مكانه!

ردت كوان: بالطبع، كثيرة هي القصص التي تتحدث عن ذلك في تشانجميان.

قال سيمون: مثلاً؟

حدقت كوان في الأرض، وأصدرت صوتاً من أنفها كأنها تشتم وتبحث عن قصص أشباحها في الظلام، كل أسرار وقصص هذه القرية أقسمنا على عدم البوح بها، قالت كوان بعد توقف: القصص الأشهر، كانت تتعلق دائماً بالأجانب، حين ماتوا، سببوا مشاكل عديدة.

أومئ سيمون برأسه متأسفاً.

قالت كوان: سأسرد إحدى القصص، التي ربما حصلت منذ مئة عام. لذا فإنني لم أعشها، لكنني سمعتها من أهل تشانجميان. قصة تتحدث عن أربعة من المبشرين أتوا من إنجلترا يركبون عربات صغيرة. تحميهم مظلة كبيرة من الشمس ثبتوها في الأعلى. بغلان فقط، كانا في الأمام يجران العربات التي تحمل الأجانب السمينين أولئك. في ذلك اليوم الحار الذي وصلوا فيه، قفزت سيدتان تحملان الإنجيل من العربة، كانت

إحداهما شابة وعصبية. والأخرى تبدو عجوزاً وضعيفة. هبط رجلان أيضاً، أحدهما ملتحٍ، والآخر سمين بشكل لم يصدقه أحد في القرية. كان هؤلاء الأجانب يرتدون ملابساً صينية! لكنهم ظلوا غرباء، بصورة واضحة. كان الرجل السمين يتحدث الصينية، لكن بصعوبة، وبالكاد كنا نفهم ما يقوله. قال: هل يمكن أن نقوم برحلة هنا؟ أو شيئاً من هذا القبيل. رحب الناس فيهم بالطبع، وهكذا، فإنهم أكلوا الطعام، الكثير منه، واستمروا بالأكل.

قاطعت كوان: هل تتحدثين عن قصة الراهب آمين؟

أجابت كوان: لا، هؤلاء أناس آخرون، مختلفون كلياً. لقد أخبرتك من قبل، ألم تنتبهي، أم أنك تسمعين فقط؟ بكل حال، بعد أن تناولوا طعامهم. قال الرجل السمين: سمعنا أن عندكم كهفاً شهيراً، وأن هنالك مدينة عتيقة في داخله. هل يمكن أن نراها؟ حاول الجميع اختلاق الأعذار: إنها بعيدة، أو أنهم مشغولون. ولا شيء هناك يستحق أن تروه. لذا قامت السيدة التي تحمل الإنجيل برفع قلم رصاص بين أصابعها وقالت: من يريد هذا؟ فليأخذني إلى الكهف. في تلك الأيام البعيدة، لم يكن أحد من الناس هنا قد رأى قلم رصاص من قبل. ربما دفتراً، أو فرشاة كتابة، لكن قلم رصاص، لا. رغم أن الصينيين ربما هم من اخترعوا قلم الرصاص. لقد اخترع الصينيون أشياء كثيرة، منها البارود، لكن ليس لأجل الحرب، اخترعنا النودلز أيضاً، مع أن الإيطاليين يظلون يدعون أنه من اختراعهم. إنه مجرد نسخة صينية من اكتشاف الرحالة ماركو بولو الذي نقلها إليهم. نحن أيضاً من اخترعنا الصفر في الأرقام. قبله لم يكن الناس يملكون شيئاً، أما الآن فعلى الأقل، الجميع يمتلك الصفر إن لم يمتلك أي شيء. ضحكت كوان من جملتها الأخيرة وقالت: ماذا كنت أقول؟

قلت: كنت تتحدثين عن سيدة الإنجيل وقلمها الرصاصي.

نعم، في قريتنا المسكينة لم يكن أحد قد رآه من قبل. وأرتهم تلك السيدة كيف يمكن عمل خط أو إشارة بالقلم بكل بساطة. دون الحاجة لخلط الحبر. أحد الشباب، وكان اسم عائلته: هونج. كان يحب دوماً أن يكون الأميز، خطف القلم من يدها. حتى هذا اليوم، لم تزل عائلته تتوارث ذلك القلم الذي أودى بحياته فيما بعد، ولم تزل تضعه على طاولة المذبح في بيوتها. ورسمت كوان في الهواء خطين متقاطعين، كأن الطمع في القلم، يكلف الطامع حياته.

حمل سيمون غصناً أخذ يتلهى فيه ثم قال: هنالك شيء لم نعرفه من القصة، ماذا حدث للمبشرين؟

قالت كوان: لم يعودوا أبداً.

قلت مبررة ذلك: ربما عادوا لوطنهم، ولم يرهم أحد وهم يغادرون.

قالت كوان: لكن ذلك الشاب لم يعد أيضاً.

قلت: ربما أنه صار مسيحياً وذهب معهم.

قالت كوان وهي تنظر إلي بتشكك: ولم يفعل المرء شيئاً كهذا؟ ثم لماذا لم يأخذ أولئك المبشرون عرباتهم معهم، ولا بغالهم؟ ثم لماذا أرسلت الكنيسة بعد ذلك كل الجنود الأجانب للبحث عنهم؟ لقد سببوا مشاكل كثيرة، وكان الجنود يقرعون هذا الباب وذاك بحثاً عنهم. كانوا يهددون الناس بإحراقهم إن لم يقولوا شيئاً عما حصل. في النهاية، توصل جميع الناس إلى إجابة واحدة: وهي أن قطاع الطرق هاجموهم. حتى اليوم يعرف الناس هذه القصة. إن تظاهر أحد هنا بأنه أفضل منك، سوف تسخرين منه وتذكرينه بأنه قد يصير مثل ذل كالرجل الذي أخذ القلم.

قلت لسيمون: هل سمعت هذا؟

جلست كوان باعتدال وقربت أذنها كأنها تميل تجاه الجبال البعيدة ثم قالت: هل تسمعون؟

قلت أنا وسيمون معاً: ماذا؟

مرت لحظات من الصمت، قلت بعدها أني سمعت صوت الريح كما أظن.

قالت كوان: نعم، بالنسبة لمعظم الناس، يبدو صوت الريح القادم من الكهوف، لكن لو امتلك المرء شغفاً كافياً، فسوف يسمع أصوات أشباح ين وهم ينادونه: تعال إلينا. وكلما ازداد حزنك، سوف تسمعينهم وقد صارت أصواتهم أعلى: أسرعي، تعالي، لتري ماذا يوجد في الداخل. سوف يشعرون بسعادة كبيرة لو أنك دخلت، لأنك سوف تحتلين مكان أحدهم، وحينها، سوف يتمكن من المغادرة والتحليق إلى عالم ين، بكل راحة وسلام.

قال سيمون: يشبه هذا لعبة الإمساك بأحدهم، من خلال استدراجه.

تظاهرت بأنني اضحك، لكنني كنت متضايقة في الحقيقة، لأن كوان تمتلك قصصاً كثيرة عن استبدال الموتى بالأحياء.

استدارت كوان ناحيتي وقالت: تعرفين الآن لماذا سميت القرية بتشانجميان، تشانج تعني الغناء، أما ميان، فمعناها ناعم. صوت ينساب كخيط ناعم، لكنه يستمر إلى الأبد. لكن بعض الناس يفهمونها بطريقة أخرى، إنها مثل أغنية تعلو وتعلو ثم تنخفض فجأة. بهذه الطريق يصير معنى تشانج: الطويل. أما ميان فتعني النوم. النوم الطويل، هل تفهمين يا ليبي؟

قال سيمون: تقصدين أغانٍ تجعلك تنامين؟

قالت كوان: لا، النوم الطويل هو الاسم الآخر للموت. ولهذا يقول الجميع أن لا يدخل أحد لكهف تشانجميان. إنه بوابة تقود إلى عالم ين.

بدأ رأسي يدور ويدور. قلت: وهل تؤمنين بهذا؟

أؤمن!؟ لقد كنت هناك من قبل، الكثير من أناس ين ينتظرون هناك، وينتظرون أكثر.

قلت: إذن، كيف استطعت العودة؟ ثم انتبهت قبل أن تجيبني وأردفت: تستطيعين ألا تجيبينني بالطبع. لم أرغب بأن تذكر كوان الآن قصة بونكيك وزينج. لقد تأخر الوقت ونال النعاس مني. لم أرغب بالكذب وادعاء الصحو أمام شخص يحتل جسد فتاة ميتة ككوان!!

اقترب سيمون مني وقال: أظن أننا يجب أن نذهب ونرى ذلك الكهف.

قلت: لعلك تمزح؟

رد سيمون: ولم لا نذهب؟

- ولم لا! هل جننت؟ الناس يموتون هناك.

- إذن أنت تؤمنين بقصص الأشباح تلك.

- لا، لكن يبدو أن هنالك شيئاً سيئاً في ذلك المكان. ربما غاز سام مما يكون في الكهوف، وربما شيء آخر، من يعلم.

أضافت كوان: والغرق، كثير من الناس الحزينين أغرقوا أنفسهم هناك. قفزوا من الحافة، وظلوا يسقطون للأسفل.

قلت: هل سمعت يا سيمون؟ يغرقون ويسقطون.

قال سيمون: أوليفيا، لعلك لم تنتبهي إلى أن هذا قد يكون اكتشافاً عظيماً، ربما يكون الكهف مما قبل التاريخ، وفيه بيوت من العصر الحجري وأوانٍ من الفخار...

قالت كوان مساندة سيمون: وربما عظاماً أيضاً.

كرر سيمون بدهشة: أية عظام؟

قالت كوان: ربما عظام أولئك الأجانب. لقد ضيعوا طريقهم في ذلك الكهف، ثم ضيعوا عقولهم، لكنهم لم يرغبوا في الموت، لذا فقد جلسوا على حافة البحيرة لزمن طويل، حتى صارت أجسادهم حجرية.

وقف سيمون وتطلع إلى القمم البعيدة.

قلت له: أترى؟ الناس يفقدون عقولهم هناك ثم يصيرون حجارة. وأنت لا تريد الموت والبقاء حبيساً على حافة تلك البحيرة حتى تصير حجراً.

لكن سيمون لم يكن يستمع إلي، شعرت بأن عقله يقوده إلى ذلك الكهف واعداً إياه بالشهرة والثروة. قال سيمون: هل تتخيلين ماذا سوف يفعل المحررون حين يرون قصتنا عن ذلك الكهف؟

يا للهول، سوف ننتقل من الكتابة عن حساء الدجاج، إلى التنقيب في الآثار، بل ربما يجب أن نستدعي قناة ناشونال جيوغرافيك أو ما شابه. أعني، ليس هذا مثل فيلم الأرض المجهولة، لكننا سوف نحصل على حقوق القصة، وربما يجب أن نأخذ معنا بعض الأواني الفخارية التي سوف نجدها كدليل.

قلت: لن أذهب إلى هناك.

قال سيمون: سأذهب بمفردي إذن.

كنت أود لو صرخت فيه ومنعته من الذهاب، لكن، كيف أفعل، لم يعد لي علاقة خاصة مع جسده، ولا مع عقله أو روحه. كانت كوان تحدق بي وأردت الصراخ فيها هي الأخرى: هذه غلطتك. أنت وقصصك الملعونة! تنظر إلي بتلك النظرة الأخوية وتربت على يدي محاولة التخفيف عني، سحبت يدي بعيداً عن يدها. تحولت كوان إلى سيمون وقالت: لا تستطيع الذهاب بمفردك.

تطلع حوله وقال: ولماذا؟ ردت كوان: أنت لا تعرف مكان الكهف.

قال بوثوق: لكنك سوف تدلينني إليه.

قالت كوان: لا، ليبي محقة، إنه مكان خطير.

حرك سيمون عنقه وظل يحدق فينا، شعرت فيه وهو يستجمع قواه وأفكاره ليطيح بنا نحن الاثنتين. لكنه تمتم في الأخير: ربما هو خطير، لكن لم لا نقضي ثلاثتنا ليلة هناك؟

* * *

تمددت في وسط سرير الزواج المحتشد ذاك، وكل عضو في جسدي متحفز حتى لا يلمس جسد سيمون. لم ننم معاً في سرير واحد منذ عشر أشهر. يرتدي سيمون زياً داخلياً ناعماً، أشعر بأطرافه اللامعة تلمسني، وأشعر بمؤخرة ظهر سيمون تلمس فخذي. أبتعد بحذر حتى أصطدم

بركبتي كوان من الجهة الأخرى أو تخزني أصابع قدميها. لقد اشتبهت بان كوان تدفعني إلى جهة سيمون.

همست: أسمع صوتاً غريباً، ما هذا؟

قال سيمون: لا أسمع أي شيء. قلت في نفسي: لم يزل صاحياً إذاً.

قالت كوان: هذا صوت الغناء القادم من الكهف، لقد أخبرتكم من قبل.

لكن الصوت يبدو مختلفاً الآن، كأنه صوت شخص يشكو. بعد لحظات، انقلبت كوان على جانبها وبأت تشخر. أما سيمون فصار نفسه عميقاً، ها أنا محشورة بين شخصين، وحيدة وصاحية، أحدق في الظلام. وأتذكر اللحظات التي مرة خلال نصف اليوم الماضي. الرحلة إلى هنا بسيارة باردة وسترة التزلج التي ألبست للجدة، وكوان في قصة طفولتها وهي في الكفن مع بونكيك. تذكرت الدجاجة المسكينة ورقصة موتها، الفأر الميت في قعر زجاجة النبيذ. والمبشرون الموتى في الكهف. كذلك المتعة التي رأيتها على وجه سيمون حين نظرنا معاً إلى قمتي التنين البعيدتين، كان ذلك لطيفاً ومميزاً، ذكرني بذات الشعور الذي عشناه معاً فيما مضى. ربما يمكن أن نصير أصدقاء، أو أن تلك اللحظة لا تعني أي شيء أصلاً، ربما هو تأثير مشروب الفأر الميت ذاك، ليس إلا.

انقلبت على جانبي، وكذلك كان سيمون، حاولت أن يظل جسدي مستقيما حتى لا ألمسه أبداً. لكن، لا يمكن أن يكون الجسد متخشباً هكذا، إلا لو كان ميتاً. لو أنني ملت بجسدي ناحيته، لارتحت في أكثر في نومي، لكنني أخشى أن يذهب بعيداً في تفكيره ويظن أني سامحته. أو يظن أني أريده.

كان صوت ارتطام شفتيه واضحاً، بدا شخيره مسموعاً، هذا ما يفعله حين يغرق في نوم عميق. بعد قليل سوف أشعر بأنفاسه وهي تلفح عنقي.

لطالما تعجبت من قدرته على النوم بتواصل كل الليل، لا تزعجه أبواق السيارات، ولا حتى الزلازل، والآن، تلك الأصوات التي تستمر بالصدور عن السرير، يبد والصوت مثل أسنان تمضغ شيئاً. كصوت فأر يمضغ في قائمة السرير، أو ينشي مخالبه الصغيرة فيها قبل أن يصعد إلى الأعلى.

همست: سيمون؟ هل تسمع هذا؟ تحرك سيمون وهو نائم، تماماً مثل أيام زواجنا، استدار ووضع ذراعه حول خصري ثم أرخى رأسه على كتفي. تصلبت فجأة. تساءلت: هل هو نائم حقاً؟ أم فعل هذا بدافع الفطرة ؟ حركت خصري قليلاً لأرى إن كان سوف يسحب يده عنه، لكنه استمر في شخيره. لعله يختبرني إذن؟

أمسكت بيده وأبعدتها عن خصري، تحرك سيمون وقال بصوت مترنح: إنني آسف. غير من وضعيته وانقلب للجهة الأخرى. وجعل هذا الأمر يبدو كمجرد صدفة أثناء النوم. إنه لم يقصد شيئاً إذن، وشعرت بحرارة في حلقي وألم في صدري. أتذكر كيف كان يرغب بعناقي وممارسة الحب معي في كل مرة نتناقش فيها بحدة. كأن اتصال جسدينا بتلك الطريقة سوف يزيل أي خلاف بيننا. كنت أشعر بالغضب لأنه يحل الأمر بهذه البساطة، لم أكن أستطيع مقاومة يده وهي ترفع ذقني بلطف، أهضم غضبي وهو يقبل شفتاي وأنفي وجبيني. وبقدر ما أكون مستاءة، كان سيمون يقترب مني أكثر، يقبل عنقي وصدري وركبتاي. وكنت أتركه، ليس لأنني أريد الجنس. بل لأن هنالك شيئاً مؤذياً، لم يكن بمقدورنا إبعاده، لم نحصل على ذلك الأمل في حل الامور حينها.

كنت قد خططت لأتحدث عن مشاكلنا لاحقاً، وكيف يرى هو الإهمال أمراً طبيعياً فيما أراه أنا تحذيراً خطيراً. وكيف أننا لم نعد نجيد الحديث مع بعضنا. وكيف يحاول كل منا الاحتفاظ بمنطقته دون أن يسمح للآخر بالاقتراب. كنت أريد القول قبل ضياع الزمن بأن الحب الذي جمعنا تضاءل،نحتاج إلى مؤونة الحب من جديد. بمرور الوقت شعرت أن حبنا لن يقودنا إلى ما نحلم فيه. ربما كان كافياً ليغذينا لعدة سنين، لكن ليس طوال الحياة، لقد تناولنا وجبة خفيفة، وفوتنا الحصاد. كنا شخصين يتضوران للحب الغزير لكن كلاهما متعبان من فكرة الخوض فيه. ظلت أقدامنا ثابتة في مكانها وعاجزة، حتى تجاوزنا الحب وغادر هذا العالم، كنا مجرد أملين مبهمين دون أحلام. مجرد تركيبة أخرى، مثل مزيج بيضة مكسورة. ذكر وأنثى، كانا هنا ذات زمن، ثم اختفيا.

كنت أفكر في أشياء كهذه فيما هو يعريني، كأنه يرى في العري نوعاً من المودة. أتركه يهصرني كأنه يعرف أعماقي. لكن جسدي من كان معه، وليس قلبي. يحاول اقتيادي لأندمج معه ويظل يكرر: استرخي، ارتاحي. كأنني سوف أنزلق. وأنسى كل شيء خاطئ. كنت أريد أن أصرخ رافضة أسلوبه وأسلوبي وطريقة حبنا، أرفض التكرار ورد الفعل الممل.

في الماضي، وبعد أن نمارس الحب، ربما كنت أشعر ببعض التحسن، أتحرر من صمتي وشعوري بالاستياء. وأحاول تذكر ما يقلقني في الأساس، عن حصاد الحب الغزير الذي أريد. لكن القلق من حب بلا طعم، وموت يسرق الأمل، كان يلوح لي، لم تعد هنالك مشاعر، بل مجرد علاقة تفاهم، حتى السخافات والضحكات المشتركة، اختفت. وهكذا، جئنا إلى هنا بعد أن انتهى زواجنا. أظن الحب خدعة عقلية. مجرد إفرازات للأدرينالين

والإندروفين. يجعل طوفانها الخلايا تعبر عن القلق وتتحسس بعمق، الحب مجرد اندفاع كيميائي مقدس. يمكن للمرء أن يعرف كل هذا عن الحب، لكنه يظل كما هو، غير قادر على مقاومته. تحركت يدا سيمون وهو نائم، كأنه السحر، مثلما يلوح المرء بيديه وهو في نوم عميق دون أن يعرف.

19

المعبر الحجري

انتزعت من نومي بالصراخ، كوابيس، فتيات صغيرات اغتصبن وقتلن، صوت صراخ دو ليلي: انتظروا، أيتها المخلوقات الطماعة، صوت صرخة خنزير مذعور أعلى من الصوت الذي ظل يتكرر: كل، كل، ثم صِر سميناً أكثر. ما كدت أستفيق، حتى شعرت بعيون أخرى غير مرتاحة، ومفتوحة في قلب هذا الليل. شعرت بجسدي يندفع لأقرب شيء يفيض منه الأمان أو تفيض منه الحرارة. لم يكن ذلك سوى سيمون. وبدقة أكثر، شعرت بمؤخرتي ترتاح على قمة فخذه. بدا سيمون منتصباً، وذكرني هذا بممارسة الحب التي كنا نفضلها أثناء الصباح. كان مكان كوان خالياً ومرتباً، غادرت مكانها في السرير، لا أعرف متى، ربما تسللت، ولا أعرف إن كان سيمون غافياً حينها؟ ربما رآها تغادر وضحك في سره. الأمر الذي أثار حنقي بكل حال، هو أنني كنت مستثارة. شعرت بالنبض في الجزء السفلي من جسدي، وبالحرارة. شعرت بحاجة للمس جسدي. وفركه بقوة حتى أشعر بالراحة. اللعنة، لا بد أن دماغي اللعينة مثقوبة. شعرت بخطر عدم قدرتي على الاحتمال، حاولت الانسحاب من الخطر وانزلقت ببطء إلى

جانب كوان من السرير. سيمون يحدق في صدريتي، عيناه ترتعشان. أسرعت إلى جانب السرير، تركت ملابسي هناك في البارحة. كأن درجة الحرارة بلغت الخامسة والأربعين. يداي تجوسان في الحقيبة بحثاً عن ملابس دافئة.

تمطى سيمون وتثاءب، ثم أزاح بيده الستارة التي تحمي من الناموس ونهض. قال بلهجة بدت خبيثة: لقد نمت جيداً الليلة، ماذا عنك؟

سحبت سترتي على جسدي، حتى جلد السترة منكمش من البرد، فيما أسناني تصطك وأنا أتكلم: كيف يمكن للمرء أن يحصل على حمام دافئ هنا؟

نظر إلي سيمون بوجه بدت الراحة والمتعة عليه، هل يشتبه بحالتي!؟

قال سيمون: هنالك حمام عمومي قريب، لقد رأيته البارحة حين ذهبت لتلتقطي الصور.إنه لا يبعد عن هنا لكنه يبدو عتيقاً، وهو للرجال والنساء على حد سواء، يوجد فيه حوض واحد للاستحمام، ولا أزمة هناك، يبدو لي كان أحداً لم يستخدمه منذ قرون، الماء آسن، إن أردت حماماً ساخناً، خذي معك دلواً من الماء الحار.

فكرت في أن أتحضر للأسوأ، ربما لا يغيرون مياه الاستحمام طوال اليوم حتى، أليس كذلك؟

قال سيمون: بل يبدو أنهم لا يغيرونها طوال الأسبوع، يا إلهي، يجعلنا هذا نبدو مبذرين في أمريكا!

ابتسمت وسألت سيمون: بماذا تتمتم؟

- أتحدث عنك، وعن هوسك بالنظافة.

- لا لست مهووسة، ليس إلى هذا الحد.

- إذن لماذا قمت بإزالة أغطية السرير بمجرد نزولنا في الفندق؟

- لأنهم لا يغيرونها عادة.

- إذن؟

- لا أقبل النوم فوق أغطية يعلق عليها فتات جلد شخص آخر أو سوائله.

قال سيمون: لننه الموضوع، اذهبي إلى ذلكالحمام العمومي، أتحداك أن تفعلي.

للحظة، أخذت أفكر في أفضل السيء، الذهاب إلى ذلك الحمام، أم أظهر بمظهر الجبانة للأسبوعين التاليين اللذين سوف نقضيهما هنا.

قال سيمون مشجعاً: يمكنك ملأ الحوض بماء ساخن وأخذ إسفنج للاستحمام من هنا، يسرني أن أحمل الماء عنك بالطبع.

تظاهرت بعدم سماعي لما قاله سيمون، لكن عضلات وجهي كادت تتشنج وأنا أمنع نفسي من الابتسام. سحبت من الحقيبة زوجين من الجوارب، اخترت واحداً صناعياً وأهملت القطني، أندم لأنني لم أحضر المزيد معي في الحقيبة، بدا لي اقتراح سيمون عن حمام بماء ساخن وقطعة إسفنج ممتازاً، أستطيع تخيل الأمر، سيمون مثل عبد مصري. يرتدي بنطالاً بحمالتين فيما صدره عارٍ، ومعالم التعذيب بادية على وجهه وهو يصب الماء الدافئ على صدري، ثم معدتي وقدمي، فيما أنا قلبي متحجر، أتعامل معه كأنه مجرد صنبور مياه: صب ماء حاراً، والآن أسرع، صب ماء بارداً.

قطع سيمون حبل أفكاري: بالمناسبة، لقد كنت تتحدثين خلال نومك مرة أخرى.

تجنبت النظر في عيني سيمون، بعض الناس يشخرون، أما أنا فأتكلم خلال نومي، لا أتمتم، بل أتكلم كلاماً واضحاً، بل ويمكن فهمه بشكل منطقي. أتحدث بصوت عالٍ في قلب الليل حتى أنني أستيقظ على صوتي في بعض الأحيان، كان سيمون يسمعني ونحن متزوجان، أسرد النكات، أطلب وجبة الطعام مع الحلوى، وأصرخ في كوان لتبقي أشباحها بعيدة عني.

قال سيمون محدقاً بي: ما قلته البارحة في حلمك كان موحياً فعلاً.

يا للورطة، بماذا حلمت البارحة؟ إنني أتذكر أحلامي عادة، لكنني لا أستطيع هذا الآن. هل كان سيمون في الحلم، هل مارسنا الحب؟

قلت: الأحلام لا تعني الواقع، ليست مهمة. تناولت قميصاً داخلياً أخضر اللون واخترت دثاراً لأرتديه فوقه ثم أضفت: الأحلام مجرد بقايا وحطام نتخلص منها.

قال سيمون: ألا تريدين أن تعرفي ماذا قلت؟

- هذا غير مهم فعلاً.

- كان كلامك متعلقاً بشيء تحبين فعله.

رميت الملابس من يدي وقد شعرت بالانزعاج، قلت: ربما لا أحبه كما تعتقد فعلاً.

غمز سيمون بعينه تجاهي مرتين، ثم انخرط في الضحك، قال: لا، أنت تحبين ذلك، لقد سمعتك تقولين: سيمون، انتظر، لم أدفع ثمن الأشياء

بعد. تمالك سيمون نفسه للحظة ثم قال: لقد كنت تتسوقين، ماذا كنت تظنين أنني أقصد!

شعرت بحرارة وجهي الذي لابد أنه صار أحمراً الآن: إخرس! قلت ذلك ودفعت يدي في الحقيبة وأخرجت منها جوربين صوفيين، قلت له: استدر الآن، أريد تغيير ملابسي.

قال سيمون: لقد سبق أن رأيتك عارية لألف مرة.

- حسناً، لن تكون المرة الأولى بعد الألف، هيا استدر.

أدرت ظهري له، وبدأت بخلع السترة القطنية وقميص النوم عني، شعرت أنني خرقاء لأنه خدعني بمزاحه، لقد أغراني بسهولة ومن ثم اندفعت وراء خدعته، كان يجب أن أنتبه، لكنني شعرت بشيء آخر، فاستدرت على الفور.

قال سيمون: لست مضطرة لإغرائي، أشعر بذلك بالفعل، تبدين فاتنة، لطالما كنت كذلك. لا أمل أبداً من النظر إليك. كان سيمون ينظر من خلف الناموسية الشفافة وهو يبتسم.

قلت: أنت أخرق.

رد سيمون: لكننا ما زلنا زوجين، لم ننه معاملة الطلاق بعد.

حملت زوجاً من الجوارب المكورة كالكرة ورميتها في تجاهه. لكنه مال متجنباً إياها وقد أفلت من يده طرف الناموسية الذي كان يمسكه. تمزق نسيج الناموسية العتيقة، والتي ربما تبلغ مئة عام من العمر! طارت خصلها في الهواء وسقطت مترنحة.

حدقنا في النسيج الممزق، وشعرت كأنني طفلة حطمت زجاج نافذة الجيران بالكرة. شعرت بالقلق والخجل. وضعت يدي على فمي وندت عني شهقة خفيفة.

قال سيمون: تصرفك سيء .

- بل إن هذا خطأك.

- ماذا تقولين؟ أنت من رميت الجورب!

- لأنك كنت تنظر إلي.

- وما زلت أنظر الآن.

وبالفعل، كنت أقف عارية تماماً. فيما يصفق البرد مؤخرتي، رميت الجورب الآخر على سيمون، رميت الدثار والقميص، ثم رميت الحقيبة كلها، تعاركنا مثل الأطفال، شدني سيمون من يدي فسقطت على السرير. تقلبنا فوقه، حاولت هزيمة سيمون، وكانت حجة مقنعة حتى نلمس بعضنا البعض من جديد. حين انتهينا من مقارعتنا ولعبنا، توقفنا لاهثين وأخذنا ننظر إلى بعضنا البعض عيناً بعين دون أن نبتسم، بقينا صامتين، لم يبق شيء حتى يقال. اندفعنا فجأة وأخذنا نقبل بعضنا، مثل ذئبين شرهين، بدأت شفاهنا تبحث عما يجعل كلاً منا ينتمي للآخر، رائحة جلدنا، مذاق شفتينا، نعومة شعرنا، ملوحة عنقينا، انثناءات جسدينا التي نعيد اكتشافها من جديد كأنها المرة الأولى، ملمس الأصابع على نتوءات عظامنا. كان سيمون حساساً، أما أنا فمندفعة، كنا نسكن قليلاً ثم نستثار، ظللنا نتقلب حتى فقدنا ذاكرتنا عما كنا عليه قبل هذه اللحظة، لقد صرنا متشابهين جداً الآن.

بعد مضي بعض الوقت، خرجت إلى الساحة، نظرت إلي كوان نظرتها البريئة التي رافقتها ابتسامة عارفة. قالت كوان: ليبي، لماذا تبتسمين؟

نظرت إلى سيمون وقلت: لا مطر اليوم، هذا جيد. وفكرت في أنني سعيدة الآن، ليس مهماً إن كانت كوان أختي أم لا، يكفي اقتراحها الجيد بأن نذهب ثلاثتنا إلى الصين. على الأرض أمام كوان، رأيت حقيبة مفتوحة مليئة بالأشياء. قالت كوان أن الجدة قدمت هذه الهدايا كتذكارات إلى دو ليلي، ما عدا صندوق موسيقى خشبي يعزف لحناً مصغراً من أغنية منزل في المدى، أخرجت آلة التصوير وبدأت ألتقط الصور.

التقط سيمون أول شيء على وجه الحقيبة، كان البيت الخشبي الذي يتم صنعه لأجل صراصير (الروش)، وشرحت كوان لدو ليلي بكل جدية أنهم في أمريكا يصنعون هذه البيوت الخشبية، ثم أشارت لعلامة الصنع الأمريكية.

صرخت دو ليلي: هل الأمريكيون أغنياء لهذا الحد!؟ إنهم يبنون بيوتاً لأجل الصراصير كذلك، هزت دو ليلي رأسها وزمت شفتيها في حركة شعبية تنم عن الشعور بالاشمئزاز. حدقت كوان بباب الفندق الخشبي الصغير وأضافت: كما أنهم يطعمونها طعاماً لذيذاً كذلك. حتى أن هذه الصراصير لن ترغب بالمغادرة بل سوف تبقى إلى الأبد. ضربت دو ليلي ذراع كوان وقالت متظاهرة بالغضب: أنت تتصرفين بخبث، أتظنين أنني لا أعرف ما هو هذا؟

توجهت دو ليلي غلي بالكلام وقالت: إننا نصنع هنا ذات الشيء، نقوم بإفراغ سيقان البامبو من الداخل ثم نملئها بشيء حلو، أنا وأختك كوان كنا نفعل ذلك، كان الناس في قريتنا يتنافسون على من يستطيع القبض على أكبر كم من الحشرات والذباب والفئران وحبسها داخل السيقان المجوفة. كانت أختك تبذل كل جهدها للقبض على معظم الصراصير، أما الآن،

فتحاول خداعي بمزحتها هذه. أخرجت كوان حقيبة ظهر، كانت حقيبة رياضية حسنة الصنع، وتبدو قادرة على حمل بعض الطوب في داخلها حتى، قالت كوان: انظري، هنا على الجانب، وفتحت جيباً كبيراً، تعجبت كوان لأن الحقيبة مضادة للماء، عثرت كوان على موقد صغير متنقل، وعدة إسعاف أولي، مخدة يتم نفخها بالهواء، أكياس مقواة يمكن إعادة استخدامها، إضافة لمصباح متنقل وسكين سويسرية متعددة الاستخدامات، أخذت كوان تتفقد كل شيء و تحكي عن فوائده. تفحص سيمون الأشياء كلها، وقال لكوان: ما رأيك؟

ردت كوان: بسبب الصحيفة، كانت هنالك مقالة عن الزلازل، إن حصل زلزال كبير فإن في هذه الحقيبة كل ما تحتاجه لتنجو. وهنا في تشانجميان كما ترى، لا نحتاج الزلزال، فلا خطوط ماء ولا كهرباء أو تدفئة حتى تنقطع. بالقرب ظل صندوق بلاستيكي صغير وقفازات بلاستيكية للعمل في الحديقة، مناشف صغيرة، قمصان جديدة، ناحت دو ليلي وقالت بأن الجدة لم تعش طويلاً لتستمتع بكل أشياءها هذه. التقطت صورة لدو ليلي وهي محاطة بميراثها هذا، نظارات شمسية بيضاوية وقبعة كبيرة مدورة مبرقعة بلون جدي يشبه جلد الكركدن.

تناولنا إفطاراً خفيفاً من عصيدة الأرز ومخلل الخضار، بعد ذلك جلبت كوان كمية كبيرة من صورها خلال اثنين وثلاثين عاماً من حياتها معنا في أمريكا، جلست مع دو ليلي على المصطبة وأخذتا تتفرجان على الصور، قالت كوان: انظري، هذه صورة ليبي وهي في السادسة من العمر، أليست لطيفة؟ انظري للسترة التي ترتديها، لقد حكتها بنفسي قبل أن أغادر الصين.

أشارت دو ليلي إلى الصورة وسألت: ومن هؤلاء الفتيات الغريبات؟

ردت كوان: زميلاتها في المدرسة.

سألت دو ليلي: لكن لماذا يتم عقابهن في الصورة؟

ردت كوان: لا يتم عقابهن، لماذا تسألين؟

قالت دو ليلي: إنهن يرتدين قبعات المغفلين.

ضحكت كوان ثم قالت: آه، ليست هذه مثل القبعات التي كان الثوريون يلبسونها للمتمردين لعقابهم، في أمريكا يرتدونها لأجل حفل عيد الميلاد. ولأجل العيد المجيد، كان هذا حفل عيد ميلاد ليبي في الصورة، هذه عادة أمريكية، يجتمع أصدقائها يوم ميلادها، ويحضرون معهم الهدايا، لا تكون مفيدة عادة، لكنها لطيفة، تقوم الأم بإعداد الحلويات للأطفال ليأكلوها، يشربون الكثير من العصير أيضاً، تضع الأم شموعاً على الكعكة، وتتمنى الطفلة أمنية ثم تنفخ على الشموع، إن انطفأت جميعها معاً، فإن أمنيتها سوف تتحقق بالتأكيد.

نظرت دو ليلي إلينا وبدا أن كلام كوان لم يعجبها، قالت: حفل عيد ميلاد كل عام، هذا كثير، وأمنية في كل مرة! لماذا يتمنى الأمريكيون كثيراً رغم أنهم يملكون الكثير أصلاً، بالنسبة لي، لا أحب أن أحتفل، إنني أتمنى أمنية كل اثني عشر عاماً وهذا كافٍ...

أزاحني سيمون جانباً وقاطع الحديث: ما رأيكم أن نذهب في جولة؟

قلت: إلى أين؟

انتحى سيمون بيَ جانباً وقال: هناك، وأشار بيده إلى الممر البعيد بين الجبال ثم تابع: هناك إلى الممر الذي يقود للوادي الآخر.

رفعت إصبعي في وجهه محذرة مثل معلمة في المدرسة: سيمون، هل ما زلت تفكر في ذلك الكهف؟

قال مثل من يدافع عن نفسه ضد جريمة ارتكبها: لا، بالطبع لا، ظننت أنه من اللطيف أن نذهب في جولة على الأقدام. هنالك أشياء عديدة ينبغي أن نتحدث عنها.

قلت بتحفظ: مثل ماذا؟

أمسك بيدي وقال: أنت تعرفين ما أقصده؟

ناديت من خلف جدار الساحة: أنا وسيمون سوف نذهب في جولة.

قالت كوان بصوت عالٍ: إلى أين؟

قلت: لا أعرف، إلى أي مكان.

ردت كوان: وإلى متى ستبقيان، متى سوف تعودان؟

فكرت في أنني لا أعرف وجهتنا بالضبط، قلت بصوت عال وأنا أفكر بسخرية: إن لم نعد خلال ساعتين، اتصلي بالشرطة.

سمعتها تتحدث مع دول ليلي بصينية فرحة: إنها تقول أنهما إن ضاعا، فلنتصل بالشرطة، نحن لا نملك أي هاتف هنا!

مشيت مع سيمون، بقينا هادئين، يدانا متشابكتان، وكنت أفكر فيما يمكن أن أقوله، وأظن أن سيمون كان يفكر نفس الشيء، لا يمكن أن أتحدث وأعبر عن كل ما بداخلي بسرعة وبساطة، أحتاج بعض الوقت، أحتاج أن أقترب أكثر، وأن أتحد مع سيمون، بعقلينا وجسدينا. قادتنا أفكارنا في الشارع الرئيسي لتشانجميان، مشينا تجاه السور الحجري الكبير

الذي يفصل القرية عن الوادي التالي. أخذتنا أقدامنا لندخل في أزقة فرعية تخص بعض البيوت، كنا نعتذر لأصحابها الذين كانوا يحدقون فينا بفضول، ثم نضطر للاعتذار مجدداً حين يهرعون إلى داخل بيوتهم ويعودون إلينا بقطع عملة معدنية قديمة عارضين علينا أن نشتريها. ثم يحضرون قطعاً جلدية خضراء ويدعون أن عمرها خمسة آلاف عام على الأقل، التقطت بعض الصور لهم وأنا أتخيل العنوان في المجلة: أناس تشانجميان يحدقون في الدخلاء. نظرنا في بيوتهم وساحاتهم، شاهدنا كباراً في السن يسعلون ويدخنون أعقاب السجائر. شاهدنا نساء شابات يحملن أطفالهن، كانت خدودهن العريضة وردية اللون لأن البرد قرصها، امرأة عجوز توازن حزمة كبيرة من الحطب على كتفيها وتمشي، ابتسمنا لأطفال رأيناهم، بعضهم يعاني من عاهة والتواء في فكه أو قدميه. تساءلت إن كان هذا ناتجاً عن تعاطي أدوية تحديد النسل الصينية. رأيت كل هذا مع سيمون، ما رأيناه كان جديداً، ومختلفاً، جعلني المشهد أرتجف، هذه الحياة الصعبة التي عاشتها كوان ذات يوم، ربما كان يمكن أن أعيشها أنا أيضاً لو قدر لي ذلك.

قال سيمون: إنهم محظوظون بشكل أو بآخر.

قلت: كيف ذلك؟

قال سيمون: كما ترين، مجتمع عائلات صغير وبسيط، يظلون مرتبطين مع بعضهم لأجيال، لو أردت الحصول على منزل هنا فما عليك سوى مناداة أقاربك وأصدقائك وإحضار بعض الطوب لتبني منزلاً. لا مزيد من هراء الحاجة للاقتراض من البنك، لا مزيد من التفكير بالموت والولادة، الحب والأطفال، الطعام والنوم، أو أنك تريدين بيتاً مطلاً على مشهد جميل، أعني، حياة بسيطة تكفي، ماذا تريدين أكثر؟

قلت: أريد تدفئة مركزية.

رد سيمون: إنني جاد يا أوليفيا... حسناً، هذه هي الحياة ببساطتها.

قلت: أنت تفكر بعاطفتك، إنها مجرد حياة بدائية.

- لكنني أظنهم محظوظين.صمت سيمون، ورفع شفته السفلى مثل كلب بولدوج متحفز، بدا أنه ينتظر مزيداً من النقاش فيما أخذت أفكر في أنني غالباً ما أزيد من حدة الأمور، وأحول النقاش إلى معركة أخلاقية عما هو صحيح أو خاطئ. الناس هنا لا يهتمون بما نفكر أو نعتقده عن حياتهم، من الأفضل أن أنسى الموضوع.

قلت: أستطيع أن أفهم وجهة نظرك.

نظر سيمون إلي وابتسم، فتحركت رغبتي بالجدال معه من جديد.

قال سيمون: الحمام العمومي هناك في أعلى التل، درنا حول التل، رأينا بنتين وولداً صغيراً، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة، كانوا يلعبون في الطين. وبعيداً عنهم بعشرة أقدام، جدار حجري عالٍ وممتد حتى الجبال، يحجب ما خلفه، انتبه لنا الأطفال فتوقفوا عن اللعب وبدوا حذرين، كانوا ملطخين بالوحل. قال سيمون بالصينية محافظاً على لكنته الأمريكية: كيف حالكم؟ وقبل ان يتمكن الأطفال من فهم كلمة سيمون التي كانت من الكلمات القليلة التي يعرفها بالصينية، التقطت لهم خمس صور بآلة التصوير. ضحك الأطفال وعادوا إلى لعبهم، أخذ الولد يكمل بناء قلعته الطينية، يصنع بأصابعه بواباتها وجدرانها، الفتاة الأخرى كانت تقص العشب بيديها، وتمرره الأخرى التي تضعه على سقف الكوخ الذي تبنيانه، وضعتا قربه بعض الأعشاب البنية اللون بعد أن شكلتاها كأنها الناس المقيمون في الكوخ.

قلت: أليس هؤلاء الأطفال أذكياء؟ إنهم يصنعون ألعابهم من اللاشيء.

رد سيمون: أذكياء وملطخون بالوحل. نظر إلي وتابع: إنني أمزح فقط. أشار إلى الطفلة الأصغر بينهم وقال: هذه تشبهك، تشبهك في صورة عيد ميلادك وأنت طفلة.

تركنا الأطفال ومشينا تجاه الممر الحجري. قفز الولد الصغير في وجهنا من جديد وقال بلغة المندرين: إلى أين تذهبان؟ أشرت بإصبعي: هناك، إلى القناة المائية لنرى ماذا هناك، هل تريد أن تأتي معنا؟

مشى الأطفال معنا، ظلوا يلعبون ويدورون حولنا إلى أن وصلنا إلى المدخل، توقفوا حينها. ونظروا إلينا، قلت: هيا. قال الولد: اذهبوا أنتم.

ظلوا ينظرون إلينا ثابتين، قلت: سوف نذهب معاً. مددت يدي للطفلة الأصغر لكنها تراجعت ووقفت خلف الولد، التصقوا مع بعضهم مثل قطيع صغير وقال الولد: لا نستطيع الذهاب إلى هناك، هذا مخيف. ظلت عيونهم الكبيرة مفتوحة على وسعها تتطلع إلى المدخل. ترجمت ما قاله الأطفال إلى سيمون. قال سيمون: لا بأس، نمضي نحن إذن. وما إن تقدم خطوتين للأمام، حتى صرخ الأطفال ثم داروا على أعقابهم وركضوا هاربين بسرعة البرق.

تردد صدى صوت سيمون عند المدخل المرصوف بالحجارة: ماذا حل بهم؟

ظلت عيناي تلاحقان الأطفال الذي اختفوا وراء التل وقلت: لا أعرف. ربما حذرهم أهلهم أن لا يتكلموا مع الغرباء.

قال سيمون: هيا بنا، ماذا تنتظرين؟

دخلنا، مشيت وأنا أنظر حولي، يمتد الجدار على امتداد السلسلة الجبلية، لكن حجارته مختلفة عن حجارة القرية، بدت مقتطعة من صخور ضخمة، تخيلت العمال من عصر سابق وهم يجرون هذه الحجارة الضخمة إلى المكان، كم واحداً منهم قتله الإنهاك؟ ربما استخدمت أجسادهم في صبة الجدار. تماماً مثلما استخدمت أجساد العمال الذين بنوا سور الصين العظيم. في الواقع، يبدو هذا الجدار نموذجاً مصغراً عن سور الصين العظيم، لكن لماذا بني هنا؟ ربما بني كجدار دفاعي من قبل أمراء الحرب في الزمن الذي غزا فيه المغول البلاد. منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى هنا، شعرت بالنبض يرتفع في عنقي، وشعرت برأسي تطفو، هذه القناة بعرف وارتفاع خمسة أقدام، تبدو مثل قبر كبير، تخيلت أشباح الجنود المحاربين تنتظرنا على الجانب الآخر. لكن ما رأيته كن وادياً منبسطاً وصغيراً، قناة لجمع مياه الأمطار على جانبهن وحقل واسع على الجانب الآخر. بدا الطريق مستقيماً ومشدوداً مثل شريط يقسم الوادي لنصفين، على كلا الجانبين قمم مخروطية صغيرة، أصغر بكثير من قمتي الجبل الكبيرتين اللتين تطلان على تشانجميان. لكان جميلاً وعاطفياً الجلوس هنا في هذه البيئة الرعوية المعزولة لولا صراخ الأطفال الذي لم أستطع نسيانه. كان سيمون قد سبقني بالفعل وهبط أكثر في المنحدر أسفل التل.

قلت: هل تظننا تجاوزنا حدودنا، لعل هذا المكان ملكية خاصة.

رد سيمون: هل تمزحين؟ نحن في الصين، لا يسمونها شيوعية لأجل التسلية فقط! لا ملكية هنا. كل الأراضي ملك للجميع.

- لكن ليس في هذه الفترة، أظن الأمور تغيرت، صار يحق للناس امتلاك بيوتهم وأعمالهم الخاصة.

- لا تقلقي، إن تجاوزنا حدودنا فلن يطلق علينا أحد النار، سوف يطلبون منا أن نخرج، وسوف نخرج. هيا بنا، أريد أن أرى ما يوجد في الوادي الآخر.

واصلنا السير، وبقيت أتوقع قدوم فلاح غاضب في أي لحظة، ليصرخ علينا ومجرفته مرفوعة في يده، لكن، كان بطن القناة فارغاً، وصامتاً، أليس هذا يوم عمل عادي، لماذا لا أحد هنا؟ وهذه الأسوار العالية، هل هي هنا لتمنع أي أحدٍ من الاقتراب؟ صمت المكان مميت، ولا حتى عصفور يغرد. عدت للحديث إلى سيمون: ألا يبدو المكان...

قاطعني سيمون، أجل أعرف، ألا يبدو مكاناً ساحراً، تماماً مثل مشهد الريف الإنجليزي في فيلم نهاية هاورد.

انتهى الطريق، وبدأنا بصعود تلة جديدة، أكثر وعورة وانحداراً هذه المرة، تعرجاتها كثيرة، كلما صعدنا، توضحت حجارة السور الضخمة أكثر بلونها المرجاني الغريب كأنها انتزعت من قاع المحيط! بدا الجدار مثل شعب مرجانية تمتد للأعلى. في السماء، بدأت تتجمع غيوم سوداء، والريح، صارت أكثر برودة. قلت لسيمون من جديد: ربما يجب أن نعود الآن.

رد سيمون: فقط، لنرى ماذا هناك على القمة. ولم ينتظر مني أي جواب، بل اتخذ طريقه إلى الأعلى. بدأنا الصعود، وتذكرت كوان وقصتها عن المبشرين، وكيف قال القرويون أن قطاع الطرق قاموا بقتلهم، ربما هنالك جزء من الحقيقة في تلك الكذبة. قبل مغادرتنا الفندق بيوم، كنت أقرأ النسخة الإنجليزية من صحيفة الصين اليوم، أتذكر التقرير المكتوب فيها عن الجرائم في الصين وارتفاع نسبتها خاصة في المناطق التي يرتادها السياح مثل غيلين، ثم تلك الفقرة عن قرية لا يزيد عدد سكانها عن المائتين

وقليل، والتي أعدم فيها خمسة أشخاص بإطلاق الرصاص منذ يومين فقط، واحد اتهم بالاغتصاب، فيما اثنان آخران كانا متهمين بالسرقة. واثنان لجريمة قتل. تم كشف تلك الجرائم في العام الماضي. خمس جرائم عنيفة بخمس إعدامات، وكل هذا في قرية صغيرة! تبدو هذه عدالة حاسمة لمن يرى الأمر، مجرد اتهام، ومن ثم إعدام. الصحيفة أضافت أن سبب موجة الجرائم المتزايدة تلك يعود إلى التلوث بالأفكار الغربية وإلى تفسخ الأخلاقيات. وقالت أن أحد المتهمين اعترف قبل إعدامه بأنه شاهد نسخة غير قانونية من فيلم غربي عنيف اسمه البندقية العارية! وأقسم أن ذلك سبب له تلوثاً في عقله. الغريب أنه مجرد فيلم، ولكن، لعل الرجل كان بريئاً من جريمته، كان لصاً قفز من خلف التل وقتل سائحة يابانية لمجرد الحصول على ساعتها الثمينة من نوع سيكو. لو قيمت ما يمكن أن يكون معنا ليسرقه قطاع الطرق، فساعتي مجرد ساعة كاسيو بلاستيكية رخيصة. القاتل كان متلهفاً فقط لأجل ساعة رقمية ثمينة تحوي آلة حاسبة واضحة الأرقام فيها. لقد تركت جواز سفري في بيت الجدة الكبيرة. أشعرني هذا بالارتياح لأنني سمعت أن جوازات السياح تساوي حوالي خمسة آلاف دولار أمريكي في السوق السوداء، اللصوص مستعدون للقتل من أجل هذا المبلغ.

سألت سيمون: أين جواز سفرك؟

- ماذا تظنين؟ هل تعتقدين أننا سوف نصل إلى نقطة حدودية ما! جواز سفري هنا. وربت سيمون على جيبه الخلفي.

- اللعنة، لا يجب ان تحمل جواز سفرك معك.

- ولماذا؟

وقبل أن أجيب، سمعنا حركة بين الشجيرات، وصوت ضرب على الأرض. تخيلت قطاع طرق على أحصنتهم! ظل سيمون يمشي تجاه الصوت بشكل طبيعي.

ناديت: عد إلى هنا.

- انتظري للحظة فقط، ثم دار حول المنحدر والشجيرات، واختفى عن ناظري.

بعد دقيقة سمعته يصرخ: أنت، يا هذا، لا، انتظر، فقط انتظر! فجأة، خرج سيمون مندفعاً للأسفل صارخاً: أوليفيا، اخرجي، ابتعدي.

خلال لحظة اندفع سيمون نحوي، حتى أن الريح لفحتني بمروره.

حين سقطت على الأرض الطينية، شعرت أن عقلي انفصل عن جسدي، وكان الأمر غريباً، كنت ساكنة وهادئة، وبدت حواسي متحفزة، تحسست الضربة أسفل ذقني، والدم النازف من ركبتي. لا أشعر بأي ألم! وجعلني هذا أدرك بلا شك ولا خوف أن هذه علامة للموت. ألم أقرأ مثل هذا في كتب تتحدث عن الموت. وأن المرء يعرف بطريقة ما. ولا يمكن شرح هذا الأمر، لحظات بطيئة تمر، في مشهد أخير يراه الناس جميعاً قبل موتهم. من المدهش كم تطول الثانية حينها. كنت أعتقد أنني أحتاج كماً لا ينتهي من الوقت لأجمع اللحظات المهمة في حياتي. من ضحك أو فرح، وحتى لحظاتي مع سيمون، من الحب والسماح، من التصالح مع الذات والشعور بالسلام. لم أترك خلفي لحظات ندم، ضحكت، الحمدلله أنني أرتدي لباساً داخليا نظيفاً. ومن سيهتم في الصين بما ترتديه جثتي!؟ الحمدلله أن سيمون معي ولن أعيش لحظتي الأخيرة المرعبة حتى نهايتها الساحرة بالموت لوحدي. إن سيمون معي، وإن كانت هنالك جنة أو عامل

ين أو أي شيء آخر، لعل إلزا تكون فيه معي ومع سيمون أيضاً؟ وحينها سارة سيمون محلقاً هناك بجناحي ملاك.

فجأة، لم تعد أفكاري ساكنة وهادئة. وبدا الوقت لي يمر مثل أي وقت عادي. اللعنة على الإغماء وأحلام اليقظة وكل شيء، فقفزت واقفة على قدمي!

ما إن نهضت حتى ظهرا، ما ظننته مجرد قتلة يختبئون خلف الأشجار، كانت مجرد بقرة مع عجلها. أخافتهما صرختي فركضا وانزلقا في الوحل الذي يملؤ المكان. سألني سيمون: ما بك؟

البقرة المندفعة خارت بوجهي بصوت عالٍ ومرعب. كان ذلك مخيفاً جداً، ظننت أنني مت، لا بد أن ملاك الموت سخر مني. لكنني لم أستطع الضحك على تلك المزحة أبداً. شعرت بغباء وارتباكي، سوء حكمي على الأمور وكأنني مصابة بمرض تعذيب الذات، أحكامي تبدو متسرعة تجاه الأسوأ، أحاول دوما ترتيب هذه الفوضى، وأي فوضى، واختراع شيء منطقي لجمع ما أظنه تناثر، أعرف كيف يشعر المصاب بالانفصام!

مشت البقرة مع عجلها مبتعدة. وبمجرد أن عدنا إلى طريقنا مجدداً، ظهر شاب يحمل في يده عصا. يرتدي سترة رمادية فوق قميص أبيض. وبنطال جينز أزرق. حذاءان نظيفان في قدميه.

قال سيمون: لا بد أنه راعي تلك البقرة.

بت أقلق من الحكم على أي شيء الآن، ربما يكون قاطع طريق مثل أولئك الذين قرأت عنهم.

تنحينا جانبنا لنترك له مجالاً للمرور. لكنه ما إن كاد يتجاوزنا حتى توقف في مكانه، وظللت أتوقع أن يسألنا سؤالاً ما، لكنه لم يقل شيئاً، بدا وجهه لطيفاً، أما عيناه فكانتا حادتان وعميقتان.

كرر سيمون بالصينية الضعيفة التي يعرفها: مرحباً.

ظل الشاب صامتاً ولم يرد، ظلت عيناه تتفحصنا من الأعلى إلى الأسفل. بدأت أقول بالصينية: هل هذه أبقارك؟ لقد أخافتني جداً، ربما أنك سمعت صرختي. أنا وزوجي أمريكيان. من سان فرانسيسكو، هل تعرفها، نعم أم لا!؟ حسناً. نحن الين في زيارة لعمة أختي في تشانجميان: لي لي بين.

قلت كل ما قلته، لكنه ظل صامتاً.

تابعت: هل تعرفها، في الحقيقة هي توفيت البارحة، لقد ماتت قبل أن نلتقي بها حتى. هذا محزن، وها نحن مضطرون الآن لتحضير... ثم سكت فجأة، وعجزت عن إيجاد معنى لكلمة جنازة باللغة الصينية. حاولت القول: سوف نقيم لها حفلاً، لكن حفلاً حزيناً! ثم صمت وأنا أشعر بالخجل من طريقتي في التعبير.

ظل الرجل يحدق في عيني. وقلت في نفسي: حسناً أيها الصامت الملعون، إن تحدق بي سوف أحدق بك، لكنني أخفضت بصري بعد ثوان فقط. وسأل سيمون: ما بال هذا الرجل؟

تلعثمت ولم أتكلم، إنه يختلف عن رعاة الأبقار الذين رأيناهم في تشانجميان بأيديهم الخشنة وشعرهم القصير المقصوص في المنزل، بدا معتنياً بنفسه حتى أن أظافره كانت طويلة ونظيفة، الذكاء والتكبر كانا واضحين في عينيه. وبمظهره هذا، لو كان في سان فرانسيسكو، لربما بدا مثل طالب طب أو طالباً في كلية الآداب، شاعراً محبطاً، لكن هذا الرجل يقف أمامنا الآن، راعياً للأبقار، وكل ما فيه ينقض ذلك لسبب ما لا

أستطيع معرفته، لذلك، بقيت أحاول أن أخفي شعوري بالارتباك وأحافظ على ابتسامتي حتى لا أبدو سخيفة.

قلت بلهجة المندرين: نحن خارجان في جولة لنرى المكان، إن الطبيعة جميلة فعلاً هنا، نريد ان نعرف ما الذي يوجد بين الجبال. أشرت بيدي إلى الطريق بين الجبال إلى الوادي، ليفهم ما أعنيه.

نظر إلى حيث أشرت، ثم عاد وتطلع إلي بوجه عابس. ابتسم سيمون في وجهه ثم قال لي: من الواضح أن الرجل لا يفهم شيئاً مما تقولين، هيا بنا لنذهب.

تابعت كلامي مع الرجل: هل الأمر عادي، هل يمكن لنا إكمال طريقنا من هنا أم أننا نحتاج إذنا من أحد ما، هل الطريق آمن؟ أرجو أن تنصحنا؟

ظل صامتاً، لعل الذكاء البادي عليه لا ينفي أن يكون مجرد راع في حقول تشانجميان. بل ربما أنه صامت لأنه يحسدنا!

أخيراً، قال الرجل: أنتما أخرقان. ثم تركنا واتخذ طريقه عبر المنحدر!

قالها بإنجليزية ممتازة. وظللنا صامتين ومشدوهين للحظة. حين عدنا للمشي قال سيمون: كم هذا غريب، هل قلت له شيئاً؟

قلت: أبداً، لم أقل أي شيء سيء.

- لا أتهمك بقول شيء سيء، لكن ماذا قلت له بالضبط؟

قلت بأننا خرجنا في جولة إلى هذا المكان، وسألت إن كنا نحتاج لأي إذن كوننا في هذا المكان. عدنا لنمشي في طريقنا، دون أن يضع سيمون يده في يدي هذه المرة، لقد صادفنا شيئين غريبين حتى الآن، الأطفال ومن

ثم الراعي. وقد أفقدنا هذا أي فرصة العودة إلى أي حديث رومانسي. حاولت إهمالهم، لكنني بقيت أشعر بالقلق، إشاارتهم مقلقة، كأنني أشتم رائحة الخوف في المكان، وأشعر أن الطريق سوف تقودني في النهاية إلى شيء منسي وميت، شيء نخره الزمن.

وضع سيمون يده خلف ظهخري وسأل: هل من شيء؟

- لا، لم أرد أن أشارك سيمون مخاوفي بعد أن عدنا نتشارك الأمل معاً من جديد. سوف أبدو سخيفة. قلت: أتساءك فقط إن كانت تلك الإشارات نذائر نحس.

- أي نذائر؟

- الطفل الذي طلب منا عدم المجيء إلى هنا.

- لقد قال الأطفال أنهم لا يستطيعون الوصول إلى هنا. وهذا مختلف عن قصدك بأنه ممنوع الدخول إلى هذا المكان.

- وذلك الراعي، الذي شعرت بأنه يخفي شراً في داخله، كأنه يعرف أنه من السيئ أن نذهب إلى الوادي لكنه لم يقل.

- لا يبدو الرجل شريراً، إنه سخر فقط، لقد بتِ تتصرفين مثل كوان، ها أنت تربطين صدفتين معاً وتتركين الامر يقودك إلى الخرافات.

انفجرت غاضبة في سيمون: ألم تسألني ما بي!؟ وها أنا أخبرتك، لا داع لأن تناقض ما أقول دوماً وتسخر مما أفكر فيه.

رد سيمون: أعتذر، اردت إراحتك من أفكارك فقط، هل تودين أن نعود الآن؟ هل تشعرين بالتوتر؟

- كم أكره كلمتك هذه، التوتر .

- حسناً، وماذا أفعل الآن.

قلت بنزق: هذا ما يوترني، انت تقول هذه الكلمة للنساء فقط، وللكلاب الصغيرة التي لا تكف عن العواء. تتعاطف مع المخلوقات المتوترة!

- لكنني لم أقصد ما فهمتيه.

- لم تصف الرجال بأنهم متوترون أبداً.

- إذن، حسناً، أنا مخطئ. لست متوترة ولا عصبية. أنت هستيرية فقط! ما رأيك؟ وابتسم سيمون ابتسامة عريضة ثم تابع: لا تكوني هكذا، الموضوع لا يستحق.

- إنني مهتمة فقط ألا نكون قد تجاوزنا حدينا، وألا نبدو مثل أمريكيين متبجحين، يتجولان حيث يشاءان ويفعلان ما يحلو لهما.

عاد سيمون ووضع ذراعه حول كتفي هذه المرة ثم قال: نحن الآن قريبان جداً من القمة، سوف نصل ونلقي نظرة سريعة ثم نعود، وإن رأينا أي شخص مسئول عن أي شيء، سوف نعتذر ونرحل، إن كنت حقاً متوترة أو مهتمة...

قاطعت سيمون: إذهب أنت الآن، هيا إصعد وسوف أتبعك.

هز سيمون كتفيه فيما بدا أنه يستهجن ردة فعلي. استدار بعد ذلك وأخذ يصعد الطريق بخطوات واسعة. بقيت في مكاني للحظات، ألوم نفسي لأنني لم أقل كل ما أشعر فيه. شعرت بالضيق لأن سيمون لم يشعر بما أريده حقاً. لم أرد أن أكشف له عما أريد مثلما كنت أفعل، كأنه مجرد طلب.

ربما لم يشعر بشوقي له، لم اكن لأطلب، لا أود أن أظهر مثل عاهرة وأن يكون هو مجرد شخص لطيف يلبي طلبي!

بعد أن تبعت سيمون إلى القمة، بدا الممر الجبلي الثاني واضحاً أمامي، كان سيمون قد سبقني إليه أيضاً، بدا هذا الممر قديماً أكثر من الذي سبقه، السور في ثقوب. لم تكن هذه الثقوب الكبيرة طبيعية، بدا أنها من فعل ضربات مدفع قامت بدك الجدار ذات زمن.

صاح سيمون الذي كان يقف في الجهة الأخرى: أسرعي إلى هنا يا أوليفيا، لن تصدقي ما أراه.

حين وصلت للمر الثاني ونظرت للأسفل، بدا المشهد ساحراً ومثيراً، مكان خيالي رأيته في أحلامي وكوابيسي. شمس الغروب تنير الوادي الذي قطعناه منذ بعض الوقت، ضيقاً ومضيئاً، وعراً لكنه يمتد بلونه البنفسجي الذي اكتسبه من أعشابه التي تسفعها الشمس، من الطحالب والمستنقعات التي تغطيه. تتدرج ألوانه بألوان زهوره ونباتاته، كأن الشمس سوف تظل متوقفة هنا، سوف تظل في لحظة غروبها هذه إلى الأبد.

قال سيمون: أليس ساحراً؟

نظرت إلى كل هذا الجمال الذي نما في الوادي بين هذه الكتل الصخرية التي ترتفع مثل رجال، صاروا مجرد ركام من حجارة، تجمدوا في أماكنهم، لعلهم أولئك الجنود من زمن الحرب. أو ربما هي النسخة الصينية من جبال سدوم، من النساء اللواتي تجمدن حين تطلعن للخلف ورأين الجحيم يحل بالمدينة المحرمة. صرن بقايا لضعف الإنسان وفضوله، ها هي الكتل نفسها تمتد هنا، لمن تجرأوا ونظروا خلفهم.

أشار سيمون بيده: انظري للكهوف، هنالك المئات منها، على امتداد الجدار الضخم من أسفل الوادي وحتى القمم، صدوع وكهوف، تبدو مثل مستودعات من قبل التاريخ، ربما تحوي جثثاً او كنوزاً من الآثار. إن ذلك مثير حقاً.

أعرف أن سيمون يفكر الآنفي كهف كوان، لقد أغرته الاحتمالات بما قد يوجد هناك، يثب من هنا إلى هناك، إنه متحفز للوصول ولا يهمه إلى أين قد تقوده الطريق، المهم أن الحجارة تستكين وطئ خطواته ووزنه الثقيل تاركة إياه ليعبر حيث يريد.

قلت: لقد تعبت، قدماي تؤلمانني.

استدار إلي وقال: إذن، انتظري هنا، سوف ألقي نظرة سريعة، لن أغيب لأكثر من خمس دقائق، ثم سوف نعود معاً. ما رأيك؟

صرخت: لا مزيد من الوقت، يجب أن نعود الآن. ولا تدخل أياً من تلك الكهوف.

يتسلق سيمون حافة المنحدر كأنه لم يسمعني. يا للرجال، أستعيد في ذهني ما الذي يجعلهم غير آبهين في الخطر. لا بد أنه ذلك الفرق البيولوجي بيننا، عقل المرأة أعلى، ويقوم بأعمال أكثر تعقيداً. وهذا ما يجعل النساء أكثر حساسية وإنسانية. ويثير قلقهن. أما عقول الرجال فتذهب إلى عمليات أكثر بدائية، يغضبون، يطاردون الأشياء، يتسلقون الصخور ويبحثون ويقتربون من الخطر. ثم يدخنون سيجارة في نهاية المهمة. استأت من إهمال سيمون. لكنني يجب ان أعترف أيضاً أنني اعجبت بشجاعته الصبيانية التي تهمل الخطر، مطاردته للمتعة دون أن يفكر في أي عواقب، إنني أعتبر هذا النوع من الرجال أكثر إثارة، أولئك الذين يتسبقون قمة الهيمالايا، أو

يجدفون في قواربهم داخل نهر استوائي يعج بالتماسيح. لا أظنني أعتبرهم شجعاناً، بل لا مبالين، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم، مجانين وغير واقعيين. مثل موجات عاتية أو شهب تمر في السماء، لا يمكن أن يمروا في يوم عادي، ولا يمكن أن يعيشوا حياة روتينية كتعاقب الليل والنهار.

نظرت إلى ساعتي، الخمس دقائق انقضت منذ مدة، بل انقضت ربع ساعة كاملة ثم عشرون دقيقة. أين ذهب سيمون؟ كان قد اختفى بين تلك الصدوع أو أياً كان اسمها، لم أره منذ أن اختفى خلف الشجيرات، لا أعرف في اتجاه ذهب، بدأ المطر يبلل وجهي وينحدر على سترتي. خلال لحظات قوي المطر، وبللني، صرخت بأعلى صوتي منادية سيمون، تأملت أن يكون صوتي عالياً وله صدى، لكنه كان مكتوماً بفعل المطر، هبطت إلى الممر الجبلي وتوقفت عند أول المنحدر، صار المطر قوياً وسريعاً، ومن وقع المطر على الصخور العتيقة المغطاة بالأعشاب، انتشرت رائحة العطن وانتشر ستار من الضباب، التلال والقمم من حولي غرقت في الظلام، بدأ المطر يتجمع في قنوات ويهبط من على جنباتها ساحباً معه الصخور الصغيرة والحجارة. ماذا لو حصل فيضان الآن؟ اللعنة على سيمون، لقد أقلقني جداً، ها هو قلقي يتحول إلى ذعر. قررت أن أغادر مكاني لأبحث عنه، وضعت غطاء سترتي على رأسي، وبدأت أهبط المنحدر. حاولت استجماع شجاعتي لأستمر في طريقي. لكنني بمجرد أن دخلت الوادي، تسلل الخوف إلى دومائي وشعرت بالقشعريرة في أطرافي. صار صوتي مبحوحاً وأنا أصرخ: ساعدني يا الله، يا بوذا، يا أياً كنت. يا من تستمع، أعده إلي الآن لأني لم أعد أحتمل، أعده وأعدك بأنني...

ظهر سيمون أمامي فجأة. شعره وثيابه غارقين في الماء. بدا مثل كلب متلهف يريد اللعب من جديد . خلال لحظة، تحولت فرحتي برؤيته

إلى غضب. ركضنا في الاتجاه المعكاس فيما خلع سيمون سترته وعصرها من الماء، قلت: ماذا سنفعل الآن؟

قال: نحافظ على دفء جسدينا. كانت أسنانه تصطك ببعضها وهو يستند إلى الجدار، تحت المطر، جذبني سيمون، ظهري غلى صدره، يداه تتحسسان جسدي، وهو يهمس: ارتاحي الآن! لكن جسدي ورأسي، حتى فكاي وذراعاي، وكل شيء، يجعلني أشعر بأنني مثل حزمة حطب، مقموعة ومربوطة. منقبضة، وقد عانيت الخوف منذ قليل، كيف لي أن أرتاح. ثم تسربت إلى ذهني فكرة أخرى: هل نام سيمون مع امرأة أخرى منذ انفصلنا، بالطبع فعل! الرجل لا يحتمل العيش دون ليومين دون جنس. تذكرت أنناحاولنا ذا تمرة الإجابة عن أسئلة تتعلق بالحياة الجنسية في إحدى المجلات، حياة حبيبك السرية، هذا عنوان المسح في المجلة. قرأت يومها السؤال على سيمون بصوت عالٍ: كم مرة تقوم بالاستمناء!؟

توقعت في عقلي أن يكون هذا نادراً او غير موجود، لكن سيمون أجاب: من مرتين إلى ثلاثة في الأسبوع، هذا يعتمد، حسب الوضع.

قلت له يومها: أي وضع؟ أم حسب الطقس، لعله إن كان مشمساً...

- بل حسب ما أشعر بالملل!

ظننت أن ممارسة الحب معي لمرتين في الأسبوع، لا تكفيان، وتجعلانه يمل ويمارس العادة السرية! أتساءل الآن: كم أمرأة دفعه ملله لكي يعاشرها منذ انفصلنا؟

لمس سيمون عنقي: كم هي رقيقة، هل تشعرين بهذا؟

- سيمون، في الصباح، لقد نسينا...

- قاطعني سيمون: كم كان ذلك جميلاً.

- لكنك لم تستخدم واقياً.

تمنيت لو يسألني سيمون لماذا، لكنني كنت أحلق وحدي في الفراغ، سيمون في مكان آخر. قلت: أنت تعرف . لكنه توقف عن التنفس السريع وأخذ يلمس يدس وكتفي بكل رشاقة ونعومة.

قال: لقد نسيت فعل ذلك.

أغمضت عيناي وحاولت التنفس بهدوء. لو أنني سألته الآن إن عاشر أخريات. لكنني أستطيع احتمال تلك الفكرة دون أن أسأل. كما أنني لست بأفضل حالاً منه، لقد نمت مع ذلك المحرر المقرف من قسم التسويق. ريك. لم نتذكر أننا نحتاج إلى واقيات في تلك الليلة. وذلك لأن ريك قال أن عضوه المترهل والذي يسميه بالملاكم الفذ! يريد أن يهاجم دون قفازات! أراد ريك إثبات ذلك، وبالطبع شعرت أنني تعرضت للاستغلال من رجل مترهل يدعي أنه قوي، وذلك لأنني اضطررت للتظاهر بأنني منبهرة وراضية. كنت أصدر أصواتاً بلا معنى، لا أكثر.

فم سيمون قريب من أذني، وصوت تنفسه، يشبه ذلك الصوت البعيد القادم من البحر، الصوت القابع في القواقع. سيمون يقبل أذني، وأنا تدور بي الذكريات في دوائر لولبية لا تنتهي.

قلت: بالنسبة للواقي، هل تعني أنك نمت مع امرأة أخرى؟

توقف سيمون من جديد. أبعد رأسه عني وقال: إن كنت قد فعلت، فلا أظنني أتذكر الآن. جذبني إليه وتابع: بكل حال، لسن مهمات، لا أحد مهم سواك.

قلت: بصيغة الجمع إذن، كم عددهن!؟

- سيمون: لا أتذكر.

- عشرة، أكثر؟

- ضحك سيمون: رجاء، انسي هذه الفكرة.

- لربما ثلاث أو أربع إذن؟

قلت ذلك وصمت، صمت سيمون كذلك.

- شهق سيمون ثم زفر بنزق وقال: أجل ربما بهذا العدد.

- كررت سؤالي: إذن أربع أم ثلاث؟

- لننسى هذا الموضوع، إنه سوف يجعلك تستائين ولا شيء آخر.

دفعت سيمون عني وقلت: إنني مستاءة أصلاً، لقد نمت مع أربع نساء أخريات، ولم تكلف نفسك لمرة باتخاذ أي وقاية هذا الصباح. مشيت في الممر بعكس الاتجاه الذي كان يقف سيمون فيه ثم حدقت فيه بعينين متسلطتين غاضبتين.

نظر سيمون للأرض وقال: كن ثلاث، وفي المرات الثلاثة استخدمت الوقاية ولم أصب بأي مكروه.

قلت: آه، كنت تستخدم صناديقاً منها في كل مرة! ولكان كرماً منك أن تتذكرني أنا الأخرى.

صاح سيمون: رجاء، يكفي، توقفي الآن.

- هل من واحدة أعرفها بينهن؟

تذكرت امرأة أحتقرها، كان اسمها فيرونا، كنا قد وظفناها معنا كمخرجة فنية ضمن مشروع في العام الماضي. كان كل شيء يخصها مزيفاً، بدءاً من اسمها، ومروراً برموشها وصدرها ثم انتهاء بأظافرها. قلت لسيمون مرة أن نهديها متواءمين بشكل لا يمكن أن يكون طبيعياً. ضحك سيمون يومها وقال: حسناً، على الأقل يمكن ضغطهما مثل نهدين حقيقيين. حين سألت سيمون كيف عرف ذلك، ادعى أنها انحنت قرب كتفه أثناء العمل فلمست ظهره بنهديها. سألته وقتها لماذا لم يعترض على فعلتها تلك فأجاب بأن ذلك سوف يجعلها تبدو بأنها تغازله، من الأفضل إهمال الموضوع. لم يكن ليفعل شيئاً تجاهها بكل حال.

سألت سيمون: هل كانت فيرونا واحدة منهن؟

عقدت يدي على صدري محاولة التوقف عن الاهتزاز والنزق.

تابعت: إنني أتوق لأعرف: هل كان نهداها طبيعيان أم لا، أخبرني؟

قال سيمون: تخلي عنالموضوع، ألم يعد في العالم كله سوى هذا، ما المهم بالنسبة إليك؟ لا يعني الموضوع أي شيء الآن.

- بل يعني أنك لم تفكر بأننا قد نعود إلى بعضنا ذات يوم، ويعني أنني لا أستطيع أن أثق فيك. غضبت وأردت جر سيمون معي إلى موجة الغضب تلك. لم أكن مهمة بالنسبة إليك، كنت أخدع نفسي حين ظننت أني أهمك، أنت خدعتني وكوان خدعتك، لقد خدعتك يوم جلسة استحضار الأرواح تلك، هل تتذكر ما قاله شبح إلزا يومها عن أنك يجب أن تنساها وتمضي في حياتك. لقد ابتكرت كوان كل هذا وكذبت، لقد أخبرتها لتفعل.

ضحك سيمون ضحكة صغيرة: أوليفيا، أنت تتصرفين بجنون. هل اعتقدت أنني صدقت حقاً تلك الجلسة السخيفة. ظننت أننا نجاري كوان فقط.

تنهدت وقلت: حسناً، إضحك، ولتتردد ضحكتك في الوادي. لكنني أقسم أن إلزا كانت هناك، لم تكن مزحة، لقد رأيتها بنفسي، لم تطلب أن تنساها، بالطبع لا. كانت تتوسل إليك حتى تظل تتذكرها، وقد طلبت منك أن تنتظر.

ضرب سيمونبيده على رأسه وقال: أنت لا تريدين الاستسلام وترك الموضوع، هذا ما ترغبين فيه، أليس كذلك؟

- بل هو أنت، لم تتخل عن إلزا أصلاً!

رد سيمون: أتعرفين؟ المشكلة تكمن فيك، هل تعرفين لماذا؟ لأنك جعلت من إلزا شماعة لكل انفعالاتك. لقد جعلت لها قيمة في حياتك أكبر بكثير مما تعنيه لي أنا. ضاقت عينا سيمون وهويتحدث. لقد جعلت منها جسداً لتفرغي فيه كل شكوكك، رغم أنك لا تعرفينها حتى.

وضعت يدي على أذني حتى لا أسمع فيما استمر سيمون بصب تحليله القذر دون أن يتوقف. كنت أفكر في سلاح اخير أواجهه فيه، ليكون كطلقة في القلب هذه المرة. تذكرت حينها الرسائل التي كانا يتبادلانها في زمن مضى، تذكرت لقبيهما ووعودهما المشتركة معاً، كنت قد قرأتها في السر.

استدرت وقلت لسيمون: أتظنني مجنونة؟ إن إلزا تقف هنا الآن، قربك بالضبط، شبحها لا يتوقف عن الكلام: ملاك، وأنت كعكة، لقبيكما. هل تظن الموضوع ليس مهماً، إذا فإن إلزا تقول أنه يجب أن تزرعوا شجرة كل عام في ذلك المكان وأن عليكما الانتظار.

جمد سيمون في مكانه. صرخت بصوت عالٍ: هل ترى الآن؟ إنها هنا، حاول سيمون وضع يده على فمي لأصمت لكنني تنصلت منه وتابعت: لطالما كانت إلزا هنا، في هذا المكان الحقير، في قلبك ورأسك، ها هي تطلق علينا إشاراتها القذرة وتقول أننا ملعونان، سيمون، نحن ملعونان.

تجهم وجه سيمون، بدا منهكاً، لم أر هذا التجهم على وجهه من قبل، حتى أنني خفت وأنا أراه يرتجف. قطرات غزيرة تنحدر من عينيه، ولم أعرف إن كان هذا مطراً، أم دموع.

قال بصوت مبحوح: لماذا تفعلين كل هذا؟

استدرت، ركضت تحت المطر، كنت ألهث وأشعر أن قلبي سوف ينفجر، بعد زمن، وصلت إلى بيت الجدة، وما إن عبرت الساحة حتى لاقتني كوان، تطلعت إلي بواحدة من نظراتها العارفة وقالت: ليبي، عزيزتي، لماذا تبكين؟

20

وادي التماثيل

لم يعد سيمون بعد، نظرت إلى ساعتي وكانت ساعة قد مرت. اظنه غضب وبقي بمفرده، هذا جيد، ليبقى في الخارج حتى يتجمد. لم يكن نهاراً هادئاً أبداً، سحبت ورقة وجلست على السرير. يبدو أن رحلتنا إلى الصين بائت بالفشل، ولا بد أن سيمون سوف يترك الصين. هذا منطقي. بكل حال هو لا يتحدث الصينية. وهذه قرية كوان، قرية أختي. ولهذا لا حاجة إليه لو سافر، سوف أسجل لوحدي الملاحظات لأجل مقالات المجلة. ومن ثم سوف أجد شخصاً ما حين أعود إلى أمريكا ليصنع منها مقالة.

نادتني كوان قائلة أن وقت الغداء قد حان. استجمعت رباطة جأشي لأظل هادئة ولأواجه الفضول الصيني: أين سيمون؟ ومن ثم سوف تسألني: ولماذا تتشاجران كثيراً؟

كانت كوان تضع إناء كبيراً يتصاعد منه البخار حين خرجت، قالت: أترين، فول صيني، نسميه أذن الشجرة، أخضر وطازج. هل تريدين التقاط صورة؟

لم تكن لدي رغبة في الطعام أو التقاط الصور. دخلت دو ليلي الغرفة وفي يديها إناء أرز وثلاث أطباق. بدأنا بتناول الطعام، والحقيقة أنهن من بدأن في الأكل لا أنا. كانتا تأكلان بشراهة.

شكت كوان: ليس مالحاً بما فيه الكفاية.

بدت هذه مثل رسالة إلي عن سيمون!

بعد دقائق قليلة أضافت كوان: في الصباح كانت الشمس مشرقة، انظري كيف غامت السماء الآن وعاد المطر. وشعرت كأنهاتشير إلى خلافي مع سيمون بعد أن كنا متفقين في الصباح. لكن، وطوال وقت الطعام، لم تذكر كوان ولا دو ليلي اسم سيمون حتى. بل إنهما أخذتا تتحدثان وتثرثران عن القرية وناسها، وعن أعوام ثلالثين مرت بين زيجات وأوبئة وأحداث أخرى. عن مصائب حلت وأفراح مضت، لم يكن الموضوع يهمني، كانت أذناي تلتصقان في البوابة، منتظرة سماع أي صوت، كأن يشق سيمون الباب ويدخل أخيراً. لم اكن أسمع سوى قرع المطر الذي لم يكن يعني لي شيئاً الآن.

بعد الغداء، قالت كوان أنها يجب أن تذهب مع دو ليلي إلى القاعة العامة حتى تزورا الجدة المسجاة هناك. قلت: هل يجب أن أذهب؟

تخيلت سيمون وهو يعود باحثاً عني، قلقاً وغاضباً، ربما يكون تحت تأثير الصدمة. لذا عدت وقلت: سوف أظل هنا، لكون أنني أحتاج لفحص آلة التصوير وتفريغ الملاحظات. وأن هذا يتطلب بعض الوقت.

قالت كوان: لعلك تنهين هذا لاحقاً، لا تضيعي آخر فرصة لزيارة الجدة، سوف نقيم جنازتها في الغد.

في النهاية، بقيت لوحدي، رتبت معدات آلة التصوير. فحصت درجة الرطوبة، هذا الطقس لعين. إنه كئيب وبارد، أشعر بالبرد حتى مع أربع طبقات من الملابس. جلدي بارد وأطرافي ترتجف. لقد تركت كبريائي يتفوق على ملابسي تركته يعذبني مع سيمون ويترك البرد ليتسرب إلى داخلي.

قبل أن نغادر الصين، تناقشت مع سيمون بما يجب أن نحضره معنا، قمت بتحضير حقيبة كبيرة، وصندوق آلة التصوير، أتذكر أن سيمون لمح لي: لن أقوم بتوضيب كل هذه الأغراض الزائدة في حقائبك. رددت عليه حينها: ومن طلب منك ذلك؟ رد سيمون متهكماً بعبارة انتقامية على ما قلته: أنت لا تسألين أصلاً، أنت دوماً تتوقعين. بعد إشارته تلك، قررت ألا أجعل سيمون يساعدني حتى لو أصر هو على ذلك. مثل قائد مكروب، لقطيع ثيران ميتة وصحراء يجب أن يقطعها على كل حال، قررت أن أفعل كل شيء لوحدي، وأتجاوز كل ما يواجهني، نظرت إلى معداتي. بدأت أحدد ما هو ضروري لأقلل من حقائبي. لا بد من ذراع آلة التصوير ومن حقيبتها. نحيت جانباً كل ما هو غير ضروري. نحيت مشغل الأقراص وبعض مواد التجميل، ألغيت مصفف الشعر أيضاً. استغنيت عن بعض الملابس وعن سترتين خفيفتين. نصف أغراضي من الجوارب والملابس الداخلية أيضاً. استغنيت عن روايتين كنت ما زلت أنوي قراءتهما، منذ عشرة أعوام وللآن، استغنيت عن علبة فواكه للطريق وبعض الورق الصحي. أكثر ما أحزنني، كان مراهنتي على الطقس المداري المعتدل ولذا أهملت ردائي البنفسجي المفضل، كنت آمل بارتدائه وحضور حفل موسيقي في دار الأوبرا الصينية ولكنني تذكرت الطقس ونسيت ذلك. لم أنتبه حتى أنه في بعض مناطق الصين لا توجد كهرباء أصلاً، وليس أوبرا فقط.

وهكذا حصلت على حقيبتين أصغر، وقطعتي قماش ومجفف ملابس صغير فيهما مع حذائين خفيفين وبدلة سباحة، وسترة رياضية بلون وردي، لن أرتدي أي زي لأجل يوم في الأوبرا، لا شيء يزيد عن رداء منزلي، عزاء صغير، وشعور بالأسف لأنني لم آخذ ردائي المفضل معي، هو الرداء الذي يشعرني كأنني أنساب في ماء الأحلام بلهفة، ماء دافئ ودافق، اللعنة على الطقس وعلى سيمون الذي لا يضطر للاختيار ويظل يرفل بسترة واحدة في كل مكان، ما الذي يجب أن أتخلى عنه من أغراضي، وما الذي يجب أن أبقيه؟

أتذكره يوم انفصلنا، بسترته المبللة، منقوعة وغير صالحة لشيء، أتساءل إن كانت حالته وقتها متعلقة بانخفاض الحرارة، قبل أن أتركه بقليل، كان يرتجف من الغضب، ذكريات الغضب والبرد تظل تتكرر في مخيلتي، أتذكر أثناء عملي في تصوير العمليات الجراحية، وحين كنت ألتقط صوراً كالمعتاد، كان طاقم الإسعاف في المستشفى يعالج امرأة هناك، كان كلامها غير مفهوم بالنسبة لي، لقد قالت أنها تشتعل من شدة الحرارة لكنها تريد معطفاً من الفرو. ثم تشنجت فجأة وصرخ أحدهم طالباً جهاز الإنعاش. ظننتها سكرانة أو تحت تأثير المخدرات. حي سألت أحد الممرضين لاحقاً عما يجب أن أكتبه في دفتر الملاحظات عن سبب موتها، هل بنوبة قلبية، أو جرعة زائدة، قال: لقد ماتت بسبب الشهر الأول من العام، ماتت بسبب كانون! ولم أفهم.

لكنه وضح فيما بعد أن ستة مشردين آخرين مثلها ماتوا من شدة البرد هذا الشهر، لقد عانت من انخفاض الحرارة الشديد وهذت ثم ماتت. تذكرت هذا لأنني خفت أن يحدث لسيمون الذي لم يعد بعد. لكنني لا أظنه يحدث، سيمون صحته ممتازة، وهو دافئ دوماً. يبقي نافذة السيارة مفتوحة حتى حين يكون الآخرون متجمدين من برد الشتاء ولا يطلب إذنا

من أحد حتى، متهور على هذا النحو دوماً. ولهذا السبب يبقي الناس في انتظاره دوماً ولا يهتم إن شعروا بالقلق. لا بد أن يعود بين لحظة وأخرى. أجل، سوف يعود بابتسامة تخفي غضبه، وسأنسى كل هذا القلق الذي سوف يكون بلا معنى حينها. لكنني، وبعد خمس دقائق من مناجاتي لنفسي وقلقي. هرعت مثل المجنونة إلى القاعة العامة بحثاً عن كوان.

* * *

في القناة الثانية المؤدية للوادي، وجدت أنا وكوان سترة سيمون مجعدة وملقاة على الأرض مثل جثة هامدة. حاولت أن أوقف نفسي عن التذمر والخوف، إن بكيت، فهذا سوف يعني أنني أقبل حقيقة حصول مكروه لسيمون. وقفت على حافة المنحدر الذي يقود إلى الوادي ونظرت. حاولت رصد أي حركة فيما الاحتمالات تتصارع في ذهني. سيمون يتجول الآن بنصف ملابسه في الوادي، لعل الحجارة الكبيرة سقطت من القمم نحو الوادي، أو أن راعي الأبقار لم يكن سوى لصٍ بملابس عصرية، ربما سرق جواز سفر سيمون، بحت لكوان قائلة: لقد صادفنا بعض الأطفال، وقد صرخوا فينا محذرين من أن نأتي إلى هنا. كما التقينا براعٍ مع أبقاره ونعتنا بالأخرقين. لقد كنت متوترة وكان سيمون يحاول ملاطفتي. لكنه غضب بعد ذلك، لم أكن أعني ما قلته له لكن... في القناة العميقة، كان صوتي الذي يعترف لكوان يتردد ويبدو عميقاً في ذات الوقت. استمعت كوان إلي بهدوء ولم تقل أي شيء، ولا حتى لتخفف من شعوري بالذنب، لم تتحدث بنبرتها التفاؤلية المعتادة عن أن كل شيء سيصير على ما يرام. قامت كوان بفتح حقيبة الرحلات التي أخذتها من دو ليلي، وضعت الفرشة البلاستيكية

على الأرض ورمت المسند فوقها ثم وضعت الموقد اليديوي المحمول إضافة لعلبة وقود احتياطية وقالت: الآن، إن عاد سيمون إلى منزل الجدة، فإن دو ليلي سوف تعلمنا بذلك، عدا هذا، فسوف تبقين هنا في حال عاد إلى هذا المكان، حينها سيكون متجمدا من البرد ولتساعديه. قالت كوان ذلك وفتحت مظلتها.

قلت: أين تذهبين؟

ردت كوان: لألقي نظرة حول المكان.

- لكن أخاف ان تضيعي انت أيضا.

ردت كوان: لا، هذا موطن طفولتي فلا تقلقي. إنني أعرف كل صخرة هنا، أعرف كل منحنى ودرب بين التلال. أعرفهم جيداً مثل أصدقاء عتيقين. وقفت كوان تحت المطر.

قلت: لكم من الوقت سوف تغيبين؟

ردت: ليس طويلاً، ربما ساعة، لكن لا أكثر.

نظرت إلى ساعتي وكانت الرابعة والنصف، إذن، في الخامسة والنصف. نصف ساعة ويأتي الغروب، الغروب يخيفني الآن ولا أشعر أنه جميل. بحلول السادسة، سوف تكون الدنيا قد أظلمت، ويصير المشي هنا صعباً.

بعد مغادرة كوان، وقفت أمام مدخل القناتين اللتين تؤديان للوادي، نظرت في مدخل الأولى، وفي مدخل الثانية، فكرت: لن تموت يا سيمون، سيكون ذلك شيئاً مؤلماً. بل وقاتلاً. أخذت أفكر في الناس الذي استطاعوا قهر ظروف مرعبة. كذلك المتزلج الذي علق في وادي سكوا وتمكن من حفر كهف في الثلج والنجاة بعد صراع ثلاثة أيام. كذلك

المستكشف الذي علق على متن طوافة جليدية، أظن اسمه كان جون موير. والذي ظل يحاول بعد تعطل الطوافة طوال الليل لينجو. وبالطبع، تذكرت قصة جاك لندن عن الرجل الذي تمكن من إشعال النار بواسطة غصنين جافين. لكنني تذكرت نهاية القصة حين انهار الثلج وغطاه ثم قضى على أمله بإشعال النار. هنالك نهايات مريعة أخرى، مثل متزلج سقط من المنحدر على شجرة ووجد ميتاً في الصباح التالي. بل أن هنالك رواية عن صياد أراد الاستراحة بين الحدود النمساوية الإيطالية، ولم تكتشف جثته حتى حل الربيع وأذاب ثلجاً ظل يتراكم هناك منذ آلاف السنين.

حاولت أن أريح نفسي من كل الأفكار السلبية وفتحت ذراعاي وحاولت أن أصفي ذهني، لكن كل الذي كنت اشعر فيه هو تلك البرودة التي تقرض أصابعي، يا ترى: هل يشعر سيمون بذات البرودة الآن؟

تخيلت نفسي مكان سيمون، واقفة في الممر فيما الغضب يلفني، عضلاتي مشدودة، وأريد الاندفاع في أي اتجاه حتى لو كان خطراً. رأيت حالته تلك حين علم بمقتل صديقنا إريك في فيتنام، لقد خرج وحيداً ليتسكع في المرتفعات حول مدينة بريسيديو، كذلك حصل هذا حين زار سيمون صديقاً لبعض أصدقاءه في الريف، وحين بدأ ذلك الصديق بإطلاق بعض النكات العنصرية فإن سيمون لم يحتمل، وقف واعتبر أن الرجل مخطئ كل الخطأ، ثم غادر وتركني هناك لأضطر لمعالجة الموقف بعد المشكلة التي افتعلها. شعرت بالغضب حينها، لكنني الآن وحين أتذكر ذلك الموقف، أشعر بإعجاب كبير تجاه ما فعله.

توقف المطر أخيراً، لا بد أنه انتبه لتوقفه الآن، أظنه كان سيقول: لنفحص هذه الصخور من جديد، تقدمت تجاه الحافة، ربما لم ير سيمون

المسافةالتي تقود إلى الغثيان، ولا مئات الصدوع التي تمتد إلى الأسفل والتي قد يسبب السقوط عنها تحطماً في الجمجمة، لا بد أنه اتخذ طريقه نحو الأسفل دون اكتراث، وهكذا، حذوت حذوه، هل مشى سيمون من هنا؟ هكذا يكون قد قطع نصف المسافة للأسفل، نظرت خلفي، ثم نظرت حولي، لا يوجد طريق آخر، إلا لو أنه قفز عن الحافة وألقى بنفسه لمسافة عشرين قدماً إلى الأسفل، لكن، ليس سيمون ممن ينتحرون، معظم الذين يريدون الانتحار يتحدثون عن رغبتهم فيه قبل ذلك. تذكرت قصة صحفية عن رجل وقف في منتصف أزمة السير في النهار، أوقف سيارته على الجسر، ومن ثم، قفز. وقد قال صديقه فيما بعد أنه شعر بالصدمة لأنه كان يتحدث معه في النادي الرياضي قبل أسبوع فقط، لقد كان الرجل متفائلاً، لقد قال أنه اشترى ألفي حصة في شركة إنتل مقابل اثني عشر دولاراً للحصة وها هو يبيع الواحدة بسبعة وثمانين. كان سعيداً ويتحدث عن المستقبل.

قرب قاع الوادي، نظرت للسماء، كانت ظلمة غيومها تنقشع، رأيت الطيور ترفرف، تسقط منخفضة تجاه الأرض ثم تحلق مرتفعة من جديد. لم تكن تغرد، بل بدت أصواتها الشديدة أصوات كائنات خائفة، لم تكن طيوراً، حين رأيتها، أدركت أنها خفافيش، ربما هربت من كهوفها. وها هي تحلق في ساعة الغسق، الساعة التي تنطلق فيها الحشرات الطائرة. رأيت الخفافيش في مكسيكو من قبل، نادل المطعم سماها بالفراشات، ولم تكن تخيف السياح، ولا أشعر بالخوف منها الآن، تبدو مثل علامة على الأمل. تماماً مثل الحمامة التي حملت غصن الشجرة إلى نوح وهو يتوه في البحر، علامة على اليابسة، وعلى أن الخلاص قريب. من المؤكد أن سيمون قريب أيضاً، ربما أن الخفافيش خرجت لأنه اقتحم مهجعها في الكهف وأفسد

قيلولتها التي كانت تؤديها رأساً على عقب. تبعت الانعطاف في الدرب الذي يتفرع إلى دروب أخرى محاولة معرفة الكهف الذي خرجت منه الخفافيش. قدماي تنزلقان، وقد التوى كاحلي. استندت على صخرة ثم جلست عليها. أخذت أصرخ منادية على سيمون، وتوقعت أن تكون صرختي عالية من هذا المكان، بعد توقف المطر، لكن الوادي كتمها.

على الأقل، لم أعد أشعر بالبرد، لكن الهواء ثقيل هنا في الأسفل، ثابت ومحبط، أليس غريباً ألا تكون الرياح سريعة هنا. أتذكر أنني قرأتمعسيمون كتيب الطقس عن ظاهرة مانهاتن وأثر بيرنولي الذي تسببه ناطحات السحاب، وكيف تقوم الناطحات الكثيرة بتسبيب قنوات هوائية على ارتفاعات عالية، وهذا يسبب تقليل الضغط وزيادة السرعة، أو أنه العكس، لكنه يأثر في الريح، نظرت للسماء والغيوم التي تمتد طويلاً مغطية إياها، كلما حدقت فيها أكثر شعرت بالأرض تحتي تدور مثل خفاقة خضار سريعة! القمم ترتفع من حولي فجأة، الصخور والأشجار، تدور من حولي، عتيقة كأنها هنا من قبل التاريخ، تبدو أكبر بعشر مرات مما كانت عليه قبل دقيقة مضت، وقفت، ومشيت من جديد. هذه المرة، صرت أنتقي خطواتي بحذر، مستوى الأرض يتفاوت، والانحدار يشتد، أشعر بقوة تشدني إلى الخلف، لعل هذه المنطقة لا تخضع لأي من قوانين الجاذبية والاحتكاك الطبيعية؟ السرعة أيضاً سوف تختلف. بالكاد أستطيع حمل جسدي ليصعد أو يتقدم بين هذه الصدوع الصخرية، لا بد أن الدماء تغلي في عروقي، رأسي سوف تنفجر.

حين وصلت للقمة، كنت ألهث، يزيد عمق الهوة للأسفل بأكثر من عشرين قدماً ربما. نظرت للأرض في الأسفل وبدت منتفخة ومقعرة في منتصفها، كان التقعر ذاك يمتد الجبال، وحتى نهاية الوادي لتصل إلى تلك

الآثار أو التلال الحجرية. اللون الداكن من حولي للأشجار، للحجارة، جعلني أتخيل غابة من الأشجار التي تحترق، أو احترقت ذات وقت، تخيلت حديقة منالرواسب الكلسية في كهف عتيق أسفل الأرض، كأن نيزكاً ضرب هذا المكان الداكن يوماً ما. في الوادي تلوح ظلال الموت، هذا ماكان يتركه المكان بي من أثر.

أخذت أستكشف المكان، أدور حوله مثل كلب يحدد منطقته، ثم أعود لأدور حوله من جديد. لا يبدو المكان كأنه تشكل بفعل الطبيعة. لقد قام أحد ما بفعل شيء متعمد لتشكيل هذه الصخور. الصخور المثبتة في زوايا غير متوازنة، تميل تجاه المنحدر، وهي تقف على حوافه الصغيرة، لكنها لا تسقط. كأنها مربوطة بشيء مغناطيسي، مثل تماثيل الفن الحديث، تصطف على حواف الجبال مثلمصابيح ضخمة لكنها مطفأة، بدت مثل تماثيل عظيمة كان مخططاً لها أن تتناثر هنا بلا انتظام. الصخرة التي في الأعلى تشبه كرة بولينغ مشوهة. الثقوب الكبيرة فيها تشبه عينان خاليتان من أي تعبير وفم يصرخ، مثل ذلك الوجه في لوحة إدوارد مينش. بدت الأشكال الأخرى كهذه الصخرة، ولا أعرف إن كان أحد صنعها حقاً، ومتى صنعت؟ ولا أعرف لماذا. لا عجب في أن سيمون أراد الوصول إلى هنا. ربما أتى ليتحقق من هذه الأشكال الصخرية. كلما هبطت أكثر، لاحظت أن تلك الأشكال تمثل الضحايا أكثر من أي شيء آخر، ضحايا هيروشيما وبومبي. ها هي هنا كأننا في أرض القيامة. وشعرت بأنني محاطة بجيش من تلك الصخور الصقيلة يشكل موجٍ.

في الأسفل، الرطوبة تزداد، رائحة عفونة تنتشر، نظرت حولي باحثة عن مصدرها، لقد شممت ذات الرائحة العفنة من قبل، لكنني لا أذكر متى وأين. تبدو مألوفة وطاغية، كأنها أصيلة، يعرفها أنفي من حياة سابقة.

رائحة غريزية كتلك التي تقود الحيوانات والطيور لتعرف أن رائحة الدخان سببها النار وأن النار تقود إلى الخطر. متأصلة في الذاكرة، تسبب ترسباً في المعدة يشعرني بالخوف والحزن، دون أن أعرف السبب.

استمريت بالهبوط إلى أن ارتطم كتفي بحافة صخرية ناتئة، صرخت صرخة عالية كأن الصخور سقطت كلها فجأة. نظرت للحجارة والصخور من حولي، أي سحر هذا الذي حطمته صرختي، هل سوف تسقط الصخور وتتجمع الآن ثم تصطف بعد أن أفاقت من أجسادها الحجرية المسحورة؟ لم أعد أرى الممر الجبلي، أين ذهب!؟ بدا كل شيء مغطى بالصخور ومختلطاً، لم أعد أستطيع التماس طريقي في هذه المتاهة، حتى الصخور ذات الوجوه المرعبة اختلطت ببعضها أو ربما؟ قدمي تسير في اتجاه، وعقلي يبحث عن اتجاه آخر، ماذا كان سيمون ليفعل الآن؟ صرت غير متأكدة من اتخاذ أي خطوة فعلية في أي اتجاه. إنه صوت سيمون فقط الذي ظل يدفعني لأقاوم، لأمشي نصف الميل المتبقي نحو التلة، أو أجتاز هذه المتاهة للتلة التالية أو أسبح حتى أصل نهاية المستنقع. صوته المقدس الآن يجعلني شاكرة لأنني آمنت فيه ذات يوم، كما آمن هو بي. تخيلته يحدثني: تحركي يا فتاة، استكشفي المكان. أبقيت نظري على الجدار الحجري الكبير والممر قربه حتى أحدد اتجاهي. بدأت أتذكر سيمون وحديثي معه، لم أعد أرى سوى خيوط الضوء وهي تلقي بانعكاس ظلالها في البعيد. لقد غضبت من سيمون حين استمعت إليه ثم سقطت على الأرض حين اختل توازني، لقد آلمني ظهري وكانت الحقيبة ثقيلة، سقطت على الأرض وبقيت جالسة أشعر بالغضب متذمرة. اللعنة على كل شيء، لو أنني أستطيع طلب تاكسي. لكنني شعرت أنني بليدة. هل اقتنعت حقاً أنني أستطيع رفع يدي بكل بساطة لأجد تاكسياً هنا وأخرج من تلك الفوضى؟ هل هذا هو كل ما

اكتسبته من خلال تجربتي في قسم الطوارئ في التصوير، أن أمد يدي في حالة الفوضى وأطلب تاكسياً، ولماذا لا أطلب كأس ليمون لأصفي ذهني والسلام. يبدو أنني أفقد عقلي في هذا المكان!

نما الرعب في حلقي، أنادي كوان وسيمون بخوف. سوف يسمعان الرعب فيَ. حاولت التحرك بسرعة أكبر لكن جسدي ثقيل، شيء ما يشدني لعمق الأرض. اتكأت على الصخور، أمسكت بحوافها ونتوءاتها. استندت إليها بكتفي. بدأ رعبي يتدفق من فمي كالزبد، ثم أخذت أبكي بقوة مثل طفل رضيع. لا أستطيع المشي ولا التفكير، إنني فقط أغرق في هذه الأرض المريعة. أنا ضائعة، سيمون وكوان ضائعان. أرض متعفنة، ضحلة. سوف نموت هنا! سوف نتجمد ونضاف إلى هذه التماصيل الصخرية المنتشرة بلا وجوه. الأصوات المرعبة تنتشر في المكان، صرخات الصدوع، غناء الكهوف، أغان للخوف، وأغنياً للندم.

أغلقت عيني وأذني لإبعاد الأصوات عني، ولأحاول الهروب من جنون هذا العالم والجنون الطافح من عقلي. قلت لنفسي: حاولي التركيز، تستطيعين إيقاف كل شيء. حاولت جاهدة تصديق أنني أملك القوة. أشعر بوتر في رأسي مشدود بقوة، لعل الوتر ينقطع، ولعلني أتحرر من رعبي هذا. لعلني أرى النور وأخرج من هذا الدخان، هكذا يصاب الناس بالذهان، يتركون كل شيء ليخرج من عقولهم، تخيلت نفسي في فيلم سويدي ممل، أستجيبي ببطئ للانتقادات الواضحة وللأحداث من حولي، أصرخ كامرأة مجنونة تهاب الموت في مكان سخيف كهذا، لن يعرف سيمون كم أصابني من التوتر والرعب، إنه محق، إنني أعاني من الهستيريا. في النهاية، شعرت بذراعين تشدانني من كتفي، فصرخت. كانت كوان، وكان وجهها محملاً بالقلق، قالت: ما بك، مع من تتحدثين؟

قلت: يا إلهي، لقد قفزت للأعلى ومن ثم، ظننتك هناك أيضاً. كان كلامي متقطعاً، ألهف بشدة. قلت من جديد: أظننا ضائعتين، أليس كذلك؟

ردت كوان: لا، لا، لسنا كذلك. في تلك اللحظة، انتبهت أن كوان تحمل في يدها صندوقاً خشبياً، تضعه تحت ذراعها وتسنده على فخذها. بدا قديماً بلونه الفضي.

سألت كوان: ما هذا؟

- صندوق، ثم تركته ومدت يديها لتساعدني على تحريك قدماي اللتين جمدهما الخوف.

- أعرف أنه صندوق.

قادتني وهي تمسك بذراعي من وسطها: من هذا الطريق، هيا. لكنها لم تتفوه بكلمة عن سيمون. ظلت صامتة وقليلة الكلام على غير المعتاد، شعرت بصدري المشدود لأنني لمست خوفها من أن تخبرني إن كان قد وقع مكروه ما.

قلت لها: هل رأيت...

لكنني لم أكمل لأنها قاطعتني بهزة من رأسها.

كاد يراودني الشعور بالراحة إلا أنني ارتبكت من جديد وشعرت بالإحباط. عدنا نتلمس طريقنا بين تلك الصخور التي تشبه التماثيل، ولم أعد أعرف ما هو شعوري بين لحظة وأخرى.

سألتها: من أين حصلت على هذا الصندوق؟

- لقد وجدته.

لا بد أن الإحباط يشوشني، عدت وقلت: حقاً، ظننتك اشتريته من متجر ماكي.

- لقد خبأت هذا الصندوق منذ زمن طويل. لقد أخبرتك بذلك من قبل وقلت لك أن هذا الصندوق سوف يقودك لتري شيئاً ما.

- اعذريني، إنني مشوشة فقط. ماذا في داخله؟

- بمجرد أن نعود للأعلى، سوف أفتحه وأريك.

صعدنا بهدوء، وكنا كلما اقتربنا من الأعلى أكثر، قل خوفي، وبدت الطبيعة المحيطة أكثر لطفاً. الريح تتحرك هنا وتداعب وجهي. كنت أتعرق قبل بعض الوقت، والآن تلفحني البرودة. لم يزل الدرب متعرجاً ومتفرعاً كما كان. لكنني لم أعد أشعر بأي قوة غريبة. وبخت نفسي: لا بد أيتها الفتاة أن لا شيء أحمقاً أو غريباً هنا سوى عقلك أنتِ. لا شيء أقوى من نوبة رعب، لقد ارتعبت من الصخور بكل تأكيد.

قلت لكوان: ما هذه الأشياء.

توقفت كوان واستدارت نحوي: عن أي أشياء تسألين؟

أشرت تجاهها: الصخور. وعادت كوان لتمشي من جديد.

- أعرف انها مجرد صخور، لكن كيف وصلت إلى هنا. هل كانت جزءاً من بناء او شيء ما، ماذا كان يجب أن تكون؟

نظرت كوان حولها وحدقت في الصخور بحدة: السر، سر هذا المكان. شعرت بالهواء يحرك شعري على عنقي. قلت بخبث: فقط أخبريني

يا كوان، هل هي حجارة مقابر؟ هل نمشي عبر مقبرة أو شيء من هذا القبيل. تستطيعين إخباري لو شئتِ. فتحت كوان فمها، وأظنها كادت تجيب. لكن نظرة جمود علت وجهها فجأة وصمتت. قالت بعد قليل: سوف أخبرك لاحقاً، ليس الآن.

قلت: كوان!

أكملت: بعد أن نعود، اشارت للسماء وقالت: انظري، سوف يحل الظلام بعد قليل. ألا ترين؟ سوف نضيع الوقت بالكلام. تابعت كوان بصوت لطيف: ربما نجد سيمون وقد سبقنا إلى البيت. تحرك الأمل في صدري، لا بد أن كوان تعرف شيئاً لا أعرفه، أنا متأكدة من هذا، لقد آمنت أنها تعرف أكثر مني ونحن ندور مع الدرب ونصعد للأعلى بين الصخور، ها قد بدأت تظهر معالم الشق الكبير الذي يمتد على طوله الجدار، ها هو الطريق الذي يصعد للأعلى، أستطيع الآن رؤية الطريق والجدار الكبير. أهرول خلف كوان وقلبي ينبض بقوة. أقنعت نفسي بأن سيمون هناك، سمحت لي قوى الفوضى والوهم بتخيله هناك. حين بلغنا القمة من جديد، كانت رئتاي قد أرهقتا لكنني صرت مبتهجة. نزلت دموع الارتياح من عيني هذه المرة، هناك على القمة، بكيت، فقد شعرت أخيراً بالنقاء، ببساطة الصدق وصفاء الحب.

عدنا وعثرنا على الموقد اليدوي وعدة الرحلات. وسترة سيمون المجعدة، كان كل شيء في مكانه. لا شيء أكثر ولا شيء أقل. عاد إحساس الخوف ليمسك بي من عنقي، لكنني بقيت أتشبث بإيماني وحبي. مشيت تجاه الناحية الأخرى من القناة، مقتنعة أن سيمون سوف يكون هناك. يجب أن يكون هناك. القناة كانت فارغة. لا شيء سوى الريح التي صفعتني.

استدرت وانهرت على الأرض. وضعت يداي على ركبتي وقلت لكوان التي لحقت بي: إنني لن أغادر، ليس قبل أن أعثر على سيمون. قالت كوان:

أعرف أنك لن تفعلي. جلست كوان على جذع شجرة قربي، فتحت الحقيبة واخرجت منها عبوة زجاجية تحتوي على الشاي ثم وضعت أمامها طبقين صغيرين من القصدير، أحدهما يحوي بندقاً محمصاً، وفي الآخر حبوب فول مقلية. أخذت تفتح حبات البندق وتقدمها إلي لآكل. حركت رأسي وقلت لكوان: لا بأس لو ذهبت، ليس ضرورياً أن تبقين أعرف أنك يجب أن تحضري كل شيء لأجل جنازة الجدة في الغد، سوف أكون بخير، ولعل سيمون يظهر قريباً.

قالت كوان: بل سأبقى معك، لقد قالت لي الجدة مسبقاً بأن تأخير الجنازة ليومين أو ثلاث لن يضر بشيء، بكل حالن سوف يمنحنا الوقت لطبخ المزيد من الطعام.

خطر لي هذا حين سمعت كوان. قلت: كوان، لماذا لا نسأل الجدة عن مكان سيمون؟ قلت ذلك، وأنا أدرك كم أصبحت يائسة. هكذا يتصرف الأهل الذين مات أطفالهم. يذهبون للمعالجين من أي نوع، ويصيبيهم شيء من الجنون. لكنهم سوف يفعلون أي شيء، لو أن هنالك ولو فرصة واحدة ليلتقوا فيهم من جديد، سواء في هذا العالم، أو في حياة أخرى وعالم آخر.

نظرت كوان إلي نظرة شفافة، أعرف أنني آمل أكثر من المتوقع. قالت بلغة صينية هادئة: الجدة لا تعرف أين هو. كشفت كوان غطاء الموقد اليدوي، أشعلت الموقد، واندفعت الشعلات الزرقاء من فتحاته وسمعت صوت اللهيب. قالت بالإنجليزية هذه المرة: أناس ين لا يعرفون كل شيء.

حتى انهم يضيعون أنفسهم أحياناً ولا يعرفون إلى أين يذهبون. ولهذا يعود العديد منهم، يبحثون ويطرحون الأسئلة: أين أنا؟ أين أذهب؟

أراحني أن كوان لم تستطع أن تلاحظ إحباطي. نظرت للضوء الذي بعثه الموقد وكان كافياً لنظهر في هيئتنا أنا وكوان مثل شبحين. قالت كوان: إن شئت، سوف أسأل الجدة لتساعدنا في البحث. سوف نعمل مثل متحري ال إف بي آي، ما رأيك يا ليبي؟

أثرت بي رغبتها الكبيرة في مساعدتي، حتى لو كان هذا هو أسلوبها، تابعت كوان: بكل حال، لن تكون جنازة الجدة غداً، ولن يكون عندها شيء لتفعله. صبت كوان الشاي من الزجاجة في الكأس المعدنية التي كانت تغطي الموقد ووضعتها على اللهب. عادت لتتكلم بالصينية: بالطبع، لا أستطيع سؤالها الليلة، لأن أشباح الظلام انتشرت الآن، وهذا يخيفها جداً، حتى لو أنها صارت شبحاً هي الأخرى. رأيت ألسنة اللهب الزرقاء والحمراء وهي تلعق قاع الكأس المعدنية. قالت كوان: كان عندي صديق يرتعب بمجرد رؤية الأشباح، أما أنا، فلم أعتد على ذلك، بمجرد رؤيتهم، أتحدث إليهم مثل أصدقاء...

خطر لي خاطر مروع فقاطعت كوان: كوان، لو رأيت سيمون، أقصد كشبح من أشباح ين، فسوف تخبريني، أليس كذلك؟ لن تتظاهري بأنك...

أجابت كوان مباشرة: لم أره، ثم أمسكت بيدي وربتت عليها: صدقاً لم أره.

سمحت لنفسي بتصديقها، وبتصديق أن سيمون لم يمت. دفنت رأسي بين يدي، ماذا سوف نفعل الآن، ما هو المنطقي؟ ربما نجد فكرة عملية لنقوم فيها بالصباح. لكن إن لم نعثر عليه بحلول عصر الغد، فمن

الأفضل أن يتصل أحدنا بالشرطة. عدت وتذكرت أنه لا توجد هواتف ولا سيارة، ربما أستطيع تخطي هذه المشكلة والذهاب إلى السفارة الأمريكية. لكن، هل للسفارة فرع في غيلين؟ ماذا عن مكتب الطيران الأمريكي؟ إن كان هنالك مكتب طيران سوف أكذب وأخبرهم أنني أحمل العضوية البلاتينية، سأخبرهم أني أعاني من حالة طوارئ وأطلب منهم البحث معي من خلال الطائرة.

سمعت صوت تمزيق، رفعت رأسي وكانت كوان تستخدم تلك السكين السويسرية متعددة الأغراض، وضعت كوان طرف السكين في فتحة الصندوق الخشبي وطلبت مني أن أحضر المصباح من الحقيبة. ومع ضوء المصباح، شاهدت أن الصندوق مصنوع من خشب مائل للحمرة. مطعم بلوحة نحاسية صغيرة تصور صياداً بافارياً مع غزال اصطاده معلقاً على كتفه وكلب يقعي أمامه.

سألت كوان: ماذا يحوي؟

سمعت صوت قفل الصندوق، بعد ذلك نهضت كوان وقالت: افتحيه، وانظري بنفسك.

رفعت مزلاج الصندوق المثبت أسفل القطعة المعدنية ببطء وسحبت المزلاج الصغير. اندفعت أصوات موسيقى خفيفة، دهشت، تركت المزلاج من بين أصابعي، وأخذت أستمع صامتة، إنه صندوق موسيقى.

ضحكت كوان وقالت: وماذا ظننت، أن هنالك شبحاً في داخله؟

رفعت غطاء الصندوق من جديد، وانسابت الموسيقى في القناة الصغيرة كما الماء، تسرب اللحن الفضي في المكان وفيَّ، تخيلت أحصنة تمشي

مختالة في استعراض عسكري مع الموسيقى يمتطيها أناس بأردية لامعة. كانت كوان تدندن مع اللحن، من الواضح أنها تعرف تلك الموسيقى جيداً. سلطت ضوء المصباح إلى داخل الصندوق، في إحدى الزوايا وأسفل حاجز زجاجي، يوجد الجهاز الذي يصدر الموسيقى. قطع معدنية مثبتة مع دولاب صغير ببراغي.

قلت لكوان: لا تبدو هذه الموسيقى صينية.

قالت كوان: نعم، إنها ألمانية وليست صينية، هل أعجبتك؟

- إنها مريحة. هذا إذن هو مصدر قصة كوان عن صندوق الموسيقى، شعرت بالراحة حقاً لأن هنالك أساساً واقعياً لشيء من أوهام كوان. أخذت أدندن مع اللحن أنا الأخرى.

- تعرفت على الأغنية إذن؟

حركت رأسي موافقة.

قالت: لقد أهديتك واحداً ذات مرة كهدية زواج، هل تتذكرين؟

فجأة، توقفت الموسيقى، شعرت باللحن يعلق في الهواء لثوان قبل أن يتلاشى تماماً، لم يبق سوى صوت لهب الموقد، ليذكرني بالمطر والبرد وأن سيمون ربما في خطر ما الآن. عادت كوان وأمسكت بالمفتاح، وضعته في مدخل جهاز الصندوق، سمعت صوت حركته، ثم عادت الموسيقى من جديد. أشكر هذه الآلة التي تقدم لي الراحة عبر موسيقاها. في الزاوية الأخرى درج صغير بسحاب، يبدو مصمماً للاحتفاظ بأزرار الملابس، كما يوجد خيط مطاطي، قارورة عطر صغيرة وفارغة، أشياء ربما كانت ثمينة ذات يوم، وها هي الآن منسية. أشياء كانت تستخدم لتصليح الملابس

أيضاً، متروكة هنا منذ زمن طويل. حين توقفت الموسيقى هذه المرة، قمت أنا بتشغيلها. أما كوان فأمسكت بالقفازات الناعمة وحاولت حشر يديها فيهما، وحين لم تستطع، وضعتها أما وجهها وأنفها، ثم نفخت فيها. التقطت الكتاب الذي كان في الصندوق بحوافه المذهبة. كان اسمه رحلة إلى الصين والهند واليابان، المؤلف اسمه تايلور بايارد، كان مؤشر القراءة موضوعاً بين صفحتين، ولم يكن سوى مزقة من مغلف رسائل، الجملة التي كانت مكتوبة كملاحظة في إحدى الصفحتين: عيونهم الضيقة تتماثل مع ضيق رؤيتهم الأخلاقية. من هذا المتعصب الذي كان يملك هذا الكتاب؟ قلبت طرف قطعة المغلف وكان عليها عنوان المرسل، راسل وشركته، شارع الأكروبوليس، في كولد سبرينج نيويورك. سألت كوان: هل ينتمي هذا الصندوق لشخص يدعى راسل؟

- نعم، روسو، أتتذكرين؟

- لا، ثم قربت المصباح من طرف الرسالة، انظري، إنها راسل. هل ترين؟

بدت كوان محبطة وهي تجيبني: في ذلك الوقت لم أكن أعرف الإنجليزية، قالت بالصينية: لم أكن أستطيع قراءته حقاً.

- إذن، فهذا الصندوق يعود إلى السيد راسل.

تمتمت كوان بالصينية وأخذت المغلق مني ثم نظرت إليه من جديد: نعم، راسل، ظننته وقتها روسو أو روسيا. والدها كان يعمل في شركة تسمى راسل. لكن اسمه كان... نظرت كوان في عيني ثم قالت: بانر!

ضحكت وقلت: بانر إذن، كإسم الآنسة بانر، بالطبع. والدها كان تاجراً بحرياً أو شيئاً من هذا القبيل.

ردت كوان: نعم، في سفن الأفيون.

- نعم، لقد تذكرت الآن.

الآن، شعرت بالفضول تجاه قصص كوان، لم تعد قصص الأشباح لوقت ما قبل النوم. ها هو صندوق الموسيقى أمامي الآن. ها هي الأشياء التي ينبغي أنها تنتمي إليهم. بالكاد استطعت أن أسأل: كان هذا صندوق الآنسة بانر؟

أومأت كوان برأسها: نعم، فقط لو أنني أتذكر اسمها الأول، لقد نسيته الآن.

فتحت كوان الدرج الصغير وأزالت قطعة قصدير صغيرة من سطحه الداخلي. ظلت كوان تردد مع نفسها: اسمها كان... كيف لي أن أنسى اسمها؟ نزعت طبقة تغطي قطعة القصدير، حتى أنها بدت مثل طبقة مغطاة بالحبر. لكنها لم تفعل سوى أن نزعت تلك القطعة ثم أضافتها إلى الشاي. وها هي تغلي الآن على الموقد.

سألتها: ما هذا؟

قالت بالإنجليزية: أعشاب. من شجرة خاصة. تكون أوراقها الطازجة دبقة. لقد وضعت مثلها في الشاي للآنسة بانر بنفسي ذات مرة. تجعل المرء يشعر بالسلام، وربما تجعلني أعود بذاكرتي للوراء أيضاً.

سألت كوان: هل هي من الشجرة المقدسة؟

ردت كوان: أنت تتذكرين إذن!

قلت: بل أتذكر الحكاية التي كنت تروينها. كانت يداي ترتجفان، وأتمنى لو أحصل على سيجارة الآن. ما الذي يحصل لي، ربما صرت مجنونة

مثل كوان؟ ربما أن مياه تشانجميان مخلوطة بمادة مهلوسة. لربما لسعتني حشرة صينية وجلبت الجنون إلى عقلي. لعل سيمون ليس مفقوداً. لكن لا شيء أمامي الآن لأدرك أنني في حلم طفولتي من جديد.

ارتفع الدخان ورائحة الشاي العطر للأعلى. نفخت على كأس الشاي، لامس دخانه وجهي، واشتممت رائحته التي تبعث على الإرتياح، لعلني نائمة وأحلم فعلاً، لو كان هذا حلماً، ربما أستطيع الخروج من براثنه...

قالت كوان: انظري يا ليبي.

ناولتني كوان كتاب جيب صغير كان في الصندوق هو الآخر، غلافه مصنوع من جلد سويدي رقيق وداكن. كان مكتوباً على غلافه بخط قوطي مائل بليت أطراف أحرفه المذهبة: قوت يومنا. حين قلبت الغلاف، سقطت نتف صغيرة من أسفل الغلاف ورأيت من خلال الجلد التالف لون الورق الممزق البنفسجي. ذكرني لونه بالكتاب المقدس في زمن طفولتي: بالنظرة المتمردة على وجه موسى وهو يقف كأنه يقف على الحدود بين السماء والأرض. يمزق الألواح أمام حشد من الوثنيين المرتدين عماماتهم. فتحت الصفحات الأولى من الكتاب، على اليسار، جملة مطبوعة بخط غير متسق: نثق بالله ليخلصنا من إغراءات الشيطان. إن آمنت بالروح، لن تكون خطاءً.

في الصفحة المقابلة، طبعت كلمة: آمين. وأسفلها وبخط بدا سريعاً، غير منظم، بقع حبر تحيط بالكلمات، قائمة خصوصية: فول نتن الرائحة، فجل متعفن، ورق أفيون، ورق نبات القراص، حبق الراعي، ملفوف كريه، حبوب جافة، قرون لوبيا تالفة، وساق بامبو جافة. تخلط كلها وتقدم باردة او مخلوطة بماء البحر وزيت القندس! ولتحل بعدها رحمة الله. كانت

الصفحات الأخرى تحوي وصفات أخرى ايضاً، مجرد وصفات مسيحية توحي بالعطش والخلاص. بالجوع والإيفاء بالعهد. لا بد أن كاتب هذه الوصفات في زاوية الصفحات كان يهرطق ويسخر بها يكتبه مما هو مكتوب في الكتاب، لقد وجدها وسيلة مضحكة للهجوم على كتاب الدين. لو رأى سيمون هذا لأعجبه، ولاستخدمه مادة لمقالة.

قلت لكوان: اسمعي، وأخذت أقرأ بصوت عالٍ: قطعة من ناب كلب، لحم طائر مفروم، هولوثوريا مطبوخة. ديدان وأفاع. تعد كمادبة لتكريم الضيوف الشرفاء! إذن ربما في المستقبل لا أبحث عن أن أكون ضيفة شريفة، لأتجنب هكذا مادبة، وضعت النشرة في الكتاب بجانبي وتساءلت عن ماهية الهولوثوريا تلك.

قالت كوان: إنه يعني نيللي.

- حقاً، تعني نيللي؟

ضحكت كوان وضربتني على ذراعي ثم قالت: لا، بالطبع لا، ذلك اسم الآنسة بانر الأول، لقد تذكرته الآن. اسمها نيللي. لقد كنت أدعوها بالآنسة بانر دوماً، وأنساني هذا اسمها الأول. رددت كوان لنفسها: يا لذاكرتي السيئة، كان اسمها نيللي بانر. أمسكت بنشرة الكتاب من جديد وسألت كوان: متى عرفت الآنسة بانر؟

هزت كوان رأسها وقالت: تريدين الزمن بالضبط، حسناً، لأتذكر...

قلت فجأة مستذكرة كلمات صينية كانت تقولها لي كوان أيام كانت تروي لي قصص ما قبل النوم: واي با لين ساي.

عدت وذكرت كوان: في الزمن الذي فقد فيه الأمل، وانزلقتم تجاه الموت، ربما في 1864.

قالت كوان: نعم نعم، تذكرت الآن، ذاكرتك جيدة، كان ذلك في السنة التي خسر فيها الملك العظيم ثورته من أجل السلام.

تذكرت ذلك الجزء من القصة، إنني أتذكر قصة الملك العظيم تلك جيداً.

هل حقاً يوجد شخص يسمى بالملك العظيم، ملك السماء والجنة، ربما هو موجود في تاريخهم، حككت ذراعي بطرف النشرة الناعم، لو أنهم يكتبون كتباً عن تاريخهم لاكتشفت ذلك، لتمكنت من قراءتها، كتب لطيفة تجعلك تشعر بالدفء والصداقة مع التاريخ وهي بين يديك. عدت وأمسكت النشرة، قلبت الصفحة، وأخذت أقرأ المقدمة: حطيم رؤوس الشياطين، تعني الألم. ابتلاع ورقة ذهبية، تعني التبذير، ابتلاع كلوريد المغنيسيوم، يعني الفساد. أكل الأفيون، يعني تقليل الألم. أما شرب ماء غير مصفى ولا مغلي، فهذا اقتراحي فقط. وعلاوة على مواد الانتحار هذه جميعها، فإن الآنسة (مو) أخبرتني أنهم يمنعون الانتحار بكل شدة بين أتباع (تاي بيه)، إن أرادوا التضحية بأنفسهم، فليموتوا في معركة لأجل الله إذن.

تاي تعني عظيم، وبيه تعني السلام. إذن فهذا يعني: أتباع السلام المقدس.

تذكرت تلك المعلومة، إن لها معنى. لكن متى كان ذلك؟ ربما في وقت ما في منتصف القرن التاسع عشر. كأن دماغي يندفع نحو الأحداث، حاولت مقاومة ذلك، بالكاد أستطيع التشبث بشيء واقعي. لقد حافظت على الشك كثيراً في الماضي لأحمي نفسي من قصص كوان عند الضرورة. لكنني الآن أحدق في بقع الحبر على الورق الأصفر البالي، في القفل الصدء، القفازات المتجعدة، الكلمات الغير متسقة للعنوان: قوت يومنا. أستمع

للموسيقى المنبعثة الصندوق، موسيقى حية، ولو أنه لحن قديم، تفحصت الصندوق بحثاً عن تاريخ مكتوب عليه. ثم تذكرت الصحية، اتحاد الناشرين، وبكل سعادة ثم الحروف اللاتينية: (MDCCCLIX). انتبهت، يا للهول، قمت بتحويلها إلى الأرقام الإنجليزية، إنه العام 1859، عدت وفتحت كتاب بايارد، الناشر هو جي. بي. بوتنام 1855، لكن هل تدل هذه التواريخ على شيء؟ لكن هذا يعني أن كوان لا تعرف أحداً باسم الآنسة بانر أثناء ثورة السلام المقدس. إنها مجرد مصادفة إذن، الصندوق، والقصة، والتواريخ على الكتاب.

لكن وبالرغم من كل شكوكي وتفكيري المنطقي، لم أستطع إهمال الشيء الأهم بشأن كوان: أنه ليس من طبيعتها أن تكذب، مهما كان الذي تقوله، إنها تؤمن دوماً أنها تقول الحقيقة. تماماً مثلما حين سألتها عن سيمون، وقالت أنها لم تره كشبح. وهذا يعني أنه لم يزل حياً. لقد صدقتها، ويجب أن أصدقها الآن أيضاً. إن صدقتها، ليس شرطاً أن أصدق أنها تملك عيني ين. وهل سأصدق أنها كانت تتحدث للجدة؟ وان هنالك كهفاً من العصر الحجري وأن هنالك قرية في داخله؟ والآنسة بانر، الجنرال كاب. ونصف الرجل ذلك المدعو جونسون، هل سأصدق أن أولئك أناس حقيقيون؟ وأنها كانت تدعى نونومو في حياة أخرى؟ إن كان ذلك كله صحيحاً. وان كل تلك القصص التي أخبرتني إياها عبر هذه السنين صحيحة، فهل أخبرتني بذلك لسبب ما.

أظنني أعرف السبب، أعرفه جيداً، لكنني ومنذ زمن طفولتي، دفنته في مكان أمين. تماماً كما خبأت هي صندوق موسيقاها. دفنته لأتخلص منالذنب. استمعت إلى قصص كوان، لكنني بقيت أحاول الحفاظ على شكوكي، وعلى وعيي. في كل مرة كانت تسرد قصصها، كنت أرفض أن

أجيبها على ما تريده بشدة، لطالما سألتني: ليبي، هل تتذكرين؟ وكنت اكتفي دوماً بهز رأسي، فيما تتمنى هي لو أقول: نعم يا كوان، بالطبع أتذكر، لقد كنت الآنسة بانر...

ها هي كوان تعود وتتكلم الآن: ليبي، بماذا تفكرين؟

رددت بشفتين مرتجفتين: تعرفين، بسيمون، إنني لا أتوقف عن التفكير فيه، وكلما فكرت أكثر شعرت أن الأمور سوف تكون أسوأ.

تحركت كوان بسرعة وتركت لي مساحة لأجلس بجانبها. أمسكت كوان بيدي ودلكت لي أصابعي الباردة فانساب الدفء إلى عروقي في الحال.

قالت كوان: ما رأيك أن نتحدث؟ لا أقصد الحديث عن شيء مهم، لنتحدث عن شيء خفيف، تحدثي عن فيلم شاهدته، أو كتاب قرأتيه. أو لنتحدث عن طقس الصين.

لا، لن نتحدث عن الطقس، لا أريدك أن تقلقي من جديد. لعلنا نتكلم في السياسة، لمن سوف أصوت في الانتخابات، ولمن ستمنحين صوتك، ربما نتناقش وتنسين ما تفكرين فيه.

شعرت بأنني مشوشة، لم أجب كوان، لكنني اكتفيت بنصف ابتسامة.

قالت كوان: إذن، لا تريدين أن تتكلمي، في هذه الحال سوف أتكلم أنا، ولتسمعيني أنت. لنرى، عماذا يجب أن أتحدث؟

أجل، سوف أخبرك بقصة الآنسة بانر وكيف قررت إعطائي صندوق الموسيقى الخاص بها.

قلت: نعم، بالتأكيد.

قالت كوان بالصينية: يجب أن أخبرك هذه القصة بلغة المندرين، سيكون ذلك أسهل لي لكي أتذكر، لأنني لم أكن أعرف الإنجليزية في ذلك الوقت، و رغم أنني لم أكن أتقنها أيضاً، كنت أعرف لغة الهاكا فقط، ولكن المندرين تظل أقرب للصينية، أشعر أنني صينية أكثر حين أتكلم بها. كنت أعرف أيضاً بعضاً من لغة المستعمرات، بالطبع، إن لم تفهمي كلمة ما، اسأليني عنها. سأفكر حينها بكلمة إنجليزية لأشرح المعنى لك، دعيني أرى من أين سوف أبدأ القصة.

حسناً، أنت تعرفين أشياء ما من قبل عن الآنسة بانر، وكيف أنها لم تكن مثل باقي الأجانب الذين عرفتهم. كان عقلها يحتمل الاختلاف في الآراء. وأظن ذلك كان يجعلها تصير مشوشة أحياناً. ربما تفهمين ما أقول، في يوم تؤمنين بشيء، وفي يوم آخر تؤمنين بشيء معاكس. تتناقشين مع الناس، ومع نفسك، هل فعلت هذا يا ليبي؟

توقفت كوان عن الكلام ونظرت في عيني باحثة عن إجابة. هززت كتفي. ويبدو أن كوان اكتفت بإشارتي تلك.

قالت كوان: ربما أن الاختلاف في الآراء عادة أمريكية، أعتقد أن الناس في الصين لا يحبون امتلاك عدة آراء في ذات الوقت. نحن نؤمن بشيء واحد، ونظل متمسكين فيه لمئات السنين. ربما لخمسمئة سنة، وهكذا، نظل أقل تشويشاً، لا أعني بقولي هذا أن الناس في الصين لا يغيرون رأيهم، ليس هذا، ولكننا نغير رأينا لأجل سبب جيد ومهم. أي أننا لا نغيره لأجل أي شيء عابر. أو لأجل شيء أعجبنا أو أثار اهتمامنا فقط. في الواقع، ربما يتغير الصينيون كثيراً هذه الأيام. ذلك أن النقود تشير إليهم وتحدد الرأي والاتجاه الذي يجب أن يأخذوه، حتى يستمروا في مطاردتها.

لكزتني كوان من يدي وسألت: ليبي، ألا ترين أن هذا واقعي اليوم؟ في صين اليوم صار الناس أكثر رأسمالية من الخنازير، لم يعودوا يتذكرون أن الرأسمالية كانت عدوهم الأول، إنهم يتمتعون اليوم بذاكرة قصيرة وبعطايا الرأسمالية.

استجبت لكلام كوان بضحكة صغيرة فقط.

تابعت كوان: الأمريكيون يملكون ذاكرة قصيرة أيضاً. أعتقد أنهم لا يحترمون التاريخ، إنهم يهتمون بما هو شائع في زمنهم فقط. لكنني أتذكر الآنسة بانر الآن، لقد كانت مختلفة لأنها تملك ذاكرة ممتازة وغير عادية، حتى أنها تعلمت لغتنا بسرعة، كانت تستمع للكلمة لمرة واحدة، وتكررها بكل سهولة في اليوم التالي. ليبي، أنت تمتلكين ذاكرة كذاكرتها، أليس كذلك؟ ن بعينيك وليس بأذنيك، ماذا تسمين هذا النوع من الذاكرة بالإنجليزية؟ ليبي، هل تسمعين ما أسألك إياه، هل نمتِ؟

أجبت: ذاكرة مشهدية، أو مصورة. أظن كوان تضغط علي بكل الأساليب الآن ولن تتركني لأستطيع الاختباء هذه المرة.

قالت كوان: أجل، ذاكرة صورية، تستخدم التخيل والصورة، لم تكن الآنسة بانر تملك آلة تصوير مثلك. لذا لم تكن ذاكرتها كذلك. كانت تتذكر دوماً ما يقوله الناس، كأنها شريط تسجيل، إن هذا جيد في بعض الأحيان، لكنه سيء في أحيان أخرى، لقد كانت تتذكر ما كان يقوله الناس وهم جلوس للعشاء، ثم تتذكر ما قالوه بعد أن يغيروا رأيهم في الأسبوع التالي، كانت تتذكر ما يرهقها ويزعجها، لا تستطيع إخراج الكلام من ذاكرتها. لقد كانت تتذكر كيف صلى الناس لشيء، ثم صلوا لغيره في وقت لاحق ونبذوا الأول. كانت ذاكرتها قوية وبارعة في تذكر وحفظ الوعود

أيضاً، ربما هذه ميزة ذاكرتها الخاصة، إن قطعت لها وعداً، فإنها لن تجعلك تنسينه أبداً، كما أنها لا تنسى أي وعد قطعته لأحد. بالنسبة لبعض الناس، مجرد قطع وعد لا يعني أن الوعد سوف يتم تنفيذه. لكن بالنسبة للآنسة بانر، الوعد وعد أبدي. وليس فقط لحياة واحدة، بل للأبد، تماماً مثل الوعد الذي قطعته لي بعد أن منحتني صندوق الموسيقى خاصتها، كان ذلك حين بدأ الموت يطاردنا ويقترب منا، ليبي، هل أنت معي، أين تذهبين؟

لأتنفس بعض الهواء. مشيت في الدرب الجبلي محاولة أن أخرج من رأسي كل ما قالته كوان لي. يداي ترتعشان، وأعرف أن البرد ليس هو السبب. لكنه الوعد الذي تحدثت عنه كوان، والذي لم أرد سماع أي شيء عنه لأنني خائفة، من بين كل الأوقات، لماذا اختارت إخباري بهذا الآن؟

سألت نفسي: ممَ أنا خائفة؟ ربما أخاف أن أصدق أن القصة حقيقية. أخاف من أنني قطعت وعداً ويجب أن أحافظ عليه، هذه الحياة تكرر نفسها، ونحن، نبقي على آمالنا، نقاسي لأجل فرصة أخرى، ما المخيف بشأن هذا؟

تفحصت سماء الليل وقد خلت من السحب والمطر، وتذكرت تلك الليلة منذ زمن طويل حين نظرت للسماء مع سيمون وقلت شيئاً أحمق ربما، قلت أن النجوم التي أمامنا الآن هي ذات النجوم التي نظر إليها أول عاشقين على هذه الأرض. كنت أتوق وأتامل أن يحبني أحد ما أكثر من كل الآخرين، وأن يحبني أكثر من أي شيء آخر. لكن ذلك لم يدم إلا لوقت قصير جداً، لأن أملي بدا شاسعاً، مثل السماء، وبدا لي أنه من الأفضل أن أخاف وأظل في مكاني على أن أحلق في سماء شاسعة خلف أملي وأحلامي. إنها نفس السماء التي يراها سيمون الآن، والتي رأينا حيواتنا فيها ذات يوم،

مجتمعين، أو متفرقين، نفس السماء التي تراها كوان أيضاً ومعها أشباحها، والآنسة بانر. الذي يختلف الآن، هو أنني لم أعد أشعر أن السماء خاوية من الأمل أو أنها تخفي وراءها مخاوفي، أنظر إليها ببساطة الآن، مجرد مستودع للنجوم والكواكب، وكل الحيوات، إنها تحوي الخلود. الذي أستطيع دوماً العثور عليه في داخلي، ويستطيع هو العثور علي، لأن الأمر مستمر، يولد النور من الظلام، والظلام من النور، وهذه الولادة قد لا تعدني بشيء، لكنها تظل مستمرة لا تتغير، وتظل غامضة، مخيفة وإعجازية. إن كنت أتذكر ذلك كلما نظرت للسماء، أستطيع جعل ذلك بوصلتي، لأجد نفسي في قلب هذه الفوضى أياً كانت. ومهما كان الذي حدث وسوف يحدث. أستطيع أن آمل بكل ما في روحي، وستكون السماء هنا دوماً، موجودة، لتنقذني من كل هذا...

قطعت كوان حبل أفكاري: ليبي، أنت تفكرين كثيراً من جديد. هل أتحدث اكثر لعلك تنسين؟

قلت: كنت أتساءل فقط.

ردت كوان: بماذا؟

بقيت مولية ظهري لكوان، أحدق وأبحث في السماء. أحاول العثور على وجهتي بين نجم وآخر. وميضها وضوءها يأتيني في رحلة استغرقت آلاف السنين. ما أراه الآن ليس سوى امتداد للذاكرة، لا يزال حتى اللحظة نابضاً بالحياة، بل كأنه حي مثلها تماماً.

سألت كوان: هل نظرت أنت والآنسة بانر إلى النجوم في ليلة كهذه من قبل.

نهضت كوان ومشت تجاهي ثم قالت: نعم بالطبع، لمرات عديدة، لم يكن هنالك تلفاز في ذلك الوقت، ولذا كنا نتفرج على النجوم في السماء.

قلت: إنني أقصد غير هذا، هل قضيت أنت والآنسة بانر ليلة كهذه بالضبط، كنتما خائفتين من شيء ما كما نحن الآن، ولم تكن لديك فكرة عما حدث أو سيحدث؟

ردت كوان: لقد حدث ذلك بالفعل، ولقد كانت الآنسة بانر خائفة، بل خائفة جداً، وذلك لأنها فقدت شخصاً، فقدت حبيباً تحبه بشدة.

سألتها: أتقصدين ييان؟

قالت كوان: نعم، وأنا كذلك كنت خائفة جداً... صمتت كوان قليلاً قبل أن تقول بصوت حزين: لقد كنت السبب في عدم وجوده معنا هناك.

- ماذا تعنين، ما الذي حدث؟

- ربما لا تريدين أن تعرفي.

قلت مترددة: هل... هل هو شيء محزن؟

ردت كوان: نعم، محزن، ولكنه مفرح أيضاً! إن ذلك يعتمد على الطريقة التي تتذكرينه فيها.

لاح الدمع في عيني كوان وتابعت تقول: ليبي، أعرف أنك في يوم ما سوف تتذكرين معي كل ما حصل، لطالما أردت أن تري أنني بقيت صديقتك المخلصة.

استجمعت كوان قواها، استدارت إلي، ربتت على يدي وهي تبتسم ثم قالت: حسناً، هذا سر، كالعادة، ستعدينني ألا تخبري احداً يا ليبي،

أتذكر أن السماء كانت مظلمة بلا قمر، وكانت تترك لنا ظلامها لنختفي بين هذين الجبلين اللذين ترينهما أمامك الآن. لكن، كانت نار ضخمة تشع وترتفع اكثر فأكثر بلونها البرتقالي، شيء ما، كان يحترق...

عدت أستمع لكوان وأسرارها، غير خائفة الآن، لقد مدت لي يدها، وأمسكت أنا بها بكل حرية ورغبة، معاً، سوف نحلق إلى عالم ين، وسأستمع لبقية القصة...

21
حين تحترق السماء

منذ وقت مضى يا ليبي، كنت مع يبان في ذلك الكهف الذي فيه البحيرة التي يلمع وجهها كأن ماءها من ذهب، تلك التي أخبرتك عن القرية الحجرية التي تقبع على شاطئها. كنت هناك وفعلت شيئاً رهيباً، وقادني ذلك لفعل أشياء رهيبة أخرى. جعلت آخر يوم لي على هذه الأرض يوماً محملاً بالأكاذيب، في البداية، نكثت بوعدي للآنسة بانر لأنني قصدت بذلك أن أكون لطيفة، لقد أخبرت يبان بالحقيقة، قلت له : إن بانر كانت تتظاهر بأنها تحب الجنرال كاب لأجل أن تحميك فقط، ولتتاكد من أنك آمن، والآن، ها أنت في أمان كما ترى. كان يجب أن تري وجهه بعد ما قلت له ذلك، بدا سعيداً ومرتاحاً، ثم غاضباً وقلقاً، قال: ما هو المفيد من بقائي حياً بينما هي ليست معي الآن؟ ثم صرخ: سوف أقتل ذلك العاهر كاب، وقفز من مكانه متحفزاً.

قلت له حينها: وإلى أين ستذهب؟

- لأعثر على بانر، وأحضرها إلى هنا.

- لا، لا يجب أن تفعل ذلك. بعد ذلك اضطررت لأن أسرد عليه أول كذبة لذلك اليوم: إنها تعرف الطريق إلى هنا. لقد جئت معها إلى هنا لمرات عديدة من قبل. قلت ذلك وأنا أعرف أنه غير صحيح، لذا، كنت قلقة على الآنسة بانر في داخلي. بعد ذلك قلت كذبتي الثانية، تعذرت أمام يبان وقلت أنني أحتاج بعض الخصوصية. كفتاة، أحتاج لإيجاد مكان لأتبول فيه. بعد ذلك، حملت المصباح معي لأذهب، وبذلك، لن يتمكن يبان الخروج من الكهف حتى لو حاول، لأنه بدون المصباح لن يتمكن من إيجاد طريقه للخارج. تركته وهرعت أصعد الكهف من جديد مجتازة منعطفاته لأعود إلى القناة التي تخرجني، لقد أقسمت لنفسي أن أعيد الآنسة بانر حية بعد ما قلته. بمجرد خروجي من قاع الكهف إلى حضن الجبل، شعرت كأنني ولدت وعدت للعالم من جديد. كان الوقت نهاراً، لكن لون السماء كان أبيضاً لا أزرقاً، كأن السماء نزفت لونها. حول الشمس هالة من ألوان باهتة. هل تغير العالم خلال اختبائي؟ ما الذي يقبع في قريتي خلف هذه الجبال، أهو الموت؟ أم الحياة؟

حين بلغت آخر الدرب المؤدي لتشانجميان، شاهدت من مكاني حشود الناس في السوق، وبدا كل شيء طبيعياً كما كان في وقت سابق. الكل أحياء، كل شيء حي! ومنحني ذلك الأمل في العثور على الآنسة بانر. اندفعت في الطريق مسرعة ودموعي تسبقني، التقيت برجل يقود ثوره في منتصف الطريق، أوقفته، أخبرته بما سمعت من أخبار عن الهجوم القريب، وطلبت منه تحذير عائلته والناس الآخرين. قلت للرجل: يجب أن تساعدني بإزالة منشورات صحيفة المبشرين التي تنتشر في المدينة (الأخبار الجيدة).

يجب إزالة كل إشارة عن المسيح وإلهه. قم بتحذير الناس بهدوء ولا تسبب أي جلبة، حتى لا ينتبه الجنود إلى ما نفعله، إن انتبهوا، سوف تزورنا الكارثة اليوم، ولن تنتظر إلى الغد.

بعد أن وصلت القرية، هرعت أحذر الناس هنا وهناك، كنت أقتحم أبواب تلك البيوت المدورة التي يسكنها الهاكا معاً، البيت الواحد يحوي عشر عائلات ربما، ومن بيت إلى آخر تنقلت، أحذر الناس، ظننت أنني ذكية بفعلي ذلك، وأنني حذرت الناس بصمت وهدوء. لكنني وفي لحظة سمعت رجلاً يصرخ: سوف يأتيك الموت، أيها القذر الذي يسرق الديدان ويأكلها! رد جاره عليه بصراخ مماثل: هل تتهمني؟ هل تجرأ؟ إذن، سوف اخبر المنشوريين بانك من أتباع الملك العظيم أيها القذر.

فجأة، سمعنا صوت تصدع كبير، سمعناه جميعنا، كأنه صوت خشب يتحطم، صمتنا كلنا، تكرر الصوت من جديد. شيء ما جعل شجرة ضخمة تنفلق إلى نصفين وتسقط. صاح رجل : إنها المدافع! إن الجنود قد دخلوا القرية منذ بعض الوقت! وهكذا، وعلى الفور، بدأ الناس يركضون ويخلون بيوتهم ثم يجرون وهم يرفعون أطراف أرديتهم الطويلة هاربين في الشوارع.

من القادم؟

صرخ الرجل: الموت قادم، الموت المضمون لجميع الهاكا. هيا، اذهب واعثر على أخوتك بسرعة، سوف نهرب من هنا.

التحذيرات تحولت إلى نداءات، والنداءات صارت صرخات رعب، وفوق ذلك كله، كنت أسمع نواح الأمهات الخائفات وهن ينادين على أطفالهن. وقفت في منتصف الدرب، أرتطم بالناس وهم يركضون هنا وهناك، أنظر لما فعلته. الآن يمكن أن تقتل القرية كلها بقذيفة مدفع

واحدة! كان الناس يصعدون الجبال هاربين ويتفرقون على سفحها مثل نجوم تنتشر في السماء. اندفعت في الدرب نحو بيت التاجر الشبح، سمعت إطلاق نار من جديد، وادركت أنه قادم من خلف الأسوار، حين وصلت للممر المؤدي لداخل البيت، سمعت انفجاراً آخر، تردد صداه في الزقاق فوثبت إلى داخل ساحة البيت ثم وقفت في مكان، كنت أرهف سمعي وألهث. تسللت للمطبخ ، هناك، ألصقت أذني على جداره، محاولة أن أسمع أي صوت يأتي من غرفة المعيشة. لم أسمع أي صوت، فقمت بفتح الباب ودخلت إلى غرفة المعيشة، هناك، ومن نافذة الغرفة المطلة على الساحة، نظرت إلى البوابة الرئيسية، ما هذا الحظ السيء، الجنود يتجمعون هناك، لكنهم نائمون كما يبدو، عدت وأمعنت النظر فيهم من جديد، أحدهم ذراعه ملوية، والآخر يلتوي حوضه وعيناه مفتوحتان، إنهم قتلى! لكن، كيف حصل ذلك، هل أغضبوا الجنرال كاب فقتلهم؟ إن كان قتلهم كلهم، فأين الآنسة بانر ؟

حين استدرت ودخلت إلى ممر غرف النوم، رأيت رجلاً عارياً، وجهه مسحوق، كان مرمياً على الأرض. دماغه تناثرت على الأرض، من هو هذا البائس؟ هل هو الطبيب ليتل؟ أم القس آمين؟ تسللت ومشيت قرب الجثة، على بعد خطوات من الآن، كان هذا الرجل حياً. تذكرت عشاءهم الأخير هنا وهم يتناولون ذلك الفخذ الكبير من اللحم الذي يغطي قطعة عظم كبيرة، والآن، تتمدد أمامي قطعة لحم كبيرة بعظم مشروخ وشعر بني، لا بد أن الجنرال كاب فعل هذا. يا ترى، هل قتل أحداً آخر؟ وقبل أن أتساءل أكثر عما حدث، سمعت أصواتاً تأتي من غرفة الصلاة، وكان صوت صندوق الموسيقى يصدح من هناك، سمعت صوت القس آمين يغني مع الموسيقى، هرعت إلى غرفة الصلاة، وأنا أستمع لغنائه

الذي تحول إلى شهقات ثم أخذ ينحب كحيوان، علاوة على ذلك، سمعت صوت الآنسة بانر، إنها حية! بدا صوتها وهي تتحدث كأنها توبخ طفلاً صغيراً، وبعد لحظة، سمعت عويلها: لا ، لا.

حدث هذا قبل أن أسمع صوت انفجار آخر، انقطع صوتها، ركضت نحو الغرفة. ما رأيته بعدها، جعل جسدي يصير كحجر، ومن ثم، ينهار مثل رمال على الأرض، عند مذبح الصلاة، كان جسد بانر الملتوي وفوقه ثوبها الأصفر الذي كانت ترتديه في أيام الأحد لأجل الصلاة للمسيح، تمددت هي والمبشرونالأربعة، مثل فراشة وأربع خنافس سوداء، مسحوقين على الأرض. ما زلت أسمع بعض الأصوات في الغرفة، استمعت بحذر، لم يكن صوت صدى الانفجار، كان هذا صوت الآنسة بانر، ربما هو؟ ناديت، فرفعت رأسها، وبدا رأسها كأنه مفصول عن جسدها، بدا فمها صامتاً مثل حفرة سوداء، بقع الدم تنتشر على صدرها، ربما ماتت حقاً.

قلت: آنسة بانر، أهذه أنت، أم شبحك؟

ارتفع أنينها قليلاً، وحركت رأسها، رفعت يدها إلي وقالت: تعالي وساعديني يا آنسة مو، إن قدمي مكسورة.

ما إن اقتربت من المذبح وتقدمت تجاه الآنسة بانر حتى ظننت أنه ربما ينهض أي من هؤلاء المبشرين، لكن أحداً منهم لم ينهض، سوف يظلون هنا نائمين في بركٍ من دماءهم للأبد. انحنيت إليها: آنسة بانر؟ ونظرت في أنحاء الغرفة، أين هو الجنرال كاب؟

أجابت: إنه ميت.

قلت: ميت! إذن من قتل هؤلاء...؟

قالت: لا أستطيع الحديث عن هذا الآن، كان صوتها ضعيفاً، لكنه متوتر، تساءلت إن كانت قد ...، لكن، لا، أظن أن الآنسة بانر تستطيع قتل أي أحد.

سألتني بعد ذلك بصوت خائف: يبان، أخبريني بسرعة، أين يبان؟

حين قلت لها أنه آمن في الكهف، وحينها سرت نظرة ارتياح على وجهها. ثم شهقت، حاولت جعلها تتماسك وقلت: قريباً سوف تلتقيان من جديد. الكهف ليس بعيداً عن هنا.

ردت: لا أستطيع أن أخطو ولو خطوة واحدة، قدمي مكسورة. رفعت طرف تنورتها، ورأيت قدمها اليمنى المسحوقة. كانت عظمة ساقها بارزة، وحينها، كذبت كذبتي الثالثة، قلت: ليس الوضع بسيء جداً. حين كنت صغيرة، رأيت شخصاً يصعد معنا إلى الجبل بساق كهذه. ليست مشكلة أنك من الاجانب ولست قوية مثله، سوف أجد طريقة لربط ساقك، وبعدها، سوف نخرج من هنا.

ابتسمت، وشعرت بالسعادة لأعرف أن شخصاً واقعاً في الحب لن يتخلى في النهاية ولو عن كسرة أمل. قلت لها: انتظري هنا. هرعت إلى غرفتها واخذت أبحث في درج ملابسها الخاصة. وجدت قطعة ملابس كانت تستخدمها لشد صدرها وإبرازه للأمام. عثرت أيضاً على جواربها، تلك التي فيها ثقوب عند الكعبين، هرعت إليها من جديد وحاولت ربط ساقها. بعد ذلك، ساعدتها على النهوض وأسندتها، أخذت تعرج وهي تتوكأ علي ونحن عائدتان إلى البيت الرئيسي. حينها، حين تسرب إليها الأمل من جديد، ورأت الجثث من حولنا، استطاعت أن تقول لي كيف قتل كل شخص منهم. بدأت تحدثني من الوقت الذي قتل فيه لولو حين خسر

رأسه وسقط رأسه بلا مبالاة على الأرض. قالت أن المبشرين أمسكوا بأيدي بعضهم البعض، وأخذوا يغنون مع صندوق الموسيقى: حين يقف الموت في زاوية الغرفة، يجب أن نقابل الله معاً.

حينها، أمرهم الجنرال فجأة: توقفوا عن الغناء. وكما تعرفين، كانت الآنسة ماوس متوترة على الدوام. صرخت في وجه الجنرال كاب: إنني لا أخافك، ولا أخاف الموت، إني اخاف الله فقط. لأنني حين أموت، سوف أذهب إلى الجنة، تماماً مثل ذلك الرجل المسكين الذي قتلته منذ قليل. أما أنت، فحقير وشيطان، سوف تتقلب في الجحيم. هل تتخيلين أن تقول الآنسة ماوس كل هذا؟ لو كنت واقفة معها أمامه، لكنت هتفت مشجعة إياها.

بالطبع، لم تخف كلماتها الجنرال، أتقلب في الجحيم؟ كرر كلامها. ثم قال: سوف أريك ما يجب أن يشويه الشيطان في الجحيم. نادى على جنوده. ثم أمرهم: اقطعوا ساق لولو، ثم ضعوها على الموقد، هيا! ضحك الجنود ظانين أنه يمزح. كرر الجنرال أمره بحزم هذه المرة، فتفرق الجنود من الخوف وذهبوا لتنفيذ الأمر. أخذ المبشرون بالصراخ، وحاولوا مغادرة المكان، لم يكن ممكناً أن يشهدوا مشهداً مرعباً كهذا. أمر الجنرال بتجهم أن يبقوا في أماكنهم، وأنهم إن لم يشاهدوا ويضحكوا فإن اليد اليمنى لكل واحد منهم سوف تكون التالية التي تقطع وتوضع بالنار. لذا، بقي الجميع وشاهدوا، ضحكوا وتقيؤوا في ذات الوقت، كانوا خائفين حتى الموت من الجنرال كاب، الجميع، ما عدا لولو الذي مات وانتهى أمره. لقد قطعوا قدمه بعد موته، كم سوف يحتاج من الوقت حتى يقف كشبح ويعود لينتقم؟

في الصباح، وقبل شروق الشمس بقليل، سمعت الآنسة بانر طرقاً على بابها، تركت كاب نائماً في سريرها ونهضت لتفتح الباب، من الخارج

سمعت صوتاً غاضباً، بدا الصوت مالوفاً تقريباً، يصرخ بصوت أهل المستعمرات، بلهجة العمال الخشنة، أيها الجنرال، أيها الجنرال المزيف، انهض، أيها الكلب المهمل، لقد وصل أخ المسيح! لقد أتى ليسحب جثتك إلى الجحيم.

من يكون هذا الذي يصرخ! إنه ليس من جنود كاب بالتأكيد. لكن، من يملك صوتاً خشناً كهذا؟

أفاق كاب على الصوت وأخذ يلعن: سوف أقتلك أيها القذر لأنك خربت علي نومي.

الصوت الصيني رد بثقة: لقد تأخرت، أيها النذل ابن الكلب، أنا ميت أصلاً.

قفز الجنرال عن سريره واستل مسدسه، لكنه حين فتح الباب، انفجر بالضحك، كان ذلك القس آمين. كان الجنون قد نال منه كلياً، و هو يلعن كالجيل الخامس من قبائل الكولي الأجلاف. كان يحمل العظمة الكبيرة التي تبقت من عشاء البارحة على كتفه. فكرت الآنسة بانر في نفسها: كيف يمكن للراهب أن يلعن بلغة لا يتقنها؟ إنه يتحدث الصينية بلغة ممتازة. هرعت الآنسة بانر نحو الباب لتحذر الراهب المجنون من البقاء. حين استدار الجنرال ليدفعها بعيداً، رفع الراهب العظمة في الهواء وهوى بها على رأس الجنرال فشج جمجمته. استمر يهاجمه، يضرب ويضرب بوحشية، حتى أن واحدة من الضربات طالت ذقن الآنسة بانر، حين انتهى، رمى الراهب العظمة على الأرض وقال: لن تهنأ بموتك طويلاً، سوف أركلك بقدمي التي لم تزل سليمة، سوف أركلك حتى وأنت في العالم الآخر. وهكذا، شكت الآنسة بانر أن شبح لولو اقتحم عقل القس الفارغ. لقد شاهدت الاثنين معاً، الرجل الحي وبداخله الرجل الميت. قبض القس على

مسدس الجنرال وركض خارجاً إلى الساحة ثم نادى على الجنود الذين يحرسون البوابة.سمعت بانر من مكانها الذي كانت تستلقي فيه صوت انفجار، ثم تلاه آخر. في النهاية، صرخ القس بلغته: يا إلهي، ماذا فعلت!؟ ويبدو أن إطلاقه للرصاص على الحارسين جعله يستفيق من لوثته. حين شاهدته الآنسة بانر فيما بعد، شعرت بأنه يحمل وجه رجل ميت، وجه شبح على قيد الحياة. كان يترنح قرب غرفته، لكنه اقترب من جثة كاب الملقاة في الممر أولاً. ظلت الآنسة بانر في مكانها، كانت خائفة منه ومن أن تتحرك بعد أن كسرت ساقها، خافت أن يهاجم الراهب من جديد.

لعدة ساعات، ظل القس والمبشرون جالسين يتناقشون بما حصل، وبما يتوجب عليهم أن يفعلوه، سمعتهم الآنسة بانر يتحدثون عن أنهم سوف يتعرضون للتدمير في حال عرف المنشوريون بما فعلوه وأنهم قتلوا الجنرال كاب. أشارت الآنسة ماوس إلى الخارج، لم يرد أي منهم أن يعذبه المنشوريون ويسلخونه حياً. حاولوا ان يروا من يملك القوة الكافية فيهم لجمع الجثث ودفنها. بالطبع، ولا واحد منهم يستطيع، إذن، هل يجب عليهم الهروب؟ ولكن، إلى أين؟ لم يكونوا يعرفون مكاناً يمكنهم الاختباء فيه؟ اقترح الطبيب ليتل أن ينهوا عذابهم وأن يقوموا بقتل أنفسهم. لكن السيدة آمين اعترضت وقالت أن انتحارهم خطيئة كبيرة، تماماً مثل قتل أي شخص آخر.

قال القس آمين: بكل الأحوال، فإنني حجزت مكاناً لي في الجحيم بقتلي لهؤلاء، دعوني أنا أتولى مهمة إراحتكم، وتركتكم لتناموا بسلام أبدي.

وحدها الآنسة بانر من حاولت ثنيهم عن تنفيذ فكرتهم. قالت لهم: يوجد أمل، دائماً. فردوا عليها بأن الأمل الوحيد المتبقي يستلقي في القبر

الآن. وهكذا، رأتهم الآنسة بانر، كما رأتهم يصلون في بيت الصلاة، ويأكلون خبز السيدة آمين في المناولة المقدسة، وكما رأتهم، يشربون الماء، متظاهرين بأنه نبيذ، رأتهم الآن، يتناولون الحبوب التي أعطاهم إياها الطبيب ليتل، لينسوا كل آلامهم، ويخرجوا مرتاحين من الحياة!

قالت كوان : كل الذي حدث بعد ذلك، تعرفينه. لم أكن أنا والآنسة بانر نملك أي قوة لدفن المبشرين. لكننا لم نكن نستطيع تركهم ايضاً ليكونوا وجبة سهلة للذباب والحشرات. ذهبت للحديقة، وانتزعت عن الحبال الثياب البيضاء النظيفة التي كنت غسلتها قبل يوم واحد من الآن. فكرت في كل الامور الرهيبة التي حصلت منذ أن كان الغسيل رطباً بالماء وحتى الوقت الذي جف فيه! ما إن ربطت وغطيت أصدقائنا المبشرين في أكفانهم حتى أقمنا جنازتهم على عجل. مجرد أغطية بيضاء. مضت الآنسة بانر إلى غرفة كل واحد منهم وحاولت إيجاد تذكار صغير لتضعه في صندوق موسيقاها. كان الجنرال قد سرق أشياءهم الثمينة بكل حال، ما تبقى كان مجرد بقايا من هنا وهناك، لم تكن مهمة. أخذت من الطبيب ليتل زجاجة صغيرة كانت تحوي حبوب مخدر ذات يوم. وكذلك قفاز جلدي من الآنسة ماوس، كانت تنفخ فيه دوماً حين تشعر بالخوف لتخفف عن نفسها. ومن السيدة آمين، الأزرار التي كانت تسقط عن بلوزتها كلما غنت بصوت عالٍ وشدت صدرها لأقصى حد. أما من القس باستور (آمين)، فأخذت كتاب رحلات، أما من لولو، أخذت لفافة القصدير التي كان يحتفظ في داخلها بأوراق من الشجرة المقدسة، وضعت كل شيء في الصندوق إضافة إلى دفتر ملاحظاتها وأفكارها الخاص. بعد ذلك، أشعلنا الشموع في بيت الصلاة بعد أن خلطناها بعيدان البخور. أخذت المفتاح الذي كانت الينسة بانر قد أعطتني إياه في الليلة السابقة، ثم وضعته في فتحة

الصندوق، واشتغلت الموسيقى. ثم غنت الآنسة بانر الكلمات التي أحبها هؤلاء الاجانب أكثر من أي شيء آخر. حين انتهت الأغنية، انحنينا وبدأنا نصلي لإلههم، لقد صليت بصدق هذه المرة، أخفضت رأسي وأغمضت عيني. ثم قلت بصوت عالٍ: لقد عشت معه لست سنين، وكانوا بمثابة عائلة لي، صحيح أنني لم أعرفهم جيداً، لكنهم كانوا أصدقاء مخلصنا لابنك، ولنا أيضاً، فرحب بهم في بيتك، ورحب بالقس باستور أيضاً.

* * *

كم من الوقت نملك قبل أن يقتحم المنشوريون القرية؟ لا أعرف كم من الوقت، لكنني أخبرك بأننا لا نملك وقتاً كافياً أبداً. قبل أن نغادر، مزقت ثوب الآنسة بانر الذي كانت قد اعتادت ارتدائه كل يوم، ثم صنعت من قماشه حمالة تشبه الكيس لأجل صندوق الموسيقى. ثم حملته على كتفي الأيسر. أما الآنسة بانر، فاستندت على كتفي الأيمن. ثم عرجنا ونحن نمشي للخارج كأننا شخص واحد. بمجرد أن وصلنا لبوابة بيت التاجر الشبح وهممنا بالمغادرة نهائياً، هبت الريح من وراءنا، ونظرت خلفي. رأيت ثياب المبشرين والريح تعبث فيها وتحركها، وكأنها تدفع أجسادهم لتصحو من جديد من موتها وتتنفس الحياة. تطايرت أوراق صحفيتهم التي كانوا يوزعونها كل أحد، صحيفة الأخبار الجيدة، طايرت الريح أوراقها. تخيلت الأوراق تطير وتلامس الشموع التي أشعلناها في غرفة الصلاة ثم رأيت البيت تشتعل. شممت رائحة الفلفل والثوم القوية،تماماً كالرائحة التي تشيع حين نقوم بتحضير وليمة ترحيب. لعل الرائحة قفزت الآن من ذاكرتي بفعل الخوف. في نظرتي الأخيرة للبيت، رأيت شبح التاجر، يرفل في

ثيابه الجديدة وقدميه السليمتين، اللتين احترقتا في الحياة. بالطبع ، لم تره الآنسة بانر. التي أخذت تعرج ببطء، وخطوة فخطوة، كنا نتقدم. ببطء نصعد الجبل، فيما تتعثر هي أحياناً، وتريح قدمها المكسورة على الأرض ثم تقول لي: لا أستطيع المتابعة، اتركيني هنا.

كنت أريد الصراخ فيها في كل مرة تقول هذا: توقفي عن جنونك هذا، إن يبان ينتظر. لقد تأخرنا بسببك وانتهى الأمر. كان ذلك كافياً ليجعلها تحاول إكمال الطريق من جديد. حين وصلنا إلى الممر الجبلي الأول بعد صعودنا، نظرت من الأعلى للقرية الفارغة. كانت النيران تلتهم منزل التاجر الشبح، وقد أتت على نصفه كما رأيت، سحابة سوداء كبيرة في سماء القرية، وكأنها رسالة إلى المنشوريين ليسرعوا ويهاجموا تشانجميان.

بمرور الوقت، وصلنا للمر الثاني، كنا نسمع صوت انفجارات المدافع من بعيد، لم يكن لدينا المجال لنسرع أكثر، كنا نتسلق ونوشك على التقيؤ مع كل خطوة، المكان مرتفع ووعر وثيابنا غارقة في العرق بسبب إسراعنا وحالة الآنسة بانر. بدأ الظلام يحل والريح توقفت عن الهبوب فجأة، وكان علينا الآن أن نتسلق الجزء الصخري الأكثر وعورة، لم يبق الكثير، لكن خطوة واحدة في غير مكانها، سوف تجعلنا نتدحرج ونسقط في الوادي. تمتمت: هيا يا آنسة بانر، لم يبق سوى القليل. نظرت إلى ساقها المكسورة، والتي بدت كأن قياسها انحسر وصغر حتى صار اثنين!

قلت: عندي فكرة. سوف أذهب بسرعة إلى الكهف حيث تركت يبان. وحينها سأعود وسنستطيع نحن الإثنان سحبك للأعلى. أمسكت بيدي، ورأيت في عينيها خوفها من أن أتركها وحيدة في هذا المكان.

- خذي معك صندوق الموسيقى، وخبأيه في مكان آمن.

- أجبتها: سوف أعود، أنت تعرفين أني سأعود لأجلك، أليس كذلك؟

ردت: بالطبع، فقط خذيه الآن معك حتى تعودا خفيفين ولا يبقى شيء لحمله سواي. أخذت منها الصندوق وهرولت متقدمة في طريقي. عند كل صدع وكهف مررت فيه، كانت اصوات الناس تجيئني من الداخل: هذا المكان مشغول، ولا مساحة لشخص آخر، في هذه الكهوف، اختبأ من استطاع من أهل القرية. الكهوف الآن مملوءة بالخوف. ومئات الأفواه تحبس أنفاسها. تسلقت للأعلى، وهبطت مع المنحدر باحثة عن الصخرة التي تميز كهفنا أنا ويبان. أصوات الانفجارات تتجدد، أخذت ألعن مثلما كان يفعل لولو، نادمة على كل لحظة مرت في حياتي دون أن أستغلها. بعد جهد، عثرت على الصخرة، أزحت الحاجز الشجري وانسبت للداخل بين منعطفات الكهف متمنية ألا يقودني عقلي المرهق لأتخذ الممر الخاطئ، وجدت المصباح الثاني على حاله، وكانت تلك إشارة جيدة على أن أحداً لم يدخل الكهف وعلى أن يبان لم يغادره. في النهاية وصلت، ورأيت البحيرة بمائها المضيء، كان ضوءها كأنه ضوء فجر بعد ظلام. ناديت: يبان، يبان! أسرع، الآنسة بانر تنتظرنا لنساعدها، إنها في الخارج الآن، إما ننقذها، أو ربما تموت.

ما من جواب. ناديت مرة أخرى، بأعلى صوتي، لكن، لا جواب ايضاً. مشيت حول البحيرة والمخاوف كلها تعتمل في قلبي. لعله حاول الخروج من الكهف وفقد طريقه؟ أو أنه سقط في البحيرة وغرق؟ بحثت عنه قرب مدخل القرية الحجرية. وحين اقتربت من هناك: متى حصل هذا؟ وكيف تعرض الجدار لهكذا ضربة؟ على طول الحافة كان الجدار مصدوعاً، فيما الحجارة التي أسقطت منه، تتكوم في القرب. الحجارة التي أزيلت تركت فتحة في السقف تكفي لأن يحشر رجل نفسه ويعبر منها! وحينها، شعرت أن آمالنا كلها تبخرت، وصعدت من تلك الفتحة.

حين عدت، سمعت الآنسة بانر تنادي وقد سمعت وقع أقدامي: يان؟ هل أتيت؟ حين رأتني وحيدة، رفعت رأسها وصرخت: هل قتل يان؟

هززت برأسي ثم أخبرتها كيف أني نكثت بوعدي لها. قلت: لقد خرج ليبحث عنك. وأضفت بصوت متأسف: إنه خطأي. لم تفكر بعذري لنكث وعدها، ولم تقل ما كنت أفكر فيه: وهو أنه لو ظل في الكهف، لكنا ثلاثتنا معاً بأمان الآن. بكل حال، استدارت وهي تترنح، حاولت الوصول إلى الجانب الآخر من الممر، وأخذت تبحث عنه في هذا الليل. كنت أمشي خلفها، وقلبي يتفتت حزناً. السماء برتقالية منجديد! والريح تحمل الرماد، المشاعل البعيدة مثل نقاط ضوء تتحرك في الوادي الآن، إنها مصابيح الجنود، تتناثر مثل فراشات الضوء، كان الموت يحث خطاه إلينا. كنا نعرف ذلك، وكان من المرعب انتظاره. هذه المرة، لم تبك الآنسة بانر ولم تصرخ، بل قالت: آنسة مو، أين ستذهبين؟ أي مكان سيستقبلك بعد الموت؟ إلى جنتك أم إلى جنتي؟

يا له من سؤال عميق! وكأنه يحق لنا أن نختار؟! أليست الآلهة هي من تختار لنا؟ لكنني لم أشأ أن أناقشها في آخر يوم لنا في هذه الحياة. ببساطة: سوف أذهب إلى حيث ذهب لولو وزينج بعد مقتلهما.

ردت الآنسة بانر: تلك ستكون جنتك أنت إذن. وبقينا صامتتين لبضع لحظات.

عادت الآنسة بانر وقالت: إن كنت حقاً ستذهبين إليهم؟ هل يجب أن تكوني صينية لتدخلي جنتكم؟ هل يمكن لي المجيء معك!؟

وكان هذا السؤال أعمق وأغرب من الذي سبقه!: لا أعرف، ولم يسبق لي أن تحدثت لشخص كان هناك ذات مرة وعاد. لكنني أظن أنك إن كنت تتحدثين الصينية، فهذا كافٍ. بل، أنا متأكدة أنه كافٍ.

- إذن، ماذا عن يبان؟ إن نصفه صيني، أين سيذهب؟ لعلنا نختار مكاناً عكس مكانه.

الآن، عرفت سبب كل أسئلتها. وأردت أن أجعلها ترتاح بشأن يبان. وهكذا، أخبرتها كذبتي الأخيرة: تعالي معي يا آنسة بانر، لقد أخبرني يبان مسبقاً، أنه إن مات، فسوف يلاقيك في عالم ين. وبالطبع، صدقتني مباشرة. لأنني كنت صديقتها المخلصة. مدت يدها: رجاء، أمسكي بيدي يا آنسة مو. ولا تتركيها قبل أن نصل! وهكذا، بقينا ننتظر، أنا وهي، سعيدتان وحزينتان في آن واحد، نرتجف خائفتين من الموت، حتى أتى، ومن ثم، متنا.

22

حين يتساوى النور والظلام

ما إن أنهت كوان باقي قصتها، حتى رأيت من جديد بعض الشهب وهي تخبو في صدر السماء. كنت أقف على حافة المنحدر وأنظر تجاه الأشجار، أرقب الظلال لعل أي حركة تلوح هنا أو هناك.

سألت كوان: هل تتذكرين كيف متنا في حياتنا السابقة؟

هززت رأسي، وأخذت أستعيد ما كنت أظنه حلماً: الرماح المشتعلة تضيء السماء، الجدار الحجري وهو ينهار تحت ضربات المدافع. أستطيع رؤيته مرة أخريوأخرى، أستطيع الشعور بذلك الرعب وهو يدِكُ صدري. أستطيع سماع صهيل الخيول وهي تنهب الأرض بحوافرها وصبرها النافذ كي تصل إلينا، شعرت بالحبل الخشن وهو يسقط حول كتفي، ثم ينشد ليلتف حول عنقي، وكانت عروقي على وشك الانفجار، بالكاد أرتشف الهواء، أحد ما يمسك بيدي ويفركها، إنها كوان. كنت مندهشة لأنها بدت أكثر شباباً في تلك الحياة، كانت إحدى عيناها معصوبة. كنت على وشك أن أقول لها ألا تترك يدي، لكن الكلمات انزلقت وسقطت من فمي، حلقت عيناي في السماء، شعرت بكسرٍ سريع، ثم وجدتني أكمل طريقي في

السماء، وبدون ألم، كم هو جميل أن أرتاح، لكنني لم أكن مرتاحة بالكامل، لم أندمج كلياً، كانت كوان هنا أيضاً، تفرك يدي من جديد. قالت: تذكرتِ الآن، أليس كذلك؟

قلت: أعتقد أننا متنا في تلك الحياة شنقاً. بالكاد كانت الكلمات تخرج كسولة من فمي في هذا الوقت من الصباح.

وجمت كوان: لا، لا أظن أننا شنقنا، المنشوريون لا يشنقون، سوف يسبب هذا المتاعب لهم، على الأقل لا توجد أشجار ليشنقوا الناس عليها.

استغربت، وشعرت بالإحباط، سألتها: كيف متنا إذن؟

ردت كوان: لا أعرف، ولهذا أسألك.

رددت: ماذا؟! لا تعرفين كيف متنا.

- لقد حدث ذلك بسرعة، في لحظة كنا نقف هناك، وخلال لحظة تالية استيقظنا في عالم آخر. وكان قد مضى وقت طويل. أدركت بعده أنني مت. تماماً مثلما حصل حين ذهبت للمستشفى وصدموني بالكهرباء. استيقظت، وتسائلت عن مكاني. من يعرف؟ ربما أن نيران قذيفة طوحت بنا فجأة. ربما كما مات التاجر الشبح، حين ضربه شهاب فجأة فاشتعل، ولم يبق منه سوى قدميه، بين كومة من رماد.

ضحكت وقلت: لا أصدق! تخبرينني كل هذه القصة ولكنك لا تعرفين النهاية؟

نظرت كوان إلي بطرف عينها: أية نهاية تريدين؟ لقد متِ هناك، وهذه ليست نهاية القصة. الموت ليس نهاية لأي قصة!.. انظري، ها هي الشمس توشك على البزوغ. تمطت كوان ثم تابعت: لنذهب ونبحث عن

سيمون الآن. أحضري المصباح والسجادة معك، هيا بنا. واندفعت كوان تسبقني في الطريق. كنت أعرف إلى أين سوف نذهب، إلى الكهف بالطبع، هناك حيث وعد يبان بالبقاء وحيث آمل أن يكون سيمون قد ذهب إلى هناك. انزلقنا للأسفل ببطء، في الدرب الوعرة للأسفل، كنا نتخير خطواتنا قبل أن ندوس على الأرض بكامل وزننا، بدأت أشعر بوخز في وجنتي بمجرد أن بدأ الدفء يتدفق إليهما. ها أنا أخيراً أقترب لأرى ذلك الكهف الملعون الذي يحوي في داخله الأمل واللعنة! ماذا سوف نجد هناك؟ سيمون وهو يرتعش من البرد لكنه على قيد الحياة، أم يبان الذي بقي هناك إلى الأبد ينتظر الآنسة بانر. فيما أنا أفكر، دست على حصاة فانزلقت وسقطت على مؤخرتي.

صاحت كوان: كوني حذرة.

- لماذا يطلب الناس من بعضهم الحذر بعد فوات الأوان؟ ونهضت.

- ليس متأخراً أبداً، في المرة القادمة، ربما لا تسقطين في الوادي. ومدت لي يدها.

- أنا بخير، لقد لويت كاحلي قليلاً، لم تنكسر رجلي.

هبطنا، ثم بدأنا نتسلق مرتفعاً آخر، كوان أمامي، تتوقف وتنظر إلي كل بضعة ثوان. قريباً سأهبط إلى الكهف وأتفحصه، بحثاً عن أي إشارة لحياة كانت فيه. ربما مما قبل التاريخ، ربما شيء انقرض.

قلت: ماذا حل بيبان وسكان تشانجميان؟

ردت كوان بالصينية: لقد مت قبل أن أعرف، لذا فإنني لست متأكدة، ما أعرفه سمعته من ثرثرة الناس في هذه الحياة وليس من حياتنا

السابقة. لذا، لا أظن أحداً يعرف الحقيقة كاملة. الناس من القرى الأخرى أضافوا الكثير على القصة من خلال إشاعاتهم حتى جعلوا ثرثراتهم تفيض عن الجبل وترشح كما يرشح الماء من سقف مثقوب تحت المطر. وهنا، في القاع، أسفل الجبل، حيث تتجمع الإشاعات، شاع في كل المنطقة بأن تشانجميان قرية حلت فيها اللعنة.

قلت: وما هي القصة التي سمعتيها؟

- انتظري للحظة فقط، ودعيني ألتقط أنفاسي. جلست كوان على حافة صخرة منبسطة وهي تلهث. حسناً، هذا ما سمعته: قال الناس ان المنشوريين حين دخلوا المكان، سمعوا بكاء وصراخ الناس في الكهوف، فأمروهم: اخرجوا في الحال. لكن الناس لم يطيعوا الأمر. وهل كنت لتطيعينهم؟ بالطبع لا. وهكذا، قام الجنود بجمع أغصان الشجيرات اليابسة وكل ما طالته يدهم. وضعوا عدتهم تلك على أفواه الكهوف، وأشعلوا فيها النار. بدأ جميع الناس يصرخون، الكهوف أصدرت أنينها من رعب الناس، وتدفقت الخفافيش للخارج كأن الكهوف تقيأتها من أفواهها. كادت السماء تختفي وقد غطتها أجنحة تلك المخلوقات الطائرة. غطت الخفافيش الوادي مثل مظلة. وخلال بعض الوقت، اندلعت النيران في الوادي وصار المكان كله كشعلة من لهب. كل شيء صار محاطاً بسور من لهب. حتى الجنود، لم ينج منهم سوى اثنين أو ثلاثة تمكنوا من الهرب، أما الباقون، فلم يستطيعوا. بعد مرور أسبوع، أتت حملة أخرى إلى تشانجميان، ولم تجد أحداً، لا حياً، ولا ميتاً. كانت القرية فارغة تماماً، وكذلك بيت التاجر الشبح. ولا جثث! أما الوادي، ففارغ إلا من الرماد، والحجارة الكبيرة التي غطت مئات القبور.

توقفت كوان عن الحديث ثم نهضت وقالت: هيا بنا، لنكمل طريقنا.

أسرعت أمشي خلفها وسألت: هل مات الجميع حقاً؟

ردت كوان: ربما، وربما لا. بعد شهر، مر رحالة من جينتيان بالقرية. وجد القرية مليئة بالحياة والسوق يكتظ بالناس في يوم عمل من أيام الأسبوع! ورأى الكلاب تقعي على العتبات، والناس يتناقشون، فيما الأطفال يدرجون خلف أمهاتهم. وكأن حياتهم ظلت مستمرة من يوم لآخر دون أن يدمرها أي شيء. سأل الرحالة كبير القرية: ما الذي حصل حين اقتحم الجنود تشانجميان؟ أجاب الرجل العجوز: عن أي جنود تتحدث، لم أجد في ذاكرتي أي جنود اقتحموا القرية! عاد الرحالة وسأل: وذلك القصر هناك؟ ألم تحرقه النيران؟ عاد العجوز وقال: أجل، كما ترى، حصل هذا منذ شهر، إحدى دجاجات التاجر الشبح التي كانت في الفرن، قفزت من مكانها والنار تشتعل فيها، وكما ترى، أحرقت سقف بيت التاجر الشبح. بعد بعض الوقت، عاد الرحالة إلى جينتيان، وبعدها، كان هنالك خط طويل من الناس يمتد من الجبال وحتى القرية، وذلك لأن الجميع سمع بأن سكان تشانجميان تحولوا إلى أشباح.

- نظرت كوان إلي: ماذا؟ لماذا تضحكين؟

- قلت: أظن أن تشانجميان صارت قرية كذابين لا قرية أشباح، لقد كذبوا وادعوا أنهم أشباح حتى يتجنبوا دمار أي حروب قادمة!

صفقت كوانلي وقالت: يا لك من فتاة ذكية، أتذكر أن الجدة أخبرتني قصة ذات مرة عن غريب سأل أحد الشباب: هل أنت شبح؟ وجم الشاب، ثم انحنى على الأرض التي لم تكن محروثة بعد وقبض على حفنة من الأرز ثم قال للرجل: قل لي، هل يمكن لشبح أن يزرع قبضة من الأرز، وبهذه الجودة؟ أدرك الرجل حينها أن الشاب كان يخدعه فقط، الشبح

الحقيقي لا يمكن أن يتباهى بحفنة أرز. لعله يستطيع التباهي بالخوخ المزروع كذلك؟

صمتت كوان قليلاً لترى ردة فعلي على ذلك المنطق الذي اتبعته القرية.

قلت: إذن، الكذب صار تقليداً في عرف تشانجميان.

تابعت كوان: ولكن في النهاية، سئم الناس وتعبوا من أن الجميع يراهم أشباحاً، لم يعد أحد يخوض معهمفي التجارة، ولم يعد أحد يطلب بناتهم وأبناءهم للزواج. لذا، وبعد أن أدركوا الحقيقة متأخرين قالوا للناس: لسنا أشباحاً. ولكن، يقال ان هنالك ناسكاً كان يعيش في كهفٍ بين الجبلين، ربما يكون شبحاً، وربما خالداً. له شعر ولحية طويلتان جداً، تتصلان ببعضهما، يقال أنه لم يكن يظهر إلا عند الفجر، في اللحظة التي يختلط فيها النور بالظلام. ويسير هناك، بين القبور، يبحث عن امرأة ماتت، ولا يعرف مكان قبرها، كان يفتش كل القبور. كانوا يقولون أن اسم الناسك: قاطعتها وسألت: يبان.

سمعت اسمه من كوان وكاد نفسي ينقطع. أومأت كوان برأسها وأضافت: ربما بدأت تلك القصة حين كان يبان لم يزل حياً وينتظر الآنسة بانر. لكنني حين كنت في السادسة من العمر، وبعد حادثة غرقنا بقليل. رأيته بعيني ين اللتين صرت أملكهما. رأيته يتجول بين القبور وكان شبحاً فعلاً. وذات مرة كنت في هذا الوادي أجمع الحطب، ربما بعد غياب الشمس بقليل، رأيت رجلين يحملان الصخور ويتناقشان. اقتربت منهما وسألت بتهذيب: ماذا تفعلان أيها العمان؟

ردة فعل الأول كانت سيئة وقال: اللعنة. استخدمي عينيك ، لقد صرت تملكين اثنتين، ماذا تظنيننا نفعل!؟ الرجل الآخر ذو الشعر الطويل

كان أكثر تهذيباً، قال: انظري يا صغيرتي، هل ترين هذا الحجر، ورفع بيده حجراً كبيراً يشبه الفأس. قال: بين الحياة والموت، يوجد مكان ما، يوازي المستحيل، وقد يجعله حقيقة، عن هذا نبحث. بين هذه القبور، قال ذلك ووضع الحجر فوق حجر آخر بكل حذر. لكن الرجل سقط فجأة فأصاب مع الحجر ذلك الرجل الجلف.

صرخ الرجل: اللعنة عليك، لقد كدت تقطع قدمي. خذ وقتك ولا تستعجل أيها الغبي. لا تستخدم يديك فقط، بل كل عقلك وجسدك لتعثر على القبر والحجر المناسبين.

قلت لكوان: رجل يظل يلعن، أليس ذلك لولو؟

ابتسمت كوان ابتسامة عريضة وقالت: مات منذ مئات السنين ولم يزل يلعن. شبح لاعن! هنالك كان لولو ويبان عالقين، يبحثان عن مخرج إلى الحياة التالية. وكانا ليندما على ما سوف يحدث لهما في تلك الحياة؟

سألت كوان: وكيف سيندمان، ليكونا قد وعيا أو انتقلا بعد لحياتهما الثانية؟

ردت كوان: لا، اعتبري أنك تفكرين مع نفسك بشيء ما، وأنه لو حدث، فقد يؤدي لشيء آخر، لا تريدين حدوثه فتندمين. لو كنت عالقة مثل لولو، الذي جعل القس يظن أنه قتل الجنرال حين تلبس جسده. ثم ندم على ذلك. وقرر أن يكون زوجة للقس في الحياة التالية، لكنه تذكر فيما بعد أنه سوف يضطر للاستماع للراهب وكل ما يقوله في أيام قداس الأحد. فعاد ليلعن من جديد. كيف سيكون زوجى للراهب فيما مزاجه الأحمق سيظل ذات المزاج.

- وماذا عن يبان؟

حين لم يعثر يبان على الآنسة بانر، شعر بالحزن، ثم فكر في أنها قد تكون عادت للجنرال كاب، فزاد حزنه. موته، وحين ذهب إلى السماء ولم يعثر عليها، آمن بأنها ذهبت مع الجنرال كاب إلى الجحيم.

لم يخطر في باله أبداً أنها ذهبت إلى عالم ين.

هل ترين؟ هذا ما يحدث حين تظلين عالقة، هل تتسلل الأفكار الجيدة إلى عقلك؟ أجل ولكن، تتسلل الأفكار السيئة أيضاَ؟ هذه هي الفكرة.

سألت كوان: إذن، لم يزل عالقاً؟

- لا، أخبرته عنك.

- ماذا أخبرته؟

- ردت كوان: لقد أخبرته عن مكان وجودك في هذه الحياة. وأين ستولدين، وها هو ينتظرك من جديد، في مكان ما هنا.

- تقصدين سيمون؟

ابتسمت كوان ابتسامة كبيرة، ثم اقتربت من صخرة كبيرة وقالت: خلف هذه الصخرة، بالكاد يوجد ممر ضيق للأسفل، هنا يوجد الكهف.

- هذا هو الكهف الذي فيه البحيرة إذن؟

- أجل.

مددت رأسي وناديت بصوت عالٍ: سيمون، سيمون. هل أنت هناك، هل أنت بخير؟

أمسكت كوان بكتفي وأزاحتني بلطف ثم قالت: سوف أدخل الكهف، وأحضره، أين المصباح؟

أخرجت المصباح من الحقيبة. يا لسوء الحظ، يبدو أننا تركناه مضاء طوال الليلة، وها قد نفدت طاقته.

قالت كوان: أعطني إياه لأرى. وما أن أمسكته بيدها حتى أضاء!

- أترين، إنه يعمل.

حشرت كوان نفسها في الفتحة الصغيرة لمدخل الكهف، وأردت اتباعها.

لا. لا تتبعيني يا ليبي. ابقي في الخارج وانتظري فقط.

- لماذا ؟

- في حال...

- قلت لكوان: في حال ماذا؟

- فقط انتظري، ولا تناقشي. وربتت على يدي بقوة ثم أضافت: عديني أن تنتظري هنا؟

- حسناً، أعدك.

بعد لحظة، ابتسمت، ثم غطى وجهها تعبير ينم عن الألم، وانهمرت الدموع على وجنتيها.

- ما بك يا كوان؟

- ضغطت على يدي وربتت عليها من جديد ثم قالت بالإنجليزية: لا شيء، إنني سعيدة فقط لأنني سوف أرد إليك الجميل أخيراً. أنت الآن تعرفين كل أسراري، فامنحيني السلام، ثم فتحت ذراعيها، واحتضنتني.

بقيت جامدة، لطالما شعرت بأنني خرقاء وأنا أرى تدفق مشاعر كوان الغريبة. أن ترد لي الجميل؟ على ماذا؟ تعالي يا كوان، أنت لا تدينين لي بشيء.

شهقت كوان ثم أردفت: بل أنت كذلك، أنت من كنت صديقتي المخلصة، وقد أخبرتك أنك سوف تذهبين لعالم ين، وأن يبان سوف يكون هناك بالتأكيد. لكنه ذهب للجنة، ولذا، كما ترين، يجب أن أعوض ما حصل. وذلك لأنني تسببت بضياعكما عن بعضكما في تلك الحياة، ولهذا شعرت بالسعادة حين قابلت سيمون لأول مرة، قلت في نفسي: أخيراً عثر عليك...

تراجعت قليلاً ثم سألتها: كوان، هل تتذكرين يوم التقيت بسيمون لأول مرة، أتتذكرين كلامه عن فتاة غرقت، اسمها إلزا؟

مسحت كوان عينيها من الدموع وقالت: إلزا؟ نعم، أتذكرها، إلزي، تلك الفتاة البولندية اليهودية والتي غرقت بعد الغداء.

- عدت وسألتها: ما قلته يومها لسيمون من أنه يجب أن ينساها، هل كذبت بشأن هذا؟ هل قال شبحها شيئاً آخر؟

فكرت كوان: هل طلبت أن ينساها؟

- أجل، أنت قلت ذلك.

- إنني اتذكر الآن، لم تطلب أن ينساها، بل طلبت أن يسامحها. لقد فعلت أمراً جعله يحس بالذنب، ولقد ظن بأن موتها كان خطئه. لقد قالت أنها هي من أخطئت، وطلبت ألا يقلق. وكلام من هذا القبيل.

- لكن، ألم تطلب منه أن ينتظر، وأنها سوف تعود؟

- لم تظنين هذا يا ليبي؟

- لأنني رأيتها بحواسي السرية التي لطالما حدثتني عنها. لقد كانت تتوسل سيمون لكي يراها، ولتعرف ما يشعر به. لقد رأيت...

- قاطعتني كوان ووضعت يدها على كتفي: ليبي، يا عزيزتي، هذه ليست حاسة سرية. هذه حاسة الشك عندك، والقلق، ما رايته لم يكن منطقياً، وذلك لأنك قبل حياتين من هذه الحياة، كنت ابنتها! ولا أظنها سوف تقول لسيمون أن يراها ويحبها، لأنها لن تريد حياة بائسة لك معه. لقد أرادت مساعدتك...

صدمني كلام كوان. كانت إلزا أمي؟ سواء كان هذا صحيحاً أم لا. فقد شعرت بأنني أطفو بلا اتجاه، وأني كنت ضائعة، لكن، وبكل حال، شعرت بأن كل تلك الحمولة من الشك والخوف التي تثقل قلبي قد انزاحت الآن كما تزاح كومة من القمامة.

- تابعت كوان: طوال الوقت، كنت تظنينها تطاردك، لكنك، كنت تطاردين نفسك. وسيمون يعرف ذلك أيضاً.

قبلتني كوان على وجنتي ثم قالت: سوف أذهب لأعثر عليه الآن، ولتدعيه يخبرك هو بنفسه. ثم تركتني أراها وهي تدخل إلى الكهف.

- كوان؟

- استدارت إلي : نعم.

- عديني بأنك لن تضيعي، وأنك سوف تعودين.

- أجل، الوعد هو الوعد!

ومضت أكثر للداخل، سمعت صدى صوتها، ولم أعد أراها:

- لا تقلقي، سيكون سيمون هنا قريباً، انتظري عودتنا، وكان صوتها عميقاً.

جلست واستندت على الصخرة التي تغطي مدخل الكهف، وضعت السجادة حول كتفي ونظرت للسماء، لا يبدو الوضع خطيراً الآن، والسماء، لم تزل رمادية. هل ستمطر من جديد؟ هذا هو الاحتمال البسيط الغير سعيد، أن تمطر، كأنه شعور يتكرر، شعور مألوف مع تساقط المطر، لعلني صرت منومة مغناطيسياً أثناء سماعي لقصة كوان! إنني متوهمة، هل أتوهم أكثر مما تفعل كوان؟ كيف تركت أختي تهبط في الكهف لوحدها؟ نهضت وهرعت لمدخل الكهف، أطليت برأسي وناديت: كوان، عودي إلى هنا. صرخت في فم الكهف المظلم: اللعنة، عودي يا كوان، أجيبيني؟

اندفعت ودخلت إلى الكهف وأنا أحني رأسي عن السقف الواطئ. ألعن، ثم أصيح من جديد باحثة عنها. بعد مشي قليل، رأيت التماعة ضوء، ما لبث أن اختفى فوراً. وكأن أحداً حجب النور عن عيني فجأة، لكنني لم أرتعب. لطالما عملت في غرف التصوير المظلمة لنصف حياتي. لكنني هنا، لا أعرف حدوداً للظلام. الظلام هنا كمغناطيس يجذبني لأمضي فيه أكثر. عدت وتراجعت نحو مدخل الكهف. لكنني كنت منقادة، لا أملك حساً نحو الاتجاه الصحيح. لا أعرف إن كنت أتجه للداخل أو الخارج، للأعلى أو للأسفل. ظللت أصرخ منادية كوان حتى بح صوتي. وقفت ألهث، هل خرج كل الهواء من هذا الكهف؟

- أوليفيا؟

وسمعت النداء

- هل أنتِ بخير؟

- يا إلهي، سيمون، ها أنت، أخيراً! تنهدت: هل أنت حي؟

- وهل كنت سأناديك لو لم أكن حياً.

- ضحكت وبكيت في آن: لم يعد المرء يعرف.

- تعالي، مدي يدك.

وهرولت في الهواء والظلام حتى اصطدمت بلحم حي. وبيديم مألوفتين. ضمني إليه ووضع ذراعي حول عنقه. ربت على ظهره، لأتأكد أنه حقيقي.

- يا إلهي، سيمون، ما الذي حصل البارحة... لقد تصرفت كمجنونة. ولكن فيما بعد، حين لم تعد. ... هل أخبرتك كوان بأنني عانيت لأجلك؟

- لا، لم أعد للبيت بعد.

وشهقت: يا إلهي.

- قال سيمون: ماذا هناك؟

- أين كوان إذن، ألم تأت خلفك؟

- إنني لا أعرف أين هي.

- لكنها ذهبت لتعثر عليك. لقد دخلت الكهف. وقد كنت أبحث عنها! يا إلهي، لا أريد لهذا أن يحدث. وعدتني بأنها لن تضيع. لقد وعدتني أن تعود...

وبقيت أتمتم فيما سيمون يقودني معه إلى الخارج.

بمجرد خروجنا من فتحة الكهف، كان النور ساطعاً، حتى أنني لم أستطع أن أرى. وضعت يدي على وجه سيمون دون أن أراه. وقد تذكرت نصفنا الآخر من حياتنا التي سوف تكون من جديد، سوف يكون هو يبان، وسأكون أنا بانر، أضمه بثوبي الأصفر الملطخ بالدماء.

23

الجنــازة

اختفت كوان منذ شهرين، لن أقول أنها ماتت، لأنني لم أسمح لنفسي بعد بالتفكير في هذا.

أجلس في مطبخي، أتناول حبوب الإفطار، وأحدق في صور الاطفال المفقودين التي يلصقونها على علب الحليب: في حال رأيته، اتصل. جائزة لأي معلومة. أعرف ما تشعر به أمهات هؤلاء الأطفال، يبقين متأملات إلى أن يثبت العكس. يجب ان تؤمن أنهم هناك في مكان ما. يجب أن تراهم ولو لمرة على الأقل قبل أن تودعهم للأبد. لا يمكن أن تترك من تحبهم ليختفوا دون أن يعدوك بأنهم سوف ينتظرونك في مكان ما، حياة ما. إني أؤمن أن الوقت لم ينته بعد حتى أقول لكوان بأنني أتذكر قصصها، وأنني كنت الآنسة بانر في حياة سابقة. قول لها: أنت كنت نونومو. وللأبد ستظلين صديقتي المخلصة، وستفعلين.

حين رأيتها للمرة الأخيرة قبل شهرين من اختفائها. انتظرتها على مدخل الكهف بعد أن صدقت قصتها بأنها سوف تعود. جلست فوق

صندوق الموسيقى أنتظرها، وسيمون جالس بقربي، بدا جدياً ومتعاطفاً. لم يمزح ولم يسخر من أي شيء، بل كان قلقاً وهو يقول: سوف تظهر بين لحظة وأخرى. كان يشد أزري ويقول: إنني أتمنى ألا تتعذبي من أجل كوان كما تعذبت لأجلي من قبل. وبالعودة لما حصل في ذلك الوقت، لقد كان سيمون في أمان طوال فترة اختفائه. بعد شجارنا، غادر هو أيضاً الممر الجبلي، عائداً إلى بيت الجدة، لكنه التقى في الطريق براعي الأبقار، ذلك الرجل الذي نعتنا بالأخرقين، حيث لم يكن راعياً، بل مجردطالب تخرج من جامعة بوستون، واسمه آندي. وكان في زيارة لقريبة له تعيش قرب الجبال بعيداً عن القرية. وهكذا، ذهب الإثنان معاً إلى بيت عمة آندي، وهناك، ظلا يتجرعان كؤوس شراب الماتاي حتى كادا أن يفقدا وعيهما. وحتى لو أن سيمون لم يتقِ الخطر بذهابه مع ذلك الشاب، فإنه كان سوف يظل بخير، لقد آلمه الاعتراف بما حصل بيننا حين سمع ما قلته أنا، بعد مغادرتي له، ارتدى طاقية صوفية دافئة، ووقف على الحافة ينتشل الأحجار عن الأرض ويرميها في الوادي بغضب، حتى تعرق، ولم يلمسه البرد.

قال سيمون لي بعدها: لقد قلقت بلا داعٍ، فقطع علي حبل أفكاري.

قلت له: إن هذا أفضل من أن أقلق بلا نتيجة، من الجيد أنك عدت. وتخيلت أن ذلك سوف يشجعني، وأن قلقي على كوان قد يكون غير مبرر كما مع سيمون، لعلها بخير إذن. أتخيلها وهي تقول: لقد اتخذت الدرب الخاطئ في طريقي في الكهف، هذا ما حصل، ولقد استهلكت وقت الصباح كله حتى أجد طريق العودة. حاولت ملائمة أملي بعودتها مع الوقت. آخذة بعين الاعتبار الوقت الطويل الذي غابته حتى الآن. أتخيلها من جديد: ليبي، أين ذهبت رأسي؟ إنني أرى البحيرة فقط، ولا أستطيع

التوقف عن الأحلام، لقد ظننت وقتها أن ساعة مرت، ويبدو أنني استغرقت في حلمي لعشر ساعات.

بقيت مع سيمون قرب الكهف في تلك الليلة، أحضرت لنا دو ليلي الأغطية والطعام. استطعنا دفع الصخرة التي تغطي مدخل الكهف، وصعدنا فوقه ثم خضنا في الماء الضحل الذي يتجمع فوقه. حدقت في السماء التي كانت مزركشة بالنجوم. فكرت في إخبار سيمون القصة عن بانر وبيان ونونومو. لكنني خفت من ذلك. بدت القصة مثل تميمة للأمل. ولو أن سيمون أو أي أحد آخر شكك فيها، فهنالك احتمال أن ينمحي الشيء الوحيد الذي أريده من هذا الكون، وهو عودة كوان.

في الصباح التالي لاختفاء كوان، جمع آندي مع دو ليلي بعض الناس ليساعدونا في البحث، وبالطبع، خاف الكبار من دخول الكهف، وتراجعوا أمام خرافاتهم عنه. كان معظم من معنا من الشباب، أحضروا المصابيح والحبال. وحاولت أن أسترجع الاتجاهات الصحيحة التي تقود إلى عمق الكهف. حاولت تذكر كلام زينج في قصة كوان. وهو أن أتبع الماء، وأهبط معه للأسفل. أو لربما يجب أن أتبع الممرات الضيقة، والتي سوف تقودني لعمق الكهف الواسع. لم أطلب من سيمون أن يأتي معي، ولوحده هذه المرة، التصق بي، ظل معي. شاهدنا معاً كيف ربط رجل الحبل حول خصره بقوة واندفع إلى داخل الكهف فيما رجل آخر يقف في الخارج ممسكاً بعقدة الحبل. بحلول اليوم الثالث. اكتشفنا مع من بحثوا بأن الكهف يحوي دروباً تقود إلى عشرات الكهوف الأخرى، ولم نعثر على أي أثرٍ لكوان. ذهبت دو ليلي إلى غيلين لتخطر السلطات هناك بالأمر. ثم أرسلت لي بريداً وقالت أنني يجب أن أرسل رسالة لجورج زوج كوان وأخبره بلطف وحذر عما حدث. في العصر، وصلت أربع سيارات كبيرة، هبط منها بعض الجنود

بملابسهم الرسمية الخضراء إضافة إلى مسؤولين رسميين يرتدون ملابساً سوداء. ولم يتوقف الأمر هنا، في اليوم الذي تلاه، وفي الصباح، أتت سيارة من نوع سيدان، وكانت مألوفة، كان ذلك روكي، وفي صحبته عالم كئيب الوجه. أشار لي روكي بأن هذا الرجل هو البروفيسور بو، الذي كان اليد اليمنى لعالم الآثار الذي اكتشف آثار الإنسان الصيني القديم. وبالطبع، دخل ذلك العالم المتاهة المعقدة لتلك الكهوف، بعد أن صار البحث أسهل باستخدام علامات الحبال والمصابيح. بعد أن اختفى العالم هناك لعدة ساعات وظهر من جديد، قال لنا ووفقاً لنظريته بأن هذه المتاهة من الكهوف موجودة هنا من حقب سابقة، وأن سكان المنطقة هم من قاموا بشقها، تماماً مثلما شقوا شبكات لقنوات المياه في الجبال، لقد فعلوا ذلك ليتجنبوا هجمات المغول وغيرهم من الغزاة في ذلك الوقت، ثم قال أن سكان تشانجميان هم من حفروها. وأن الغريب الذي يدخلها، سوف يعلق هناك، مثل فأر في مصيدة مميتة.

في النهاية، قام فريق من الجيولوجيين بزيارة الكهف، ومع الجلبة والإثارة التي سببوها، نسي الجميع أمر كوان، لقد خربوا مساكن الآلاف من الخفافيش، وتركوها تهرب مرعوبة تحت أشعة الشمس، اكتشفوا جرار قمح ودلاء ماء فخارية، وهكذا حققوا اكتشافاً علمياً مهماً وأحمقاً في تاريخ الإنسانية، وعمره يعود إلى ثلاثة آلاف عام.

في اليوم الخامس، حضر جورج زوج كوان مع قريبته فيرجي، بعد أن رد على رسائلي، التي جعلته يحضر بعد جهد جهيد وغضب من قبله لأنه ظن أنني أخطأت فيما كتبته إليه وأن لغتي المندرينية ضعيفة. وأن كوان ليست مفقودة. بحلول المساء. وبعد أن رأى جورج كل شيء، تسلل إليه

البؤس وعدم الاتزان، أمسك بمعطف كوان، دفن وجهه فيه، ثم بكى غير عابئ بمن حوله.

في اليوم السابع، استطاعت فرق البحث العثور على البحيرة وماءها اللامع، وعثروا على القرية الحجرية قرب شاطئها، ها هي تنغل الآن بالمسؤولين. مزيد من العلماء توافدوا على الكهف محاولين معرفة سبب لمعان الماء. كل شيء يمكن إيجاده وجد، ما عدا كوان.

في كل يوم من تلك الأيام السبعة، كنت مضطرة للانصياع إلى التحقيق البيروقراطي المترهل من أحد المسؤولين، يتكرر التحقيق، وتتكرر الأسئلة:

- متى ولدت كوان؟ متى حضرت إلى هنا؟ لماذا حضرت؟ هل كانت مريضة؟ هل تشاجرت معها؟ حسناً، لماذا تشاجرت مع زوجك إذن؟

هل تشاجر زوجك معها؟ لعل هذا ما جعلها تذهب؟

آه، أنت مصورة، هل لديك صورة لكوان؟ بما أنك مصورة محترفة، كم تكلف الصورة؟ حسناً، هذا كثير، ما رأيك بالتقاط صورة لي؟

لم نصل لشيء، وفي الليل، كنت أحتضن سيمون وأنام معه في سرير الزواج العتيق في بيت الجدة، كنا نمارس الحب، وليس لأجل الشهوة فقط، بل وللأمل أيضاً، ولأجل الحب، أردت للحب أن يمنعنا من أن نفترق ثانية، وفي كل يوم كان يمر هناك، لم أفقد الأمل، بل حاربت لأصمد أكثر، تذكرت كيف عالجت كوان جروحي ذات مرة، وكيف علمتني ركوب الدراجة. كانت تضع يدها على مقدمة رأسي وانا مصابة بالحمى، كنت أبلغ ستة أعوام، وكانت كوان تقول: ليبي، استرخي ونامي يا عزيزتي، نامي، وكنت أنام.

بمرور الوقت، صارت تشانجميان ساحة سيرك. أتذكر ذلك الشاب الذي حاول استغلال ما حصل وحاول أن يبيع سيمون قطع عملة على أساس أنها أثرية. انتشر الباحثون المدعون والفضوليون، كانوا يعرضون على السياح الذين أخذوا يتدفقون على الوادي دفع مبلغ عشر يوانات لأجل أن يأخذوهم في جولة عبر الممر الجبلي الأول إلى الكهوف. هذا ما كان يفعله أحدهم فيما كان أخوه يطلب عشرين يواناً لأجل أخذهم في جولة عبر الممر الثاني، سكان تشانجميان أخذوا ينتزعون الحجارة من المقبرة الجبلية ويبيعونها كتذكارات. أخذ كبار القرية يتناقشون مع السلطات حول أحقيتهم للحصول على ما تم العثور عليه في الكهوف. في ذلك الوقت، كان قد مر أسبوعان فقط على كل ما حدث، وحينها، لم نعد أنا وسيمون نحتمل، فقررنا أخذ طائرة والعودة إلى الوطن.

* * *

قبل مغادرتنا، تم التحضير لإقامة جنازة الجدة أخيراً. لم يحضر في ذلك الصباح الذي كان فيه رذاذ المطر يتساقط سوى أحد عشر شخصاً، منهم رجلان تم استئجارهما لحمل الحمالة إلى القبر، بالإضافة لبعض القرويين الكبار في السن، كذلك حضر جورج وفيرجي، وبالطبع، كنت مع سيمون ودو ليلي. تساءلت إن كانت الجدة غاضبة في كفنها لعدم حضور كوان. وضع الرجلان الحمالة فوق عربة يقودها بغل، وقامت دو ليلي بربط الديك اللازم للجنازة داخل العربة، كان الديك يصيح، وكنا في طريقنا حين صعدنا أول جسر فوق المستنقع. حينها، فوجئنا بفريق تلفزيوني ممن صاروا كثيري المجيء لتشانجميان، اعترضوا طريقنا. طاحت فيهم دو ليلي: هيا، حركوا مؤخراتكم عن الطريق، ألا ترون أن جنازة تمر في الطريق؟

اقترب بعض رجال الطاقم من دو ليلي وطلبوا منها احترام حق المواطن الصيني في معرفة كل القصص التي جرت في تشانجميان مؤخراً، وعن الاكتشاف العظيم الذي حصل.

- ردت دو ليلي: عظيم وأخرق مثلكم. أنتم تتلفون هذه القرية، ابتعدوا عن طريقنا الآن.

امرأة من الطاقم ترتدي بلوزة عصرية وجينزاً ضيقاً أخذت دو ليلي جانباً، رأيتها تعرض عليها بعض النقود لتتحدث، لكن دو ليلي رفضت بغضب. وشعرت من كل قلبي بالاحترام لها. عرضت المرأة مزيداً من النقود عليها. أشارت دو ليلي إلى الطاقم وإلى الجنازة وعادت تشكو بغضب. هذه المرة، أخرجت المرأة رزمة من النقود، فيما تلعثمت دو ليلي وهي تقول: حسناً. سمعتها وهي تقول أنها حصلت على مبلغ جيد، وعلى الأقل، سوف تستطيع أن تشتري لنفسها حياة مريحة حين تذهب لحياتها التالية. هبطت معنوياتي بعد ما حصل، أما سيمون فبدا متجهماً. خضنا طريقنا بين الأزقة والمنعطفات حتى خرجنا من القرية ووصلنا إلى المقبرة العامة، التي كانت تواجه الجبل من الجهة الغربية، وكان المقبرة على شبه منحدر.

في موقع القبر، بكت دو ليلي وهي تلاطف بيديها وجه الجدة الجاف. وأظن أن جسدها بدا بحالة ممتازة بعد أسبوعين ظلت معلقة فيهما منتظرة أن تدفن. ناحت دو ليلي: آه، يا لي بن بن، كان يجب أن أرحل قبلك، لقد متِ صغيرة! وترجمت ما قالته إلى سيمون.

حدق بدو ليلي وقال: هل هي أكبر من الجدة حقاً!

- لا أعرف، ولا أريد ان أعرف أي شيء بعد الآن.

حين أغلق الرجلان الكفن ليبدأ الدفن، شعرت أن كثيراً من الأسئلة سوف تدفن هنا وإلى الأبد. أين كانت كوان، وأين اختفت؟ ما اسم أبي الحقيقي؟ وكذلك، فيما إذا كانت كوان وتلك الطفلة بونكيك، قد غرقتا حقاً.

انتظرا، سمعت دو ليلي تنادي الرجلين. ثم استدركت: لقد كدت أنسى. ثم أخرجت دو ليلي رزمة النقود التي أخذتها من الطاقم، وضعتها في يد الجدة. في تلك اللحظة، عاد إيماني إلي، وبكيت. عادت دو ليلي واخرجت بيضة من جيب معطفها، وضعت البيضة المخللة في اليد الأخرى للجدة وقالت: هذه هي المفضلة لديك، في حال جعت وأنت في طريقك إلى هناك.

وتذكرت: بيض البط! أتذكر كوان وهي تقول: لقد صنعت الكثير منها. وربما أن بعضها تبقى إلى الآن.

- وضعت يدي على معدتي واستدرت إلى سيمون قائلة: يجب أن أذهب،وتظاهرت بالمرض.

- هل تريدين أن آتي معك؟

- هززت رأسي رافضة ثم تقدمت من دو ليلي وقلت: معدة ضعيفة.

ردت دو ليلي بنظرة عارفة لآلام النساء.

ما إن ابتعدت عنهم، حتى ركضت بأقصى طاقتي، لم أرد إخضاع توقعاتي للشك أبداً، لقد أحطت نفسي بالأمل هذه المرة، كنت مبتهجة، ومؤمنة بأنني لن أعثر إلا على ما أؤمن به.

لم أتوقف إلا حين وصلت إلى بيت الجدة، تناولت من هناك مجرفة صدئة. ثم هرعت إلى القاعة العامة للقرية. هناك، دخلت من البوابة بحذر،

أخذت أبحث عن إشارة مألوفة. وهناك عند المجمع الصغير في قلب الساحةن كان الإشارة في أسفل الجدار، الحجارة المعلمة بلون أسود، كنت متأكدة أنها بقايا بيت التاجر الشبح، وأن القاعة حلت مكانه بعد كل هذه السنين. دخلت القاعة الفارغة وأنا سعيدة لأن الناس ذهبوا إلى الوادي يبحثون في الآثار السخيفة التي عمرها ثلاثة آلاف عام. في الخلف، لم تكن هنالك حديقة. ولا ممرات مستديرة أو كوخ صغير على تل. كما كان في بيت التاجر الشبح. لقد تم تغيير كل شيء ليصير هذه الساحة، ولكن وكما توقعت، الحجارة التي كانت تشكل سور البيت فيما مضى موجودة، بسوادها وتصدعاتها. ذهبت للجهة الشمالية من الساحة وأخذت أحسب: عشر جرار، بعشر خطوات للأمام. بدأت أحفر في الطين مستخدمة المجرفة، كنت أضحك مثل مجنونة، لابد أنه لو رآني أي أحد، لظنني مجنونة مثل كوان.

حفرت لخمس أقدام بالطول، وقدمين بالعرض. مساحة تكفي لدفن جثة. في النهاية، اصطدمت المجرفة بشيء قاس، لم يكن حجراً، ولا معدناً، تركت المجرفة وأخذت أزيح التراب بيدي العاريتين، وها هي، قطعة الصلصال تظهر، بنية ولامعة مثل جزء من كتف إنسان، ففقدت صبري، وكسرت طرف الجرة بالمجرفة. ها هو بيض البط المحفوظ من حياتنا السابقة، حتى هذه الحياة. رمادي القشرة، أخرجت البيضة تلو الأخرى، حملتها وضممتها إلى صدري. ها هو حطام ماضي الرمادي بين يدي، لم آبه بخرابه، لقد تذوقت نكهة ما تبقى منه في ماضيَ ذات مرة. لقد تناولتها من قبل.

الفصل الأخير
أغاني أبدية

عاد جورج وفيرجي من شهر العسل الذي قضياه معاً في تشانجميان، وقالا أني لو عدت إلى هناك لن أعرف القرية

- قال جورج: لقد تغير كل شيء، وصارت منطقة سياحية، كل القرية صارت غنية الآن. وتبيع ألعاباً على شكل أسماك ومخلوقات بحرية تلمع في الليل. وهذا لأنهم عرفوا سبب لمعان البحيرة، يعود هذا لنوع قديم من الأسماك والنباتات التي تعيش هناك، لكنها توقفت عن اللمعان لكثرة ما زارها السكان وألقوا فيها العملات المعدنية ليتمنوا أمنية ما كي تتحقق. سبب هذا تسمم النباتات وموت الأسماك التي طفت على بطونها على وجه البحيرة، ولذا، قام كبار القرية بزرع إضاءات في قاعها، صفراء وخضراء، لكي تظل تلمع، إنها جميلة، لقد رأيتها بنفسي، كان عرضاً جيداً.

فكرت في أن جورج وفيرجي ذهبا لتشانجميان كاعتذار لكوان، ليتزوجا هناك، كما أنه توجب على جورج إعلان وفاة كوان رسمياً. لم تزل مشاعري مختلطة بخصوص موتها، وبخصوص زواج جورج. أعتقد أن زواجه من فيرجي كان نية كوان في الأخير، في مرحلة ما، أظنها عرفت أنها

لن تعود لبيتها ولا لزوجها. لم ترد كوان أن تترك جورج بدون أن تحضر له الطعام، كانت تفعل ذلك دوماً في كل مرة تتركه فيها، والآن، أتخيلها وهي تضحك بعد زواجه من فيرجي وتقول: لقد أردت أن تتزوجها، ولكنها، طباخة سيئة.

بالكاد مرت سنتان، لم أزل أفكر بكوان، لماذا أتت إلى حياتي؟ ولماذا اختفت منها؟ ولماذا قالت أن هنالك قدراً ينتظر لكي يحدث؟ ماذا عنت بذلك. سنتان تكفيان، لأرتب ذكرياتي معها، ولأربط بين ما كان، وما حدث في النهاية. أظن أن الأمور بخير الآن. لأنني أؤمن الآن أن الحقيقة لا تكمن في المنطق، ولكنها تكمن في الأمل. وسواء في الماضي أو المستقبل، فإن الأمل يفاجئك دوماً.

يستطيع الأمل قهر كل ما يعترضه، كل أنواع الشكوك، ويستطيع مقاومة كل محاولة أو شك يطلب دليلاً ليقودنا إلى الحقيقة.

يمكن لي الإيمان بهذا بعد أن حظيت بطفلة صارت في شهرها الرابع عشر الآن. بالطبع، ومثل كل النساء، ذهلت حين ذهبت للطبيب وأخبرني أنني حامل في شهري الثالث. سوف أضع الطفل بعد تسعة أشهر من ممارستي الحب على سرير الزوجية الذي نمنا فوقه في تشانجميان؟ تسعة أشهر بعد اختفاء كوان. لم أهتم لمن ظنوا أنني حملت بسبب علاقة عابرة تمت ذات ليلة دون أن أخذ أي وسيلة احتياطية. لقد كنت أنا وسيمون نعرف. هذه هي طفلتنا بالتأكيد، وهنالك سبب عميق لذلك. وذلك لأننا عدنا وزرنا أخصائي الأمراض التناسلية، قمنا بمزيد من الفحوص. قال الطبيب: حسناً، وماذا تعرفون؟ أن الفحوص الأولى قالت بأن سيمون عقيم. كان ذلك خطئاً مخبرياً. وتم تبديل نتائج الفحص عن طريق الخطأ. ليس العقم هو السبب الوحيد لعدم الإنجاب أصلاً.

- سألت الطبيب: إذاً لماذا لم أحمل خلال كل تلك الفترة الماضية؟

- رد الطبيب: ربما كان يجب أن تحاولي بجهد وصدق أكبر، انظري كم من النساء يحملن بمجرد أن يأملن بذلك ويصيبهن الشك في أنهن حوامل!

في النهاية، أظن أن كل ما أعرفه، هو ما أؤمن به. هذه الطفلة هي هدية كوان لي. طفلة ببثور خفيفة على خديها المكتنزين، ولا، لم أسمها كوان، ولا نيلي، لست من النوع العاطفي ذاك. لقد أسميتها سمانثا. وأناديها بسامي، أو سامنثا لي. لقد أخذت أنا وهي اسم كوان الأخير: لي. لم لا، لماذا هي أسماء العائلات إذن؟، لقد وجدت لتربط شخصاً ما من المستقبل، بآخر في الماضي. تناديني سامي: ماما. أما لعبتها الفضلة فهي الصندوق الموسيقي الذي تركته لي كوان، وتسميه: با. أما سيمون، فتناديه: دا، اختصاراً لدادي. ورغم أن سيمون لا يمضي معنا كل الوقت، إلا أننا لمنزل نعمل على ترتيب وقتنا معاً، ولا نفكر إلا فيما هو مهم ويعني لنا الكثير. حاولنا تعلم أن نظل معاً دون خلافات، وألا نمضي ثماني ساعات نتنازع حول أي محطة راديو يجب أن نستمع دون أن نتفق. كان يأتي يوم الجمعة ويظل معنا لباقي عطلة الأسبوع. كنا نتكوم في السرير، أنا وسيمون وسامي وكلبنا بوبا. نتعود على أن نكون عائلة سعيدة، وأن نكون ممتنين لكوننا معاً. بعض النقاشات والنزاعات الصغيرة لم تزل تحدث بيننا من حين لآخر. لكن صار من السهل اعتبارها أشياء غير ذات قيمة. لأنها تضيق القلب وتجعل الحياة تبدو حقيرة.

أظن أن كوان تعمدت أن تريني بأن العالم ليس مكاناً، وأنه المساحة الشاسعة للروح. والروح، لا تساوي شيئاً دون الحب، لتكون بلا حدود، وتكون أبدية. كل هذا يدفعنا لنعرف الحقيقة، لقد اعتقدت ذات مرة أن الحب ليس شيئاً سوى السعادة، أعرف الآن أنه ينبثق أيضاً من القلق

والحزن. من الأمل والثقة. وأؤمن بالأشباح! الأشباح التي أحبت، وآمنت بأن الحب لا يموت أبداً. حين يموت الذين نحبهم، فإننا نفقد إحساسنا بهم حين نستخدم حواسنا المعتادة. لكن، لو بحثنا عنهم في ذاكرتنا، فسوف نعثر عليهم متى شئنا، هذه حواسنا السرية المئة: الذاكرة، ربما لا وجود للإنسان خارج الذاكرة. ما زلت أستطيع سماع كوان وهي تهمس: ليبي، هذا هو السر، عديني ألا تخبري أحداً؟

أسمع صوت طفلتي تناديني، تحبو وتضع يدها قرب الموقد، تحاول التقاط شيء، وتصر على التقاطه، مع أنني لا أراه!

أناديها: ماذا هناك يا سامي؟ ماذا ترين؟

وتتسارع نبضات قلبي، كأن هذه هي كوان.

با. تنادي سامي وهي تحاول الوصول بيدها لأعلى ما تستطيع، الآن عرفت ما تراه، وما تريده. تقدمت إلى رف الموقد وأخذت صندوق الموسيقى من فوقه، شغلته باستخدام مفتاحه. حملت الطفلة في حضني. ورقصت معها على اللحن، إنه الفرح، الفرح الخالص، الذي قطرناه من الألم.



THE HUNDRED SECRET SENSES

روايات



مئة حاسّة سريّة

العالم ليس مكانًا، بل هو المساحة الشاسعة للروح، والروح لا تساوي شيئًا دون الحبّ الّذي هو وحده الأبديّ، وحده اللامحدود، وهذا هو فقط ما يجعلنا نقترب من الحقيقة.
عن (مئة حاسّة سريّة) / **نيويورك تايمز**

لا يمكن أن تكتمل هذه الرواية دون أن تغمض عينيك، فهي تبحث مع الأشباح ومع الأحلام عن الحقيقة، وعن الإنسان الّذي طمسته الحرب؛ طمست اسمه ومكانه وأغانيه. لكنّ كلّ شيء يظلّ حيًا إن كان له مكان في الذاكرة. لا وجود للإنسان خارج الذاكرة حين يكون العالم متوحّشًا ومتحفزًا للحرب. لطالما تذكّر العالم الوحش ونسي الإنسان.
المترجم


ISBN 978-9957-39-154-6



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2017
الغلاف: محمد سيف ® ☎ 95297109 7 00962